



This is a digital copy of a book that was preserved for generations on library shelves before it was carefully scanned by Google as part of a project to make the world's books discoverable online.

It has survived long enough for the copyright to expire and the book to enter the public domain. A public domain book is one that was never subject to copyright or whose legal copyright term has expired. Whether a book is in the public domain may vary country to country. Public domain books are our gateways to the past, representing a wealth of history, culture and knowledge that's often difficult to discover.

Marks, notations and other marginalia present in the original volume will appear in this file - a reminder of this book's long journey from the publisher to a library and finally to you.

Usage guidelines

Google is proud to partner with libraries to digitize public domain materials and make them widely accessible. Public domain books belong to the public and we are merely their custodians. Nevertheless, this work is expensive, so in order to keep providing this resource, we have taken steps to prevent abuse by commercial parties, including placing technical restrictions on automated querying.

We also ask that you:

- + *Make non-commercial use of the files* We designed Google Book Search for use by individuals, and we request that you use these files for personal, non-commercial purposes.
- + *Refrain from automated querying* Do not send automated queries of any sort to Google's system: If you are conducting research on machine translation, optical character recognition or other areas where access to a large amount of text is helpful, please contact us. We encourage the use of public domain materials for these purposes and may be able to help.
- + *Maintain attribution* The Google "watermark" you see on each file is essential for informing people about this project and helping them find additional materials through Google Book Search. Please do not remove it.
- + *Keep it legal* Whatever your use, remember that you are responsible for ensuring that what you are doing is legal. Do not assume that just because we believe a book is in the public domain for users in the United States, that the work is also in the public domain for users in other countries. Whether a book is still in copyright varies from country to country, and we can't offer guidance on whether any specific use of any specific book is allowed. Please do not assume that a book's appearance in Google Book Search means it can be used in any manner anywhere in the world. Copyright infringement liability can be quite severe.

About Google Book Search

Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Book Search helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at <http://books.google.com/>



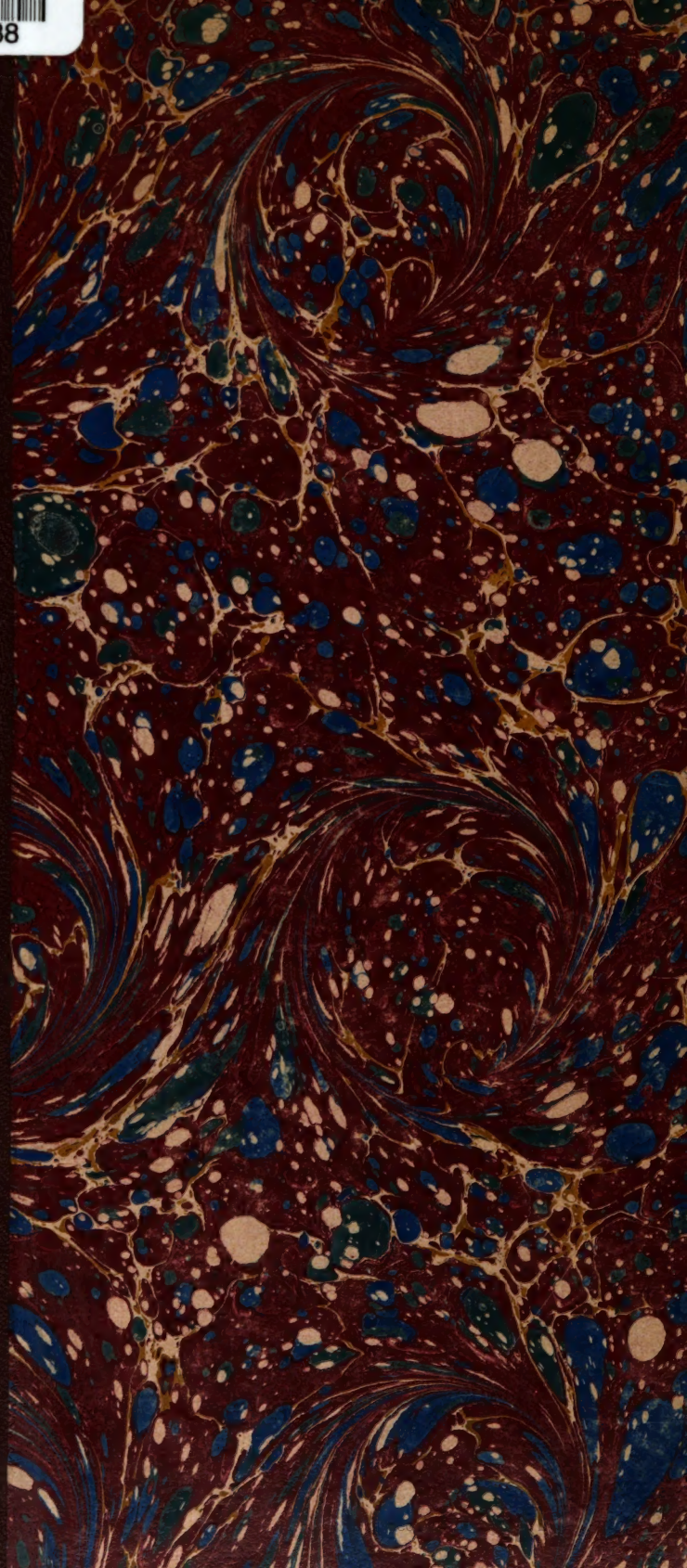
32101 077780938

2271

.321

.311

RECAP



Library of



Princeton University.

Library of



Princeton University.

اعلان

﴿ كتاب الاخبار السنية في الحروب الصليبية ﴾

بمؤن الله قد تم طبع هذا الكتاب وهو أول كتاب أنشئ في اللغة العربية جامعاً لثلاث النماة حروب صليبية من سنة ٤٩٠ هـ أي من دخول الصليبيين سوريا واستيلاءهم على بلاد الشام لغاية سنة ٦٩٠ هـ أي لغاية انقراض الصليبيين من سوريا وتوضيح أسباب الحروب ونتائجها وتحريضات البابوات وتاريخ ملوك الاسلام وحروبهم مع الصليبيين مثل السلطان صلاح الدين الايوبي ومحاربه الملك الانكليز ريكاردوس الملقب بقلب الاسد والملك العادل وابنه الكامل والصلاح نجم الدين ايوب وأسر لويس التاسع ملك فرنسا والسلطان الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وهو كبير الحجم يحتوي على ٣٠٠ صحيفة ونمته كما يأتي بخلاف أجرة البريد وهي قرشين صاغ

١٥ صاغ مغلف تغليفاً حسناً

٢٠ ١٧ « مجلد تجليد بيروتي جميلاً

١٩ « مجلد تجليد أفرنكي مذهب

فن أراد الحصول عليه فليرسل قيمته لنا بمنزلة نمرة ٧ بمطبعة المطبعة بقنطرة الأمير حسين بمصر أو بمنزلة سعادتلو أقدم عبد السلام باشا المويلحي أو بمخبر المعلم حسن شداد بشارع محمد علي ٠ وبيع أيضاً بالخلات الآتية

بالمطبعة العمومية الكائنة بشارع عبد العزيز بمصر

بمكتبة الترقى « « « « «

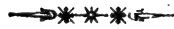
بدار البقالة المصرية بالعباسية

بمكان عبد السلام أفندي الصبي البنان بالسكة الجديدة

بمكان الاوسطى حسانين علي الشريف الترزي بالحمزاوي كاتبه

سيد علي الحريري

- ٢٧٠ سفر كارلوس صاحب سيسيليا الى تونس وحصول الصلح وانتهاء الحروب الصليبية الثامنة
- ٢٧١ بقية الحروب الصليبية
- ٢٧١ باقي فتوحات الظاهر بيبرس
- ٢٧٢ وفاة الملك الظاهر بيبرس
- ٢٧٣ آثار الملك الظاهر بيبرس
- ٢٧٤ سلطنة الملك السعيد بركة خان
- ٢٧٥ سفر الملك السعيد والاغارة على ارمينية
- ٢٧٥ خلع الملك السعيد بركة خان
- ٢٧٥ سلطنة الملك العادل سلامش وخلعه
- ٢٧٦ سلطنة الملك المنصور قلاوون الالفي
- ٢٧٦ محاربة التتر
- ٢٧٧ فتح حصن المرقب من الصليبيين وغيره
- ٢٧٨ ثورة المماليك وقتل الرعية
- ٢٧٨ فتح طرابلس من الصليبيين
- ٢٧٨ وفاة الملك المنصور قلاوون وآثاره
- ٢٧٩ سلطنة الملك الاشرف
- ٢٧٩ في فتح عكا واتقراض الصليبيين



- ٢٤٩ وصول الصليبيين الى دمياط ومخبرتهم للملك الصالح أيوب
- ٢٥٠ في امتلاك الصليبيين دمياط
- ٢٥١ استيلاء الملك الصالح على الكرك ووفاته
- ٢٥٢ محاربات الصليبيين وواقعة المنصورة
- ٢٥٣ قدوم المعظم تورانشاه وسلطته وواقعة الصليبيين وأسر لويس التاسع وغيره
- ٢٥٣ قتل المعظم وسلطنة شجرة الدر واطلاق الملك لويس التاسع
- ٢٥٥ الملك لويس بمكا وسلطنة إيبك الجاشنكير
- ٢٥٥ سفر أخوات الملك لويس الى فرنسا وسلطنة الملك الأشرف بن يوسف
- ٢٥٦ حروب بين المماليك والسوريين واتحادهم مع الملك لويس وتخريب دمياط
- ٢٥٧ طلب الملك لويس التاسع النجدة من أوروبا ووقاة الأشرف بن يوسف
- ٢٥٨ انتهاء الحروب الصليبية السابعة
- ٢٥٨ وفاة إيبك الجاشنكير وسلطنة ولده نور الدين
- ٢٥٩ استيلاء النثر على بغداد وانقراض الدولة العباسية
- ٢٦٠ سلطنة المظفر سيف الدين قطوز وانتصار المصريين على التتر
- ٢٦١ قتل الملك المظفر وسلطنة الظاهر بيبرس البندقداري
- ٢٦٣ انتقال الخلافة العباسية الى الديار المصرية
- ٢٦٤ فتوحات الملك الظاهر بيبرس ووفاة المستنصر وخلافة الحاكم بأمر الله
- ٢٦٥ محاربات الظاهر بيبرس مع الصليبيين بسوريا
- ٢٦٥ اصلاحات الملك الظاهر بيبرس
- ٢٦٦ فتوحات الظاهر بيبرس ببلاد الصليبيين بسوريا
- ٢٦٧ حجج الملك الظاهر بيبرس
- ٢٦٧ الحروب الصليبية الثامنة
- ٢٦٧ في التحريض على الحروب الصليبية الثامنة
- ٢٦٨ تجهيز العساكر الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا
- ٢٦٩ سفر العساكر الصليبية الثامنة
- ٢٦٩ وصول الصليبيين الى تونس ومحاصرتها
- ٢٧٠ محاربات الصليبيين ووفاة الملك لويس التاسع

- ٢٢٨ مناوشاة الصليبيين والملك العادل
- ٢٢٩ موت الملك اموري صاحب عكا وتعيين خلفه والتحريض على الحروب الصليبية السادسة
- ٢٢٩ ابتداء الحروب الصليبية السادسة
- ٢٢٩ التحريض على الحروب الصليبية السادسة والصليبيون الفتيان ومؤتمر رومية
- ٢٣٠ سفر العساكر الصليبية السادسة
- ٢٣١ محاربة الصليبيين مع الملك العادل وسفرهم الى مصر وسفر ملك هونكريا وقدم صليبيين آخرين
- ٢٣٢ محاصرة الصليبيين لمدينة دمياط
- ٢٣٣ وفاة الملك العادل
- ٢٣٣ محاربة الصليبيين بارض دمياط ودخولهم حتى اشمون طنناح واخذ ثورة المسلمين
- ٢٣٥ قدوم نجدة للصليبيين بقيادة بيلاجيوس وهدم سور البيت المقدس
- ٢٣٥ تشديد الحصار على دمياط واستيلاء الصليبيين عليها
- ٢٣٧ في شقاق الصليبيين وبناء مدينة المنصورة
- ٢٣٧ ما جرى للصليبيين بعد ذلك واستيلاء المسلمين على دمياط
- ٢٣٩ ما جرى للملك فريديريكوس الثاني باوروبا واستيلائه على القدس صلحاً
- ٢٤١ ذكر خلفاء المسلمين
- ٢٤١ مؤتمر مدينة سبولاته
- ٢٤٢ باقى سلطنة الكامل ووفاته وسلطنة ولده العادل
- ٢٤٣ في سجن الملك الصالح نجم الدين أيوب
- ٢٤٣ استيلاء المسلمين على القدس وما جرى للبابا وفريديريكوس
- ٢٤٤ سلطنة الصالح نجم الدين أيوب على مصر وخلافة المستعصم
- ٢٤٥ محاربة الصليبيين بغزة ورجوعهم الى بلادهم
- ٢٤٥ محاربة الملك الصالح نجم الدين أيوب وسجن بيبرس
- ٢٤٧ التتر باوروبا ومؤتمر ليون بفرانسا
- ٢٤٨ ابتداء الحروب الصليبية السابعة
- ٢٤٨ سفر العساكر الصليبية السابعة

- ٢٠٨ استيلاء السلطان على يافا ومحاربة ريكاردوس
- ٢٠٩ في مرض ريكاردوس والهدنة بينه وبين السلطان
- ٢١٠ انتهاء الحروب الصليبية الثالثة
- ٢١١ سفر ريكاردوس ووقوعه في الاسر ببلاد النمسا
- ٢١٢ في التفتيش على ريكاردوس ووجوده في السجن ونقله الى سجن آخر
- ٢١٢ محاكمة ريكاردوس ظلما واطلاقه من الاسر
- ٢١٣ سفر السلطان الى دمشق بعد الهدنة وعزمه على الحج
- ٢١٤ مرض السلطان صلاح الدين ووفاته
- ٢١٥ تقسيم مملكة صلاح الدين على اولاده وما جرى في اثناء الهدنة
- ٢١٧ استيلاء الملك العادل على دمشق
- ٢١٧ ابتداء الحروب الصليبية الرابعة
- ٢١٧ تخريض البابا وسفر العساكر الصليبية الرابعة
- ٢١٨ وصول الصليبيين الى عكا واستيلاء المسلمين على يافا واخذ الصليبيين
بيروت
- ٢١٩ مسير القسم الثالث من الحيوش الصليبية الرابعة
- ٢٢٠ حصار حصن تبين وقدم العزيز اليه ورجوع الصليبيين على اعقابهم
- ٢٢١ وفاة الملك هنري كوس السادس وتعيين الملك اموري على فلسطين وانتهاء
الحروب الصليبية الرابعة
- ٢٢١ وفاة العزيز صاحب مصر وتولية ابنه المنصور وما جرى للافضل
- ٢٢٣ خلع الملك المنصور وسلطنة الملك العادل على مصر وسوريا
- ٢٢٣ الحروب الصليبية الخامسة
- ٢٢٣ تخريض البابا اينوشانسوس الثالث على الحروب الصليبية
- ٢٢٤ سفر العساكر الصليبية الخامسة واتحادهم مع مشيخة البنددية
- ٢٢٥ محاربة الصليبيين مدينة زارا والقسطنطينية وغيرها
- ٢٢٧ ثورة القسطنطينية وامتلاك الصليبيين لها
- ٢٢٨ تنويع بودوين على القسطنطينية وما جرى للصليبيين بها وانتهاء الحروب
الصليبية الخامسة

- ١٧٢ الهدنة ورجوع السلطان عن انطاكية وفتح انكره وصفد وكوكب
- ١٧٣ في بناء استحکامات عكا وحصار شقيف ارتون
- ١٧٤ مناوشات بين الصليبيين وعساكر المسلمين
- ١٧٦ محاصرة الصليبيين عكا ومحاربتهم ومصارعة الضياع
- ١٧٩ ورود المدد للصليبيين وواقعة عكا الكبرى
- ١٨٢ وصول العساكر انصرية والاسطول المصري وهجوم الصليبيين على اليزك
- ١٨٢ احراق ابراج الصليبيين وواقعة الاسطول
- ١٨٤ الحروب الصليبية الثالثة
- ١٨٤ سفر ملك النمسا والمانيا الى فلسطين وما جرى له ووفاته
- ١٨٦ الواقعة المعادية على عكا بين الصليبيين والمسلمين
- ١٨٧ حصار عكا من البحر ودخول الزاد اليها قهراً
- ١٨٩ احراق منجنيقات الصليبيين ومراكبهم واداء الامانة بعد الموت
- ١٩٠ واقعات الدبابات والخذق وانكسارهم
- ١٩١ في دخول البدل العسكري عكا
- ١٩٢ سفر العساكر الصليبية الثالثة في البحر وما جرى لملك الانكليز بسيسيليا وقبرص وزواجه
- ١٩٣ وصول الصليبيين الى عكا ومحاصرتهم لها وقتل بعض امراءهم
- ١٩٥ طلب الصلح ودخول الصليبيين عكا
- ١٩٨ رمى علم النمسا في الخندق وسفر ملك فرانس الى بلاده
- ١٩٨ سفر ريكاردوس من عكا وواقعة ارسوف وتخريب عسقلان
- ٢٠١ في وقوع ريكاردوس في الاسر ونجاته وعرض زواج اخته جوانا بالملك العادل
- ٢٠٢ مراسلة ريكاردوس لصلاح الدين بالصلح وما جرى بهد ذلك وتعمير بيت المقدس
- ٢٠٣ بناء الصليبيين مدينة عسقلان وما جرى في انشاء ذلك وغضب بعضهم
- ٢٠٤ في عزيم ريكاردوس على السفر الى بلاده وموت كوزاد صاحب صور وغيره
- ٢٠٥ في تقرب الصليبيين الى القدس ورجوعهم عنه بقرار مجلس مشورتهم وما فعله السلطان

صفحة	
١٤٣	مرض السلطان وصلحه مع عز الدين صاحب الموصل
١٤٣	وفاة بودوين الخامس وولاية غوي دي لوزينانا
١٤٤	حساب المنجمين بخراب الكون
١٤٥	اختلاف الصليبيين وانحياز رايونند الى السلطان صلاح الدين
١٤٥	غدر رانود صاحب الكرك بالهدنة
١٤٥	واقعة صفورية وحصار الكرك
١٤٦	فتح طبرية وبجلس مشورة الصليبيين
١٤٧	واقعة حطين وأخذ المسلمين صليب الصلبوت
١٤٩	أخذ قلعة طبرية
١٤٩	فتح عكا وغيرها من الحصون
١٥٠	فتح تبين وصيدا وجيل وبيروت
١٥١	فتح عسقلان وما يجاورها من البلاد والحصون
١٥٢	فتح البيت المقدس شرفه الله
١٥٦	أظهار محراب المسجد الأقصى والصخرة المقدسة ومحراب داود
١٥٧	أول خطبة بالمسجد الأقصى بعد فتحه
١٦١	حصار مدينة صور وفتح هونين
١٦٣	في التحريض على طلب الحروب الصليبية الثالثة
١٦٤	صلح فرانسا وانكلترا وتحريضهم على الحروب الصليبية
١٦٥	ضريبة العشور للحروب الصليبية الثالثة
١٦٥	موت ملك الانكليز وتولية ولده ريكاردوس وذبح اليهود
١٦٦	التحريض على الحروب الصليبية ببلاد النمسا
١٦٧	في اتحاد فرانسا وانكلترا للمسير الى سوريا
١٦٧	حصار حصن كوكب وفتح بعض البلاد
١٦٨	فتح جبلة واللاذقية وغيرها وخبر اسطول صقلية
١٦٩	فتح حصن صهيون وغيره من الحصون
١٧٠	فتح بكاس والشفر والسرمانية وبرزية
١٧١	فتح حصن دربساك وحصن بفراس

- ١٢٠ غزم صلاح الدين على المسير الى بلاد سوريا
- ١٢١ حكم قراقوش وبناء القلعة والصور وغيرهم
- ١٢٣ مسير الملك الناصر صلاح الدين الى سوريا واستيلاءه على دمشق وغيرها
- ١٢٦ في استقلال صلاح الدين بالملك وسلطته
- ١٢٧ حرب السلطان مع المواسلة وهدنة الصليبيين
- ١٢٨ ماجرى للسلطان مع الحشيشيين
- ١٢٩ استيلاء تورانشاه على حضرموت واستيلاء قراقوش على بعض بلاد العرب
- ١٣٠ حصار حلب وحرب الاسماعيلية
- ١٣١ تقوية اسطول مصر وبعض فتوحات
- ١٣١ حرب السلطان مع الصليبيين وواقعة الرملة
- ١٣٢ محاربة الصليبيين حماه وحارم ورجوعهم الى بلادهم
- ١٣٣ مسير السلطان صلاح الدين الى سوريا ومحاربة الصليبيين
- ١٣٣ محاربة الصليبيين بمرج عيون وانتصار الاسطول المصري
- ١٣٤ تخريب حصن نيت الاحزان
- ١٣٥ محاربة الاسطول المصري ميناء عكا
- ١٣٦ وفاة المستضيء بامر الله وخلافة الناصر لدين الله
- ١٣٦ محاربة السلطان بلاد الارمن
- ١٣٧ وفاة شمس الدولة وورود التشريف للسلطان ورجوعه الى مصر
- ١٣٨ محاربة عز الدين فرخشاه رانود صاحب الكرك
- ١٣٨ وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين
- ١٣٩ في سفر السلطان صلاح الدين الى الشام ومحاربة الصليبيين
- ١٣٠ محاصرة بيروت برأً ومجرأً ومسير السلطان الى الموصل
- ١٤٠ الصليبيون في البحر الاحمر او بحر القلزم وهلاكهم
- ١٤١ استيلاء السلطان على حلب
- ١٤١ في تنازل بودوين الرابع وولاية بودوين الخامس
- ١٤٢ مناوشات الصليبيين مع العساكر الاسلامية
- ١٤٢ محاصرة الكرك ودخول السلطان بلاد الصليبيين

- ٩٢ استيلاء الصليبين على بليس
- ٩٢ محاربة الصليبين مدينة القاهرة
- ٩٣ دخول أسد الدين شيركوه مصر ثالث مرة
- ٩٤ قتل شاور ووزارة أسد الدين شيركوه
- ٩٦ حكم الملك المنصور أسد الدين شيركوه ووفاته
- ٩٧ وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف
- ٩٩ قتل جوهر مؤتمن الخلافة وواقعة العيد
- ١٠١ محاصرة الصليبين نغردمياط
- ١٠٣ مسير نجم الدين أيوب وباقي عائلته الى مصر
- ١٠٤ محاربة نور الدين حصن الكرك والزلزلة الكبرى
- ١٠٤ محاربة صلاح الدين بلاد الصليبين
- ١٠٥ وفاة الخليفة المستنجد بالله وخلافة المستضيء بأمر الله
- ١٠٥ وفاة الخليفة العاضد لدين الله بمصر والخطبة فيها لبني العباس
- ١٠٨ محاربة نور الدين الصليبين بناحية حصن صرقة وغيره
- ١٠٨ يريد الحمام
- ١٠٩ التفور بين صلاح الدين ونور الدين
- ١١٠ محاربة نور الدين وصلاح الدين الصليبين
- ١١١ فتح بلاد التوبة
- ١١٢ وفاة نجم الدين أيوب وبعض سيرته
- ١١٤ استيلاء بهاء الدين قراقوش على طرابلس الغرب وغيرها
- ١١٥ استيلاء شمس الدولة تورانشاه على بلاد اليمن
- ١١٥ ظهور المؤامرة وطلب اعضائها
- ١١٦ وفاة الملك العادل محمود آتابك نور الدين
- ١١٨ حصار الصليبين حصن بانياس وعودهم عنه
- ١١٨ وفاة الملك أموري وتولية ابنه الملك الابرس
- ١١٩ ورود اسطول جزيرة صقلية ومحاصرة الاسكندرية
- ١٢٠ واقعة الكنز وقله

صفحة	
٦٩	استيلاء نور الدين على حصن العزيمة
٧٠	انهزام الافرنج بيغري
٧٠	قتل رايغوند صاحب انطاكية
٧١	وفاة الحافظ لدين الله خليفة مصر وولاية الظافر بأمر الله
٧١	أسر جوسلين
٧٢	قتل ابن السلار وزير الخليفة الظافر ووزارة عباس
٧٣	امتلاك الصليبيين مدينة عسقلان
٧٤	استيلاء نور الدين على مدينة دمشق
٧٥	قتل الخليفة الظافر وولاية ابنه الفائز
٧٦	محاصرة نور الدين حصن حارم
٧٧	انتصار العساكر النورية على الافرنج
٧٨	محاربة المصريين غزة وعسقلان
٧٩	وفاة الخليفة الفائز بنصر الله وولاية العاضد لدين الله العلوي
٧٩	وفاة الخليفة المقتني لأمر الله العباسي وخلافة المستنجد بالله
٨٠	تاريخ جامع سيدنا الحسين رضي الله عنه
٨١	قتل الصالح بن رزيك وزير مصر
٨٢	وفاة بودوين الثالث وولاية أخيه أموري
٨٢	وزارة شاور ووزارة ضرغام بعده
٨٣	في دخول أسد الدين شيركوه مصر أول مرة
٨٥	فتح حارم
٨٦	فتح بانياس
٨٧	في دخول أسد الدين شيركوه مصر المرة الثانية
٨٨	محاربة أسد الدين شيركوه المصريين والصليبيين
٨٩	استيلاء أسد الدين على الاسكندرية ومحاربة المصريين والصليبيين
٩٠	في رجوع أسد الدين والصليبيين من مصر
٩١	في محاربة نور الدين بلاد الافرنج
٩١	في تجهيز الملك أموري عسكره للاستيلاء على الديار المصرية

- ٥٠ في تملك فولك دي النيو على القدس
- ٥١ وفاة السلطان محمود
- ٥١ استيلاء شمس الملوك على بانياس
- ٥١ محاربة فولك ملك القدس نائب حلب
- ٥٢ استيلاء شمس الملوك على حصن شقيف تيرون ونهبه بلاد الافرنج
- ٥٢ قتل الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله
- ٥٣ غزو العساكر الاتابكيه بلاد الافرنج
- ٥٣ خلع الخليفة الراشد بالله وخلافة المقتفي لامر الله
- ٥٤ استيلاء المسلمين على حصن وادي بن الاحمر
- ٥٤ استيلاء زنكي على قلعة بعمرين
- ٥٥ في مسير ملك الروم يوحنا كومنينوس الى بلاد الشام
- ٥٧ محاصرة زنكي دمشق واستيلاء الافرنج على بانياس
- ٥٨ وفاة فولك ملك القدس وتولية ولده بودوين الثالث
- ٥٨ فتح زنكي مدينة الرها والبلاد الجزرية
- ٥٩ قتل اتابك عماد الدين زنكي وتولية أولاده
- ٦٠ عصيان أهل الرها واستيلاء نور الدين عليها
- ٦١ ابتداء الحروب الصليبية الثانية
- ٤ طلب الصليبيين النجدة من البابا ومن ملوك أوروبا
- ٦١ جمعية فينزالاي بفرانسا
- ٦٣ تحريض الملك كوزراد ملك المانيا باتحاده مع الصليبيين
- ٦٣ جمعية مدينة اناطيس بفرانسا والاستعداد لسفر الصليبيين
- ٦٤ سفر الصليبيين واجتماعهم بالقسطنطينية
- ٦٤ أخبار الصليبيين في القسطنطينية
- ٦٥ مسير العساكر النمساوية والالمانية
- ٦٦ سفر العساكر الفرنساوية
- ٦٧ المشورة بالحروب الصليبية الثانية
- ٦٨ محاصرة الصليبيين مدينة دمشق

- ٣١ بوهيموند أمير انطاكية وما جرى له
- ٣٢ استيلاء الافرنج على عكا
- ٣٣ محاصرة مدينة طرابلس
- ٣٤ باقي ولاية بودوين الاول على القدس
- ٣٥ جمعيات الرهبان الصليبيين
- ٣٦ في ولاية بودوين الثاني
- ٣٦ وفاة الامام المستظهر بالله العباسي وخلافة ولده المسترشد بالله
- ٣٧ واقعة ايلغازي مع الصليبيين بمحدود انطاكية
- ٣٨ قتل الافضل بن بدر الجمالي وزير مصر
- ٣٩ محاربة بلك بن بهرام مع جوسلين أمير الرها وأسره
- ٣٩ محاربة بلك مع بغدوين ملك القدس وأسره
- ٤٠ ورود اهل البندقية للاشتراك مع الصليبيين
- ٤٠ استيلاء الصليبيين على مدينة صور
- ٤١ محاصرة الصليبيين لمدينة حلب واستيلاء البرسقي عليها
- ٤٢ في خلوص بودوين الثاني ملك القدس من الاسر
- ٤٢ استيلاء البرسقي على كفر طاب
- ٤٣ قتل المأمون بن البطايعي وزير خليفة مصر الآمر
- ٤٣ أخبار الاسماعيليين وامتلاكهم قلعة بانياس
- ٤٤ محاربة طغتكين آتابك مع بودوين الثاني
- ٤٤ في الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله العباسي والسلطان محمود
- ٤٦ وفاة عز الدين البرسقي وولاية عماد الدين زنكي الموصل ومحاصرة الصليبيين حلب
- ٤٧ قتل الاسماعيلية بدمشق واتحادهم بالافرنج
- ٤٨ محاصرة الصليبيين دمشق وانهزامهم
- ٤٨ فتح عماد الدين زنكي حصن الانارب ومحاصرة قلعة حارم
- ٤٠ وفاة الآمر بأحكام الله وخلافة الحافظ لدين الله بمصر
- ٥٠ وفاة جوسلين صاحب الرها
- ٥٠ وفاة بودوين الثاني ملك القدس

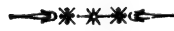
﴿ فهرست ﴾

﴿ كتاب الاخبار السنية في الحروب الصليبية ﴾

صفحة	
٢	المقدمة
٤	أسباب الحروب الصليبية
٥	مؤتمر مدينة بلاصانس بإيطاليا
٥	مؤتمر مدينة كليرمون بفرانسا
٨	الحروب الصليبية الاولى
٩	دخول الصليبيين آسيا وهلاك هذه الجيوش في نيقية
٩	الحملة الثانية من الحروب الصليبية الاولى
١٠	ما جرى للصليبيين في القسطنطينية
١٢	الصليبيون في آسيا واستيلاؤهم على قونية
١٥	وصول الصليبيين الى طرسوس واختلافهم
١٧	أخبار بودوين علي شطوط نهر الفرات
١٧	محاصرة الصليبيين انطاكية وامتلاكها
٢٠	محاصرة المسلمين انطاكية وظهور الحربة المقدسة
٢٢	مسير الصليبيين من انطاكية قاصدين بيت المقدس
٢٣	محاصرة الصليبيين لبيت المقدس واستيلاؤهم عليه
٢٥	واقعة عسقلان وانتصار الصليبيين فيها
٢٦	انتهاء الحروب الصليبية الاولى وسفرهم الى أوطانهم
٢٦	الحروب الصليبية الجديدة
٢٨	محاصرة غودافرو مدينة ارسور
٢٨	اجتماع الامراء الصليبيين بالقدس وانتخاب قانون لحكومتها
٢٩	موت غودافرو سلطان القدس
٢٩	انتخاب بودوين سلطاناً للقدس
٣٠	خلافة الأمر بأحكام الله وواقعة عسقلان

﴿ الحمد لله اولاً وآخراً ﴾

بمؤن الله وحسن توفيقه قد تم طبع هذا الكتاب النفيس والسفر الجليل . الذي جمع
 من شتات الحروب الصليبية ما تفرق . ووعى ما عبثت به يد التبديل فكاد ان يتمزق .
 ولا غرو فهو اول كتاب وضع في العربية موضحاً اسماء من ورد ذكرهم في تلك
 الحروب بالضبط الشافي . والاعتناء الكافي . حتى جاء جليلاً في الوضع جميلاً بالطبع .
 لم ينسج له على منوال . ولم يسبق بمثال . تأليف حضرة الكاتب الاديب .
 والمنشيء الاريب . سيد افندي علي الحريري . حيث طرزه احسن تطريز .
 وجاء فيه بكل نادر عزيز . مرموقاً بنظر صاحب السعادة
 والاقبال . والفخر والجلال . ذي المجد الباذخ . والشرف المؤنل
 الشاخص . من له الفضل الاعم . سعادتو عبد السلام باشا
 الموياسي الانخم . شكر الله مسماه الجليل . وجزاه
 عن اهل الادب الجزاء الجميل . وقد بزغ
 بالطلع بدر تمامه . وفاح مسك ختامه .
 بالمطبعة العمومية . بمصر المحمية . في
 اوائل رجب سنة ثلاثمائة وسبعة
 عشر بعد الالف هجرية .
 على صاحبها ازكى
 السلام وابهى
 التحية .

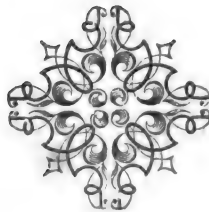


﴿ اعتذار ﴾

من ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلاً ان تعد معائبه
 وقعت سهواً بعض غلطات مطبعية في كتابنا هذا لا تخفى على الادباء فترجو ممن
 يقع نظره على شيء من ذلك ان يسبل عليه ستر المعذرة فان العذر عند كرام الناس
 مقبول
 وان تجدد عيباً فسد الخلا فجل من لا عيب فيه وعلا

حماء وعم الملك الافضل وعسكرهم الى حصن الكراد وتسلموا منه المنجنقات
وكان هناك منجنق عظيم يسمى المنصوري حل مائة عجلة ثم ساروا الى ان وصلوا
عكا فنزات العساكر الاسلامية عليها (على عكا) في اوائل جاد الاولى واشتد
عليها القتال ولم يفلح الصليبيون غالب ابوابها بل كانت مفتوحة وهم يقاتلون فيها
فحاصر المسلمون المدينة ونصبوا عليها المنجنقات وفي بعض الليالي خرج الصليبيون
وكبسوا المسلمين فتكاثر عليهم المسلمون فولى الصليبيون منهزمين الى البلد
واشتدت مضايقة المسلمين لعكا حتى فتحوها عنوة في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخر
بالسيف ولما فتحها المسلمون هرب جماعة من اهلها بالمراكب وغنم المسلمون من عكا
شيئاً يفوق الحصر من كثرته ثم استنزل السلطان من تحصن بالابراج من الصليبيين
وقتلهم ثم امر بهدم مدينة عكا ومن غرائب الاتفاق ان الصليبيين استولوا على عكا
من السلطان صلاح الدين الايوبي في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخر سنة ٨٧٠ هـ
وقتلوا من بها فقدر الله عز وجل ان المسلمين يفتحونها في يوم الجمعة ١٧ جمادى
الآخر سنة ٦٩٠ على يد السلطان الملك الاشرف صلاح الدين وقتل من فيها
فكان التاريخان مهمل بعضهما كذلك لقب السلطانين . ولما فتحت عكا التى الله
الرعب في قلوب جميع الصليبيين الذين بساحل الشام فاخلوا صيدا وبيروت وتسلمها
الشجاعي في اواخر رجب وكذلك هرب اهل مدينة صور فتسلمها السلطان ثم
تسلم عكا في مستهل شعبان وفي . منه تسلم طرسوس واتفق لهذا السلطان من
السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد الصليبية بغير قتال وتكاملت بهذه
الفتوحات جميع البلاد الساحلية وانقرضت دولة الصليبيين من الشام والسواحل بعد
ان كانوا قد اشرفوا على أخذ الديار المصرية فله الحمد والمنة

(انتهى)



١١ سنة و ٣ أشهر و ٦ أيام

ومن آثاره الباقية الى هذا اليوم جامعهم الشهير ومقامه وكلاهما داخلان في بناء
البيمارستان الذي يشاهده المار في شارع النحاسين تجاه جامع الصالح نجم الدين أيوب
بعد ان يتجاوز خان الحلي ولا تزال هذه الابنية رغمًا عن تكرار السنين قوية العماد
تتجلى فيها العظمة والقوة ومهارة الصانع الا البيمارستان فانه أصبح أقرب الى الاثر
من العين. وفي مقام هذا السلطان مثل ما في غيره جماعات من النساء والاطفال هم في
الغالب من ذوي الامراض جاءوا يطلبون الشفاء وهم يأتون في أيام السبت ولهم
في ذلك أساليب مختلفة فبعضهم يضع الطفل المريض تحت المحراب ويجلس مصلياً
وبعضهم يأتي بشئ من الليمون ويمصره على حجر هناك ثم يلحسه بلسانه طلباً للشفاء
ومن أعماله ميدانه الذي عرف بالميدان السلطاني جملة في موضع بستان الخشاب حيث
موردة البلاط وكان يتردد اليه كثيراً ولا يمر عليه من قلعة الجبل حتى يركب قاطر
السباع فضرر من علوها وقال لمن حوله اني عند ما أركب الى الميدان وأمر بهذه
القاطر يتألم ظهري من علوها وأشاع بعضهم انه أراد بالحقيقة نزع آثار من كان قبله
لبقي الفخر له فأمر بهدمها جميعاً وبنائها ثانية فبنيت ولكن السباع لم توضع عليها
فعند ما رأى السلطان ذلك أمر باعادتها فأعيدت السباع الى أماكنها. ومما يحكى عنه
انه كان يجعل في بنيانه أما كن مخصوصة يضع فيها الجبوب طعاماً للطيور. وكان
قلاوون سبياً لاخراج السلطنة من يد نسله كما كان الملك الصالح نجم الدين الأيوبي
باستكثاره من الممالك الشراكسة حتى جمع منهم نحواً من ١٢ ألفاً جعل منهم بطانته
وكان يلقب بعضهم بالالني أي المتباع بالف دينار وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك

{ سلطنة الملك الاشرف }

وتولى السلطنة بعد قلاوون ابنه البكر صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف
وكان جلوسه في ٧ القعدة سنة ٦٨٩ ثم قبض على حسام الدين طرناي نائب
السلطنة وفوض نيابة السلطنة الى بدر الدين بيدرا والوزارة الى شمس الدين
محمد بن السلخوس

{ في فتح عكا وانقراض الصليبيين }

وفي سنة ٦٩٠ سار الملك الاشرف بالعساكر المصرية قاصداً عكا وارسل الى
العساكر الشامية وأمرهم بالحضور ومعهم المنجنقات فتوجه الملك المظفر صاحب

* ثورة المماليك وقتل الرعية *

وتمرد المماليك ونبذوا الطاعة فغضب السلطان عليهم غضباً اعمى بصره حتى لم يعد يميز المجرم من البري فساق الجميع بمصا واحدة وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام متوالية حتى غصت الاسواق بجثثهم رجالا ونساء وأولاداً . فجاء العلماء الى السلطان واخذوا يحففون من غبظه ويبنون له وجه عسفه فانتبه لما جاءه من الاستبداد الفاحش فقدم ندماً لأمزيد عليه وتكفيراً لذلك أمر ببناء البنايات والتكيا رحمة بالمساكين وذوي الاسقام ومن أجل ذلك أيضاً بنا ابنه الملك الناصر المستشفى الشهير المعروف بالبيارستان . وكان المماليك الى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جاهلهم فامر قلاوون أن يغير المماليك ملابسهم فنعهم من استعمال الوشي والزينة بالذهب وعن الضفائر الطويلة التي كانوا يجعلونها في اكياس من حرير وجعل حالتهم من اللباس وغيره كما تقتضيه حالة رجال الحرب

* فتح طرابلس من الصليبيين *

بعد وفاة ولده الصالح علاء الدين علي وحزنه عليه أمر بتجهيز حملة لافتح طرابلس من يد الصليبيين تسلياً له عن هواجسه فسار بعساكره في محرم سنة ٦٨٨ الى ان وصل الى مدينة طرابلس فانزلها ونصب عليها عدة منجنيقات ولازمها بالحصار واشتد عليها بالقتال حتى فتحها يوم الثلاثاء ٤ ربيع آخر ودخلتها العسكر عنوة فهرب أهلها الى ألبانيا فتجا بعضهم في المراكب وقتل أكثرهم وسييت ذراريهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة وكان في البحر قرياب من طرابلس جزيرة يقطنها كثير من الصليبيين فافتحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم الى الجزيرة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا جميع ما بها من النساء والاولاد

* وفاة الملك المنصور قلاوون وأثره *

بعد فتح طرابلس عاد الملك المنصور قلاوون الى الديار المصرية فجاءه وفد من قبل ملك اراغون الفونس عقد معه معاهدة في ١٣ ربيع أول سنة ٦٨٩ . ثم عزم على فتح مدينة عكا من الصليبيين . غير ان كل ذلك لم يكن ليشغله عن أحزانه وما زال كثيراً فاته مرض في العشر الاخير من شوال فتوفي يوم السبت ٦ القعدة سنة ٦٨٩ فاحتفل بجنائزه احتفالاً حضره جمع غفير من جهادية ومملكة وشيعوه الى البيارستان حيث واروه التراب ولا يزال مقامه هناك الى هذا العهد وكانت مدة حكمه

فانها انكشفت وتم ببعضها الهزيمة وساق التتر في اثرهم ثم علموا بنصرة المسلمين عليهم وهزيمة جيشهم فولوا منهزمين على أعقابهم فنبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ولما وصل خبر هذه الكسرة الى اباكه خان وهو محاصر الرجبة رحل عنها وكتب بهذا الفتح الى جميع البلاد الاسلامية وسافرت العساكر الى بلادها وسافر السلطان قلاوون الى دمشق والاسرى بين يديه وأما منجوتيمور فانه مات بعد ايام وفر اباكه خان الى حمدان فسمه أخوه الثالث تيكودار أوغلان وتولى الحكم بعده وأظهر دين الاسلام ولقب بأحمد خان

* فتح حصن المرقب من الصليبيين وغيره *

في شهر ربيع اول سنة ٦٨٤ سار السلطان سيف الدين قلاوون بعساكره المصرية والشامية ونازل حصن المرقب (لجمية القديس يوحنا المعمدان) وهو في غاية العلو والحصانة لم يطمع أحد من الملوك قبله في فتحه فلما زحف العسكر عليه أخذ الحجارون ينقبون فيه ونصبت عليه عدة منجنيقات ولما تمكنت الثقوب من أسوار القلعة طلب أهله الامان فاجابهم على ان يخرجوا بما يقدرون على حمله غير السلاح وتسلمه في يوم الجمعة ١٩ منه ونصبت الاعلام الاسلامية باعلاه وكان يوماً مشهوداً وأمر السلطان بحمل أهل حصن المرقب الى مأمنهم ثم قرر أمر الحصن ورحل عنه

وفي سنة ٦٨٥ أرسل السلطان قلاوون نائب سلطته حسام الدين طرناي الى الكرك فحاصرها وتسلمها بالامان وعاد ومعه أصحاب الكرك جمال الدين خضر وبدر الدين سلامش أولاد الملك الظاهر بيبرس فأقاما بمصر مدة ثم اغتقلهما

وفي سنة ٦٨٦ أرسل السلطان قلاوون حسام الدين المذكور الى قلعة صهيون فحاصرها ونصب عابها المنجنيقات وضايقها فاجابه صاحبها سنقر الاشقر الى تسليمها بالامان في ربيع اول ثم سار طرناي الى اللاذقية وكان بها برج للصليبيين يحيط به البحر فحاصر البرج وتسلمه بالامان وهدمه ثم سار الى مصر وأرسل أيضاً في هذه السنة السلطان عسكرياً بقيادة علم الدين سنجر المسموري المعروف بالحياط الى النوبة فساروا اليها وغزوها وغنموا وعادوا

وفي سنة ٦٨٧ توفي الملك الصالح علاء الدين علي ابن قلاوون وكان ولي عهده وسلطته في حياته وكان مرضه بالدوسنطاريا فحزن عليه والده حزناً عظيماً

﴿ سلطنة الملك المنصور قلاوون الالفى ﴾

ولما استوى قلاوون على كرسي السلطنة استوزر نحر الدين وكان كاتب سره الخصوصي وكان سنقر الاشقر بدمشق قد استقل بها وحلف له أمرائها وعساكرها وتلقب بالملك الكامل وفي سنة ٦٧٩ هـ تجهز الملك المنصور قلاوون عساكر مصر مع علم الدين سنجر الحلبي وبدر الدين بكتاش وبدر الدين الايدمرى وعز الدين الافرم فسارت العساكر المذكورة الى الشام وبرز سنقر الاشقر (الملك الكامل) بعساكر الشام الى ظاهر دمشق والتقى الفريقان في ١٩ صفر فولى سنقر وعساكره الشاميون منهزمين ونهبت العساكر المصرية اثقالهم واستولوا على دمشق وتولى عليها بامر الملك المنصور قلاوون مملوكه حسام الدين لاجين السليحدار . ثم ان سنقر الاشقر كاتب اباكه خان ملك التتر اطعمه في تملك البلاد ثم سار سنقر واستولى على بعض البلاد السورية ثم تصالح مع الملك المنصور قلاوون وأعطاه بعض البلاد مثل الشفر وبكاس

﴿ محاربة التتر ﴾

وفي سنة ٦٨٠ هـ خرج التتر الى سوريا بجيشين الواحد تحت قيادة اباكه خان بن هولاكو والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة أخيه منجوتيمور حتى وصلوا حصن فسار السلطان قلاوون بالجيوش الاسلامية من دمشق الى جهة حصن وأرسل الى سنقر الاشقر يستدعيه حسب اتفاق الصلح فسار سنقر من صهيون ثم وصل الى قلاوون الملك المنصور صاحب حماء ثم وصل سنقر ومعه ايتمش السعدي والحاج اذدمر وعلم الدين الدويداري ورتب السلطان قلاوون عسكره ميمنة وميسرة وكان رأس الميمنة الملك المنصور صاحب حماء ثم بدر الدين اليسري دونه ثم علاء الدين طبرس الوزيري ثم ايبك الافرم ثم جماعة من العسكر المصري ثم عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين وكان رأس الميسرة سنقر الاشقر ثم بدر الدين ثم بدر الدين بكتاش أمير السلاح وكان بر الميمنة العرب وبر الميسرة التركان وكان شاليش القلب حسام الدين طرغاي ومن أضيف اليه والتقى الفريقان بظاهر حصن في الساعة الرابعة في يوم الخميس ١٤ رجب وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة من العساكر الاسلامية فهزموا من كان قبالتهم من التتر وركبوا قفاهم يقتلونهم وكان منجوتيمور قبالة القلب فانهزم أيضاً وأما ميسرة المسلمين

الامراء عن هذا المنصب

✽ سفر الملك السعيد والاغارة على ارمينية ✽

في سنة ٦٧٧ سار الملك السعيد بركة خان الى الشام وصحبه العساكر فلما وصل الى دمشق جرد منها العساكر حجة الامير سيف الدين قلاوون وجرد أيضاً صاحب حمه فساروا ودخلوا بلاد سيس (الارمن) وشنوا الغارة عليها وغنموا منها غنائم كثيرة ثم عادوا الى جهة دمشق واتفقوا على خلع الملك السعيد من السلطنة لسوء تدبيره وعبروا على دمشق ولم يدخلوها فارسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم ودخل عليهم بوالدته فلم يلتفتوا الى ذلك واتموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم الى مصر وطلع الى قلعة الجبل وسارت العساكر في اثره

✽ خلع الملك السعيد بركة خان ✽

وفي شهر ربيع أول سنة ٦٧٨ وصلت العساكر الخارجون عن طاعة الملك السعيد بركة خان وحصروه بقلعة الجبل فخامر عليه اكثر من كان معه من الامراء مثل لاجين الزيني وغيره وأخذوا يخرجون واحداً بعد واحد من القلعة وينضموا الى العسكر الذي يحاصرها فلما رأى الملك السعيد ذلك اجابهم الى الانخلاع من السلطنة وأن يطى الكرك فاجابوه الى ذلك وانزلوه من القلعة وخلعوه في ربيع الاول وسفروه من وقته الى الكرك حجة بيدعان الركني وجماعة معه فوصل اليها وتسلمها بما فيها من الاموال

✽ سلطنة الملك العادل سلامش وخلعه ✽

بعد خلع الملك السعيد كما تقدم اتفق اكابر الامراء مثل بدر الدين اليسري الشمسي وايتمش السعدي وبكتاش الفخري امير السلاح وغيرهم على سلطنة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس ولقبوه الملك العادل وذلك في ربيع أول سنة ٦٧٨ وعمره اذ ذلك سبع سنين وشهور واقاموا الامير سيف الدين قلاوون الانفي وصياً عليه وخطب للعادل وضربت السكة باسمه . ولم يكن هم هذا الوصي الا خلع ذلك السلطان الصغير وفي شهر رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه الى قلعة الكرك منفياً واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعه فبايعه الناس ولقبوه بالملك المنصور

أيضاً قناطر السباع وهي عبارة عن سلسلة من قناطر ممتدة عرضاً من جوار فم الخليج الى قلعة الجبل ولا بد للمتوجه من القاهرة الى مصر القديمة من أن يقطعها هذا اذا لم يمر من عند فم الخليج فانه اذ ذاك يمر بجانب منشأها وهي تنتهي من طرفها الغربي بالسبع سواقي بجانب فم الخليج والسبع سواقي هو بنا قديم فيه سبعة دواليب لرفع المياه من النيل ومحويله الى قناة على ظهر هذه القناطر ليجري الماء فيه الى قلعة الجبل وجعل عليها سباعاً من الحجارة ولذلك قيل لها قناطر السباع والقناطر المذكورة لم يزل يوجد بعضها . وكان محباً لركوب الخيل الحياد ورمي النبالة فانشاء ميداناً دعاه ميدان القبق ويقال له أيضاً الميدان الاسود وميدان العيد والميدان الاخضر وميدان السباق . وكان شاغلاً بقعة من الارض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الجبل وبين قبة النصر التي هي تحت الجبل الاحمر وبني فيه مصطبة سنة ٦٦٦ للاحتفال برمي النشاب والتمرين على الحركات العسكرية وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان فما بقي أمير ولا مملوك الا وهذا شغله وما برح من بعده أولاده ومن بعدهم يمارسون هذا الميدان بجميع انواع الالعاب الحربية وكان يقوم بنفقات جميع هذه الاعمال بدون أن يسلب الاهالي درهماً واحداً فوق ما اعتادوا دفعه من الضرائب لان الغنائم التي كان يكسبها من اعدائه كانت تساعد كثيراً في النفقات

﴿ سلطنة الملك السعيد بركة خان ﴾

في شهر ربيع أول سنة ٦٧٦ يابوا الملك السعيد بركة خان بالسلطنة بعد أبيه الظاهر بيبرس حسب وصيته وأقام بدر الدين تنليك الخزندار آتايكا وكان تنليك (باباي) في الاصل مملوكا ابتاعه بيبرس بشمن بخس الا انه ارتقى في خدمته حتى صار أمين خزانته (خزندار) ثم استحق بعد طول الخدمة المصادقة الامينة أن يكون وصياً على ابنه في مهام السلطنة وكان للملك السعيد ثقة كبرى في تنليك حتي انه اتى اليه كل مهام الدولة فسمعت مصر في بادئ الامر الا انها ما لبثت حتي تمكر كاش صفائها ب وفاة ذلك الوصي الامين الحكيم ولم يكن الملك السعيد واثقاً باحد من امرائه ليعهد اليه مهام السلطنة لانه كان يظن انهم هم الذين سعوا في قتل وصيه ولكنه لم يتأكد ذلك فنفر منهم فوقع اختياره على اقسنقر فاتح النوبة فولاه الاتاكية وبعد يسير خنقه في احدى ابراج الاسكندرية فقتل

حجتها وما اشد وطأتها وكنتم تأبوه ومملوكه بدر الدين تنليك المعروف بالخرندار موته وصبره وتركه في قلعة دمشق الى ان تمت تربته بدمشق قرب الجامع فدفن فيها وارنحل بدر الدين تنليك بالعساكر ومعهم المحفة مظهرًا ان الملك الظاهر فيها وانه مريض حتى وصل الى ديار مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده بركة خان ولقبه الملك السعيد وجعله ولي عهده فوصل تنليك الخرندار بالخرناب والعسكر الى الملك السعيد بقاعة الجبل وعند ذلك اظهر موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك السعيد للعزاء . وكانت مدة حكمه ١٧ سنة وشهرين وعشرة أيام وكان ملكا جليلا عجولا كثير المصادر لرعيته ودواوينه طويل القامة مليح الشكل سريع الحركة فارساً مقداماً . وترك من الذكور ثلاثة وهم السعيد محمد بركة خان وقد ملك بعده وسلاش وهذا ملك بعده أيضاً والمسمود خضر . وترك من البنات سبعة . وبما فزع الله على يده من أيدي الصليبيين قيسارية وارصوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وانطاكية وبقراس والقصر وحصن الاكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلب وقد ناصفهم على المرقب وبنياض وطرسوس وادنة والمصيصة وغيرها من مدن بر الاناضول وصار الى يده مما كان في أيدي المسلمين دمشق وبلبلق وعجلون والبصرة وصرخند . والصلت . وحصن وتدمر والرحبة وتل باشرة . وصهيون . وبلاطس . وقلعة الكهف والقدموس . والعليقة والحواني والرصافة . ومصيف . والقلمنة . والكرك . والشوبك وفتح بلاد التوبة وبرقة

﴿ آثار الملك الظاهر بيبرس ﴾

ومن أعماله الماثورة انه عمر الحرم النبوي وقبة الصخرة بيت المقدس وزاد في أوقاف الخليل وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية ومنار رشيد وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وعمر الشواني وعمر قلعة دمشق وقلع الصيبة وبلبلق والصلت وصرخند وعجلون وبصرة وشيزر وحصن وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسنية وجعله الفرنسيون عند مجيئهم الى مصر قلعة وهو البناء القديم في سكة الظاهر وجعلته الحكومة مخازن للاقوات . وحفر خليج اسكندرية القديم وباشره بنفسه وبنى هناك قرية سماها الظاهرية وحفر بحر اشمون طنناح وجدد الجامع الازهر بالقاهرة وأعاد اليه الخطبة وعمر بلد السعيدية بالشرقية بمصر وبنى القصر الابلق في دمشق ومن آثاره في القاهرة

بيبرس وسارت معه فرقه تحت قيادة الامير قلاوون الالاني فالتقى الحيشان عند بيرة واشتد الحرب بين المسلمين والتتر واراد عبور الفرات الى بر البيرة فقاتله التتر على المخاضة فافتحم الفرات وهزم التتر فرحلوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار بحالها فصارت للمسلمين ثم عاد الظاهر الى الديار المصرية وفي هذه السنة أيضاً تسلمت نواب الملك الظاهر باقى حصون الاسماعيليه وهي الكهف والمينقه وقدموس وفي سنة ٦٧٣ سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بجيوشه الى ارمينيا ففتحوها وغنموا منها غنائم كثيرة ثم عاد الى مصر ففرشوا له القاهرة بالبسط والسجاد الثمين احتفالاً بعوده ظافراً

وفي سنة ٦٧٤ قدم سوريا اباكا خان بن هولاكو خان وحاصر البيرة ثايسه فلاقاه الامير قلاوون بفرقة من الحيوش المصرية وارجمه على اعقابيه فسر بيبرس من بسالته واتخذ ابنته غازية خاتون زوجة لابنه السعيد بركة خان ليكون ابنه في المستقبل أمناً في حمى حميه . وفي هذه السنة أيضاً ارسل الظاهر بيبرس الامير اقسنقر ومعه عز الدين ايبك الانرم لافتح بلاد النوبة فافتتحا اصوان بعد ان استوليا على جميع مصر العليا . وفي هذه السنة أيضاً حارب بيبرس برقة وافتتحها وفي رمضان سنة ٦٧٥ سار بيبرس بعساكره الجراراة الى الشام حتى وصل الى حلب ثم الى النهر الازرق ثم سار الى ابلستين فوصل اليها في القعدة والتقى بها جماً من التتر بقيادة تناون فتحارب الفريقان في أرض ابلستين يوم الجمعة عشرة القعدة فانهزم التتر واخذتهم سيوف المسلمين وقتل قاندهم تناون وغالب كبرائهم واسر منهم جماعة كثيرة ثم سار الى بلاد الروم ثم عاد منها

﴿ وفاة الملك الظاهر بيبرس ﴾

في يوم الخميس ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ توفي الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات الصالح النجمي بدمشق وقت الزوال عقب وصوله من بلاد الروم وسبب موته انه انكسف القمركسوفاً كلياً وشاع بين الناس ان ذلك يدل على موت رجل جليل القدر فاراد الملك الظاهر ان يصرف التأويل الى غيره فاستدعى بشخص من اولاد الملوك الايوبية يقال له الملك القاهر ولد الملك الناصر داود بن المعظم عيسى وأحضر قزراً (كاساً) مسموماً وأمر الساقى فسقا الملك القاهر وشرب بعده الملك الظاهر ناسياً فمات الملك القاهر عقيب ذلك واما الملك الظاهر فحصلت له حمى محرقة وتوفي في التاريخ المذكور وهكذا كانا قتيلى الخرافات قبجها الله ما اضعف

لكارلوس ملك سيسيليا ويدفع له جزية سنوية ويدفع له مصاريف هذه الحروب البالغ مقدارها ٢٢٠ ألف وزنة من الذهب وفي نظير ذلك ينسحب الصليبيون من البلاد التونسية وبعد تمام شروط الصلح التي أمضيت من ملوك فرنسا و سبيليا ونافار سار الصليبيون ونزلوا بمرأيتهم وساروا الى بلادهم وفي أثناء مسيرهم فاجأهم عواصف شديدة أغرقت أكثر مرأيتهم ثم ان كارلوس نزل في مملكته ومعه صندوق داخله قلب الملك لويس بصفة ذخيرة ووضعها في كنيسة دير مونتسريال قرب مدينة ساليرنو وأما فيلبس الثالث ملك فرنسا فداوم مسيره الى بلاده ومعه جثة والده وأخيه تريستان ولما وصل الى باريس وضعهم في كنيسة القديس ديونيسيوس في مدفن ملوك فرنسا وهكذا انتهت الحروب الصليبية الثامنة

﴿ بقية الحروب الصليبية ﴾

من حيث ان الحروب الصليبية الثمانية قد انتهت كما تقدم ولكن بعض بلاد سوريا لم نزل في حكم الصليبيين لذلك التزمنا بمتابعة التاريخ الى افتتاح المسلمين باقي البلاد من الصليبيين وانقراضهم من آسيا كما سيأتي

﴿ باقي فتوحات الظاهر بيبرس ﴾

وفي سنة ٦٦٩ توجه الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية الى الشام ونازل حصن الاكراد في تاسع شعبان وحاصره وضايقه ودام القتال فشدد حصاره الى ان فتحه بالامان في ٢٤ منه ثم رحل الى حصن عكرو ونازله في ١٧ رمضان وجد في قتاله وملكه بالامان في آخر رمضان وعيد الظاهر عيد الفطر عليه . وفي شوال تسلم قلعة العليقة وبلادها من الاسماعيلية ثم سار الى دمشق ومنها الى حصن القرن ونازله في ثاني القعدة وزحف عليه وتسلمه بالامان ثم أمر بهدمه وعاد الى مصر وكان قد جهز اسطولا من عشر شواني لغزو قبرص فتكسرت في مرسى اليمسوس وأسرى الفريخ من كان بتلك الشواني من المسلمين فاهم السلطان بمهارة اسطول بدله

وفي سنة ٦٧٠ توجه الظاهر الى دمشق فاغارت التتر على عيتاب وعلى الروح وقيطون الى قرب قامية فاستدعى الظاهر عسكرياً من مصر بقيادة بدر الدين اليسري فلما اتصل ذلك بالتتر عادوا من حيث أتوا ثم سار الظاهر بالسكر الى حلب ومنها الى مصر فماد التتر وحاصروا البيرة وانصبوا عليها المنجنيقات وضايقوها فتجند اليهم

يافرنسيس هذه أخت مصر قتها لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير
(فقدر الله وفاة الملك لويس التاسع وهو محاصر لها كما سيأتي حسن فآلمهم)
ثم ان الصليبيين حاصروا مدينة تونس وذلك في شهر القعدة سنة ٦٦٨
* { محاربات الصليبيين ووفاة الملك لويس التاسع } *

بعد حصار مدينة تونس نشب القتال بين الفريقين وكانت الحرب سجالات وكان
الصليبيون منتظرين قدوم الكونت دي انجو كارلوس أخى لويس وهو صاحب جزيرة
سيسيليا وفي سنة ٦٦٩ فرغت ذخائر وقوت العساكر الصليبية فاعتراهم داء الدستاريا
والحمى الحثيثة وفي زمن قصير هلك منهم نحو النصف وكان ذلك في فصل الصيف
والحر شديد فاصطدمت العساكر الاسلامية آلات يرمون بها الرمل على معسكر
الصليبيين عند هبوب الريح القبلية فتزل فوقهم كأنها محمية في أتون نار وبما زاد
في مصائب الصليبيين هجمات العرب والسودانيين عليهم حتى أخذهم الضجر والملل
ومات منهم الكونت دي نامورس ودي فاندوما . ودي مارشا . ودي موغرانشي
وودي بيانا وودي بريك ثم لحقهم ابن الملك لويس المدعو تريستان (الحزين) الذي ولد
في مدينة ديباط كما مر (ولد في حصار مدينة وتوفى في حصار أخرى) ثم شارك
الملك لويس التاسع جيشه في الامراض بعد وفاة ابنه المذكور ورقد في فراشه ثم
احضر ابنه البكري فيلبس ووريثه على تخت المملكة وأخذ يوصيه بمملكته واخوته
وغير ذلك ثم مات

* { سفر كارلوس صاحب سيسيليا الى تونس وحصول الصلح }

وانتهاء الحروب الصليبية الثامنة *

وبعد موت الملك لويس التاسع ملك فرنسا ترأس على الجيوش ابنه فيلبس
ثم توارد قدوم مراكب صليبية في البحر ونزل الرجال منها الى البر وكانوا عساكر
كارلوس صاحب سيسيليا وفي أثناء نزولهم الى البر لم يجدوا أحداً من الصليبيين قد
حضر لمقابلتهم فساروا الى ان وصلوا الى معسكر الصليبيين وسار كارلوس الى ان وصل
الى خيمة لويس التاسع فوجده ميتاً فبكى عليه وبعد ذلك عقدوا مجلس مشورتهم
للتظرف في أمرهم فقرروا استمرار الحصار والمحاربة وبعد مناوشات جرت بينهم تقرر
الصلح في شهر ربيع الاول سنة ٦٦٩ على ما يأتي بان السلطان المستنصر بالله يخضع

التي لم تزوجا وعلى زوجته مرغربتا وذلك التقسيم يكون بعد مماته ثم اقام وكيان على مملكته بصفة نواب الملك وهما متى دي فاندوم وسمعان دي ناظلا

﴿ سفر العساكر الصليبية الثامنة ﴾

توجه الملك لويس الى كنيسة القديس ديونيسيوس للتبرك بها ثم حضر الذبيحة بكنيسة الكاتدرائية بباريس وسار الى مدينة اغوزمورتاس المعينة لاجتماع جميع العساكر الصليبية بها وكان قبل حضور الملك لويس المذكور الى هذه المدينة قد سافر بعض العساكر الصليبية الثامنة من اقليم اراغون وغيره قاصدين بلاد فلسطين ولما اجتمع الملك لويس وعساكره في هذه المدينة عقد مجلس شورا للحربي للتداول في خطة السفر والبلاد التي يقصدونها فالبعض رأى المسير الى الديار المصرية والبعض رأى المسير الى تونس عاصمة الغرب وكان من هؤلاء الملك لويس لانه قال ان المغاربة طالما تعدوا على بحرية فرانسا وغيرها من أوروبا وبعد المداولات تقرر مسير العساكر الصليبية الثامنة الى تونس ومحاربتها واستعدت بالنزول في المراكب والمسير الى تونس

﴿ وصول الصليبيين الى تونس ومحاصرتها ﴾

سارت العساكر الصليبية في البحر الى ان نزلوا بانقاض مدينة قرطاجنة القديمة واقاموا فوق طلالها وعملوا خندقا حول معسكرهم وكان صاحب تونس يدعى أبا عبدالله محمد بن أبي زكريا الحفصي الملقب بالمستنصر بالله فجمع أمراء مملكته واستأمرهم في صد الصليبيين عن النزول الى البر وأبتركهم ينزلون الى البر ويحاربهم فقال بعضهم اذا صديناهم عن النزول أمام الحامية فربما ساروا ونزلوا على ثغر من الثغور فامتلكوه واستباحوه واستصعبت مغالبتهم فوافق السلطان على هذا وأرسل الى جميع الثغور بالحفظ ونادى السلطان في الناس بالاستعداد والنفير ثم أرسل الى جميع الممالك التابعة له يطلب المدد فجاءه أبو هلال صاحب بجاية وجاءته جميع العرب وسدوكش وولصاه وهواره وقد أمدته ملوك المغرب من زناتة وسرح اليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان وعقد السلطان قيادة العسكر الى ستة رؤساء وهم اسماعيل بن أبي كلداس . وعيسى بن داود . ويحيى بن أبي بكر . ويحيى بن صالح وأبي هلال عياد صاحب بجاية . ومحمد بن عبو وأمرهم جميعاً راجع لامر يحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح واجتمع كثير من المسلمين والفقهاء والمرابطين للمباشرة الجهاد واستعدوا غاية الاستعداد فقال أحد أدباء تونس وهو احمد بن اسماعيل الزيات

واستخلصوها منهم بقيادة زعيمهم مخايل بالولوغوس الذي أقاموه ملكاً عليها (كانت الحملة السادسة للصليبيين اغتصبوها وصارت تابعة لهم الى ان خلصها مخايل المذكور وعادت للروم) فسافر من نجا من الصليبيين من القسطنطينية الى البابا اكليمنضوس الرابع وكذلك لما استولى السلطان الظاهر بيبرس على البلاد السورية من الصليبيين أرسلوا الى البابا المذكور يطلبون منه المساعدة والمعاونة فارسل منشوراً الى جميع ملوك أوروبا يخبرهم فيه بان الروم استولوا على القسطنطينية وان بيبرس قد استولى على انطاكية وغيرها من بلاد سورية ويطلب منهم مساعدة اخوانهم الصليبيين وتشكيل عساكر صليبية ثامنة لاجل ذلك وخصوصاً لاستخلاص قبر المسيح من أيدي المسلمين (وهي حجبتهم الواهية في كل حرب) وحيث ان ملوك أوروبا علموا بان جميع التجريدات والعساكر التي سبق تشكيلها وارسلها سواء كان لسوريا أو لمصر أو للقسطنطينية لم تأت بفائدة لأوروبا غير فقد العساكر وافناء المال فلذلك لم يلتفتوا الى منشورات البابا ولا الى نوابه الذين كان قد أرسلهم لهذه الغاية

﴿ تجهيز العساكر الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ﴾

وبعد جهد شديد قبل الملك لويس التاسع ملك فرنسا تجهيز عساكر صليبية ثامنة بقيادته كما فعل أولاً ثم انه أمر بانعقاد جمعية في مدينة باريس من عظماء المملكة بقصر لويلا ثم حضر بنفسه هذه الجمعية ومعه نائب البابا حامل بيديه اكليل الشوك الذي تكلم به المسيح (على زعمهم وهو الآن محفوظ في كنيسة مريم العذراء الكاتدرائية بباريس) فقام لويس وقال لمن في الجمعية بانه عزم على تجهيز حروب صليبية ثامنة وطلب منهم مساعدته والتوجه معه ثم قام النائب البابوي وطلب منهم انقاذ اخوانهم المسيحيين بالشرق فاستلم الملك لويس صليب الحرب من يد النائب الرسولي وتبعه ثلاثة من أولاده ثم تبعهم عدد واقر من رؤساء الكنائس ثم يوحنا كونت دي برانانيا . وتيبوت ملك نافار . والفونسوس دي بريانا . والكونتات دي فلانديرا ودي سان بول . ودي مارشا . ودي سواسون وغيرهم وعزم بعض أمراء أوروبا على تجهيز عساكر كما فعل سلطان فرنسا مثل ادوارد ملك الانكليز . وغاسطون ملك بيان وملك البرتغال وغيره . ثم ان لويس المذكور استعد في تجهيز عساكره للمسير بها وحيث انه وجد نفسه شيخاً كبيراً خاف على مملكته اذا مات هو في الحرب فعزم على تقسيمها علي ورثته فقسمها على أولاده الاربعة المذكور وكذلك على بنتيه

سنقر الاشقر فاعطاه اياه فارسه الى الظاهر بيبرس وسلم دريساك وغيرها من البلاد المذكورة ما عدا ههنا وأطلق الظاهر ابنه ليفون وعاد الى الديار المصرية

﴿ حجب الملك الظاهر بيبرس ﴾

وفي سنة ٦٦٧ عزم الملك الظاهر بيبرس على اداء فريضة الحج وكان طريق الحج من مصر الى مكة المشرفة في صحراء عيذاب فيركبون النيل من ساحل الفسطاط الى قوص بمصر العليا ثم يركبون الابل من قوص فيقطعون صحراء عيذاب الى البحر الاحمر حيث ينزلون فيه الى جدة ساحل الحجاز وهكذا يعودهم الى مصر وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي مصر على هذه الطريق أيضاً وصحراء عيذاب اذ ذاك أهلة بالسكان أمينة المسلك وبقيت طريق الحج على مثل ذلك الى هذه السنة اذ تغيرت بالطريق التي سار فيها الملك الظاهر كما يأتي وأما التجار فما زالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء الى سنة ٧٦٠ ومن ذلك الحين قلت أهمية مدينة قوص فصارت في حالة تشبه حالتها في الوقت الحاضر بعد ان كانت مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة . ففي ٢٥ شوال سنة ٦٦٧ رحل الظاهر بيبرس من الفوار ووصل الى الكرك وأقام بها أياماً وتوجه من الكرك في ٦ القعدة الى الشوبك ورحل من الشوبك في ١١ منه ووصل الى المدينة النبوية في ٢٥ منه ووصل الى مكة في ٥ الحجة وبعد اداء الفريضة كسا الكعبة بالدباج وكذلك الحجرة النبوية ووقف لهما أوقافاً وعمل لها مفتاحاً ثم سار منها فوصل الكرك في آخر الحجة سنة ٦٦٧ وفي أول محرم سنة ٦٦٨ سار من الكرك فوصل دمشق بفترة وتوجه منها في يومه فوصل الى حماه في ٥ منه وتوجه من ساعتها الى حلب ولم يعلم به العسكر الا وهو في الموكب معهم ثم عاد الى دمشق في ١٣ منه ثم توجه الى القدس فزاره ثم رجع الى الديار المصرية فوصل القاهرة في ١٣ صفر وهكذا أتم سياحته الجهادية والدينية معا ثم سار الظاهر بيبرس بعساكره الى بلاد الاسماعيلية فتسلم مصيف في العشر الاوسط من رجب سنة ٦٦٨ ثم عاد الى حماه ومنها الى دمشق في ٢٨ منه ثم رحل الى مصر القاهرة

﴿ الحروب الصليبية الثامنة ﴾

(في التحريض على الحروب الصليبية الثامنة)

في سنة ٦٥٩ قام الروم على الصليبيين الذين تملكوا على القسطنطينية وقتلوه

ومنع الخانات والفواحي بجميع أقطار مملكة مصر والشام فظهرت من ذلك البقاع
وعادت البلاد الى الهدوء والرغد فقال أحد الشعراء المعاصرين

ليس لابلوس عندنا أرب غير بلاد الأمير مأواه

حرقه الحمر والحشيش معاً حرمتا ماء ومرعاه

ثم رأى ان بعض الرعية لا يزالون على ما كانوا قد اعتادوه من الفواحي قاصر
يمنع النساء الحواشي من التعرض للبقاء ونهب الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب
أهلها جميع ما كان لهم ونفي بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بجميع
ذلك توقيماً قريئاً في المنار . ثم علم ان الطواشي شجاع الدين غبر المعروف بصدر
الباز يشرب المسكر فشنته تحت قلعة الجبل ولا شك ان الملك الظاهر لم يشدد في
ابطال جميع هذه المنكرات الا لعلهم يقيناً ان استعمالها يورث الفقر والذل ويخمد
الهمة ويضعف عزة النفس وينضب الله

وكان في سنة ٦٦٢ قد بنى دارالعدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها لعرض
العساكر في كل يوم اثنين وخميس وكان ينظر في أمر المتظلمين بنفسه فاذا كان
لاحد مظلمة يأتي بنفسه بدون أحد يمنعه ويشكو مظالمته لاسلطان وهو يأمر في
الحال بصرفها بوجه الحق

﴿ فتوحات الظاهر بيبرس ببلاد الصليبيين لسوريا ﴾

في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٦٦ توجه الملك الظاهر بيبرس بصاكره
العديدة الى الشام وقبح ياقا وتملكها من الصليبيين ثم سار الى انطاكية ونازلها في
مستهل رمضان وحاصرها وضيق عليها وقتلها وفر صاحبها بوهيموند دي طرابلس
الى طرابلس فشد الحصار وزحفت العساكر الاسلامية على انطاكية فملكوها
بالسيف في يوم السبت رابع رمضان وقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم وغنموا منهم
أموالاً جليسة وفي ١٣ رمضان استولى الظاهر على حصن بغراس وكان أهله قد
تركوه فشحنه الظاهر بالرجال وجعله حصناً للمسلمين وفي شهر شوال وقع الصلح
بين الملك الظاهر بيبرس وبين هيثوم صاحب سيس على انه اذا أحضر صاحب
سيس سنقر الاشقر المأسور عند التتر (كان التتر قد أخذوه من قلعة حلب لما
ملكها هولاء كوكملهم) وان يسلم بهسناودر بساك ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد
يطلق له بيبرس ابنه ليفون فدخل صاحب سيس على ابنا ملك التتر وطلب منه

أستاذ الدار في يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٦٦١ ثم عاد الى الديار المصرية
﴿ محاربات الظاهر بيبرس مع الصليبيين بسوريا ﴾

ولما عاد بيبرس الى القاهرة حشد جيشاً كبيراً لمحاربة الصليبيين بسوريا وسار
به في سنة ٦٦٣ الى ان وصل مدينة قيسارية في ٩ جمادى الاولى فحاصرها وضايقها
وفتحها غزوة في ١٥ منه بعد محاصرتها ٦ أيام ثم أمر بهدمها ثم سار منها الى ارسوف
فنازلها وفتحها في شهر جمادى الآخرة ثم أرسل الملك الظاهر بيبرس قسماً من
جيشه الى ساحل طرابلس ففتحوا القلعات وحلب وعرقا ونزل هو على صفد
في ٨ شعبان سنة ٦٦٤ فحاصرها وضايقها بالزحف وأقام عليها آلات الحصار وقدم
اليه وهو على صفد الملك المنصور صاحب حماه ثم التصقت العساكر بالقلعة وكثر
القتل والجرح في المسلمين الى ان فتحها في ١٩ منه بالامان ثم قتل أهلها عن
آخرهم وسار الى دمشق فلما دخلها واستقر فيها جرد عسكراً ضخمًا قدم عليه
الملك المنصور صاحب حماه وأمره بالمسير الى بلاد الارمن فسارت العساكر حتى
نزلت على بلاد سيس في ذي القعدة وكان صاحب سيس هيثوم بن قسطنطين قد
حصن الدرنيدات بالرجال والمنجنيق وجعل عسكره مع ولديه على الدرنيدات لقتال
العسكر الاسلامي ومنعه وما انتشب القتال حتى غلبتهم عساكر المسلمين وأوقعت
فيهم القتل فأفنتهم عن آخرهم قتلاً وأسراً وقتل احد ولدهيئوم وأسروا الآخروهو
ليفون وانتشرت العساكر الاسلامية في بلاد سيس وفتحوا قلعة العامودين وقتلوا
أهلها ثم عادت العساكر وقد امتلأت أيديهم من الغنائم فلما وصل خبر هذا الفتح
المعظم الى الملك الظاهر بيبرس رحل عن دمشق الى حماه فقامية حيث التقى
بمساكه منصوره ولما وصلوا بلد قارا أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم وكانوا
نصارى يسرقون المسلمين ويبيعونهم خفية للصليبيين وأخذ صيانتهم ممالك قذبوا
بين الترك في الديار المصرية فصار منهم جنود وأمراء ثم عاد الظاهر الى الديار
المصرية على طريق الكرك فجعل به فرسه عند بركة نريزا فانكسر فخذه وحل في
محفة الى قلعة الجبل

﴿ اصلاحات الملك الظاهر بيبرس ﴾

لما رجع الظاهر بيبرس أخذ يستعد لحروب جديدة وينظم داخلية فابطل
ضمان النزر وجهاته وأمر بآراقه الحُور وابطال التكرات وتعقبة بيوت المسكرات

خط عم سائر القطر قنشام الناس محلولهم . اما بيبس فلم يأل جهداً في استجلاب
الاقوات من سائر جهات سوريا وغيرها وتقريبها على الناس فانتقد بلاده من
ضيق عظيم

﴿ فتوحات الملك الظاهر بيبس ووفاة المستنصر وخلافة الحاكم بامر الله ﴾

ثم اراد بيبس ان يسترجع مدينة بغداد للخلفاء العباسيين فانفذ مع الخليفة
المستنصر بالله جنداً عظيماً وبرز معه الظاهر بيبس وتوجها الى دمشق فنزل الظاهر
بالقلعة ونزل الخليفة في جبل الصالحية ونزل حول الخليفة امراءه واجناده
وجهاز الخليفة عسكره للمسير الى بغداد طمعاً في انه يستولى عليها ويجتمع عليه
الناس فسار الخليفة المستنصر من دمشق بعسكره وركب الملك الظاهر وودعه ووصاه
بالتأني في الامور ثم عاد الملك الظاهر من توديعه الى دمشق ثم سار الى الديار
المصرية ثم وصلت اليه كتب الخليفة المستنصر بانه قد استولى على عانة والحديثة
وولي عليهما وقبل ان يصل الخليفة ومن معه الى بغداد لا قاهم التتر في الطريق
خاربوهم وشتتوا شملهم وقتلوا الخليفة ولم يجلس على كرسي الخلافة الا خمسة اشهر
وعشرين يوماً فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم بامر الله بعد ثبوت نسبه واقامه
الظاهر بيبس في برج محترزاً واشرك له الدعا في الخطبة لاغير ثم امر السلطان الى
كل من سنقر الرومي وصاحب حماء وصاحب حمص ان يسيروا الى انطاكية وبلادها
للاغارة عليها فساروا اليها ونهبوا بلادها وضايقوها ثم عادوا فتوجهت العساكر
المصرية بحجة سنقر الرومي الى مصر ووصلوا اليها ومعهم ما ينوف عن ثلثمائة أسير
فقابلهم الملك الظاهر بالاحسان والانعام . ثم سار بيبس بتجريدة أخرى لفتح
قلعة الكرك انتقاماً من صاحبها الملك المغيث فتح الدين عمرو سبب ذلك ان بيبس
قبل توليته سلطنة مصر كان قد ترك امرأته عند المغيث فتح الدين وقاية لها بما
كان يقاسيه من الاسفار والعذاب وعهد اليه رعايتها فلم يحترم هذا حرمة الدين
والشرف ففتك بها بغير وجه الحق فاتصل ذلك بيبس . وكان قد تولى سلطنة
مصر فنار فيه حب الانتقام فجرد العساكر وسار الى الكرك وحاصر قلعتها وكانت
منبعة الجانب طالبا امتعت على كبار الفاحين ومنهم السلطان صلاح الدين ثم تمكن
بيبس من القبض على المغيث فتح الدين احتيالا وسلمه الى امرأته فقتلته بالقباقب
على مثل ما قتلت عليه شجرة الدر فأمنت الكرك بغير رئيس فسلمت وصارت
جزءاً من مملكة مصر فأرسل بيبس اليها بدر الدين اليسري الشمسي وعن الدين

حصص مقيمين في دمشق ولم يخرجوا مع الحلبي لقتال العساكر المصرية فاقتتل الحلبي مع علاء الدين فولى الحلبي واصحابه منهزمين الى قلعة دمشق واقام بها الى ان جن الليل فهرب منها الى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحملوا الى الديار المصرية فاعتقل ثم اطلق واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس واقيمت الخطبة له بها وبغيرها من سوريا مثل حماه وحلب وحمص واستقر علاء الدين ايديكين البندقداري نائباً بدمشق لتدبير امورها ثم رحل صاحب حماه وصاحب حمص من دمشق الى بلادهما ثم ارسل الظاهر بيبرس مرسوم الى علاء الدين البندقدار نائب دمشق بالقبض على بهاء الدين بغدي الاشرفي وعلى شمس الدين اقوش البرلي فبقى علاء الدين متوقفاً الفرص لتنفيذ ذلك فقبض على بهاء الدين وخرج اقوش البرلي من دمشق ليلاً ونزل بالمرج فارسل علاء الدين اليه يطيب قلبه فلم يلتفت اليه وسار الى حلب ودخلها واخرج منها نحر الدين المحصى بحيلة واستبد فيها وجمع العرب والتركمان واستعد لقتال عسكر مصر ثم ارسل الظاهر بيبرس جمال الدين الحمدي الصالح لقتال البرلي ثم رضي عن علم الدين سنجر الحلبي وجهزه بعسكر وراء الحمدي ثم اردفه بعز الدين الدماطي بعسكر آخر وساروا الجميع الى حلب لقتال البرلي فطردوه منها

﴿ انتقال الخلافة العباسية الى الديار المصرية ﴾

في رجب سنة ٦٥٩ قدم الى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص اسود اللون اسمه احمد زعموا انه ابن الامام الظاهر بالله محمد ابن الامام الناصر وانه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر فمقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه جماعة من الاكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الاعن فشهد أولئك العرب ان هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد بن الامام الناصر فيكون عم المستعصم واقام القاضي جماعة من الشهود اجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا شهادتهم ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة فأثبت القاضي تاج الدين نسب احمد المذكور ولقب المستعصم بالله أبا القاسم احمد وبايعه الملك الظاهر بيبرس والناس بالخلافة واهتم الملك الظاهر بامرءه وعمل له الدهاليز والجدازية وآلات الخلافة واستخدم له عسكراً فأصبحت القاهرة من ذلك الحين مقر الخلفاء العباسيين غير ان سلطتهم لم تكن تعتبر الا من وجهها الديني فقط وكانوا يلقبون بالائمة وقد رافق نزول العباسيين بالقاهرة

الصالحية على قتله ومنهم ركن الدين بيبرس البندقداري وانص مملوك نجم الدين الرومي الصالحى والهاروتى وعلم الدين صغن أغلى وساروا معه يتوقعون الفرصة فلما وصل قرب الصالحية وقد سبقه العساكر الى الصالحية فيها هو سائر وحوله الامراء اذ مر بين يديه أرنب بري وكان مولعاً بالصيد فسار في أثره في عرض الصحراء وساروا معه الامراء المذكورين فلما بعدوا تقدم اليه انص وشفع عنده في انسان فاجابه الملك المظفر قطوز الى ذلك فاهوى لتقيل يده وقبض عليها فحمل عليه ركن الدين بيبرس حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وذلك في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ ثم دفنوه في قبر صغير قرب قبر خلف نخشي ذوو الفقيد ان تبلغ الموصى لحاهم ففارقوا في مصر السفلى لا يظهرون على أحد فكانت مدة ملكه احدى عشر شهراً و١٣ يوماً وسار بيبرس بعد ذلك ورفقاه حتى وصلوا الى الدهليز بالصالحية وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين اقطاعي المستعرب فسألهم نائب السلطنة المذكور وقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا فقال له اقطاعي اجلس يا خوند في مرتبة السلطنة فجلس واستدعيت العساكر للتجليف خلفوا له في اليوم المذكور أيضاً واستقر بيبرس في السلطنة وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ثم بعد ذلك غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر لانه بلغه ان القاهر لقب غير مبارك وأضاف اليه أبو الفتوح وكان يلقب أيضاً بالعلمي وبالبندقداري نسبة الى سيده المسمى علاء الدين بندقدار الصالحى ثم سار الملك الظاهر بيبرس الى القاهرة فدخلها وكانت مزبنة للملك المظفر فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس ولما تم له أمر السلطنة جعل بهاء الدين وزيراً وبسيلي بك وهو من أعز أصدقائه من المماليك خزانة واستقدم من بقي من عائلة قطوز فأمهم وضمهم اليه واطلق من في السجون جميعاً بغير استثناء وأكثر من العطايا لرجاله وابطل كثيراً من الضرائب التي كانت قد ضربها سلفه كتصقيع الاملاك وتقومها وأخذ زكاة ثمنها في كل سنة وجباية دينار كل انسان وغير ذلك وأعلن أمره هذا على لسان الخطباء في المنابر . على انه مع ذلك لم ينل رضاء كل الرعية لاسيما السوريون فانهم شقوا عصا الطاعة وبايعوا الامير سنجر الحلبي حاكم دمشق ولقبوه بالملك المجاهد فارس الظاهر بيبرس عسكرياً بقيادة علاء الدين البندقدار سيده لقتال علم الدين سنجر الحلبي فوصلوا الى دمشق في ١٣ صفر سنة ٦٥٩ فخرج اليهم الحلبي لقتالهم وكان صاحب حماء وصاحب

ملك المغول (التتر) حفيد جانكيز خان وكان التتر قد انتشروا في جميع آسيا الشمالية والشرقية واستولوا هولاكو بعد بغداد الموصل وحلب ودمشق. وجميع السواحل البحرية حتى قدم مصر فبعث اليها منشوراً ونصه (من ملك الملوك الحاكم من الغرب الى الشرق أعظم الخانات هولاكو خان فاتح الفتوحات الغربية صاحب الحيوش العديدة الى أهل مصر . فيأهل مصر لاتخاطروا بانفسكم في محاربي لانكم ان فعلتم اذا انتم مخذولون فاقتدوا بغيركم من سكان حلب والموصل) فلما قرأ قطوز ذلك المنشور وعلم ما كان من امر فتوحات هذا التترى وما هو عليه من القوة والمنعة اوجس خيفة غير ان جيوشه كانوا قد حاربوا الحيوش الصليبية وانتصروا عليها ولم يزل في نفوسهم عزة الظفر واثقة النصر فاستخفوا بقول هولاكو واصروا على القتال فحشدهم قطوز وجهزهم بما يلزم من العدة والسلاح واستقدم اليه قبائل العربان وفرق فيهم وفي سائر جيشة نحواً من ٦٠٠ الف دينار جمعها من الضرائب التي اقامها على المصريين مما دعاء تصقيع الاملاك وزكاتها واحداث على كل انسان ديناراً يؤخذ منه واخذ تلك التركات الاهلية فكان يجمع منها ٦ آلاف ديناراً سنوياً . ثم سار من القاهرة للملاقاة التتر في غاية شعبان سنة ٦٥٨ . وما كاد الحيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت ابيه منجوخان ملك التتر فاضطر الى العود حالاً ليطالب بحقوق الوراثة فعاد تاركا في سوريا قسماً من نخبة فرسانه تحت قيادة نسيه ونائبه كتبوا لمحاربة قطوز فالتقيا في فلسطين في عين الجالوت فالتحم الحيشان فانهزم التتر هزيمة قبيحة واخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبوا واسرا بنه وتعلق من سلم من التتر برؤوس الجبال وتبعهم المسلمون فأفقهوهم وهرب من سلم منهم الى الشرق فأرسل ركن الدين بيبرس البندقداري في اثرهم فتبعهم المسلمون الى اطراف البلاد الشرقية فضاءع شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم لان القلوب كانت قد يئست من النصر على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ولانهم ما قصدوا اقلها الا فتحوه ولا عسكرياً الا هزموه فابتهجت الرايا بالنصرة عليهم وفي يوم دخول المظفر دمشق امر بشنق جماعة من المنتسبين الى التتر فشنعوا وكان من جملتهم حسين الكردي طيردار الملك الناصر يوسف وغنم المصريون غنيمة كبيرة تكفي لاغناء كل المشرق لانها تحتوي على اثنى ما نهب هولاكو من اغنى المدن أثناء فتوحاته

﴿ قتل الملك المظفر وساطنة الظاهر بيبرس البندقداري ﴾

وبينا كان الملك المظفر قطوز عائداً من سوريا الى الديار المصرية اتحدت الممالك

من بغداد واقتلوا قتالا شديداً فانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم الى جهة الشام ونزل هولاء على بغداد من الجانب الشرقي ونزل باجو وهو مقدم كبير في الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين الوزير ابن الملقمي الى هولاء كوثوق منه لنفسه وعاد الي الخليفة المستعصم وقال له ان هولاء يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر وحسن له الخروج الى هولاء كوفج الى المستعصم في جمع من اكابر اصحابه فانزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والامائل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محي الدين ابن الجوزي وأولاده وكذلك بقي يخرج الي التتر طائفة بعد طائفة فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف في بغداد وهجموا دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ولم يسلم الا من كان صغيراً فاخذ أسيراً ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً ثم نودي بالامان وأما الخليفة فانهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله ففيل خنق وقيل غرق في دجلة وقيل غير ذلك وكان المستعصم ضعيف الرأي وكانت خلافته نحو ١٦ سنة وهو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد وكان ابتداء دولتهم في سنة ١٣٢ وكانت مدة ملكها ٥٢٤ سنة تقريباً وعدد خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة

﴿ سلطنة المظفر سيف الدين قطوز وانتصار المصريين على التتر ﴾

وسيف الدين هذا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفه فهو ابن مودود شاه ابن اخ ملك خراسان فتح التتر بلادهم فقتلت عائلته ولما تولى سلطنة مصر لقب بالملك المنظر وحالما استوى على السلطنة قبض على نور الدين وأمر بقتله فحاول العلامة شرف الدين المدافعة عنه فضله على باب القلعة . ثم لاح له ان دمياط بعدان دكت أسوارها لم يعد شيء يعيق مراكب العدو عن المرور في النيل فامر بردم مصب النيل هناك وبعث بفرقة من الحجارين فضوا وقطعوا كثيراً من الحجارة والقوفا فيه حتى ضاق وتعذر سير المراكب منه الى دمياط وهو على ذلك الى اليوم فان المراكب الكبيرة لا تستطيع المرور فيه فتنقل البضائع منها الى الجروم والتواتر على السنة البعض ان سبب ذلك وجود جبل اورمل متجمع هناك . ثم كاتب ركن الدين بيبرس البندقداري الملك المنظر قطوز فبذل له الامان ووعدته الوعود الجميلة فجاء بيبرس الى مصر في جماعة من اصحابه فأقبل عليه الملك المنظر واكرمه وازله في دار الوزارة واقطعه قلوب وأعمالها وفي خلال ذلك جاء القاهرة قائد تترى ناقلاً منشوراً من هولاء كوا

كنوا له هناك وختقوه بعمامته وكان ذلك بدسياسة شجرة الدر فاشاعت انه مات مصروعاً وكان ايبك ظلوماً غشوماً سفاكاً للدماء . ولم تجسر شجرة الدر تعاظمي الاحكام بنفسها خوفاً من الايقاع بها فجاءت بخاتم الملك الى أميرين من كبار الامراء وهما جمال الدين عضو غدى وعز الدين الحلبي وطلبت اليهما أمام جثة زوجها ان يستلما زمام الاحكام فأبيا . وكان قتل ايبك في داخل السراي ليلاً ولم يشع الخبر في القاهرة حتى الصباح التالي . فلما علم أصحابه من المماليك بما حل به أضمرؤا على الانتقام وكان سن ابنه نور الدين علي ١٥ سنة فبايعوه واقتبوه بالملك المنصور وكانت مدة ايبك في الاحكام عشرين سنوات و ١١ شراً شاد في خلالها بنايات عظيمة وفي جللتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلاً مخصوصاً للنفقة عليها . وهو اول من أقام من ملوك الترك بقلعة الجبل . ولما بويع الملك المنصور قبض على قاتلة أبيه وعهد بها الى نساء بيته فاماتوها ضرباً بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق القلعة فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة أما الملك المنصور فلم يحكم الا مدة قصيرة تحت مناظرة وصيه شرف الدين هبة الله المتقدم ذكره . ولم يلبث حتى استبدله بسيف الدين قطوز مع لقب اتابك اي وصي الملك ونائبه . ولما تولى سيف الدين هذا المنصب استقدم اليه المماليك الصالحية من سوريا وعقد معهم مجلساً أقرؤا فيه على عدم لياقة نور الدين للاحكام نظراً لصغر سنه وأذاعوا ذلك فأزولوا نور الدين في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧ بعد ان حكم سنتين

هو استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية

في أول سنة ٦٥٦ قصد هولاكو ملك التتر مدينة بغداد وملكها في ٢٠ محرم عنوة وقتل الخليفة المستعصم بالله وسبب ذلك ان وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي كان رفضياً وكان أهل الكرخ روافض فخرت فتنه بين السنة والشيعة ببغداد على جاري عادتهم فامر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين دويدار العسكر فهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر واطعمهم في ملك بغداد وكان عسكر بغداد يبلغ مائة الف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل الى التتر متحصلاً اقطاعهم وصار عسكر بغداد دون عشرين الف فارس وارسل ابن العلقمي الى التتر أخاه يستدعيهم فصاروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم وخرج عسكر الخليفة لقتالهم ومقدمهم ركن الدين الدويدار والتقوا على مرحلتين

ايبك من طائفة الامراء الصالحين قبض على الملك الاشرف وألقاه في سجن مظلم
فات فيه تعيساً بعد ان حكم سنة وشهراً واستقل ايبك بالسلطنة واستوزر
شخصاً من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله ابن صاعد الفارزي أحد كتاب
الاقباط وكان قد تظاهر بالاسلام في أيام الملك الكامل وترقى في خدمة الكتابة
وكان طبيباً له مشهوراً بالطب والسياسة فلما صار وزيراً قرر على التجار وذوي
اليسار وأرباب العقاقير أموالاً ورتب مكوساً وهو أول قبضي ولي الوزارة

﴿ انتهاء الحروب الصليبية السابعة ﴾

لما علم الملك لويس التاسع بان اوروبا لا ترسل اليه عساكر صليبية ولا يأتيه
أحد من مملكته نفسها خاف من فشله فأرسل الى بلاد الموره ورومانيا وقبرص
يطلب الجنود على نفقته فجاءته عساكر منها برواتب شهرية ومصاريف وغيره حتى
فرغت خزائنه ولكنه لم يمكنه ان يتقدم لمحاربة المسلمين فحصل له فشل فصرف
جهده في تحصين بلاد الصليبيين بسوريا لصدد هجمات المهاجرين ثم أتاه خبر من
فرانسا يفيد موت والدته الملكة بلانشا نائبة المملكة وطلب سرعة حضوره لاستلام
المملكة فخالا استعد للسفر ونزل في مراكمه وسار نحو بلاد فرانسا قاصداً مملكته
وبذلك انتهت الحروب الصليبية السابعة

﴿ وفاة ايبك الجاشنكير وسلطنة ولده نور الدين ﴾

ولما استتب المقام لايبك وتخلص من الممالك الصالحية وغيرهم ممن كانوا
ينازعون الملك حسب الجو قد خلا له وما دري ان شجرة الدر لا تزال واقفة له
بالمرصاد بعد ان صارت له زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن
يجسر على مقاومتها مع علمه باستقلالها من مهام الملك على انه لم يستطع احتمال هذا
التقييد والسلطان في يده فجعل يبحث عن طريقة تنقذه من هذه القيود مع علمه
ان مكائد النساء أشد وطأة من ملاقات أبطال الرجال . فادعى انها عقيمة لا يرجو
منها نسلاً فاقنتى عليها سراري أخريات فولدت له احداهن ولداً دعاه نور الدين علي
ثم بلغها انه ساع الى التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد أمسك
عن زيارتها فاشتملت حسداً لعلمها ان هذه الزوجة الاخيرة من بنات الملوك تخافت
ان تحل محلها من العظمة فاقرت على الكيد به . فينما كان ماراً في ٢٣ ربيع اول
سنة ٦٥٥ في الدهليز السري الى دار الحريم وثب عليه خمسة خصيان بيض كانوا قد

مبايعة ناصر الدين أما هذا فلما رأى أمر انكساره على ما تقدم لم يعد يمكنه إعادة الحرب ثانية فصالح المصريين على أن ينجلي لهم عن مصر وغزة وبيت المقدس ولكنه ربح من الجهة الثانية ما كان يرومه من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين . ثم اتفق الممالك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفاً من قدوم الصليبيين اليها مرة أخرى فسيروا اليها الحجارين والفيلة قتلوا هدم اسوارها وحيت اثارها ولم يبق منها سوى الجامع ويعرف بجامع القتح واخصاص ابتناها بعض الفقراء للسكن في قبليها ودعوا ذلك المكان المنشية . أما دمياط الباقية الى هذا العهد فابقيت على انقاض تلك

● طلب الملك لويس التاسع النجدة من اوروبا و وفاة الاشرف بن يوسف ●

لما علم الملك لويس بفساد المعاهدة المذكورة واتحاد المسلمين خاف على بلاد سوريا فارسل الى البابا برومية يطلب منه المساعدة في ارسال نجدة الى سوريا وكذلك أرسل الى والدته بلانشا نائبة المملكة الفرنسية فسلالبايرسل المنشورات بالحث والتحريض على نجدة لويس الي ملوك اوروبا فلم يلتفت احد الى أوامره وكذلك في فرانسما ذلك لعلم الجميع بما حصل لملك فرانسما وغيره من الملوك وانه من عهد الحروب الصليبية الاولى ومجريداهم تذهب هباء مثوراً . واما من جهة المصريين فان الفارس اقطاعي عظم في عيون المصريين لما اظهره من البسالة والاقدام في الحروب الاخيرة فلحقه احزابه بالملك وتزوج أخت النصورسلطان حماه واسكنها في القلعة لاتصال جبل قرباها بالمائلة المنوكية فاوجس ايبك شراً من انتشار نفوذ الفارس المذكور حتى خشي مناظرته في الملك فاخذ يسعى للتخلص منه وكان الفارس زعيماً لحزب من الممالك الصالحية وكان يطلبون له المشاركة في الملك مع الملك الاشرف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقى كثيرين منهم وفي جملتهم سيف الدين قطوز الذي صار ملكاً بعد ذلك . اما الفارس اقطاعي فقتله ايبك وهو داخل بسراري القلعة ثم خشي الوقوع في شر أعماله فأمر بقتل أبواب القلعة وأبواب المدينة ولبث يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى جاء الامراء الصالحيون برئاسة ركن الدين بيبرس ومجهمروا على أبواب القلعة وطلبوا الفارس اقطاعي ظناً منهم انه كان مأسوراً فرمى اليهم برأسه من على السور فلما علموا بقتله ارتاعت قلوبهم فعمدوا الى الفرار قاصدين باب القراطين ففتحوه وساروا قاصدين سوريا وبقي منهم شرذمة قبض عليهم وأودعوا السجن . فلما تخلص الملك المعز

الصليبيين وسافروا الى بلادهم . وأما المماليك الصالحيون فانهم اجبروا ابيك أن يقبل بمبايعة شاب من العائلة الايوبية لم يبلغ الثامنة من العمر وكان في اليمن واسمه موسى مظفر الدين بن يوسف اتسر ملك اليمن فبيع في ه جمادى الاولى سنة ٦٤٨ وباعه الناس ولقبوه الملك الاشرف وتعين عز الدين ابيك انا بكاله غير ان ازمة الاحكام ما برحت في يده ولم يكن الاشرف الا اسماً بلا معنى ومن الغريب تأليف هذه السلطنة المزدوجة من أحد سلالة العائلة الايوبية وأحد ممالكها والاغرب من ذلك أن يخطب لهما معاً

﴿ حروب بين المماليك والسوريين واتحادهم مع الملك لويس ﴾

﴿ وتخريب دمياط ﴾

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق ناصر الدين يوسف الايوبي للاخذ بشار الملك المعظم فدعى اليه اقاربه امراء العائلة الايوبية للتعاضد على ذلك ولتأكيد النجاح بمسماه طلب من الملك لويس التاسع مساعدته ولما أحس بذلك المصريون أرسلوا الى لويس المذكور مائتي فارس من الاسرى وطلبوا منه عقد معاهدة مقنضهاها ان المصريين اذا انتصروا على صاحب دمشق اعطوا ملك فرانس القدس وان جميع البلاد التي يستولون عليها تكون مناصفة بينهم فقال الملك لويس الى معاهدة المصريين واعتذر الي صاحب دمشق بان بينه وبين المصريين هدنة بعشر سنين فانصل أمر تلك المحابر بسطان دمشق فانفذ فرقة من عشرين الف مقاتل تحول دون اتحاد الجيشين فعثروا بالمصريين في غزة فهاضموهم حتى ارجعهم الى الصالحية فانجدهم الفارس اقطاعي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ في العباسية وقتلاتا فانكسر المصريون أولاً فتعقبهم السوريون فجعل ابيك والفارس اقطاعي انهزامهما نحو سوريا ومعهما جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شردمة من رجاله قتلوا وشتتا رجاله فاشتد ازرها فعاذ المهاجمة سلطان دمشق وكان في معسكره مع شردمة قليلة من الجند . أما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الحيوش المصرية المنهزمة فاضطر ناصر الدين الى الفرار بنفسه فقباه فلم يدركه فعادا الى مصر فرأيا الحيوش السورية قد دخلت القاهرة وخاف اهلها ظناً منهم ان النصر لناصر الدين فابعوه وخطبوا له . الا ان الأئمة لم يوافقوا على تلك المبايعة فلم ينجوا من انتقام ابيك فلما علم المصريون ان النصر لهم فرحوا جداً وابطلوا

إذا كان باباكم بهذا راضياً فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم ان اضمروا عودة لاخذ نار او لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صحيح
﴿ الملك لويس بعكا وسلطنة ايبك الجاشنكير ﴾

ولما وصل الملك لويس التاسع الى عكا ببعض رجاله لان الآخرين سافروا الى
بلادهم اجتهد في جمع باقي المبلغ المقرر وقدره ٤٠٠ الف دينار ولما كمل عنده
ارسله بحجة بعض الصليبيين الى الديار المصرية وطلب اطلاق باقي الاسارى فاستلموا
المبلغ وأطلقوا نحو اربعمائة اسير فقط فاغتاز لويس وأخذ يستعد في تحصين بلاد
سوريا واما شجرة الدر فان الناس لم يرتاحوا الى طاعتها فانفذ السوريون الى الخليفة
العباسي في بغداد يستقونونه في أمر هذه الملكة فكتب اليهم مامفاده (اذا لم يكن
بينكم من يصلح للسلطنة اقدم اليكم فاقم عليكم من يحكم فيكم اما قرأتهم ماقاله النبي
صلى الله عليه وسلم عليهم) فاستمسك بمالك مصر بهذه الفتوى ونار وبقاؤهم
في دمشق وخاعوا طاعة شجرة الدر وبايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف
الايوبي في ٨ ربيع اول سنة ٦٤٨ وقلوا كل من كان في دمشق من المماليك على
دعوة شجرة الدر وفعل مثل ذلك اهل بعلبك وشميس وعجلون فنشأ بسبب ذلك
خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر آل الى مواقع حربية فتمكن عز الدين ايبك
في هذه الانقسامات والاستقلال والحج الامراء شجرة الدر الى الاستقالة فاستقلت
ثم بويع عز الدين ايبك على مصر ولقب بالملك المنز الجاشنكير التركاني الصالحى
وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبه الى حزبه . وبعد قليل انقسم المماليك الى
حزبين عرفا بالمعزيين نسبة الى الملك المعز ايبك وبالصالحين نسبة الى الملك الصالح نجم
الدين وتنازعا النفوذ ففاز الصالحيون .

﴿ سفراخوات الملك لويس الى فرانسوا وسلطنة الملك الاشرف ابن يوسف ﴾

وفي اثناء ذلك ارسلت الملكة بلانش والدته الملك لويس التاسع ونائبته على
المملكة الى ولدها المذكور بسوريا تطلب منه سرعة سفره الى مملكته فعزم
على السفر فاستغاث به صاييو سوريا وطلبوا منه البقاء معهم خوفاً من استيلاء
المسلمين على بلادهم بعد سفره فاجاب طلبهم وعدل عن السفر الى مملكته
فلما رأى ذلك اخواه ابي عزمه على الاقامة بسوريا ركبا البحر وتبعهما باقي

بيبرس فهرب الملك المعظم منهم الى البرج الخشبي الذي نصب له بفارسكور فاطلقوا في البرج النار فخرج المعظم من البرج هارباً طالباً البحر ليركب في حرا فته خالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فادركوه واتفوا قتله في يوم الاثنين ٢٩ محرم سنة ٦٤٨ وكانت مدة اقامته في المملكة من حين وصوله الى الديار الديار المصرية شهرين واياماً وبموته انقرضت الدولة الايوبية ولما جري ذلك اجتمع الامراء واتفقوا على ان يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة وان يكون عز الدين ايبك الجاشنكير الصالحى المعروف بالتركاني اتابك السكر وحلفوا على ذلك في ١٠ صفر سنة ٦٤٨ وخطب لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة باسمها وكان نقش السكة (المستعصية الصالحة ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل) وكانت قد رزقت من الملك الصالح ولداً اسمه خليل مات صغيراً (فسميت بهذا الاسم) وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل ثم دارت الخبايرة بين رجال الحكومة المصرية وبين الملك لويس التاسع المحبوس بشأن اطلاقه هو ومن معه من الاسرى قتم الصالح على ان يدفع ٨٠٠ الف دينار ويسلم مدينة دمياط ويرحل بسلام وتطلق الحكومة المصرية جميع الاسرى فاستقر الرأي على ذلك وكانت دمياط لم تزل مع الصليبيين والعساكر الاسلامية محاطة بها والمملكة مرغريتا تقيم فيها وهي حامل فوضعت ولداً فسمته تريستان (اي الحزين) وكان الصليبيون الذين معها بالمدينة وهم البيزاويون والجيويون قد عزموا على ان يهربوا من المدينة ويتركوا هذه المملكة فوزعت عليهم جميع ما عندها من الذهب والفضة حتي استمالهم ثم ركب الملك لويس واخوته وبعض الرؤساء وساروا قاصدين دمياط وحوله العساكر الاسلامية للاستيلاء على دمياط واستلام المبلغ المقرر فلما وصلها سلمها للعساكر المصرية ودفع ٤٠٠ الف دينار وزل هو وباقي الصليبيين وزوجته بمرآكب البحر وسار قاصداً عكا فقال جمال الدين يحيى ابن مطروح في ذلك ابياتاً منها

قل للفرنسيس اذا جثته	مقال صدق عن قؤول نصيح
آتيت مصرا تبغني ملكها	نحسب ان الزمر ياطبل ربح
وكل اصحابك اوردتهم	بحسن تديرك بطن الضريح
خمسین الفاً لا ترى منهم	غير قليل أو أسير جريح
الملك الله الى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح

الواقعة العظيمة نزل بمعسكر الصليبيين امراض رديئة من كثرة جثث المقتولين منهم وتضاعف العفونة فأفسدت الهواء عليهم فكثر بينهم الموت كأنه وباء ثم أعقب ذلك قناء زادهم واشتد عليهم الجوع وضربهم بسيفه تكميلاً لمصائبهم . لان عساكر المسلمين وقفوا بمراكبهم في البحر بالقرب للمنصورة . وكلما وجدوا مراكب واردة للصليبيين بالقوت هجموا عليها وأخذوها وأردت ثانياً الى دمياط وكذلك الملك لويس نفسه مرض نخاف جميع الصليبيين ان يموت الملك فاجتمعوا وعولوا على طلب هدية لرفع السلاح أياماً معدودة

﴿ قدوم المعظم تورانشاه وسلطته وواقعة الصليبيين ﴾

﴿ واسر لويس التاسع وغيره ﴾

في ٢١ القعدة سنة ٦٤٧ قدم السلطان غياث الدين تورانشاه من حصن كيفا فاستولى على سلطته واشتد عزم المسلمين به وضعفت قلوب الصليبيين ووقع القتال بين الفريقين في البر والبحر فأسر المسلمون ٣٢ مراكباً فلما رأى الصليبيون ما كان من ضعفهم أرسل لويس التاسع يطلب المصالحة على ان يأخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط فرفض الملك المعظم هذا الطلب وفي ٢ محرم سنة ٦٤٨ عزم الصليبيون على الرجوع الى دمياط فتعقبهم المسلمون حتى أدركوهم غربي فارسكور فاستلحموهم وأخذوا في قتلهم ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ ألفاً وأسروا الملك لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة وقيده بالسلاسل الحديدية وكان الملك لويس واخوته وجميع رؤساء جيشه قد انحازوا الى منية أبي عبد الله وطلبوا الامان فأنهم الطواشي بحسن الصالحي ثم احتاطوا بهم وقبضوا على الملك المذكور واخوته وجميع الرؤساء وأحضروهم الى المنصورة وجعلوهم في الدار التي كان ينزلها كاتب الانشاء نحر الدين بن لقمان ووكل بالملك لويس الطواشي صبيح المعظم ثم رحل الملك المعظم من المنصورة ونزل بفارسكور ونصب بها برجاً من الخشب

﴿ قتل المعظم وسلطنة شجرة الدر واطلاق الملك لويس التاسع ﴾

ثم ان الملك المعظم تورانشاه عزل جميع من كان بيده أزمة الحكومة من أمراء آييه وعماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نفر قلبه منه واعتمد على رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا وكانوا سفلة أراذل فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور وهجموا عليه بالسيوف وكان اول من ضربه ركن الدين

﴿ محاربات الصليبيين وواقعة المنصورة ﴾

بعد امتلاك الصليبيين مدينة دمياط رتبوا حاكم فيها وأقامت بها الملكة مرغريتا وسافروا منها قاصدين مصر القاهرة فوجدوا معسكر المسلمين بالمنصورة فردهم عن غرضهم فاقاموا في الموضع الذي قامت به العساكر الصليبية السادسة واستمرت بين العدوين المناوشات وأخذت العساكر الاسلامية تحذفهم بالنبال وكرات النار التي يسميها مؤرخوهم النيران (الفريجوازية) وكان كل يوم يقتل من الصليبيين كثيرون ويأسر منهم خطفاء كثيرون ولما بلغ الصليبيين خبر وفاة الملك الصالح طمعوا في البلاد فخاربوا العساكر الاسلامية محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي بقيادة الامير نحر الدين خارب ببسالة كلية كل ذلك حصل بين الجيشين ببحر أشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة وهم لا يعلمون طريقاً اليها غير النيل فأتى اليهم بعض من غدر من المسلمين وأخبرهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسان جمعية الهيكلين وجمعية القديس يوحنا المعمدان بقيادة الكونت روبرتوس دي ارتواز شقيق الملك لويس وهاجت معسكر المنصورة بقتة وكان الامير نحر الدين في الحمام فأنته الاخبار بهجوم الصليبيين فنادى برجاله وخرج للدفاع فأدركه بعضهم فقتله واشتد عزم الصليبيين حتى كادت تدور الدائرة على المسلمين لولا محاليلك السلطان الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانقضوا على الصليبيين انقضاض الاسود على فريستها فقتلوا راول دي كوزي وغويلوم لونكانيه رؤساء الجمعيات المذكورة والكونت روبرتوس أخ الملك لويس ثم باقي الفرسان فلم يبقوا منهم احداً ولما بلغ خبر هذه الواقعة الملك لويس ومقتل أخيه أمر بوجو رئيس الجيوش بالسرعة في السير الى معسكر المسلمين ومباغتتهم فسار الى ان وصل الى معسكر المسلمين واشتد بينهم القتال تارة بالنبال وأخرى بالرمح ومثلها بالبلطات والسيف وبعد جهاد عجيب وصبر من المسلمين شديد قتل من الصليبيين والي تريشاطو . وهو كز دي اكو سا . وراول دي فنوره . وفاريس دي لوبي وأما ارارد دي ايري فضربه أحد المماليك بسيفه فقد وجهه شطرين فلاحقهم الملك لويس وقوى عزمهم وقد وقع اخوه الثاني الكونت دي انجو عن حصانه فاراد المسلمون أسره فلاحقه لويس وجنده وخلصه من أيديهم واستمر القتال عاماً بين جميع الصليبيين وعساكر المسلمين وقد أعيا الفريقان التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الخسائر . وبعد انقضاء هذه

الواقعة العظيمة نزل بمعسكر الصليبيين امراض رديئة من كثرة جثث القتولين منهم وتساعد العفونة فأفسدت الهواء عليهم فكثر بينهم الموت كأنه وباء ثم أعقب ذلك قناء زادهم واشتد عليهم الجوع وضربهم بسيفه تكميلاً لمصائبهم . لان عساكر المسلمين وقفوا بمراكبهم في البحر بالقرب للمنصورة . وكلما وجدوا مراكب واردة للصليبيين بالقوت هجموا عليها وأخذوها أو ارتدت ثانياً الى دمياط وكذلك الملك لويس نفسه مرض تخاف جميع الصليبيين ان يموت الملك فاجتمعوا وعولوا على طلب هدنة لرفع السلاح أياماً معدودة

﴿ قدوم المعظم تورانشاه وسلطنته وواقعة الصليبيين ﴾

﴿ واسر لويس التاسع وغيره ﴾

في ٢١ القعدة سنة ٦٤٧ قدم السلطان غياث الدين تورانشاه من حصن كيفا فاستولى على سلطنته واشتد عزم المسلمين به وضعت قلوب الصليبيين ووقع القتال بين الفريقين في البر والبحر فأسر المسلمون ٣٢ مراكباً فلما رأى الصليبيون ما كان من ضعفهم أرسل لويس التاسع يطلب المصالحة على ان يأخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط فرفض الملك المعظم هذا الطلب وفي ٢ محرم سنة ٦٤٨ عزم الصليبيون على الرجوع الى دمياط فنعقهم المسلمون حتى أدركوهم غربي فارسكور فاستلحموهم وأثخنوا في قتلهم ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ ألفاً وأسروا الملك لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة وقيدوه بالسلاسل الحديدية وكان الملك لويس واخوته وجميع رؤساء جيشه قد انحازوا الى منية أبي عبد الله وطلبوا الامان فأمهم الطواشي بحسن الصالحى ثم احتاطوا بهم وقبضوا على الملك المذكور واخوته وجميع الرؤساء وأحضروهم الى المنصورة وجعلوهم في الدار التي كان ينزلها كاتب الانشاء نحر الدين بن لقمان ووكل بالملك لويس الطواشي صبيح المعظم ثم رحل الملك المعظم من المنصورة ونزل بفارسكور ونصب بها برجاً من الخشب

﴿ قتل المعظم وسلطنة شجرة الدر واطلاق الملك لويس التاسع ﴾

ثم ان الملك المعظم تورانشاه عزل جميع من كان بيده أزمة الحكومة من أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نقر قلبه منه واعتمد على رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا وكانوا سفلة أراذل فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور وهجموا عليه بالسيوف وكان اول من ضربه ركن الدين

﴿ محاربات الصليبيين وواقعة المنصورة ﴾

بعد امتلاك الصليبيين مدينة دمياط رتبوا حاكم فيها وأقامت بها الملكة مرغريتا وسافروا منها قاصدين مصر القاهرة فوجدوا معسكر المسلمين بالمنصورة فردهم عن غرضهم فاقاموا في الموضع الذي قامت به العساكر الصليبية السادسة واستمرت بين العدوين المناوشات وأخذت العساكر الاسلامية تحذفهم بالتبادل وكرات النار التي يسبها مؤرخوهم النيران (الفريجوازيه) وكان كل يوم يقتل من الصليبيين كثيرون ويأسر منهم خطفاً كثيرون ولما بلغ الصليبيين خبر وفاة الملك الصالح طمعوا في البلاد فخاربوا العساكر الاسلامية محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي بقيادة الامير نجر الدين خارب ببسالة كلية . كل ذلك حصل بين الجيشين ببحر أشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة وهم لا يعلمون طريقاً اليها غير النيل فأتى اليهم بعض من غدر من المسلمين وأخبرهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسان جمعية الهيكلين وجمعية القديس يوحنا المعمدان بقيادة الكونت روبرتوس دي ارتواز شقيق الملك لويس وهاجت معسكر المنصورة بفتة وكان الامير نجر الدين في الحمام فأنته الاخبار بهجوم الصليبيين فنأدى برجاله وخرج للدفاع فأدركه بعضهم فقتله واشتد عزم الصليبيين حتى كادت تدور الدائرة على المسلمين لولا ممالك السلطان الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانقضوا على الصليبيين انقضاء الاسود على فريستها فقتلوا راول دي كوزي وغويليوم لونكانيه رؤساء الجمعيات المذكورة والكونت روبرتوس أخ الملك لويس ثم باقي الفرسان فلم يبقوا منهم احداً ولما بلغ خبر هذه الواقعة الملك لويس ومقتل أخيه أمر بوجو رئيس الحشوش بالسرعة في المسير الى معسكر المسلمين ومباغتتهم فسار الى ان وصل الى عسكر المسلمين واشتد بينهم القتال تارة بالنبال وأخرى بالرمح ومثلها بالبلطات وبالسيف وبعد جهاد عجيب وصبر من المسلمين شديد قتل من الصليبيين والي تریشاطو . وهو كنز دي اكو سا . وراول دي فنوره . وفاريس دي لوبي وأما ارارد دي ايري فضربه أحد المماليك بسيفه ففقد وجهه شطرين فلحقهم الملك لويس وقوى عزمهم وقد وقع اخوه الثاني الكونت دي انجو عن حصانه فاراد المسلمون أسره فلحقه لويس وجنده وخلصه من أيديهم واستمر القتال عاماً بين جميع الصليبيين وعساكر المسلمين وقد أعيا الفريقان التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الخسائر . وبعد انقضاء هذه

﴿ استيلاء الملك الصالح على الكرك ووفاته ﴾

وفي ٢٤ صفر سنة ٦٤٧ كان عسكر الصالح في المنصورة وحصنها واستعد للمدافعة وكان الملك الناصر صاحب الكرك قد سار الى حلب مستجيراً بصاحبها واستتاب على بلاده ابنه عيسى ولقبه الملك المعظم وكان له ولدان آخران أكبر من عيسى وهما الامجد حسن والظاهر شاذي فقبضاً لتقديم أخيهما عيسى عليهما وبعد سفر أبيهما قبضا عليه وتوجه الامجد حسن الى الملك الصالح أيوب وهو مريض في المنصورة وبذل له تسليم الكرك على اقطاع له ولاخيه بديار مصر فاحسن اليه الصالح أيوب وأعطاهما أقطاعاً أرضاهما بها وأرسل الى الكرك من تسلمها يوم الاثنين ١٨ جمادى الآخرة وفرح الصالح بالكرك فرحاً عظيماً مع ما هو فيه من المرض وفي ليلة الاحد ١٤ شعبان توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب وكانت مدة سلطته على الديار المصرية تسع سنين و٨ أشهر و٢٠ يوماً وعمره نحو أربعين سنة وكان مهيباً عالي الهمة عفيفاً طاهر اللسان والذيل شديد الوقار كثير الصمت وجمع من الممالك الترك ما لم يجتمع لغيره حتى كان أكثر امراء عسكره من مماليكه ورتب جماعة منهم حول دهليزه وسماههم البحرية ولم يبق من أولاده غير الملك المعظم تورانشاه وكان مقبلاً بحسن كيفا ومات الصالح ولم يوص بالملك لاحد فكان من جملة جواريه جارية تدعى شجرة الدر وهي والدة المعظم تورانشاه فتواطأت مع الامير نضر الدين ورئيس الخصى جمال الدين محسن على مباينة ابنها وكانت عارفة بامور الحكومة وسياستها ويقال ان الملك الصالح كثيراً ما عهد اليها ادارة الاحكام اثناء غيابه عنها في حملاته الحربية . فلما توفى كتمت أمر موته ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلة (ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعصده ابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه وقد عين الامير نضر الدين اتابك لادارة الاحكام) فبايع جميع الامراء . ثم أرسلت هذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد وأعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك محتومة بختم السلطان الصالح الى جميع انحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لا يزال حياً لكنهم عند ما علموا بان الامير نضر الدين أرسل قاصداً لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا بسرعة الى القاهرة داخلهم الريب

وقد اشتد به المرض بكي واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب
 (بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين .
 أما بعد فإنه وصل كتابك وانت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فتحزن أرباب
 السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بنى علينا باغ الا دمرناه ولو رأيت عينك
 أيها المغرور حد سيفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل ونخرينا
 ديار الاواخر منكم والاولائل لكان لك ان تمض على اناملك بالندم ولا بد ان نزل بك
 القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك فهناك تسي الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب
 ينقلبون فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه على أول سورة النحل أتى أمر الله فلا
 تستعجلوه وتكون على آخر سورة ص وتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله
 تعالى وهو اصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين
 وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبقيك يصرعك والى البلاء يقبلك والسلام)

❦ في امتلاك الصليبيين دمياط ❦

وبعد ذلك عقد الملك لويس التاسع مجلس مشورة الصليبيين ليقرروا هل تنزل
 عساكر الصليبيين الى بر دمياط أو تقيم أياماً بما كبرهم للاستراحة فقرر سرعة نزولهم
 فنزل الملك لويس ومعه اخوته وبجانبه أحد الرؤساء رافعاً علم الحرب وامامه النائب
 البابوي حاملاً الصليب واصطفوا للقتال في يوم السبت ٢١ صفر سنة ٦٤٧ فحصلت
 بين الفريقين مناوشات قتل فيها بعض امراء المسلمين ثم حصلت أيضاً مناوشة في البحر
 بين مراكب الصليبيين ومراكب المسلمين وفي المساء فر الامير نجر الدين بغير
 داع قبعه بنو كنانة وخرجوا من المدينة فبعهم الاهالي في الليل هائمين على
 وجوههم لا يلتفتون الى شيء ولحقوا بالسكر في اشمون نخلت المدينة للصليبيين
 ففي يوم الاحد ٢٢ من الشهر المذكور سار الصليبيون قاصدين محاصرة المدينة فوجدوها
 مفتوحة خالية من سكانها فدخلوها بامان واستولوا على جميع ما فيها من المؤن والذخائر
 والاسلحة وعدة الحرب ودخلوا الجامع وجعلوه كنيسة فخرم سلطان مصر بذلك
 خسارة لا تعوض فاستشاط الملك الصالح غيظاً لذلك وجمع اليه بني كنانة وغنهم
 لانهم لم يكن داع للهزيمة فقالوا نحن لم نفعل ذلك الا بعد ان رأينا
 الامير نجر الدين قاراً ومن ورثه رجاله فامر الملك الصالح باعدام ٤٤ من امراءهم
 لانهم خرجوا من دمياط بغير اذنه

مرغريتا وخرجت لوداعه الملكة بلانش والدته وجميع الاكبيروس ورجال الحكومة ثم سار من بلاد فرنسا الجنوبية واجتاز اقليم لانكادوك ونزل في المراكب من ميناء اكس بورتاس وساروا في البحر المتوسط الى ان وصلوا جزيرة قبرص وأقاموا بها ثم انه تقشى في المعسكر الصليبي مرض وبائي شديد اهلك معظمهم ومات به هناك الكونت دي دروكس . والكونت دي مونتفرت . والكونت دي فاندوما والارشابود دي بوربون وغيرهم

﴿ وصول الصليبيين الى دمياط ومخابرتهم للملك الصالح أيوب ﴾

كان السلطان الصالح أيوب قد فاجأه مرض ثقيل وهو تورم في مابضه تكون منه ناصور قتح وعسر برؤه وانضاف اليه قرحة في الصدر فلزم الفراش في دمشق فجاءه منبئ يخبره بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر وأخذها وقد اكثروا من التجنيد ووردت اليهم النجيدات من جميع ممالك أوروبا فلما علم بذلك وهو مريض لم يسعه الا مبارحة دمشق فسار في محفة ونزل اشمون طنح في أول سنة ٦٤٧ وجمع في مدينة دمياط من الاقوات والزاد والاسلحة وآلات القتال شيئاً كثيراً خوفاً من ان يجرى على دمياط ما جرى في أيام أبيه وجهاز أسطولا من صناعة مصر وجعل فيه سائر ما يحتاج اليه الجند وسيره شيئاً فشيئاً وضم الى جنده كثيراً من العربان واكثرهم من بني كنانة جعلهم وراء متاريس دمياط وعهد قيادة حامية هذه المدينة الى الامير نغر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ففي صباح يوم الجمعة ٢٠ صفر من هذه السنة وردت مراكب الصليبيين الى دمياط وفيها جوعهم وحال وصولهم بعث ملكهم لويس التاسع الى الملك الصالح كتابا نصه (أما بعد فانه لم يخف عليك اني أمين الامة العيسوية كما انه لا يخفى عليّ انك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك ان عندنا هاهنا جزائر الاندلس وما يحملونه اليها من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونزمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لي بكل الايمان وأدخلت عليّ الاقساء والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان لكننت واصلا اليك وقائلتك في أعز البقاع اليك فاما ان تكون البلاد لي فياهدية حصلت في يديّ واما ان تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العلياء ممتدة اليّ وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء) فلما قرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح

ملك النمسا للمدافعة عنه في التهم الموجهة اليه من البابا في الجلسة الاولى التي عقدت في يوم ١٨ يونيه سنة ١٢٤٥ م اقتنع البابا المؤتمر وعرض عليه الواجهة الآتية . أولاً مسألة التتر باوروبا . ثانياً انشقاق الروم . ثالثاً غزوات الخوارزميين بسوريا . رابعاً الاضطهاد الذي تعمده الملك فريديريكوس . فقرر أعضاء المؤتمر ما يأتي . أولاً يلزم اغانة القسطنطينية وتخليص القبر المقدس وتجر يد عساكر لايقاد حروب صليبية سابعة وان البابا والاساقفة يقدمون للتفقة على هذه الحروب عشر مداخيلهم وباقى الاكليركيين نصف عشر مداخيلهم وأصدروا الاوامر اللازمة لتجهيز هذه الحروب . ثانياً قرر بعزل الملك فريديريكوس ملك النمسا وذلك بعد مدافعة نوابه التي لم تأت بفائدة ثالثاً أمر البابا ان الكردينالية يلبسون اثواب لونها أحمر علامة على استعدادهم لسفك دماهم في حفظ الكنيسة

• { ابتداء الحروب الصليبية السابعة } •

(سفر العساكر الصليبية السابعة)

بعد انتهاء المؤتمر السابق الذكر أرسل البابا وأعضاء المؤتمر الى الملك لويس التاسع سلطان فرانسا يطلبون منه استعدادهم ومسيره لخلاص القبر المقدس من المسلمين فقبل طلبهم هذا ونبه على عساكره بالتجهيزات الحربية فتهته عن ذلك والدته وأرباب دولته . ثم أصابه مرض تهدد حياته فنذر للمسيح بأنه اذا شفي توجه بعساكره لخلاص قبره . فلما شفي استلم الصليب وصار يجهز العساكر الصليبية السابعة للمسير فاستعد للسفر كل من السلطان المذكور وأخواته الثلاثة والكونت دي براتانيا وأولاده والدوك دي برغونيا . والكونت دي فلاندر . والكونت دي بار . والكونت دي منفرت والكونت دي سان بول مع ابن أخيه شاتيلون والكونت دي سواسونس والكونت دي فاندوما وغيرهم كثيرين والامير جافيلاد صديق الملك لويس التاسع وهو مؤرخ هذه الحروب وعقد الملك المذكور جمعية بمدينة باريس لتحديد ميعاد السفر وأقام والدته بلانشا نائبة عنه في المملكة مدة غيابه وقد اقسم له رجال حكمته بان يحفظوا الطاعة لعائلته ان حدث له شيء في سفره وأرسل البابا منشورات تقرأ في الكنائس بمدح الملك لويس التاسع صاحب الحروب الصليبية السابعة والثناء عليه وسار الملك لويس الى كنيسة القديس ديونيسيوس واستلم سنجق الصليب هناك من يد النائب البابوي كما انه البسه ثوب الحروب الصليبية ورجع الى باريس وحضر الذبيحة الالهية في كنيسة والده الاله الكاتدرائية وفي اليوم الثاني سار من باريس وبرفقته زوجته

الى غزه كما ذكر فارسل استاذ الصالح أيوب واستأله فوصل اليه فاعتقله ثم ان الصالح
أيوب استقدم الأمير حسام الدين من دمشق وأتابه بمصر وولي بدلا منه على دمشق
الامير جمال الدين مطروح وسار الصالح أيوب الى دمشق ومنها الى بعلبك ثم عاد الى
دمشق وفي سنة ٦٤٥ عاد السلطان الصالح أيوب الى مصر ثم سار الامير نجر الدين
ابن الشيخ وفتح قلعي عسقلان وطبرية من الصليبيين . ثم توفي علاء الدين
قراينقر الساقى العادلي احد ممالك الملك العادل بن أيوب وصارت ممالكه بالولاء
لالصالح أيوب ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحى . وفي سنة ٦٤٦ أرسل الملك
الناصر صاحب حلب عسكراً مع شمس الدين لؤلؤ الارمني فحاصروا حصن مدة
شهرين وبها الاشرف موسى فسلمها اليهم وتعوض عنها بتل بشار مضافا الى ما بيده
من تدمر والرحبة فشق ذلك على السلطان الصالح أيوب وسار الى الشام لارجاع
حصن من الحليين فوصل دمشق وأرسل عسكر الى حصن مع حسام الدين فزل
عليها وحاصرها وركب عليها المنجنيقات ووصل اليه نجم الدين الباذراي رسول
الخليفة وسى في الصالح بين الصالح والحليين وان تستقر حصن بيد الحليين فاجاب
الملك الصالح الى ذلك وأمر العسكر فرحلوا عن حصن بعد ان اشرفوا على أخذها
{ التتر باوريا ومؤتمر ليون بفرنسا }

لما ظهر التتر باسيا لم يقتنعوا بما ملكوا بل ساروا بقيادة رئيسهم جانكيز خان الى
بلاد أوروبا فهجموا على بلاد هونكريا وبلاد النمسا وهددوا باقي الممالك فوقع الرعب
في قلوب ملوك أوروبا واختاروا في أمرهم قاصر البابا بإيقاد حرب مقدسة ضدهؤلاء .
التتر ولكن نداء هذا لم يلاق صدى وأرسل ملك النمسا الى سائر الملوك يطلب اتحادهم
لصد هجمات التتر ولكن الرعب كان ملائق قلوبهم فلم يلتفت أحدا اليه واكتفوا بالتوسل
في الكنائس يطلبون من الله ازالة هذا العدو . وكان الخوارزميون قد قاتلوا
صليبيين سوريا وأهلكوهم كما ذكر فسافر أسقف بيروت فاليران الى بلاد أوروبا يطلب
المساعدة فقابلته البابا اينوشانسيوس الرابع بالحنو والشفقة ووعدته بالمساعدة التامة .
ثم ان بودوين الثاني ملك القسطنطينية التمس من البابا أيضاً الاغاثة لتعزيد كرسي
مملكته المائل الى السقوط من الروم لانهم شقوا عليه عصا الطاعة . وكان البابا أيضاً
قد تضايق من الحروب الحاصلة بينه وبين ملك النمسا فترك رومية وسار الى مملكة
فرنسا وعقد بها مؤتمراً عاماً في مدينة ليون سنة ٦٤٣ في هذا المؤتمر (السينودس)
حضر الاساقفة وأمراء الشرق وبودوين ملك القسطنطينية ونواب الملك فريدريكوس

المغيث فتح الدين عمر في حبس الصالح اسماعيل صاحب دمشق فاشتد حزنه وحقه
 على الصالح اسماعيل وفي سنة ٦٤٣ سار معين الدين ابن الشيخ بعسكر السلطان
 الصالح أيوب الى دمشق وحاصرها وكان بها صاحبها الصالح اسماعيل وابراهيم
 بن شيركوه صاحب حمص فتسلمها على أن يستقر بيد الصالح اسماعيل بملك
 وبصرى والسواد وتستقر بيد صاحب حمص بلده وما هو مضاف اليها فاجلها معين الدين
 الى ذلك ثم وصل الى دمشق حسام الدين بن أبي علي ومن معه من العسكر المصري
 وكان معين الدين بعد ما استلم دمشق قد مرض بها ومات فبقي حسام الدين نائباً
 بدمشق . ثم ان الخوارزميين خرجوا عن طاعة الصالح أيوب وصاروا مع الصالح
 اسماعيل وانضم اليه الناصر داود صاحب الكرك فساروا جميعاً الى دمشق وحاصروها
 وغلت بها الاقوات وقاسى اهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثليها وقام حسام الدين في حفظ
 دمشق اتم قيام ثم اتفق الحليون والملك المنصور ابراهيم صاحب حمص وساروا مع
 الصالح أيوب وقصدوا الخوارزمية فرحل هؤلاء عن دمشق وساروا نحو الحليين
 وصاحب حمص والتقوا على القصب في سنة ٦٤٤ فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة
 تشتت شملهم بعدها وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان وحمل رأسه الى حلب
 ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشلوخان فلاحقوا بالتر وصاروا معهم
 وانقطع منهم جماعة وتفرقوا في الشام وكفا الله الناس شرهم ولما وصل خبر كسرهم
 الى السلطان الصالح أيوب بمصر فرح فرحاً شديداً ودقت البشار بمصر وزال
 ما كان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حمص ثم رحل حسام الدين بن أبي علي
 الهبذاني بمن عنده من العسكر بدمشق ونازل بملك وبها أولاد الصالح اسماعيل
 وحاصرها وتسلمها بالامان وحمل أولاد الصالح اسماعيل الى السلطان الصالح أيوب
 بمصر فاعتقلوا هناك ومعهم امين الدولة وزير الصالح اسماعيل واستاذ داره ناصر
 الدين تغمور فدقت البشار بمصر وزينت القاهرة لفتح بملك وب . ثم ان الصالح أيوب
 استولى على عجلون ل وفاة صاحبها . ثم جهز الامير نغر الدين يوسف بن الشيخ
 الى حرب الملك الناصر صاحب الكرك فسار نغر الدين واستولى على جميع بلاد
 الملك الناصر وحاصر الكرك وخرب ضياعها فتولى على جميع البلاد ما عدا الكرك
 فانها بقيت بيد صاحبها وفي هذه السنة أيضاً حبس السلطان الصالح أيوب مملوكه
 بيبرس وهو الذي كان معه لما اعتقل في الكرك وسببه ان بيبرس المذكور مال الى
 الخوارزمية والى الناصر داود وصار معهم على استاذة (سيده) لما أرسله بتجريدة

* محاربة الصليبيين بغزة ورجوعهم الى بلادهم *

فسار بطرس دي دروكس نحو دمشق فاغار عليها وأخذ من القرى التابعة لها غنائم كثيرة من المواشي والبغال ولما علم بذلك باقى الامراء الصليبيين طمعوا في المسلمين وساروا الى نواحي غزه وكان في أثناء ذلك ان قبيلة الخوارزميين طردهم جنكيزخان ملك التتر من شرقي آسيا أثناء فتوحاته هناك فجأوا سوريا الشرقية ونزلوا على حدودها فانفذ اليهم الملك الصالح سلطان مصر رسلا عقدوا معهم عهدة وعاهدوهم على محاربة الصليبيين وأمرأء سوريا الذين على دعوتهم (لان بمض ملوك سوريا كانوا قد حالفوا صليبين سوريا على محاربة مصر وفي نظير ذلك سلموهم طبرية وعسقلان والشقيف والقدس فاحتل الصليبيون تلك الاماكن) فتجند الخوارزميون واخترقوا سوريا الى أن بلغوا غزه فخاربوا الصليبيين عند اسوارها وانجدهم سلطان مصر من الجهة الثانية بمساكر مصر بقيادة ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح وكان من اكبر مماليكه وهو الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك فانهزم الصليبيون فتنبعوهم حتى استولوا على غزه والقدس باسم الملك الصالح وهلك الصليبيون الذين بقيادة الكونت دي بار وسمعان دي متفورت عن آخرهم والرئيسان المذكوران وقعا في الاسر بايدي المسلمين مع من نجا وأرسلوا الى مصر مع بعض رؤوس القتلى ولما بلغ الخبر الى تيوبلت سلطان نافار جمع باقى الصليبيين في مدينة عسقلان ثم سار منها بقصد نجدة الصليبيين المحاربين فلما وصل الى غزه وجد الحرب قد انتهت ودارت الدائرة على اخوانه فاخذة الوهن هو وعساكره ومن معه من الصليبيين وأقام بسوريا جملة شهر ثم جدد هدنة مع السلطان الصالح الذي أطلق الاسرى الصليبيين ولم يكن بينهم الكونت دي بار فخرنوا عليه حزناً شديداً ثم سافروا كلهم الى بلادهم غائمين سلامتهم وقدمت عساكر صليبية اخرى الى مدينة عكا بقيادة ريكاردوس دي كوتوبلاس ابن أخي ريكاردوس قلب الاسد فلما أرادوا محاربة المسلمين تحلف صليبيو سوريا عن مساعدتهم فلذلك جددوا عقد الصلح مع المسلمين واستأذنوا من السلطان الصالح في دفن قتلى الصليبيين بنواحي غزه فاذن لهم فدفنوهم ثم زاروا القدس ورجعوا الى أوطانهم

* محاربة الملك الصالح نجم الدين أيوب وسجن بيبرس *

في سنة ٦٤٢ بلغ السلطان الصالح نجم الدين أيوب خبر وفاة ابنه الملك

المقدسة المحفوظة في وطنكم وتهملونها لتفقد فعاتد جميع العساكر الرومانية والنسابة عن محاربتة وطردت الملك فريدريكوس ثم تجمعت عساكر صليبية بقيادة تيوبلت الرابع كونت دي شمبانيا سلطان نافار وهوكاز دوك دي بورغونيا وبطرس دي دروكس وكونت دي بار وساروا قاصدين سوريا ولما وصلوا هناك تفرقوا كل رئيس بعسكره يحارب لنفسه

* سلطنة الصالح نجم الدين أيوب على مصر وخلافة المستعصم *

في آخر رمضان سنة ٦٣٧ أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب واجتمع عليه مماليكه وسار الناصر والصالح الى قبة الصخرة وتحالفا بها على ان تكون ديار مصر للصالح ودمشق والبلاد الشرقية للناصر ثم سارا الى غزه فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وبرز بعسكر مصر الى بليس لقصد الناصر والصالح وأرسل الى عمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق ان يبرز ويقصدهما من وراء فصار الصالح اسماعيل من دمشق فنزل الفوار فينما الناصر داود والصالح أيوب في هذه الشدة بين جيشين قد أحاطا بهما اذ ركبت جماعة من المماليك الاشرفية ومقدمهم ايبك الاسمر وأحاطوا على دهليز الملك العادل وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليه من يحفظه وذلك يوم الجمعة ٨ القعدة فكانت مدة ملكة نحو سنتين وأرسلوا الى الملك الصالح أيوب يستدعونه فانه فرج لم يسمع بمثله وسار الملك الصالح أيوب والملك الناصر داود الى مصر ودخل الملك الصالح قلعة الجبل في صباح يوم الاحد ٢٤ القعدة المذكور فزينت له البلاد وفرحت بمقدمه الناس ثم سار الملك الناصر الى الكرك ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر أخذ في تمكين قدمه فيها فامر في السنة التالية وهي سنة ٦٣٨ بالقبض على ايبك الاسمر مقدم المماليك الاشرفية والامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه وبايعوه مكانه وقتلهم جميعاً وولى مكانهم من اختبر أمانتهم نحوه ثم شرع في بناء قلعة الجزيرة واتخذها مسكناً لنفسه وفي سنة ٦٤٠ توفي المستنصر بالله في ١٠ جمادى الآخرة وكانت مدة خلافته ١٦ سنة و١١ شهراً ثم تولى الخلافة بعده ولده المستعصم بالله وهو السابع والثلاثون من بني العباس

* في سجن الملك الصالح نجم الدين أيوب *

لما استقر الملك الصالح بدمشق وردت اليه رسائل من بعض امراء مصر يطلبون قدومه لاستلام مصر فاقام ولده الملك المغيث فتح الدين عمر نائباً بدمشق وسار قاصداً مصر وشرع يكتب عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه اليه وهو محتج ويعتذر عن الحضور ويظهر أنه معه ويعمل في الباطن على قتال دمشق وكان الناصر صاحب الكرك قد سافر الى مصر واتفق مع الملك العادل على قتال الملك الصالح أيوب وفي سنة ٦٢٧ سار الملك الصالح اسماعيل ومعه شيركوه صاحب حصن بمجموعهما فهاجوا دمشق وحصروا القلعة وتسلمها الصالح اسماعيل وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وكان الصالح أيوب بنابلس ولما بلغه ذلك فسدت نيات عساكره عليه وشرع الامراء ومن معه من الملوك يفارقونه ورحل هو الى الغور ولم يبق عنده غير مماليكه واستاذ داره حسام الدين فاختار بامرءه وليس له موضع يقصده فقصده نابلس ونزل بها بمن بقي معه وسمع الناصر صاحب الكرك بذلك وكان قد وصل من مصر فنزل بعساكره وامسك الصالح أيوب وأرسله الى الكرك واعتقله بها وتفرق عنه باقي اصحابه ومماليكه ولم يبق معه منهم غير جماعة قليلة فارسل أخيه الملك العادل صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر فلم يسلمه له فارسل يهدد الناصر فلم يلتفت اليه

* استيلاء المسلمين على القدس وما جرى للبابا وفريدريكوس *

واستمرت تجهيزات الصليبيين للسفر الى سنة ٦٣٥ ثم قدم الى البابا غريغوريوس التاسع بودوين ملك القسطنطينية يطلب مساعدته على الروم فارسل البابا الصليبيين الذين تجمعوا الى القسطنطينية وفي سنة ٦٣٧ بعد اعتقال الملك الصالح بالكرك سار الملك الناصر الى القدس وكان الصليبيون قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وخرب برج داود ايضاً لانه لما خربت القدس اولا لم يخرب برج داود فخر به في هذه المرة . ثم انه بعد سفر الصليبيين الى القسطنطينية حصل نفور بين البابا المذكور والملك فريدريكوس حتى حصلت بينهما محاربة شديدة برأ وبحراً ثم ان فريدريكوس حاصر مدينة رومية فتخلف اهلها عن البابا فاخذ هذا ذخائر القديسين بطرس وبولس وخرج بها من شوارع رومية قاصداً أعداء الرومانيين قائلاً لهم ألا ترغبون في الحمامة عن هذه الوديعة

حضره الملك فريدريكوس وبطريك اورشليم وبطريك القسطنطينية وغيرهم من الاساقفة والرؤساء الكنائسيين فعرض عليهم البابا الرسائل الواردة له من سوريا وطلب منهم المساعدة والحث والتجريض بالحروب الصليبية المقدسة وكلفوا جمعية رهبان القديس عبد الاحد وجمعية رهبان القديس فرنسيس الاكبر بالانذار بالحروب الصليبية بصفة مفوضين من البابا وكذلك أرسل البابا قسيسين الى كل من بغداد ودمشق ومصر ليجادلوا علماء المسلمين

﴿ باقي سلطنة الكامل ووفاته وسلطنة ولده العادل ﴾

وأقام الملك الكامل سلطاناً على الديار المصرية بعد أبيه الملك العادل أبي بكر ابن أيوب وكان قبل وفاة أبيه نائباً عنه على مصر كما تقدم وكان تارة يقيم بمصر وتارة يخرج منها الى الشام وذلك لقصد توسيع ملكه وأقام ابنه الملك العادل نائباً عنه بمصر في حال غيابه بالشام وأقام ولده الملك الصالح نجم الدين نائباً عنه في بلاد آمد وحصن كيفا وحران وغيرها من البلاد الشرقية وفي سنة ٦٣٥ بلفه وفاة أخيه الملك الاشرف فسار الى دمشق ومعه الناصر داوود صاحب الكرك فوصلها في جمادى الاولى وحاصرها وفيها أخوه الملك الصالح اسماعيل ثم استلمها من أخيه المذكور واعطاه بدلا منها بملك البقاع وغيرها وذلك في ١٩ جمادى الاولى وأقام بدمشق ثم اصابه مرض فمات هناك في ٢١ رجب سنة ٦٣٥ وكان عمره نحو ستين سنة وكانت مدة سلطته بمصر عشرين سنة ما عدا مدة نيابته بها قبل ان صار سلطاناً وهي قريباً من عشرين سنة وكان ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير مباشر شؤون المملكة بنفسه وينظر في أمور الجبور عند زيادة التيسل واصلاحها فعمرت في مدته ديار مصر أتم عمارة وكان محباً للعلماء ومجالسهم فاتفق رأي الامراء على تخليف العسكر للملك العادل أبي بكر بن الكامل وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فخلف له جميع العسكر واتبوا على دمشق الملك الجواد يونس ابن مودود بن العادل أبي بكر بن أيوب وصار الملك العادل سلطاناً على مصر واتفق في سنة ٦٣٦ كل من الملك الجواد يونس صاحب دمشق والملك الصالح نجم الدين أيوب شقيق سلطان مصر وكان اميراً على ما بين النهرين على ان يتبادلا الامارات فأتى الملك الصالح الى دمشق وسار الملك الجواد يونس الى ما بين النهرين وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة الاقتراب من مصر والسعي لاختلاس الملك من أخيه

فريدريكوس واستقرت القاعدة على ان يسلموا البيت المقدس بشرط ان يبقى
الجامع مع المسلمين ولا يتعرض أحد من الصليبيين للمسلمين فاستعظم المسلمون
ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم مالا يمكن وصفه وتضرروا من
ذلك وكذلك جميع الصليبيين أنكروا هذا الصلح لانه على كلام مؤرخيهم صلح
تفاق لحصول الاسلام على جامع شهير أمام قبر المسيح ولذلك أرسل البطريك الى
البابا يعلمه وانه وضع المنع على الكنائس المقدسة المستخلصة بهذه الصورة ونهى
الزوار عن زيارتها ثم ان فريدريكوس سار بنفسه ومعه جماعة الى القدس ولم
يتبعه احد من الصليبيين فوجد القمامة والكنيسة وغيرها قد تركها خدمها
الرهبان لعدم مقابله لانه محروم فلبس التاج فيها بنفسه من غير احتفال كنائسي
وذلك في ربيع الآخر سنة ٦٢٦ ثم انه حرر رسائل الى البابا والى ملوك اوربا
يخبرهم فيه بامتلاكه القدس ثم أقام بالقدس يومين ولما وجد عدم احترامه عند
الصليبيين سافر راجعاً نحو عكا ومنها الى بلاده فر بايطاليا فخارب اهل لومبارديا
ثم حارب صهره يوحنا دي بريانا ثم توسل الى البابا غريغوريوس التاسع بالصفح عنه
فأف به البابا وحله من الحرم

* { ذكر خلفاء المسلمين } *

وكان في سنة ٦٢٢ في آخر ليلة من رمضان قد توفي الخليفة الناصر لدين الله
ابو العباس احمد بن المستضيء بامر الله أبي محمد الحسن وكانت مدة خلافته نحو ٤٦
سنة وعشرة أشهر و ٢٨ يوماً وعمره نحو ٧٠ سنة وسبب موته بالدوسنطاريا وكان
سبي السيرة ظالماً قتولى الخلافة بعده ولده ابو نصر محمد وتلقب بالظاهر بامر الله
فاظهر في الرعية العدل والاحسان وأطلق من في السجون ووزع عليهم نقوداً ثم
في ١٤ رجب سنة ٦٢٣ توفي الامام الظاهر بامر الله المذكور فكانت خلافته تسعة
أشهر و ١٤ يوماً وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه ثم بوبع بالخلافة
ابنه الاكبر ابو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله وسلك في الرعية سيرة أبيه
في الخير والاحسان والعدل

* { مؤتمر مدينة سبولانه } *

أرسل الصليبيون بسوريا يطلبون من البابا المساعدة ويخبرونه بان المسلمين
يضيقون عليهم ويشنوا الغارة على بلادهم ففقد مؤتمر بمدينة سبولانه في سنة ٦٢٩

فقابله باحترام وكتب له منشورات الى جميع الملوك بالتحريض بارسال تجريدة صليبية لاستخلاص القبر المقدس من أيدي المسلمين ثم سار يوحنا الى جميع الملوك بهذا الشأن فالتفتوا اليه وكان ملك النمسا فريديريكوس الثاني عند وفاة والده صغيراً فاقم عليه وصياً البابا اينوشانسوس الثالث الى ان بلغ وتسلم مملكته فلذلك كانت البابوية ذات دالة عليه فكتب اليه البابا يحرضه على المسير بنفسه الى سوريا وتجديد الحروب الصليبية ثم سعى في زواج فريديريكوس المذكور ابنة يوحنا سلطان سوريا المدعوة بولاندا لتوثيق العلاقة بينهما وتم الاحتفال بهذا الزواج في مدينة رومية وفي أثناء ذلك جدد فريديريكوس القسم بمسيره الى فلسطين وتحليصه قبر المسيح من يد أعدائه واستعد للسفر وقد نادوا في اوروبا بذلك فحضر اليه حملة عساكر من الانكليز وفرانسا والمانيا والنمسا وغيرهم وتعين لاجتماع العساكر مدينة برينيس وكان من الرؤساء الذين قبلوا السفر للحروب الصليبية دوك دي باير ودوك دي أوتريش ولويس لاندغرافا وساروا بالخيوش فالتحدوا مع عساكر الملك فريديريكوس في المدينة المذكورة فآخذ يحثهم البابا بالمسير فزلوا بالراكب في سنة ١٢٢٤ هـ وبعد مسيرهم من المينا هاجت عليهم العواصف فقتلت مرابكهم وبعد ثلاثة ايام عدل الملك فريديريكوس عن المسير الى فلسطين ورجع بعساكره الى مدينة اترانتا أما الامير لاندغرافا فبعد نزوله في البحر أخذته حمى فلهق بفريديريكوس راجعاً الى المينا المذكورة وبعد ايام قليلة توفي . وكان البابا انوريوس قد توفي وتعين خلفاً له البابا غريغوريوس التاسع وهو الذي احتفل بنزول فريديريكوس الى البحر ولما بلغه عدوله عن السفر ورجوعه تكدر واعتبره عاصياً . ولذلك أرسل منشوراً الى جميع ملوك اوروبا يعلنهم فيه بجرمان الملك فريديريكوس فخارب الملك المذكور البابا برومية وأهانته اهانة شديدة أمام الهيكل المقدس وألزمه بالخروج من رومية . وفي ١٢٢٥ هـ سافر برأ قاصداً القدس ولما وصل الى سوريا لم يقابله الصليبيون هناك لعلمهم انه محروم من البابا وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج منها الى الشام بعد وفاة أخيه المعظم يريد امتلاك دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود ابن المعظم ولما سمع بذلك داود المذكور أرسل الى عمه الملك الاشرف صاحب البلاد الجزرية يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه الكامل فسار الى دمشق فترددت الرسل بينهم في الصلح فاصطلحا واتفقا وسار الملك الاشرف الى الملك الكامل فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الملك

فريدريكوس واستقرت القاعدة على ان يسلموا البيت المقدس بشرط ان يبقى الجامع مع المسلمين ولا يتعرض أحد من الصليبيين للمسلمين فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم مالا يمكن وصفه وتضرروا من ذلك وكذلك جميع الصليبيين أنكروا هذا الصلح لانه على كلام مؤرخيهم صلح نفاق لحصول الاسلام على جامع شهر أمام قبر المسيح ولذلك أرسل البطريك الى البابا يعلمه وانه وضع المنع على الكنائس المقدسة المستخلصة بهذه الصورة ونهى الزوار عن زيارتها ثم ان فريدريكوس سار بنفسه ومعه جماعة الى المقدس ولم يتبعه احد من الصليبيين فوجد القمامة والكنيسة وغيرها قد تركها خدمها الرهبان لعدم مقابلته لانه محروم فلبس التاج فيها بنفسه من غير احتفال كنائسي وذلك في ربيع الآخر سنة ٦٢٦ ثم انه حرر رسائل الى البابا والى ملوك اوربا يخبرهم فيه بامتلاكه القدس ثم أقام بالقدس يومين ولما وجد عدم احترامه عند الصليبيين سافر راجعاً نحو عكا ومنها الى بلاده فر بيطاليا فخارب اهل لومبارديا ثم حارب صهره يوحنا دي بريانا ثم توسل الى البابا غريغوريوس التاسع بالصنح عنه فرأف به البابا وحله من الحرم

* { ذكر خلفاء المسلمين } *

وكان في سنة ٦٢٢ في آخر ليلة من رمضان قد توفي الخليفة الناصر لدين الله ابو العباس احمد بن المستضيء بامر الله أبي محمد الحسن وكانت مدة خلافته نحو ٤٦ سنة وعشرة أشهر و ٢٨ يوماً وعمره نحو ٧٠ سنة وسبب موته بالدوسنطاريا وكان سيئ السيرة ظالماً قتولى الخلافة بعده ولده ابو نصر محمد وتلقب بالظاهر بامر الله فظهر في الرعية العدل والاحسان وأطلق من في السجون ووزع عليهم نقوداً ثم في ١٤ رجب سنة ٦٢٣ توفي الامام الظاهر بامر الله المذكور فكانت خلافته تسعة أشهر و ١٤ يوماً وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه ثم بويع بالخلافة ابنه الاكبر ابو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله وسلك في الرعية سيرة أبيه في الخير والاحسان والعدل

* { مؤتمر مدينة سبولاته } *

أرسل الصليبيون بسوريا يطلبون من البابا المساعدة ويخبرونه بان المسلمين يضيقون عليهم ويشنوا الغارة على بلادهم فعقد مؤتمر بمدينة سبولاته في سنة ٦٢٩

فقابله باحترام وكتب له منشورات الى جميع الملوك بالتحريض بارسال تجريدة صليبية لاستخلاص القبر المقدس من أيدي المسلمين ثم سار يوحنا الى جميع الملوك بهذا الشأن فالتفتوا اليه وكان ملك النمسا فريديريكوس الثاني عند وفاة والده صغيراً فاقم عليه وصياً البابا اينوشانسوس الثالث الى ان بلغ وتسلم مملكته فلذلك كانت البابوية ذات دالة عليه فكتب اليه البابا يحرضه على المسير بنفسه الى سوريا وتجديد الحروب الصليبية ثم سعى في زواج فريديريكوس المذكور ابنة يوحنا سلطان سوريا المدعوة بولاندا لتوثيق العلاقة بينهما وتم الاحتفال بهذا الزواج في مدينة رومية وفي اثناء ذلك جدد فريديريكوس القسم بمسيره الى فلسطين وتخليصه قبر المسيح من يد أعدائه واستعد للسفر وقد نادوا في اوربا بذلك فحضر اليه جملة عساكر من الانكليز وفرانسا والمانيا والنمسا وغيرهم وتعين لاجتماع العساكر مدينة برنيس وكان من الرؤساء الذين قبلوا السفر للحروب الصليبية دوك دي بافير ودوك دي أوتريش ولويس لاندغرافا وساروا بالحيوش فاجتمعوا مع عساكر الملك فريديريكوس في المدينة المذكورة فاخذ يحثهم البابا بالمسير فزلوا بالمراكب في سنة ٦٢٤ هـ وبعد مسيرهم من المينا هاجت عليهم العواصف فقتلت مراكبهم وبعد ثلاثة ايام عدل الملك فريديريكوس عن المسير الى فلسطين ورجع بعساكره الى مدينة اترانتا أما الامير لاندغرافا فبعد نزوله في البحر أخذته حمى فلهق بفريديريكوس راجعاً الى المينا المذكورة وبعد أيام قليلة توفي . وكان البابا انوريوس قد توفي وتعين خلفاً له البابا غريغوريوس التاسع وهو الذي احتفل بنزول فريديريكوس الى البحر ولما بلغه عدوله عن السفر ورجوعه تكدر واعتبره عاصياً . ولذلك أرسل منشوراً الى جميع ملوك اوربا يعلنهم فيه بجرمان الملك فريديريكوس فخارب الملك المذكور البابا برومية وأهانته اهانة شديدة أمام الهيكل المقدس وألزمه بالخروج من رومية . وفي ٦٢٥ هـ سافر برأ قاصداً القدس ولما وصل الى سوريا لم يقابله الصليبيون هناك لعلمهم انه محروم من البابا وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج منها الى الشام بعد وفاة أخيه المعظم يريد امتلاك دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود ابن المعظم ولما سمع بذلك داود المذكور أرسل الى عمه الملك الاشرف صاحب البلاد الجزرية يستجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه الكامل فسار الى دمشق فترددت الرسل بينهم في الصلح فاصطلحا واتفقا وسار الملك الاشرف الى الملك الكامل فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الملك

الملك الكامل الامان على ان يسحبوا من القطر المصري جميعه ولا يطلبون لذلك مقابلا فقبل منهم الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ هجرية بان يعطى كل من الفريقين رهائن فأعطى الصليبيون الملك يوحنا دي بريانا ملك عكا والكردينال بيلاجيوس نائب البابا رهناً وأعطى الملك الكامل ابنه الملك الصالح وكان سنه ١٥ سنة وجماعة من الامراء فسار الصليبيون الى دمياط وسلموها للمسلمين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد أجهدوا انفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الصليبيين فشكر المسلمون الله لتأخرها الى ذلك الحين ثم ارسل الصليبيون الملك الصالح ومن معه الى أبيه فأرسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان ليوم دخوله اليها احتفال عظيم ثم عادوا وأقاموا بالمنصورة أياماً فأنشد هناك القاضي الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزوه

هنيئاً فان السعد جاء مخلداً	وقد انجز الرحمن بالنصر موعداً
حبانا اله الخلق فتحاً لنا بدا	ميناً وانعاماً وعزاً مؤبداً
تهلل وجه الارض بعد قطوبه	وأصبح وجه الشرك بالظلم أسوداً
ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ	طغاة وأضحى بالمركب مزبداً
أقام لهذا الدين من سل عزمه	صقيلاً كما سل الحسام المهندا
فلم ينج الاكل شلو مجندل	نوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادي لسان الكون في الارض رافعاً	عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى ان عيسى وحزبه	وموسى جميعاً ينصران محمداً

فكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط الى ان أقلعوا عنها ثلاث سنين وأربعة أشهر و ١٩ يوماً منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة اشهر و ٢٤ يوماً ثم سار الملك الكامل الى مقر ملكه في القاهرة وانتقل من دار الوزارة التي كانت الى ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن القلعة

*} ما جرى للملك فريديريكوس الثاني باوروبا

واستيلائه على القدس صلحاً *

وبعد رجوع يوحنا دي بريانا الى عكا وجد مملكته في ضعف زايد من القوة والمال فسافر الى اوروبا طالباً المعونة من ملوكها فوصل الى البابا انوريوس الثالث

فارس فقدم المسلمون شوانهم أمام المنصورة وعدتها مائة قطعة فاصبح المسلمون في ضيق . فامر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اصوان الى القاهرة ونودي بالنفير العام ايضاً فيها بين القاهرة الى آخر الحواف الشرقي فاجتمع عالم كثير وازل السلطان على ناحية شامساح الف فارس في آلاف من العربان ليحولوا بين الصليبيين ودمياط وسارت الشواني ومعها حزاقه كبيرة على رأس بحر المحلة وعليها الامير بدر الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الصليبيين من البر والبحر . وفي اثناء ذلك أتت النجيدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقها الملك المعظم عيسى فتلقاهم الملك الكامل وازلهم عنده بالمنصورة في ١٣ جمادى الاخرى سنة ٦١٨ وتتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدة جيوش المسلمين نحو أربعين الف فارس فخاربوا الصليبيين وأخذوا منهم ست شواني وأسروا منهم الفين ونيقاً قرضهضعوا وضاق بهم المقام فخاربهم الملك الكامل بامر الصلح ليخرجهم من بلاده فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبله واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين الا شوبك والكرك لانهما أصبحتا ملكاً خاصاً له نالهما بالآثر من السلطان صلاح الدين وطلب اليهم في مقابل ذلك ان يردوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصري فانهقد مجلس مشورتهم ورضي كل من يوحنا ملك سوريا وغيره من رؤساء العاكر وأما الكردينال فابي وداخله الطمع وبعد مجادلات أقر رأي الصليبيين على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضاً لما سببه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم أسوار بيت المقدس فامتنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرا من وراء معسكر الصليبيين ونحرق سد ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعه فطافت مياه الترة حتى أغرقت جميع الاراضي التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فاصبحوا على أرض مثل الجزيرة وقد حال الماء بينهم وبين نجدة أصحابهم فخافوا سوء المصير وباتوا يشكون قلة الطعام وكثرة المياه ولم يكن باقياً بينهم وبين دمياط الا طريق ضيق فامر السلطان بنصب الجسور عنداشمون طناح فعبرت العساكر عليها وملكك تلك الطريق فاضطرب الافرنج وضائق عليهم الارض . واتفق مجيء مرمه عظيمه مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقدملكت كلها باليرة والاسلحة فقاتلتها شواني المسلمين حتى ظفرت بها فاتصل ذلك بالصليبيين فزاد خوفهم وندموا على رفضهم المعاهدة المار ذكرها فطلبوا من

فلاحق الاحياء بهم وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرة فكان يموت الابن جوعا وليس من يسعى الى دفنه فيبقى في مكانه فيلحقه الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا وجعل الصليبيون الجامع الكبير الذي بدمياط كنيسة لهم باسم القديسة مريم

* { في شقاق الصليبيين وبناء مدينة المنصورة } *

بعد استيلاء الصليبيين على دمياط قرر مجلس مشورتهم بان تكون دمياط تابعة للملك يوحنا دي بريانا ملك سوريا . ولما اتصل خبر سقوط دمياط بالملك الكامل رحل بمسكره بعد سقوطها بيومين ونزل قبالة طلخا على رأس بحر اشمووم ورأس بحر دمياط لينع الصليبيين من السير الى داخلية القطر بحراً وخيم في محلة المنزلة واقام معسكره هناك وكان الصليبيون قد قرروا سرعة السير الى القاهرة ومحاصرتها حصل شقاق بين رؤسائهم وخصوصاً لان الكردينال بيلاجيوس كان يعتبر نفسه الرئيس الاعلى على جميع الصليبيين وجميع الرؤساء دونه رتبة والملك يوحنا دي بريانا ملك سوريا يعتقد انه هو الرئيس والكردينال بصفة رئيس ديني فزاد التنافر بينهم فغضب الملك يوحنا وعاد الى مدينة عكا بمسكره ومعه الاسرى وترك باقي الصليبيين في دمياط وقدمت نجدات للصليبيين من فرانس والنمسا وايطاليا ففرح الكردينال بذلك وعزم على السير الى مدينة القاهرة فابى رؤساء العساكر المسير معه فارسل وفداً الى الملك يوحنا كي يستسمحوه ويرجع الى معسكر الصليبيين وقد حصنوا دمياط تحصيناً عظيماً وبشوا رجالهم في القرى يقتلون وينهبون ويأسرون .

أما الملك الكامل فانه أخذ في تحصين معسكره في المنزلة فامر ببناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق الى ان صارت مدينة عظيمة ولقبوها بالمنصورة اشارة الى انتصاره على الصليبيين هناك كما سيأتي وكتب الى المسلمين في سوريا يستحثهم على محاربة الصليبيين واخراجهم من ديار المسلمين

* { ما جرى للصليبيين بعد ذلك واستيلاء المسلمين على دمياط } *

ولما عاد الملك يوحنا دي بريانا الى معسكر الصليبيين انعقد مجلس مشورتهم وقرر سرعة المسير لمحاصرة القاهرة فتركوا أمتعتهم ومؤتتهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية كافية وساروا الى ان وصلوا نجاة المنصورة فيها هو أمام سراي المنصورة الآن وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذاك نحو مائتي الف راجل وعشرة آلاف

المسلمون خيفة ان يباغت الصليبيون الاسكندرية من أجلها فيتخذونها حصناً لأنها كانت حصينة البناء كثيرة الاعمدة وجعلوها بعد ذلك جامعاً ولا تزال اثارها الى هذا العهد بقرب باب القباري . ثم دخلت سنة ٦١٦ وقد غلت الاسعار بدمياط بما هو فوق الحد فبلغ ثمن البيضة عدة دنائير وكان رجال الملك الكامل ينفذون الاقوات الى أهل دمياط بحمل مختلفة فكانوا يأتون بحمل ويشقون جوفه ويملاونه فراخاً وفاكهة ونقلاً وغير ذلك ثم يخططون جلده عليها ويرمونه في النيل فيسير منحدرأ مع المجرى فاذا جاء أمام دمياط نزل من فيها اليه وأخذوه واقتاتوا بما كان في جوفه . وكان الصليبيون يعرفون أحيانا هذه الحيل فيأخذون تلك المؤن ثم توالى هجماتهم على من في المدينة فقاتلهم قتلاً شديداً خصوصاً جمعيات الرهبان (جمعية الهيكلين وجمعية التيطونيكين أي جمعية الشريط الازرق التي أسسها يكاردوس قلب الاسد ملك الانكليز) ثم أمر الكردينال بيلاجيوس ان يتحد جميع الصليبيين للحرب دفعة واحدة برأ وبحراً وان يتسلحوا بالزروخ والزرديات فعلقوا السلام على الاسوار لتسلقوها وشددوا الحرب فجاهد المسلمون حق الجهاد واحرقوا سالم الصليبيين بقذف النيران عليها وهجموا على الصليبيين هجمة قوية فقتلوا منهم كثيراً وأغرقوا كثيراً ثم كر الصليبيون عليهم واشتد القتال فلم بذلك الملك الكامل فسار بجيشه وهجم على مخيم الصليبيين لردهم عن محاربة المدينة فانزمو قتاله ورجع بعضهم عن المدينة واشتد الزلزال بين الملك الكامل والصليبيين وبين هؤلاء ودمياط فانكسرت المساكن الصليبية في هذه الوقعة وقتل منهم كثير وانهزم منهم كثير فاتبع الملك يوحنا ملك سوريا المنهزمين ليردهم وصار يرسل الى كل فار من برجه ودامت هذه الحال بينهم أي كلما ضيق الصليبيون على أهل دمياط يصعد المسلمون الى أعلا البرج ويوقدوا ناراً لشظيرهم عساكر الملك الكامل فيعلمون بان أهل المدينة في ضيق فيهجم الملك الكامل بعساكره على مخيم الاعداء فيرتدون من محاربة المدينة ليحاربوا الملك الكامل وكانت تواصل النجدات من أوروبا الى الصليبيين بتحريض البابا . وفي آخر الامر زاد الضيق في المدينة وكثرت الموتى جوعاً وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد منهم وعدمت الاقوات حتى لم يبق عندهم الا بعض القمح والشعير . وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهراً و٢٢ يوماً فدخلوها واحكموا السيف في من بقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الانجزة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى

بإعداد الدين هذه البلاد لك ونشتهي ان تهبنا لنا وشيئاً من النفقة ثم قال لرجاله تسلموه حتى تخرجوه من الرمل فلم يسمعه الا امتثال الامر لانفراده وعجزه عن الخالفة وعاد المعظم الى أخيه الكامل وأطلعه على ما جرى ثم جهز أخاه الملك الفأز شريك المتأمرين الى الموصل لاحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فسات بسنجار وكان ذلك خديعة لاجراجه من البلاد فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الامراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً

* { قدوم نجدة للصليبيين بقيادة بيلاجيوس وهدم سور اليت المقدس } *

ظل البابا انوربوس الثالث يبحث ملوك اوربا لنجدة اخوانهم الصليبيين حتى اجتمع لكلمته جيوش كثيرة من بلاد النمسا وبيزا وجنوى والبندقية وانكلترا وفرانسا فأرسلهم الى اخوانهم بدمياط بقيادة الكردينال بيلاجيوس بصفته نائب بابوي وأرسل معه خزائن المال الذي جمعه باسم الحروب الصليبية فسار الكردينال المذكور بمساكره الى ان وصل الى معسكر الصليبيين باراضي دمياط وبعد سير عاد الملك المعظم الى دمشق لينظر في أحوال رعيته ثم خشي من الصليبيين ان امتلكوا دمياط ان يمدوا يدهم الى اورشليم (القدس) ففقوى سلطتهم فأمر بهدم أسوارها حتى اذا ملكوها لا تزيد قوتهم شيئاً يستحق الاعتبار

* { تشديد الحصار على دمياط واستيلاء الصليبيين عليها } *

شدد الصليبيون الحصار على دمياط ومنعوا القوت من الوصول اليها وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقاً وبنوا عليه سوراً وأهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال وبما نفوذهم وقد نفذت من عندهم الاقوات وغلت الاسعار والملك الكامل كان لا يزال في أشمون ناظراً الى دمياط وهي محصورة ولا يقدر ان يصل اليها وخشي أخيراً ان يئس أهلها من المساعدة فيسلموا المدينة فانتدب أحد الجندرية المدعو شهابل للدخول الى دمياط لينشط من فيها ويعدهم بالانتفاذ فكان يسبح في النيل الى ان يصل الى أهل دمياط فيوصل اليهم الاخبار ويطمئنهم ويودد وبقي على ذلك مدة فخطي بذلك عند الكامل وتقرب منه حتى جعله والياً على القاهرة واليه تنسب خزانة شهابل بالقاهرة . وفي أثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون في داخلية البلاد اضطهاداً شديداً وكان في الاسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقس هدمها

يتغير على أهل دمياط شيء لان الميرة والامداد كانت تصل اليهم والتيل يحجز بينهم وبين عدوهم وأبواب المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصار ضيق ولا ضرر وكان العربان يغيروا على الافرنج في كل ليلة حتى منعوهم الرقاد خوفاً من غاراتهم فقوي طمع العرب في الصليبيين حتى صاروا يخطفونهم نهاراً ويأخذون الخيم بمن فيها فكمن لهم الصليبيون عدة كئنا وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فكفوا عن مناوشتهم . ثم أدرك الناس الشقاء وهاج البحر على تخيم المسلمين وأغرقتهم فمظم البلاء وتزايد الغم وألح الصليبيون في القتال حتى كادوا يملكون كل مال المسلمين والملك الكامل يرسل الرسل الى الجهات ويستصرخ اخوته ويستجد أهل الاسلام على النصارى ويخوفهم من غلبة الصليبيين ولا من محيب . وفي اثناء ذلك ثارت بين ورجاله ثورة كان زعيمها عماد الدين أحمد بن المشطوب أحد كبراء الرجال على ان لا يقبلوا الكامل عليهم سلطاناً بعد أبيه وكان ذلك باتفاق مع أخيه الملك الفارز فوقع الملك الكامل في حيرة وأوجس خيفة على منصبه ولم ير من ينجده فسار من العادلية الى قرية تدعى اشمون طناح (اشموم نطاح) بجريدة فأصبح العسكر بغير سلطان فركب كل انسان منهم هواه ولحقوا بالكامل ولم يتمهلوا لاخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم كل ذلك والصليبيون في البر الثاني لا يدرون . وفي ٢٠ القعدة سنة ٦١٥ بلغهم ما كان من أمر المسلمين فعبروا التيل الى بر دمياط (البر الشرقي) آمنين لا ينازعهم منازع وغنموا ما في معسكر المسلمين مما تركوه من أمتعتهم وغيرها وكان شيئاً لا يحيط به الوصف فلما بلغ السلطان الكامل ذلك داخله وهم عظيم وأوشك ان يفارق البلاد لانه أصبح لا يثق بنفسه ولا بمن حوله . أما مدينة دمياط فبقيت محاصرة وقد شدد الصليبيون عليها برأً وبحراً وكانت تلك السنة ليس أشد منها وطأة على المسلمين وقد أخذ اليأس منهم مأخذاً عظيماً ففيها هم في ذلك الشأن وفدت عليهم نجدة من الشام بقيادة الملك المعظم عيسى أخي الملك الكامل وكان قد تولى على دمشق بعد أبيه العادل فلما علم بما حل بجيوش أبيه بعد وفاته أتى في عدة من رجال الشام فأطلعته الكامل على الحال سرّاً وأمر اليه ان رأس هذه الطائفة ابن المشطوب فجاء الملك المعظم يوماً على غفلة الى خيمة ابن المشطوب واستدعاه فخرج اليه فقال له أريد ان أفاوضك سرّاً في خلوة وسار معه وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق بهم وقال لهم اتبعونا ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء الى شيء حتى أبعدته عن المعسكر ثم قال له

﴿ وفاة الملك العادل ﴾

كان الملك العادل نازلاً بمرج الصفر وقد أرسل العساكر الى ولده الكامل بالديار المصرية كما تقدم ثم رحل من مرج الصفر الى عالقين قُتِل بها ومرض واشتد مرضه ثم توفي هناك الى رحمة الله في سابع جمادى الآخرة سنة ٦١٥ وكان مولده سنة ٥٤٠ وعمره ٧٥ سنة وكانت مدة سلطته بمصر نحو عشرين سنة أو أقل وكان حازماً متيقظاً غزير العقل سديد الآراء ذا مكر وخديعة وصبوراً حليماً يسمع ما يكره ويفضي عنه واتسع ملكه وكثرت أولاده ورأى فيهم ما يحب ولم ير واحداً من الملوك في أولادهما لقاء العادل فيهم من القوة والشجاعة والملك وخلف الملك العادل ستة عشر ولداً ذكرراً غير البنات ولما توفي لم يكن عنده احد من اولاده حاضراً فحضر اليه ابنه الملك المعظم عيسى وكان قد أرسله الى نابلس لحماية القدس فكتم موت أبيه وحمله في محفة وجعل عنده خادماً وطيباً راكباً الى جانب المحفة والشرابدار يصاحبه الشراب ويحمله الى الخادم فيشربه ويوهم الناس ان السلطان شربه الى ان دخلوا به قلعة دمشق وصارت اليها الخزان واليوتات فأعلن موته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان معه ودفنه بالقلعة ثم نقله الى مدرسة العادلية

﴿ محاربة الصليبيين بارض دمياط ودخولهم حتى اشمون طناح ﴾

﴿ واتحاد ثورة المسلمين ﴾

لما بلغ الكامل موت أبيه وهو بمنزلة العادلية استلزام الاحكام أما الصليبيون فألحوا في القتال ولا سيما عند ما علموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في نهر النيل ويتمكنوا من البلاد فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالاً شديداً الى ان قطعوه وكان قد انفق عليه وعلى البرج ما ينوف على سبعين الف دينار . وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتفقد الاحوال واعمال الحيلة في مكيدة الاعداء فامر ان تغرق المراكب في النيل لتمنع الصليبيين عن الابحار فيه فعمد الصليبيون الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري فيه قديماً فحفروه وعمقوا حفره وأجروا فيه الماء الى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم منه الى بورة على أرض جزيرة دمياط قبالة المنزلة المعسكر فيها الكامل ليقاتلوه منها فلما نزلوا في البورة ابتدأوا بقتاله بمرحاً وزحفوا اليه مراراً فلم يظفروا منه بطائل ولم

أيضاً ولكنه خاف لوم الصليبيين فأبقى نصف جيشه في سوريا تحت قيادة يوحنا ملك سوريا ورجع هو الى بلاده ثم وردت عساكر صليبية أخرى من بلاد فرنسا وإيطاليا وكانوا قد تأخروا عن المسير لمحاربة مسلمي إسبانيا ولما وصلوا الى عكا فرح جميع الصليبيين والمسيحيين بقدومهم وعقدوا مجلس مشورتهم فقرر سفر جميع الصليبيين من سوريا الى الديار المصرية ومحاربة المسلمين هناك

*** محاصرة الصليبيين لمدينة دمياط ***

قصد الصليبيون مدينة دمياط فوصلوها في يوم الثلاثاء ٤ ربيع اول سنة ٦١٥ وهم نحو من ٧٠ ألف فارس و ٤٠٠ ألف راجل فحيموا اتجاه دمياط في البر الغربي وحفروا حول معسكرهم خندقاً وأقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال رجب دمياط وكان برجاً منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر للملاح من الدخول الى ديار مصر في النيل وكان البر الذي نزل عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر الملح من الاخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصاراً منيعاً من البحر والبر والسلسلة تمتدة بين البرج والسور فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لانهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلة تأتي اليه المؤن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وقد انكسر ذلك الجسر بعد مدة فاغتم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوه على مركبتين موسوقين قيوداً وكان جميع الصليبيين بقيادة يوحنا بريانا ملك سوريا وليوبولدوس دي اوپريش فانزلوا في البرج الخشبي ليوبولدوس برجاله وساروا في النيل لمهاجمة برج المسلمين فلما رأى المسلمون ذلك تجمهروا في البرج والسور وأخذوا في رمي السهام والحراش والحجارة والمنجانيقات على برج الصليبيين فلعبت به النار نخاف الذين فيه ثم انطفأت حالا وتشدد الصليبيون حتى استولوا على برج المسلمين فباع الملك الكامل قدوم الصليبيين ومحاصرتهم دمياط وكان يخلف أباه الملك العادل على ديار مصر فخرج بمن معه في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر الصليبيين وأمر والي الغربية بجمع العربان وسار هو في جمع كبير ونزل بمن معه من العساكر بمنزلة العادلة قرب دمياط وامتدت عساكره الى دمياط لينزع الصليبيين من السور والقتال مستمر أربعة أشهر والملك العادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء

عند ما علم بإخبار هذه الحیوش الصليبية السادسة اخذ معه أشرف دولته وعساكره ونزل بالمرأكب من مينا ليمسون وسافروا جميعاً الى عكا ولما وصلوا اليها كان زادهم قد قل وأرض سوريا كانت وقتئذ مجذبة فاضطروا للخطف والنهب ثم خرجوا من عكا وأغاروا على البلاد الاسلامية وكان الملك العادل بمصر فصار منها توطاً الى الشام

*** محاربة الصليبيين مع الملك العادل وسفرهم الى مصر**

وسفر ملك هونكريا وقدم صليبيين آخرين *

لما وصل الملك العادل الى الرملة ومنها الى اللد برز له الصليبيون من عكا فصار العادل نحوهم فوصل الى نابلس عازماً على ان يسبقهم الى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحجمها منهم فساروا هم فسبقوه فنزل على بيسان من الاردن فنقدم اليه الصليبيون في شعبان ٦١٤ هـ عازمين على محاربته لعلمهم انه في قليل من المسكر لان جنوده كانوا متفرقين في البلاد فلما رأى العادل قربهم منه لم ير ان يلقاهم في من معه خوفاً من هزيمة تكون شراً عليه وكان حازماً كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقم بالقرب منها ويرسل الى البلاد ويجمع العساكر فوصل مرج الصفر فنزل فيه فاخذ الصليبيون كل ما كان في بيسان من الذخائر وكانت كثيرة ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس وبشوا سراياهم في القرى الى ان وصلوا الى خسفين وأطراف السوداء ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها الى مرج عكا وأقاموا به أياماً ثم خرجوا منه الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا وبينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنبهوا صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وكان هذا في النصف الاخير من رمضان ثم سار الملك العادل ولده الملك المعظم عيسى صاحب دمشق في قسم من جيشه الى نابلس لينزع الصليبيين عن المقدس اما الصليبيون فانهم ساروا بمجموعهم الى ان وصلوا قلعة الطور وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها حديثاً فنقدم اليها الصليبيون وحاصروها وركبوا عليها المتجنيقات وآلات الحصار وزحفوا اليها وصعدوا على جبلها حتى وصلوا الى سورها وكادوا يملكونه ثم ارتدوا عن القلعة وتركوها وساروا الى عكا وبعد رجوعهم حصل لهم قتل لان معسكرهم كان مركباً من ثلاثة رؤوس وهم ملك هونكريا بعساكره وملك قبرص وملك سوريا وكان معسكرهم مقسماً ثم ان ملك قبرص مرض ومات وكان عازماً على الرجوع الى مملكته وكذلك ملك هونكريا عزم على الرجوع

يحثون الناس على الحروب الصليبية فتجمع كثير من الشبان تحت اسم الصليبيين
 واتخذوا الصلبان على صدورهم وساروا مجدين واجتازوا الجبال الالية واقليم لومبارديا
 ونزلوا على ايطاليا وامامهم راية الصليب لاجل نزولهم في المراكب وتوجههم الي
 فلسطين فلما علم بذلك البابا باركهم ونزل اكثرهم بالمراكب فداهمتهم عواصف
 بحرية فاغرقهم بمراكبهم قريباً من الشطوط فاصر البابا بانتشالهم ودفنهم بالشاطئ وبني
 عليهم كنيسة دعاها كنيسة الفتيان الابرار واتشت باقي الصليبيين الفتيان بعد ذلك
 في البلاد ففهم من رجع الى بلاده ومنهم من خدم في فلاحه ارض ايطاليا وفي سنة
 ٦١٢ انقعد المؤتمر في مدينة رومية بكنيسة القديس يوحنا تحت رئاسة البابا اينوشانسوس
 وقد اجتمع فيه ما ينيف على ٥٠٠ من الاساقفة ورؤساء الكنائس وكذلك
 بطريرك القسطنطينية وبطريرك القدس ووكلاء كل من الملك فريديريكوس ملك النمسا
 وفيلبس ملك فرنسا وملك الانكليز وملك هونكريا فقام فيهم البابا خطيباً بفصاحة
 يصف لهم تعب مسيحي الشرق وما يقاسونه من العذاب وان القدس مغطى بازار
 الحزن الاسود ومقيد بسلاسل حديدية تحت عبودية الاسلام وصار يحثمهم على حض
 جميع المسيحيين بتحضير عساكر صليبية سادسة كي تنقذ قبر المسيح من ايدي
 المسلمين وبعد عدة جلسات تقرر بان البابا والكردينالية يقدمون عشر مداخيلهم
 لنفقات هذه الحرب المستجدة وكذلك الكنائسيين رؤساء ومروسين يقدمون نصف
 عشر مداخيلهم وتعهد جميع ملوك اوروبا برضاء تام على ابطال الحروب من
 بلادهم مدة خمس سنوات وفي سنة ٦١٣ توفي البابا المذكور فتمين خلفه البابا اونوريوس
 الثالث ولما توسد السدة البطرسية حذا حذو سلفه في التحريض على الحروب
 الصليبية السادسة فارسل من عنده وفوداً الى جميع ملوك اوروبا بالتحريض والحث
 على تجهيز الحروب الصليبية المذكورة وذكرهم بوعودهم

* سفر العساكر الصليبية السادسة *

استعد للسفر تحت علم الصليب كل من الملك اندراوس الثاني ملك هونكريا
 وليوبولدس دوك دي لوطريش ودوك بافيرا وغيرها من الامراء والقواد فساروا
 الى ان وصلوا مدينة سبولاترو وهناك انتظروا قدوم المراكب من البندقية كي توصلهم
 الى فلسطين وسافر من مرسيليا وجينوى وبرنيداس جيوش كثيرة في المراكب الى
 فلسطين فسبقوا ملك هونكريا ومن معه وكذلك هو كز الاول سلطان قبرص فانه

يكن لصاحبها اسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه قوة علي دفعهم ومنعهم فاستنجد بالظاهر غازي صاحب حاب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده احد الا الظاهر فانه سير اليه عسكرياً اقام عنده ومنع الصليبيين عن ولايته وفي هذه السنة أيضاً خرج اهل قبرص على الاسطول المصري فاخذوا منه مراكب واسروا من بها فارسل الملك العادل الى الملك اموري صاحب عكا في رد ما اخذوه وقال له حيث اننا في صالح فلم غدرتم باصحابنا فاعتذر الملك اموري وقال ان اهل قبرص ليسوا في طاعتي بل هم تابعون القسطنطينية ثم انه حصل غلاء بقبرص وتعدرت عليهم الاقوات فذهب اهلها الى القسطنطينية فاعادوهم الى حكم سوريا ثم راسل الملك العادل اموري صاحب عكا فلم ينفصل حال فخرج الملك العادل من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فصالحه صاحبها على قاعدة استقرت باطلاق اسرى المسلمين وغير ذلك ثم سار الى حمص ونزل على بحيرة قدس وجاءته عساكر الشرق وديار الجزيرة ودخل بلاد طرابلس وحاصر موضعاً يسمى القلعات واخذته صلحاً واطلاق صاحبها وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخزبه وتقدم الى طرابلس فنهب واحرق وسبي وغنم وعاد الى بحيرة قدس وتردت الرسل بينه وبين الصليبيين في الصلح فاصطلحوا

* موت الملك اموري صاحب عكا وتعيين خلفه والتحريض

على الحروب الصليبية السادسة *

في سنة ٦٠٦ مات الملك اموري ملك سوريا وماتت زوجته فارسل الصليبيون المقيمون بسوريا الى الملك فيلبس اوغسطس ملك فرنسا يخبرونه بذلك فمين يوحنا بريانا ملكاً على سوريا فرضي به البابا وباركه وسار يوحنا المذكور الى فلسطين فقابله الصليبيون باحتفال عظيم وتوجوه بتاج الملك عليهم ولما جلس هذا الملك داخله الطمع فارسل الى البابا والى ملوك أوروبا يطلب اليهم مجريد عساكر صليبية سادسة لاجل تخليص القدس من المسلمين والاستيلاء على جميع البلاد الاسلامية بسوريا

* ابتداء الحروب الصليبية السادسة *

(التحريض على الحروب الصليبية السادسة والصليبيون الفتيان ومؤتمر رومية)
لما أرسل يوحنا بريانا ملك سوريا الى البابا والى ملوك أوروبا كما تقدم ارسل البابا الى الاساقفة ورؤساء الكنائس في جميع الممالك الأوروبية بالحضور الى رومية لعقد مؤتمر بذلك ولما وصلت رسل يوحنا المذكور الى بلاد أوروبا صاروا

التمثيل المقامة بالمباين العموية وقد خرج بطريك الروم هاربا من القسطنطينية حافي الاقدام تاركاً جميع امتعته لتهب الصليبيين وهرب مورزوفلا في احد المراكب *} تنويج بودوين على القسطنطينية وما جرى للصليبيين بها

واتهاء الحروب الصليبية الخامسة *

بعد املاك الصليبيين بلاد الروم شرعوا في انتخاب احدهم ليكون ملكاً على القسطنطينية فاختاروا ستة اشخاص ومن البندقيين ستة اشخاص وادخلوا الاثنى عشر كنيسة ايا صوفيا وطلبوا منهم ان ينتخبوا احد الرؤساء الصليبيين ليكون ملكاً فاقاموا بالكنيسة يومين ثم خرجوا ونادوا بان الذي يكون ملكاً هو بودوين كونت دي فلاندر فاقاموه ملكاً ثم شرعوا في تقسيم المملكة ووظائفها فاستخدم بودوين اكثر رؤساء الصليبيين ليكونوا حكاماً على البلاد الرومية وكذلك اهل البندقية وكان ذلك في سنة ١٢٠٤ ميلادية الموافقة ٦٠١ هجرية ثم انعقد مجلس مشورتهم وقسم المملكة الرومية قسمين قسماً للفرنساويين والقسم الآخر لاهل البندقية ثم ان بودوين ملك القسطنطينية قد ارسل رؤساء الصليبيين الى البابا ليعلمونه بما امتلكوه ويعتذرون اليه لتأخيرهم عن التوجه الى البلاد السورية فغضب عليهم لمحاربة اخوانهم المسيحيين وبلغت انتصارات الصليبيين المذكورة على بلاد الروم اقصى البلاد فصارَت خيالة الجمعيات الرهبانية جمعية الهيكلين وجمعية القديس يوحنا المعمدان اليها ولما استوطن الصليبيون القسطنطينية ارسلوا الى البلاد حكماً وعسكر منهم فكانوا كلما ذهبوا الى مدينة لاختضاعها يخرج عليهم الروم ويقاتلونهم وهكذا تفرقت عساكر الصليبيين في جميع البلاد ومن عصاهم اهل بلغاريا فاسروا بودوين المذكور وقتلوه فجلس بدلا عنه اخوه هنريكوس دي هالينولت ملكاً على القسطنطينية ثم ارسلوا الى بلاد فرانسوا واطاليا يطلبون النجدة منهما مستغيثين بأهلها وقد اقلت هذه المملكة تحت حكم فرنساوية نحو سبعة وخمسين سنة ثم استردها الروم منهم وهكذا انتهت الحروب الصليبية الخامسة بدون محاربة او قتال مع المسلمين

*} مناقشات الصليبيين والملك العادل *

واما الملك العادل ظل متمتعاً بملكه العظيم وكل انقضت هدنة بينه وبين الصليبيين جدها وفي سنة ٦٠٤ خرج الصليبيون الذين بطرابلس وحصن الاكراد واكثروا الاغارة على بلد حمص وولايتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيراً فلم

البندقية والدوجا كل النشاط والشجاعة مع انه كان كفيف البصر ثم استولى الصليبيون على المدينة قهراً واضرموا النار في المنازل القريبة من السور اما الملك فانه هرب في ظلام الليل ونزل في مركب مع خزانته وسار مفتشاً على موضع يلتجئ اليه ثم ان الروم هجموا على السجن واخرجوا منه الملك اسحق وأجلسوه على تخت ملكه فارسل اليه الصليبيون يطلبون منه التصديق على الشروط التي حررها ولده الكيسوس في مدينة زارا وتنفيذ مفعولها فهاله المبلغ المعين ولكنه كتم امره واطهر رضاء بالتصديق عليه ثم ان الصليبيين توجوا ولده الكيسوس ليكون شريكاً في المملكة

﴿ ثورة القسطنطينية وامتلاك الصليبيين لها ﴾

وبعد ذلك طلب الصليبيون من الملك المبلغ المعين في الشروط وان تكون مملكة الروم خاضعة للبابا فينئذ اجبر الملك الكيسوس بطريرك القسطنطينية بالاعتراف بسلطة البابا الدينية ثم امر بجمع المال من الاهالي ولكنه لم يتم له تسديد المبلغ فاخذ جميع الاواني المقدسة التي بالكنائس وحلها وضررها مسكوكات لاجل تسديد المبلغ ولذلك تضررت الروم باجمعها ومما زاد ضررها ان عساكر الصليبيين الفلاندين اشعلوا النار في كنيس لليهود فاحترق والتهب النيران في باقي المدينة فلذلك جاهر الروم بالعداوة للصليبيين بقيادة من يدعى الكيسوس مورزوفلا وقبضوا على الملك الكيسوس وقتلوه ثم ان اباه الملك اسحق مات حزناً على ولده المذكور فانتخب الروم الكيسوس مورزوفلا ملكاً عليهم واستعدوا لمحاربة الصليبيين وكذلك الصليبيون استعدوا لمحاربة الروم ونزلوا في المراكب واقتتل الفريقان فتأخر الصليبيون وبعد ثلاثة ايام انتصروا على الروم واستولوا على المدينة عنوة ووقعوا باهلها القتل والنهب وصاروا يحولون في المدينة شاهري سيوفهم مشعلي مشاعلهم ليحرقوا بها الدور فاحرقوا اكثر منازل المدينة فالتجأت النساء الى كنيسة اياصوفيا للاحتماء بها فخرجت الاساقفة والقسس حاملين الانجيل امامهم يطلبون من الصليبيين الامان وان يبقوا على اهل المدينة فلم يلتفتوا اليهم (فانظر رافة الصليبيين الذين خرجوا من بلادهم بقصد تخليص قبر المسيح وادعاهم بالشفقة على مسيحي المشرق كيف فعلوا في مسيحيين القسطنطينية من القتل والنهب وحرق المدينة) وصاروا يقتلون وينهبون حتى كنيسة اياصوفيا نفسها فقد احرقوا جميع ما فيها من الستائر والتصاویر وغيرها ونبشوا قبور الملوك المدفونين فيها واخذوا ما بها من الذهب والاحجار الكريمة ولم يبقوا في المدينة منزلاً بدون نهب وقتل وكذلك احرقوا وكسروا جميع

المدينة واستولوا عليها واقسموا غنائمها بالسوية بينهم حسب الشروط ولمناسبة دخول فصل الشتاء عزموا على الاقامة بهذه المدينة الى ان ينقضي بسلام ثم أرسل اليهم البابا يوحنا على محاربتهم المسيحيين وتأخيرهم عن التوجه الى فلسطين فإرسلوا له وفد الاجل ان يعتذر لهم امامه ويطلب منه المغفرة والبركة فسامحهم البابا ثم انه قدم للصليبيين وفد من الملك فيليبس شوابا أحد ملوك النمسا يطلب منهم مساعدة اليكسيوس ابن ملك القسطنطينية اسحاق وتمليكها عليها (لان عمه اغتصب المملكة من ابيه وسجنه وسجن اياه بعد ثمل عينيه بالقسطنطينية فتخلص الولد المذكور وسافر الى صهره الملك فيليبس) وتعهدهم بدفع مائتي الف وزنة من الفضة بصفة مصارف للصليبيين وان يضع مملكة الروم كلها تحت طاعة الكنيسة الرومانية وانه يقدم للصليبيين ما يحتاجون اليه من القوات ويذهبهم الى بلاد فلسطين أو يرسل معهم عشرة آلاف محارب فاتفق مجلس مشورتهم وبعد معارضة من بعض الرؤساء قرر قبول هذه الشروط المقدمة لهم وانه في فصل الربيع يتزلون في المراكب ويسيرون الى القسطنطينية . ثم وردت اليهم رسائل من البابا بتوبيخهم على ما عزموا عليه فلم يلتفتوا اليه وباشروا في الاستعداد كما تقرر ثم حضر اليهم اليكسيوس نفسه وجدد امامهم توسلاته . ثم سار الصليبيون بالمراكب الى ان وصلوا ميناء دورتسيوس وميناء كورفو وهناك نودي بالامير اليكسيوس ملكاً ثم ساروا في البحر أيضاً وكما وصلوا الى مدينة أو بلد نادوا بان الملك هو اليكسيوس الى ان وصلوا الى مدخل البسفور ورموا مراسيمهم عند شط مدينة القديس استفانوس ثم قرروا بان تشارع اعلامهم على المراكب وبفك القلوع وعبور كل المارة في الخليج الكبير وقد ساعدتهم الريح الى ان صاروا تحت أسوار القسطنطينية فطلماوا الى البر فأرسل اليهم ملك القسطنطينية وقتئذ يسألهم عن أمرهم فقالوا للرسول انا حضرنا لاجل رد المملكة الى الملك اليكسيوس بن اسحاق صاحبها الاصلي واذا لم يشأ تسليم المملكة بدون حرب فاعلمه باننا سنأخذها بالقوة ثم قرر مجلس مشورتهم بالنقل العساكر الى الجهة الثانية لمحاصرة القسطنطينية من كل جهة وكان ذلك في شهر القعدة سنة ٥٩٩ هـ وانتشبت الحرب بين الفريقين فتغلبت العساكر الفرنساوية على برج غلطة وأخذوه ووضعوا علمهم فوقه وفي الوقت نفسه تغلبت عساكر البندقية على قطع السلسلة الحديدية التي تمنع المراكب من دخول قرن الذهب ودخلوا في قلب المدينة وتبعهم نحو عشرين الف مقاتل من الفرنسيين وحاصروا المدينة من البر والبحر وبعد قتال شديد بينهم أظهر فيه الشجاعة اهل

البندقية لاجل ان ترسل مراكبها لنقلهم الى بر اسيا وسار الوفد الى ان وصل
البندقية في سنة ٥٩٦ هـ وتقدم هذا الوفد بين يدي الدوجا (لقب رئيس مشيخة
البندقية) هنريكوس داندولو وعرض عليه الرسائل وطلب منه المساعدة بارسال
المراكب لنقل الصليبيين فقال لهم باي شروط فقالوا كما تريد فاشار الدوجا بطريقتين
احدهما ان يرسل مراكب لنقل الصليبيين لحمل أربعة آلاف وخمسمائة من
الفرسان وعشرين الفأمن الرجال وتستطيع ان توسق الذخائر اللازمة لهذا العسكر
لمدة تسعة شهور بشرط ان يدفعوا له خمسة وثمانين الف وزنة فضة والثانية انه
يرسل خمسين مركباً بعساكرهم صحبة الصليبيين وان جميع الغنائم تقسم بينهم
مناصفة أي للصليبيين النصف وللبنديين النصف الاخير ثم أرسلوا الشروط الى
البابا ليصدق عليها فصدق عليها ثم عاد رجال الوفد الى الصليبيين فوجدوا تيوبلت
الرئيس العام مريضاً ثم مات فانتخبوا رئيساً عليهم بوتيغاسيوس أمير مونتفرات
واستلم الصليب من يد فولك الحوري بمحضر من الاكليروس في كنيسة السيدة
مريم البتول ثم سار الصليبيون من بلاد فرانساجاجتازوا الجبال الالية وواصلوا الزحف
الى ان وصلوا الى البندقية وهناك قابلهم أهلها باكرام واحترام وقد أعدوا لهم
المراكب اللازمة وزيادة حسب الشروط وطلبوا منهم ان يدفعوا لهم مبلغ ٨٥ الف
وزنة فضة فوجد الصليبيون ان لا قدرتهم على دفع المبلغ جميعه ودفعوا ثلث فقط
فلذلك رئيس مشيخة البندقية أجمع امرائه وقال لهم بما ان الصليبيين ليس معهم
الآن باقي المبلغ المتفق عليه فارى الاحسن ان نأخذهم معانفي مقابلة باقي المبلغ
لمساعدتنا على اخضاع مدينة زارا التي اغتصبها منا سلطان هونكرا فقبل
هذا الرأي رؤساء الصليبيين وأما الصليبيون أنفسهم فاكثروهم رفض قبوله وكذلك
الوكيل البابوي بطرس دي كابوا رفض هذا الرأي وقال انه نفاق ولكن الدوجا
هنريكوس أراد ان يجذب الجميع الى رأيه وهذا ويتم مرغوبه وانتصاره على
هذه المقاومة فاجتمع هو ورؤساء عساكره وشعبه في كنيسة القديس مرقس واتخذ
علامة الصليب على صدره وتبعه جميع شعبه فصاروا جميعاً صليبيين ومتحدين معاً
تحت راية الصليب فثبت على رأيه ورفض معارضة الوكيل البابوي وغيره

محاربة الصليبيين مدينة زارا والقسطنطينية وغيرها

سار جميع الصليبيين ومهم أهل البندقية الى ان وصلوا الى مدينة زارا
وحاصروها مدة أسبوعين وفي كل يوم يقاتلونها وأخيراً انتصروا على من في

أرسل اليهما البابا الكردينال بطرس ليتوسط بينهما في الصلح باسمه وأن يعقد هدنة بينهما لمدة خمس سنوات فلم تحصل ثمرة ولم يتم صلحهما وكذلك كان اوثنون والى ساكسيا وفيلبس اميرسوا باقائهما كان يخاصمان امير جرمانيا وجميع مملكة النمسا متداخلة في هذا المشكل وهذه الاسباب لم تثمر تحريصات البابا . ثم انه كان يوجد في فرانسوا كاهن اسمه فولك خوري كنيسة نوبلي سورفارنا وكان محبوباً عند الشعب لفصاحته وطلاقة لسانه حتى انهم كانوا يلقبونه بالقدّيس فارسل اليه البابا وفداً ومعه تفويض منه بانذارات الحروب الصليبية فقبل فولك هذا التفويض واخذ بالطواف ومعه بطرس دي رزوني لاجل ان ينذر بالحروب الصليبية فسار متجولاً في بلاد نورمانديا وفلاندر وبورغونيا فكان يخطب فيهم ويحثهم على الاستعداد للسفر الى الحروب الصليبية لتخليص قبر المسيح مفدي العالم ثم سار الى قلعة داكري وكانت هناك جمعية عمومية من رؤساء العساكر في ولية قد أعدها لهم تيوبلت كونت دي شمبانيا واصر يخطب فيهم ويحثهم ويطلب منهم النظر الى البلاد المقدسة وما زال بهم حتى ان تيوبلت كونت دي شمبانيا وهو أخو هنريكوس ملك فلسطين المتوفي وابن أخي سلطان فرانسوا وابن أخت سلطان انكلترا قبل التوجه الى فلسطين واستنقاذ القدس من المسلمين تحت راية الصليب وتبعه كل من كونت دي تشارتراس . وكونت دي بلواز وكونت دي سانبول . وسمعان دي منتفورت . ورنهارد . وبرندوس دي موتيمريل وأخوه والكونت غوتير . والكونت يوحنا دي برياناومنى دي لينزلاوراندودي رابيارا . ومتى دي موغوراتسي . وهو كوز ورمباتوس دي بورن وكونت دي أميانس والكونت رانوددي بولونيا . وجفرو كونت دي براش وجفرو وكونت دي فيلا هردوين والمرشال دي شمبانيا

﴿ سفر العساكر الصليبية الخامسة واتحادهم مع مشيخة البندقيه ﴾

افتنى قواد بلاد فلاندر أثر من ذكروا فاقسم كل من الكونت بودوين واسطاكوس وهنريكوس اخوه ويعقوب دي افنسا ومحافظ قلعة بورجس ويوحنا دي نزالا وكونون دي بيوتونا وغيرهم على المسير تحت راية الصليبيين لانتقاذ القبر المقدس وتعين رئيساً عاماً على هذه الحياوش تيوبلت كونت دي شمبانيا ثم اجتمع الرؤساء في مدينة سواسنوس ثم في مدينة كومينا واتفقوا على ان العساكر تسافر الى المشرق بجرأ وان يرسلوا وفداً الى مشيخة

نجم الدين أيوب ابن العادل عن تسليمه ميفارقين وسلم ماعداها

﴿ خلع الملك المنصور وسلطنة الملك العادل على مصر وسوريا ﴾

ودخل الملك العادل القاهرة يوم السبت ١٨ ربيع آخر ٥٩٦ هـ ولما خلا له الجو وثبت قدمه فيها خلع الملك المنصور محمد بن عبد العزيز في شوال بعد ان حكم ٢١ شهراً وتولى الملك العادل سلطنة مصر وسوريا وخطب لنفسه فلم يرض بذلك الامراء المصريون فراسلوا أخويه الظاهر بحلب والافضل بصرخد وتكررت المكاتبات والمراسلات يدعونهما الى قصد دمشق وحصرها ليخرج العادل من مصر اليهم فيسلمونهم مصر فحضر الظاهر والافضل الى دمشق وحاصراها وبعد قتال مع من بالبلد وكان العادل أرسل اليها من يحفظها حصل بين الاخوين منافرة فعادا الى تجديد الصلح مع العادل . واستقراً على ان يكون للظاهر منبج واقامية وكفر طاب وقرى معينة من المعرة ويكون للافضل سميساط وسروج ورأس العين وحلين ورحلا عن دمشق أول محرم سنة ٥٩٨ هـ وسار العادل الى دمشق فوصلها تاسع شهره . ومازال يشتغل حتى جعل جميع الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانه وفي جملتهم الظاهر والافضل فعادت المملكة الايوبية بعد ان انقسمت حصصا الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد وفي سنة ٥٩٨ هـ أيضاً أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر الى الشام فسار بوالدته واخوته وأقام عند عمه الملك الظاهر بحلب

﴿ الحروب الصليبية الخامسة ﴾

(تحريض البابا اينوشانسيوس الثالث على الحروب الصليبية)

لما جاس على كرسي السدة البطريركية بزومية البابا اينوشانسيوس الثالث وعمره ٣٣ سنة أراد أن يجعل له أثراً يذكر فاخذ يحرض على الحروب الصليبية وأرسل الى جميع ملوك أوروبا منشورات بالاتحاد على الحروب الصليبية لتخليص قبر المسيح من أيدي المسلمين ثم أرسل نوابا الى الملوك والى جميع قواد العساكر ورؤساء الكنائس والى شعوب فرانسا وانكلترا وهونكاري وسيشيليا وقد أعلن لهم على انه عازم أن يضحي أعز ماله به بشأن استنقاذ قبر المسيح وحيث ان ريكاردوس ملك الانكليز وفيلبس ملك فرانسا كانا دائماً متحاربين مع بعضهما بخصوص بلادهما فكان لا يمكنهما ترك بلادهما والتوجه لحروب صليبية ولذلك قد

وسار مجدأ حتى وصل الى القدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الامراء الناصرية فقيوت شوكتهم واجتمعت كلمتهم على خلاف الافضل فأرسلوا الى العادل يطلبون قدومه ليدخلوا معه الى مصر ليلكوها وكان محاصراً ماردين فلم يقدم اليهم وكان دخول الافضل القاهرة في ٧ ربيع اول ولما سمع بهرب جهاركس المذكور أرسل اليه ليعود فأبى ويومئذ قام الافضل أتاكبا على المنصور بمصر وكان الوزير وقتئذ سيف الدين يازكج .

وأرسل الملك الظاهر صاحب حلب الى أخيه الافضل يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل وان يتنهر الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين فبرز الملك الافضل خارج مصر وسار الى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره الى دمشق فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل وسار فسبق الافضل ودخل دمشق قبل نزول الافضل عليها بيومين ونزل الافضل على دمشق ثالث عشر شعبان وزحف من الغد على البلد وجري بينهم قتال وهجم بعض عسكره على المدينة حتى وصل الى باب البريد ولم يمدهم العسكر فتكاثر أصحاب العادل وأخرجوهم من البلد ثم تحاذل العسكر فتأخر العادل الى ذيل عقبة الكسوة ثم وصل الظاهر صاحب حلب لنجدة أخيه فعاد الى مضايقة دمشق وداوم الحصار عليها وقلت الاقوات عند الملك العادل حتى أهل البلد واشرف الافضل والظاهر على امتلاك دمشق وعزم العادل على التسليم ولكن حصل بين الاخوين منافرة فغضب الظاهر وترك قتال عمه العادل لآخيه الافضل وظهر الفشل في العساكر ثم انهما تأخرا بمرج الصفر في آخر صفر سنة ٥٩٦ ثم سارا الى رأس الماء ليقيا به الى انقضاء فصل الشتاء ومنه سار الافضل الى مصر والظاهر الى حلب ولما افترقا خرج الملك العادل في أثر الافضل الى مصر ولما وصل الافضل الى بلاده تفرقت عساكره في بلادهم الى الربيع فادركه عمه العادل فخرج الافضل بمن بقي عنده من العسكر وضرب معه مصافاً بموضع يقال له السائح في ٧ ربيع آخر فانكسر الافضل وانهمزم الى القاهرة ودخلها ليلاً ثم سار العادل في أثره واتى القاهرة وحصرها فجمع الافضل من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم تحاذلا فأرسل الى عمه في الصلح وطلب العوض عن مصر وتسليمها اليه وأن يكون العوض ميفارقين وحائى . وسميساط فاجابه الى ذلك وتحالفا عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت ١٨ منه واجتمع بالعادل وسار الى صرخد وأرسل من يستلم البلاد المذكورة فامتنع

﴿ وفاة الملك هنريكوس السادس وتعيين الملك اموري على فلسطين ﴾

﴿ انتهاء الحروب الصليبية الرابعة ﴾

لما قتل هنريكوس دي شمانيا ملك فلسطين وترملت زوجته ايزابال قدم الملك اموري ملك قبرص وتزوج بها وفي اثناء حفلة العرس ورد عليهم ما كدر خاطر جميع الصليبيين وهو نفي الملك هنريكوس السادس ملك النمسا فحينئذ عزم جميع الامراء النمساويين والامساكين على السفر الى بلادهم فركبوا سفنهم الى بلادهم ولم يبق منهم في سوريا الا ملك هونكريا الذي حصلت بينه وبين العساكر الاسلامية مناوشات بجهة يافا فاحتاطت العساكر الاسلامية برجاله وقتلته عن آخرهم. وكان قد حضر الكونت دي منتفورت الى سوريا منذ أيام قليلة فطلب من الملك العادل هدية لمدة ثلاث سنوات فاجابه الى ذلك وكان في شعبان من السنة المذكورة وهكذا قد انتهت هذه الحرب الصليبية الرابعة

﴿ وفاة العزيز صاحب مصر وتولية ابنه المنصور وما جرى للافضل ﴾

في شهر محرم سنة ٥٩٥ هـ صار العزيز الى جهة الفيوم للصيد فطارد ذئباً فضر به جواده فسقط على الارض وأصابته حمى فعاد الى القاهرة وحدث له يرقان وقرحة في الامعاء واحتبس طبعه فمات في ليلة العشرين منه وكانت مدة حكمه ست سنين الا شهراً وكان عمره ٢٧ سنة وأشهرأ وكان في غاية السباحة والكرم والعدل والرفق بالريعية والاحسان عليهم وكان الغالب على دولة العزيز نحر الدين جهاركس فقام على المملكة ولد العزيز وهو الملك المنصور محمد وكان عمره تسع سنين وشهوراً واتفق الامراء على احضار احد بنى أيوب ليكون اتابكا للملك (أي وصياً عليه) فتشاوروا بالامر بحضور القاضي الفاضل فاشاروا بالملك الافضل وكان بصرخد فارسوا اليه فصار محمناً في ٢٨ منه فوصل الى بليس في ٥ ربيع الاول فخرج الملك المنصور للقاءه فترجل له عمه الملك الافضل ودخل بين يديه الى دار الوزارة وهي قد كانت مقر السلطنة وكان الافضل لما وصل الى بليس فاتفق ان أخاه الملك المؤيد مسعود صنع له طعاماً وصنع له نحر الدين مملوك أبيه طعاماً أيضاً فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه انه يبدأ به فظن جهاركس انه فعل هذا انحرافاً عنه وسوء اعتقاد فيه فغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الافضل وقال ان طائفة من العرب قد اقتتلوا ويطلب المسير اليهم ليصلحهم فأذن له الافضل ففارقه

تكفيراً عن ذنوبه (لأنه أصبح محروماً من رأس الكنيسة لمحاربه المسيحيين) فارسل الى عظماء مملكته بسفر كل من كان أقسم بالمسير الى الحروب الصليبية وبعد ان استعد للمسير الى فلسطين برئاسة هذا القسم عدل عن هذا العزم وجعل كوزاد اسقف هيدالكسيم رئيساً عليه فساروا بجزراً الى ان وصلوا الى سوريا ففرح بهم جميع الصليبيين واشتدت قوتهم وعزموا على التوجه الى القدس ومحاصرتها ولما كان ذلك في فصل الشتاء ولم يمكنهم المحاصرة لشدة البرد انتظروا فصل الربيع ﴿ حصار حصن تبين وقدم العزيز اليه ورجوع الصليبيين على أعقابهم ﴾

وفي اثناء انتظار الصليبيين دخول فصل الربيع لمحاصرة القدس عزموا على حصار حصن تبين وكان الملك العادل قد أتاه الخبر في منتصف المحرم سنة ٥٩٤ بهم يريدون ان يحصروا تبين فسير اليه عسكرياً يحمونه ويمنعون عنه وأرسل أيضاً الى العزيز يطلب منه ان يحضر هو بنفسه ويقول له ان حضرت نغير والا فلا يمكن حفظ هذا الثغر فسار العزيز مجدداً في من بقي معه من العساكر ورحل الصليبيون عن صور ونازلوا تبين في اول صفر وقاتلوا من به وجدوا في القتال وقبوا من جهاتهم من تحت الجبل فلما علم بذلك من بالحصن وخافوا ان يملكه الصليبيون بالسيف نزل بعضهم الى الصليبيين يطلب الامان على انفسهم وأمواهم ليسلموا القلعة فقال هؤلاء المسلمين بعض افرنج سوريا ان سلمتم الحصن استأسركم هؤلاء الصليبيون وقبلوكم فاحفظوا نفوسكم (وكان الخلاف واقعاً بين الصليبيين) فعادوا كأنهم يراجعون من في القلعة ليسلموا فلما صعدوا اليها أصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه فحموها الى ان وصل الملك العزيز الى عسقلان في ربيع الاول فلما سمع الصليبيون بوصوله واجتماع المسلمين رحلوا وخصوصاً لان ليس لهم ملك يجمعهم فاقاموا الى ان وصل الملك العزيز في اول شهر ربيع الآخر ورحل هو والعساكر الى جبل الحيل المعروف بجبل عاملة فاقاموا أياماً والامطار تهطل فبقي الى ١٣ منه ثم سار وقارب الصليبيين وأرسل رماة النشاب فرموهم ساعة وعادوا ورتب العساكر ليزحف الى الصليبيين ويحصد في قتالهم فرحلوا الى صور في منتصف الشهر ليلاً ثم سار المسلمون الى اللجون وتراسلوا في الصلح وطال الامر فعاد الملك العزيز الى الديار المصرية قبل انتهاء الصلح

عكاغاضيين يقصدون بلاد المسلمين فلما علم بذلك الملك العادل وكان بدمشق أرسل الى الملك العزيز بمصر يطلب ارسال العساكر وأرسل كذلك بطلب العساكر من البلاد الشرقية فجاءه الامراء واجتمعوا على عين جالوت في شهر رمضان سنة ٥٩٣ هـ وبعض شوال ثم سار الملك العادل بجميع العساكر الاسلامية قاصداً يافا وحاصرها وشدد في قناها فملكها وخرب البلد فاعتصم الصليبيون بقلعتها فحاصرها وضائقها وملكها عنوة وقهراً بالسيف وذبح منهم ما ينوف عن عشرين الف حسب تقرير مؤرخيهم وكان هنريكوس كونت دي شمبانيا المذكور لم يزل بعكا وقد عزم على السير بعساكر الصليبيين لاجل خلاص يافا فوقع من شباك بقصره فقات ثم بعد دقه ساروا جميع الصليبيين لنجدة يافا فبلغهم خبر استيلاء المسلمين عليها فغزموا على المسير نحو بيروت والاستيلاء عليها ولما بلغ ذلك الى الملك العادل أرسل اليها بعض العسكر لاجل هدمها وتخريبها فشرعوا في هدم سور المدينة في سابع ذي الحجة فتمنعهم اسامة (والي المدينة) من ذلك وتكفل بحفظها وعاد عسكر المسلمين منها فالتقوا بالصليبيين بنواحي صيدا وجرى بينهم قتال شديد قتل فيه كثير من الفريقين وحجز بينهم الليل وسار الصليبيون في ٩ منه فوصلوا بيروت فلما قاربوها هرب منها اسامة وجميع من معه من المسلمين فملكها الصليبيون صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة وكان بها من أسرى الافرنج ما ينوف على تسعة آلاف فاطلقوهم فأرسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقي منها لان صلاح الدين كان قد خرب اكثرها ثم سافرت العساكر الاسلامية الى صور فقطعوا أشجارها وخربوا ما لها من قرى وأبراج فلما سمع الصليبيون بذلك رحلوا من بيروت الى صور وأقاموا بها ونزل المسلمون عند قلعة هونين وأذن العادل للعساكر الشرقية بالعود نظائماً منه ان الصليبيين يقيمون ببلادهم

✽ مسير القسم الثالث من الجيوش الصليبية الرابعة ✽

سار الملك هنريكوس بالقسم الثالث من العساكر الصليبية الى ان وصل الى جزيرة سيبيلى فحارب اهلها وانتصر عليها واستعمل في حروبه معها القساوة والعذابات البربرية حتى تتوج عليها سلطاناً (وكان قد تزوج بقسطنسا ابنة روجار صاحب الجزيرة وكانت قسطنسا تستحق التملك عليها ولكن قد زاحمها تنكريد واستولى عليها وبعد وفاته كثرت التحزبات الى ان وصل هنريكوس واستولى عليها) ثم ان هذا الملك عزم على السفر الى فلسطين ليحارب سنة

لتجريد حملة صليبية رابعة والاستيلاء على القدس قبر المحلص لعدم وجود من يحميه من المسلمين) ولما وصل هذا المنشور الى الملوك لم يلتفتوا اليه لان الملك ريكاردوس ملك الانكليز بعد اطلاقه من الاسر لم ير الاهتمام الا بصالح مملكته والاستعداد لمحاربة ملك فرانسا وكذلك الملك فيليبس ملك فرانسافانه كان خائفاً على مملكته من ريكاردوس فكان هذان الملكان واقفاً أحدهما للآخر بالمرصاد ولذلك لم يهتما بمنشور البابا أما الملك هنريكوس السادس ملك النمسا فانه كان قد حرمه البابا من يوم أسر ريكاردوس ولكن لما وجد البابا عدم التفات ملوك فرنسا وانكلترا أرسل وفداً الى ملك النمسا المذكور يطلب اليه الاستعداد للزحف الى بلاد فلسطين وأخذ القدس من المسلمين مذكراً اياه بمسائل والده فريدريكوس الاول فقبل الملك هنريكوس تجهيز الحروب الصليبية الرابعة وفي جمعة عظماء المملكة المنعقدة في مدينة فورمس أعلن بالحروب المذكورة وطلب من القواد والامراء المساعدة فقبل ذلك عدد عظيم من النمساويين والالمانيين والجرمانيين وجميع البلاد الخاضعة لهذا الملك وكل منهم استلم صليباً واستعد للسفر الى فلسطين ولما كان هنريكوس دأبه الطمع والجشع وحب المجد الباطل وكان طامعاً في الاستيلاء على جزيرة سيسيليا فرح بهذا الاستعداد لينال مرغوبه بهذه الوسيلة . ولما استعد كل الصليبيين للسفر انقسم جيشهم ثلاثة أقسام وسار كل قسم من طريق مخصوص فالقسم الاول كان برئاسة الدوك دي ساكس والدوك دي براينت وسافر بجرأاً من مين البحر البلطكي والقسم الثاني كان برئاسة الكونت دي لامبورك رئيس أساقفة ماينانص فاجتاز نهر الطونه وسار نحو مدينة القسطنطينية والقسم الثالث كان برئاسة الملك هنريكوس فسافر الى بلاد نابولي لكي يصلي الحرب التي كان عازماً عليها ضد جزيرة سيسيليا .

﴿ وصول الصليبيين الى عكا واستيلاء المسلمين على يافا ﴾

﴿ واخذ الصليبيين بيروت ﴾

لما وصلت العساكر الصليبية الرابعة الى عكا عازمت على محاربة المسلمين وكان هنريكوس كونت دي شمبانيا المتولي على بلاد الصليبيين بفلسطين قد عقد هدنة مع الملك العزيز صاحب مصر زاد فيها مدة الهدنة المعقودة بين صلاح الدين وريكاردوس فاخذ يقيمهم بالقمود عن الحرب حتى انتهاء الهدنة فابوا ذلك وخرجوا من

الفاضل ليتوسط في الصلح فاستقر الامر بان يكون للافضل القدس وجميع البلاد
فلسطين وطبرية والاردن وجميع ما بيده ويكون للعادل اقطاعه القديمة ويكون
مقيماً بمصر عند العزيز فمشاهدوا وعاد الافضل الى دمشق وبقي العادل بمصر مع العزيز

* استيلاء الملك للعادل على دمشق *

لما أقام العادل بمصر رأى ان حصته قليلة ومنصبه حقير بالنسبة لاولاد أخيه
فغواطاً مع الملك العزيز على خلع الافضل عن دمشق وتولية الملك العادل عليها فسار
معاً من مصر الى دمشق وحصرها واستمالاً أحد أمراء الافضل واسمه العزيز
ابن أبي غالب الحمصي وكان الافضل كثير الاحسان اليه والوثوق به فسلمه الباب
الشرقي ليحفظه فوعد العزيز والعادل بفتحهم في اليوم السابع والعشرين من
رجب سنة ٥٩٢ هـ فدخل منه الملك العادل وبعض رجاله ولما علم الافضل ان عمه
معه بدمشق أيقن ان البلد قد ملكت منه فخرج الى أخيه العزيز وتحداه ثم دخلا
معاً واجتمعا بعمهما ثم استقل الملك العادل بدمشق وعاد العزيز الى مصر وسار
الافضل الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة الناصر لدين الله وكانا كلاهما شاعرين ماجدين
فكتب الافضل الى الامام الناصر

مولاي ان أبا بكر وصاحبه عثمان قد غصبنا بالسيف حق علي
وهو الذي كان قد ولاء والده عايها فاستقام الامر حين ولي
نخالفاه وحلا عقد بيعته والامر بينهما والنص فيه جلي
فاجابه الامام الناصر بقوله

وافي كتابك يا ابن يوسف معلناً بالود يخبر ان أصلك طاهر
غصباً علياً حقه اذ لم يكن بعد النبي له يثير ناصر
فابشر فان غداً عليه حسابهم واصبر فاصرك الامام الناصر

* ابتداء الحروب الصليبية الرابعة *

(تحريض البابا وسفر العساكر الصليبية الرابعة)

لما توفي السلطان صلاح الدين كان البابا على رومية سيليسـتينوس الثالث
فرأى تقسيم مملكة صلاح الدين على أولاده وعائلته فاغتم هذه الفرصة وأرسل
منشوراً الى ملوك اوربا يقول لهم فيه (بان السلطان صلاح الدين قد توفي ومملكته
تقسمت على أولاده وعائلته وكل منهم قد استقل بنفسه وأخذ يطلب منهم الاتحاد والخروج

كل ذلك بموافقة الامراء . فلقب اول اولاده المدعو نور الدين بالملك الافضل وكان من نصيبه مملكة دمشق والشطوط البحرية واورشليم (القدس) والبصرة وبانياس وسوريا الغربية . ولقب ابو الفتح الغازي بالملك الظاهر غياث الدين فاخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل باشر وعيراز والمنبيج ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولى مصر بجميع اعمالها . ومن هؤلاء الامراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدول الايوبية الحلية والدمشقية والمصرية أما من بقي من تلك العائلة فكانوا ولاية على بلاد اقطعهم اياها صلاح الدين قبل وفاته الا انهم كانوا تحت سلطة هؤلاء الثلاثة فسيف الدين ابو بكر بن ايوب وأخو صلاح الدين الملقب بالملك العادل كان حاكماً في الكرك والشوبك وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهين شاه احداخوى صلاح الدين كان أميراً على حماة والسلمية وماراً . وبهرام شاه الملقب بالملك الاجمدهد شاهين شاه أيضاً كان ملقباً بملك الرها وشمس الدولة طورانشاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن بامرأته سنة ٥٦٩ هـ كان قد اقام فيها مملكة وكان اخوه توغتن حاكماً فيها تحت اسم الملك المعز . وفي سنة ٥٩٠ هـ سار الملك العزيز صاحب مصر بعساكره وحاصر مدينة دمشق وكان بها الافضل فارسل الى عمه الملك العادل يستجده فجاء وجاء أيضاً أخوه الملك الظاهر صاحب حلب وجميع الامراء الايوبية واجتمعوا بدمشق فعلم العزيز بانه لاقدرة له على اخذها فترددت الرسل بينهم على الصالح فاستقرت القاعدة على ان يكون البيت المقدس وما جاوره من اعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية واعمالها للافضل ويعطي الافضل اخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية وان يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد منهم الى بلده وفي سنة ٥٩١ هـ سافر الى دمشق ثانياً بقصد محاصرتها واستيلائه عليها وكان ذلك باغراء بعض ممالك ابيه المعروفين بالصلاحية مثل نحر الدين جركس وسراسنقر وغيرهم فسار الافضل من دمشق واستنجد بعمه الملك العادل وبأخيه الملك الظاهر فسبقه الملك العادل ودخل دمشق لثقت به ثم ان بعض الامراء الاسديين الذين بقيادة العزيز راسلوا الافضل والعادل يطلب ان يحياهم لهما ققبلاهم واتفقا بان الافضل والعادل يأخذان دمشق فعلم بذلك العزيز فخاف على مملكته فرجع الى القاهرة ليحفظها وسار كل من الافضل والعادل الى ان وصلا بليس فخاف العادل من الافضل انه اذا أخذ مصر لا يعطيه دمشق فأرسل الى العزيز بارسال القاضي

صفر وكان يوم وفاته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم وغشى الملك والدينا وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وكان سنه عند وفاته ٥٧ سنة ومدة حكمه ٢٦ سنة في مصر وسوريا فحضر الجميع وشيعوا جنازته ودفنوه في الدار التي كان ممرضاً فيها وكانت بينهم شقيقة الفقيد ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص وقام بالعزاء ولده الافضل ويقول بعض المؤرخين ان السلطان صلاح الدين لم يترك في خزينته الخصوصية الا ديناراً واحداً و ٤٧ درهماً من الفضة ولم يجدوا في جميع صناديقه أثراً للذهب او لغيره من الحجارة الكريمة وذلك مما يدل على فرط كرمه لانه اصاب اموالاً كثيرة جاد بها جميعها وكان حليماً حسن الاخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التواضع عن ذنوب اصحابه يسمع من احدهم ما يكره ويتفائل عنه ولا يعلمه بذلك وقد رثاه العماد بقصيدة ماثان انسان وثلاثون بيتاً منها

شمل الهدى والملك عم شتاه	والدهر ساءت واقلعت حسناه
أين الذي مذ لم يزل مخشية	مرجوة رهبانة وهبانة
اين الذي كانت له طاعانا	مبذولة ولربه طاعانه
بالله أين الناصر الملك الذي	لله خالصة صفت نيانه
أين الذي مازال سلطانا لنا	يرجى نداء وتبقى سطواته
اين الذي غنت الفرنج لباسه	ذلا ومنها ادركت ناراه
اغلال اعناق العدا اسيافه	اطواق أحياد الورى مناه
لم يجد تدبير الطيب وكم وكم	اجدت لطلب الدهر تديراته
من في صدور الكفر صدر قناته	حتى تواترت بالصياح قناته
في نصرة الاسلام يسهر دائماً	ليطول في روض الجنان سبانه
لأحسبوه مات شخص واحد	فمات كل العالمين مماته

﴿ تقسيم مملكة صلاح الدين على اولاده وما جرى في أثناء الهدنة ﴾

ترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكوراً واثني واحدة وهي مؤسسة خاتون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل واقتسم كل من اولاده واخوته واولادهم مملكته فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية فان ثلاثة من اولاده اخذوا اكبرها واقتسم الباقون بمقاطعات صغيرة وتم

انطاكيا بين يدي السلطان وخدمه فأكرمه السلطان وأنعم عليه وعلى رؤساء
عسكره ثم سار السلطان الى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها
والتقدم بسد خللها وإصلاح اجنادها وشحنها بالرجال فدخل دمشق بكرة يوم
الاربعاء السادس والعشرين من شوال فخرج أهلها جميعاً صغيراً وكبيراً نساء
ورجالاً للملاقاة وعملوا له زينة عظيمة وأقام بها ومعه الافضل والظاهر والظافر
وأولاده الصغار .

﴿مرض السلطان صلاح الدين ووفاته﴾

كان السلطان يحب مدينة دمشق ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد ولذلك أقام
بها مدة في رغد وسلام مع ان النية على عجزها مهاجمة هذا الباسل في ساحة
الحرب لم تخف مهاجمته على فراشه وبين أولاده وأخواته ففي يوم الجمعة ١٥ صفر
سنة ٥٨٩ هـ ركب السلطان للملاقاة الحج فباد الى منزله كسلا ثم غشيته حتى صفاوية
ثم أصبح في اليوم التالي أكثر كسلا وضعفاً وما زال المرض يتزايد يوماً فيوماً
الى اليوم التاسع من مرضه حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتد
الارجاف في البلد وغشي الناس من الكآبة مالا يمكن حكايته وكان القاضي ابن
شداد والقاضي الفاضل يقيمان عنده الى ان يمضي من الليل ثلثة ثم ينصرفان
فكان الناس يتربون خروجهما لكي يقرأوا أحواله من صفحات وجوههما
وفي اليوم العاشر من مرضه حقن دفتين فحصل له راحة وبعض الخفة وتناول شيئاً
من ماء الشعير وفرح الناس فرحاً شديداً ثم زاد به المرض حتى صار لا يقدر على التكلم
ولما رأى الملك الافضل ما حل بوالده وتحقق اليأس منه شرع في تحليف الناس
لجلس واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة تتضمن الحلف للسلطان مدة
حياته وبعد وفاته للملك الافضل واعتذر للناس بان المرض قد اشتد وانه يفعل هذا
احتياطاً على جاري عادة الملوك فحلف جماعة من الاكابر ولم يحضر أحد من
الامراء المصريين وفي الليلة الثانية عشرة من مرضه وهي ليلة الاربعاء ٢٧ صفر
اشتد مرضه وضعت قوته وبات بجانبه الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة يقرأ القرآن
ويذكره بالله تعالى وكان ذهنه غائباً وذكر الشيخ أبو جعفر انه لما انتهى الى قوله
تعالى : هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة : سمعه وهو يقول صحيح
وهذه لفظة في وقت الحاجة ولما بلغ الى قوله تعالى : لا اله الا هو عليه توكلت :
تبسم وتهلل وجهه وسلمت روحه الى ربه بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧

من ملك النمسا بمئة وخمسين ألف مارك فضة وبما ان خزنة الانكليز عجزت عن دفع هذا المبلغ التزمت الملكة اليونورا والدة ريكاردوس بان تكسر جميع الاواني الذهبية والفضية التي في قصرها الملوكي وأخذت أيضاً بعض أواني مقدسة من الكنائس وضربت الجميع مسكوكات لاجل اتمام دفع المبلغ المذكور الى هنري ثم أطلق سراحه فسار الى بلاده محفوفاً بالتجلة والاكرام وفيما هو في نورمنديا جاءه أخوه جون نادماً وجناً أمامه باكياً مستغفراً فعفا عنه ولما وصل انكلترا قوبل بالاحتفال اللائق .

✽ سفر السلطان الى دمشق بعد الهدنة وعزمه على الحج ✽

بعد الهدنة سار السلطان الى القدس وأمر بإحكام سورته وأنشأ به مدرسة ورباطاً وبمارستاناً وغير ذلك من مصالح المسلمين ووقف عليها أوقافاً وصام رمضان بالقدس وعزم على الحج والاحرام منه وكتب الى مصر واليمن بما عزم عليه وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج اليه من الزاد والتفقات فأرسل القاضي الفاضل الى السلطان يمنعه عن السفر وكذلك الامراء قالوا له لا يصح ان تسافر الى الحج وتترك هذه البلاد على ما بها من الشعب وهذه المعاقل التي في الشغور فان حفظها من أهم الامور ولا تغتر بعقد الهدنة فان القوم على تقرب ودأبهم الغدر وما زالوا به حتى عدل عن هذا العزم وأقام بالقدس الى ان سافر ريكاردوس الى بلاد في أول شوال سنة ٨٨٠ هـ فعند ذلك عزم السلطان على دخول الساحل جريدة لتفقد القلاع والحصون وأن يدخل دمشق ويقيم بها أياماً قلائل ويعود الى القدس سائراً الى الديار المصرية لتفقد أحوالها والنظر في مصالحها وأقام على القدس عز الدين جبرديك وسار منها في يوم الخميس خامس شوال وجاوز ناحية البيرة ونزل بظاهر نابلس وكان بها سيف الدين المشطوب وقد ظلم أهلها جملة مظالم فشكا أهلها الى السلطان فأمر بإزالة ما يشكون منه ثم سار الى بيسان وصعد الى قلعتها المهجورة ونظر قلعتها العالية وقال الصواب بناء هذه وتخريب كوكب ثم سار منها الى كوكب نزل بطبرية وهناك حضر بين يديه الامير بهاء الدين قراقوش وكان قد أطلق من أسره بعكا فلقاه السلطان بالسروور والفرح وسار في خدمة السلطان الى دمشق حتى أطلقوا باقي أصحابه المصريين فأخذهم وسار الى مصر ثم سار السلطان الى قلعة صفد ومنها الى قلعة تبسين وجاز على هونين ثم سار الى مرج عيون وجسر حامد الى ان وصل بيروت فحضر البرنس بوهموند صاحب

﴿ في التفتيش على ريكاردوس ووجوده في السجن ونقله الى سجن آخر ﴾

وبعد ذلك صار عظماء الانكليز يرسلون الى جميع ممالك اوروبا للبحث على ريكاردوس فما وجدوه وكان يوجد شخص اسمه بلونديل احد خاصة ريكاردوس وكان يحبه ويرتاح الى مجالسته وكان في جملة اهل سفينة عند غرقها ونجا معه ثم انفصل عنه في بعض المزدحمات ولم يعد يعرف مكانه حتى سمع بالقبض عليه وسجنه ولكنه لم يعرف اسم السجن فأخذ يفتش السجون متكرراً فلم يقف له على خبر فوصل يوماً الى قلعة تيربوس وقد اعياء التعب (وهو بصفة شاعر بيده عود يضرب عليه ويغني) واستولى عليه اليأس فأسند كتفه الى سورها وغنى أبياتاً كان قد نظمها هو وريكاردوس معاً فلم يكذباً بها حتى سمع تكلمتها من داخل القلعة فعلم ان ريكاردوس هناك فاسرع الى والدته الملكة اليونورا وجميع أرباب الحكم في بلاد الانكليز ولما شاعت هذه القضية خاف ليوبولدوس دوك دي اوطريش من دوام حبس ريكاردوس فاسرع في ارساله تحت الحفظ الى الملك هنري السادس ملك النمسا وكان هذا الملك أيضاً عنده عداوة لريكاردوس وحسد على شجاعته فكان يتربق الفرصة للانتقام منه فلما وصلت عساكر ليوبولدوس اليه ومعهم ريكاردوس أمر بقيده بسلاسل حديدية

﴿ محاكمة ريكاردوس ظلماً واطلاقه من الاسر ﴾

لما وصل ريكاردوس الى هنري السادس وقيد بالسلاسل الحديدية أرسله الى ديوان عظماء المملكة المتعقد وقتئذ في مدينة فورمس فهناك قد صورت البغضاء والحسد لريكاردوس جملة تهم اختلقوها وطلبوا الجواب منه عنها ولكن هذا الشجاع الباسل صاحب القلب القوي لم تزجه سطوتهم ولا مدة سجنه ولا قيد بالسلاسل الحديدية فاجاب عن كل تهمة بما يفيد براءته ببراهين قوية دامغة فلما ظهرت براءته بكى أكثر رجال الديوان على ظلمه وخرج القضاة أيضاً بعد معرفتهم اختلاق هذه التهم وأما الملك فلم يتنازل عن بغضه وحسده فأمر بسجنه دائماً وأما عظماء الانكليز فكانوا دائماً مجتهدين في خلاص ملكهم بأي طريقه لانهم كانوا يحبونه حباً شديداً فتارة بالمخابرات مع الملك هنري المذكور والتوسل اليه وتارة بتوسط الملوك والامراء وقد ذهب تعميم سدي حتى التزموا بتوسيط البابا لما له من الرئاسة الدينية فلم تنجح وساطته وأخيراً أنفذوا اثنين من رؤساء ديور جرمانيا لفتدياه

قبل سفرهم فسارت العساكر الفرنساوية بقيادة دوک دي بورغونيا وبعد الزيارة توفي القائد المذكور وسافرت العساكر الى بلادها ثم تبعهم العساكر النمساوية وغيرها لاجل الزيارة وكان السلطان صلاح الدين يرسل معهم الخفراء الى ان يتموا زيارتهم ويعودوا ولما وجد ريكاردوس كثرة الزوار من الصليبيين أرسل الى السلطان صلاح الدين لكي يمنع كل من أراد الزيارة ما لم يكن معه تصريح من ريكاردوس ولكن السلطان لما وجد الامراء والقواد قدموا اليه بقصد الزيارة أبي ردهم بل شرع في اكرام كل من يرد منهم وامدادهم بالطعام ومباستطهم ومحادتهم وعرفهم أمر ملكهم وانه لم يلتفت اليه وارسل الى ريكاردوس يعتذر له ويقول ان اقواماً وردوا علينا لاجل الزيارة فلا يمكن ان استحل منهم وقد مدح السلطان مؤرخوهم ثم أمر السلطان جميع العساكر الاسلامية بالانصراف الى بلادها .

سفر ريكاردوس ووقوعه في الاسر ببلاد النمسا

وفي ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨ سافر ريكاردوس من عكا بعساكره في المراكب قاصداً بلاده وغند وصوله الى سواحل ايطاليا حصلت انواء عظيمة ففرق بعض مرأبكه وكسر الباقي ثم ان هذا الملك أبي ان يسافر الى بلاده عن طريق البر ماراً ببلاد فرانس (لكدره من الملك فيلبس تهدده بلاده في غيابه ولم يعلم ما قدر له) وأراد السفر عن طريق بلاد النمسا فسار وحده متكرراً بصفة أحد زوار القدس والتزم ان يمر في مقاطعة الدوك ليوبولدوس دي اوطريش وكان هذا الدوك قد تكدر من ريكاردوس حالما رفع علمه على أحد أبراج عكا ورماه ريكاردوس في الخندق وكان اسرها في نفسه ففي أثناء مسير ريكاردوس ببلاده وعلمه بذلك ارسل جنوده يفتشون على ريكاردوس ويقبضون عليه حيثما وجدوه فلما عثروا به قبضوا عليه واحضروه بين يدي الدوك المذكور المملوء عداوة وغيظاً فامر بسجنه في حبس مظلم تحت الارض (وهكذا تم لريكاردوس الشجاع الذي لم يقدر احد ان يأسره في الحرب أسراً في السلم وحبس تحت الارض في حبس مظلم بعد عزه) واقام محبوساً بدون ان يعلم احد به بقلعة تنيروس وأما زوجته رنجاريا فكانت في سفينة أخرى لم يتغلب النوء عليها فنزلت البرسالة ووصلت رومية آمنة فسمعت بما أصاب سفينة زوجها ولكنها لم تتحقق ذلك حتى رأت منطقته الذهبية تباع في السوق فلبثت تتوقع خبره

فارس السلطان الى الملك العادل بأنه اذا تنازل ريكاردوس عن عسقلان فصالحه لان
 العساكر قد ضجرت من ملازمة اليكار والنفقات قد نفذت ثم ان ريكاردوس تنازل
 عن عسقلان وعن الموض عنها واستوتق منه على ذلك فعقد السلطان ديوانه يوم
 السبت ثامن عشر شعبان لاجل تحرير شروط الصلح وتحديد البلاد التي تكون بيد
 الصليبيين فذكر يافا واعمالها وأخرج منها الرملة واللد ومجدل بابا وذكر قيسارية
 واعمالها وارسوف واعمالها وحيفا واعمالها وعكا واعمالها واخرج منها الناصرة
 وصفورية وأثبت ذلك في الورقة وقال للرسول هذه حدود البلاد التي تسبق في
 أيديكم فان صالحتم على ذلك فبارك وقد اعطيتم يدي فينفذ ملككم من يحلف في
 بكرة غد والآن نعم ان هذه ماطلة وكان من القاعدة ان تكون عسقلان خرابا وان
 يتفق المسلمون والصليبيون على خرابها واشترط دخول بلاد الاسماعيلية في يد
 المسلمين وتكون انطاكية وطرابلس في الصلح وان تكون الرملة واللد بينهما مناصفة
 وان جميع المسيحيين يزورون القدس بالراحة بدون ممانعة واستقرت القاعدة على
 انهم يحلفون يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شهره ورضي بذلك رجال الجمعات
 الرهبانية (جمعية الهيكلين وجمعية القديس يوحنا المعمدان) وسأر أمراء الصليبيين
 فخاف هنري دي شامبانيا ابن اخت ريكاردوس وهو المتولي على بلاد سوريا وجماعة
 من أمراءهم للسلطان على الصلح وأخذوا يده وحلف لهم الملك العادل والافضل
 والظاهر وغيرهم وجميع أصحاب البلاد المجاورة لبلادهم وعقدت الهدنة العامة في
 البر والبحر والسهل والوعر لمدة ثلاث سنوات وثمانية اشهر ابتداء من الحادي
 والعشرين من شعبان الموافق اول سبتمبر

﴿ انتهاء الحروب الصليبية الثالثة ﴾

بعد انتهاء شروط الصلح المذكورة بين السلطان صلاح الدين وريكاردوس ملك
 الانكليز ورئيس العساكر الصليبية الثالثة امر السلطان صلاح الدين ان ينادى في
 الوطقات والاسواق والمدن ان الصلح قد تم فمن شاء من المسلمين الدخول في بلاد
 النصارى فليدخل ومن دخل من النصارى في بلاد المسلمين فلا احد يمنعه ثم
 أرسل مائة نقاب ومعهم امير لاجل الاشتغال في هدم سور عسقلان الذي بناه الصليبيون
 كما هو مذكور في شروط الصلح ولخروج من بها من الصليبيين وقد اقام مع
 النقابين بعض الصليبيين لاتمام هدم السور وكان ذلك اليوم الذي تم فيه الصلح
 يوماً مشهوداً بين الطرفين ثم ان جميع العساكر الصليبية طلبوا زيارة القدس الشريف

وجدتها مملوّة بعساكر الاسلام وكذلك المدينة مرفوعاً عليها اعلام المسلمين فلم بان المسلمين قد استولوا عليها لاحالة فتأخر عن النزول الى البر ثم بلغه انه لم يزل البعض بالقلة فنزل من المراكب وهو وعسكره وحمل على المسلمين فلما رأى السلطان ذلك قبض على الرسل وأمر بتأخير الاثقال والاسواق الى يازور فرحل العسكر وتخلّف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من يافا واقام ريكاردوس في موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقه البلد وأمر ريكاردوس من في القلعة ان يخرجوا اليه لتعظيم سواده وبلغ السلطان بان ريكاردوس مخيم بظاهر يافا بالتي رجل من عسكره فاراد كبسه فسار بجريده ولما تقدم بمن معه لمحاربتهم وصار يحث العساكر على الثبات قال له الجناح أحد الامراء وهو أخو المشطوب قل لفلانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون وكان أيضاً في قلوب العساكر الاسلامية غيظ من حصول الصلح بعد دخول يافا لان السلطان كان منعهم عن أخذ الغنيمة فلما رأى السلطان ذلك اعرض عن القتال وسار الى يازور وحصلت مناوشات بين العساكر الاسلامية والصليبية أظهر فيها ريكاردوس من الشجاعة ما لم يره أحد فانه استل سيفه وقال لعن الله من لم يتبعني وهجم على المسلمين هجمات شديدة بنفسه بدون مساعدة وحمل من طرف اليمين الى طرف اليسرة فلم يتعرض له أحد وصار في وسط العساكر الاسلامية وقد ظنه عسكره انه قتل أو اسر ثم وصل اليهم سالماً وقد مدحه مؤرخوهم مدحاً فاقاً حتى انهم فضلو اشجاعته على شجاعة الاسكندر الكبير وعن اعمال يهوذا المكابي ورولان دوغيرهم

❖ في مرض ريكاردوس والهدنة بينه وبين السلطان ❖

في أوائل شعبان سنة ٥٨٨ هـ حصل لريكاردوس مرض فصار يرسل رساله الى السلطان في طلب الفاكهة والتلج والسلطان يرسل له كلما يشتهي وأرسل اليه طبيباً يعالجه وقد أكثر ريكاردوس في طلب الكمثرى والخوخ والسلطان يمده بذلك بقصد كشف الأخبار عن العدو بتواتر الرسل ثم جاء رسول من ريكاردوس مع الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والتلج وقال أبو بكر ان ريكاردوس انفرد به وقال له قل لآخي (يعني الملك العادل) يتبصر كيف نتوصل الى السلطان في طلب الصلح وتستوهب لنا منه عسقلان وأسافر الى بلادي ويبقى هو هاهنا بهذه الشرذمة ويأخذ البلاد منهم فليس غرضي الا اقامة جاهي بين ملوك أوروبا وان لم ينزل السلطان عن عسقلان فتأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها

وجميع ما معهم وكانت واقعة شغاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة وتبدد الناس في البرية وتركوا متاعهم وجمع ريكاردوس كثيرا من الحيل والبغال والاقشة وغيره وسار بالجميع الى معسكره فوصله في السادس عشر من جمادى الآخرة وكان يوماً عظيماً عندهم

استيلاء السلطان على يافا ومحاربة ريكاردوس

وبانغ السلطان في العاشر من شهر رجب سنة ٥٨٨ هـ بان الصليبيين قد خرجوا من عكا قاصدين بيروت فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الحيب وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل السلطان من الحيب الى بيت نوبة . ثم رحل الى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة والد وركب جريدة حتى اتى يازور وبيت حن وأشرف على يافا ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره فجعل في الميمنة ولده الظاهر وفي الميسرة أخاه العادل وركب عليها المنجنقات وزحف عليها فارسل من بها يطلبون الصلح فاجابهم على قاعدة القدس وقطيعته فرضوا بذلك وطلبوا الانتظار الى يوم السبت التاسع عشر من رجب اما ان تحييمهم نجدة والا تكون القاعدة على ما استقر فأتى السلطان وأمر بالنقب فحشي وأحرق فوق بعض السور فملا الغبار مع الدخان فظلم الافق وما تجاسر أحد على الدخول خوفاً من اقتحام النار فلما انكشف الغبار ظهر وقوف الصليبيين بألمحتهم في الموضع المهذوم وجد السلطان في القتل ورمي المنجنقات فارسلوا يطلبون الصلح فقال لهم على قطيعة القدس فسألوا السلطان أبطال القتال الى ان يأتي من داخل المدينة بقرار الصالح فقال السلطان ما أقدر على منع المسلمين من هذا الامر وقاتل المسلمون قتالاً شديداً وأخذوا البلد عنوة ودخلوها ونهبوا من الاقشة العظيمة والغلال شيئاً كثيراً وبقياء من منهبوات القافلة المصرية وبعد دخول المسلمين استقرت القاعدة على ما قرره السلطان وكان قائماز النجمي في طرف الغور لحميته من عسكر الصليبيين الذي يعكا فوصل منه كتاب بان ريكاردوس عدل عن قصد بيروت لما سمع باخبار يافا وقد جمع عسكره في المراكب وعزم على قصد يافا فاشتد عزم السلطان على تامة الامر وتسلم القلعة لانه لم يستول بعد عليها فطلبوا منهم الخروج من القلعة حسب الاتفاق فخرج البيض والباقي رأى مراكب الصليبيين قادمة فلعلمو بانها نجدة لهم فشقوا عصا الساعة فبطاً ريكاردوس بتزوله الى البر فخاف من بالقلمة وأرسلوا بطركهم وغيره في طلب الصالح كما كان ويعتذر عنهم وكان ريكاردوس لما وصل الى ميناء يافا

ذلك في دمتكم فانكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله وأكلتم مال بيت مال المسلمين فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يامولانا نحن ممالكك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك والله ما يرجع احد منا عن نصرتك الى ان يموت وقال الجماعة مثل ما قال فانبسطت نفس السلطان وانصرف من المجلس ثم اجتمع جماعة الممالك عند ابي الهيجاء السمين وأنكروا موافقة الامراء للسلطان على حصار القدس وقالوا انهم يخافون ان يحصروا بالقدس ويجري عليهم ما جرى على اهل عكا وحينئذ تؤخذ بلاد الاسلام وطلبوا ان يعمل مصاف فاما ان يكون النصر للمسلمين فيستولوا على باقي بلاد فلسطين واما ان يكون النصر للصليبيين فيأخذوا القدس واذا كان لا بد من الحصار فيكون بعض اقارب السلطان معنا أو هو معنا لان الاتراك لا يدينون للاكراد والاكراد لا يدينون للاتراك وكان ذلك في يوم الخميس وفي يوم الجمعة صلى السلطان صلاة الجمعة وصار يتضرع الى الله سبحانه وتعالى وهو ساجد ودموعه تتقاطر على مصلاه ويطلب من الله النصر ويقول اللهم انصر دينك واحم بيتك المقدس واحفظ عبادك المسلمين انك سميع مجيب وفي صباح يوم السبت وصل مكتوب من عز الدين جرديك في اليزك يفيد بان الصليبيين قد رجعوا جميعهم بعد قرار مجلس مشورتهم كما تقدم وكفى الله المؤمنين القتال

وكان ريكاردوس قد استعمل جواسيس من أهل سوريا ليأتوه باخبار المسلمين وكان قادماً بعض عسكر من مصر ومعهم قوافل للتجار فاقاموا بنابلس أياماً حتى اجتمعوا فأتى الجواسيس الى ريكاردوس وأعلموه بذلك فامر عسكره بالانحياز الى سفح الجبل وركب في الف فارس والف راجل فأتى تل الصافية فبات ثم سار حتى أتى موضعاً يقال له الحسي فانفذ السلطان الى هذا الركب يعلمه بنهوض الصليبيين نحوهم وأمرهم ان يبعدوا في البرية فركب ريكاردوس بصفة بدوي (اعرابي) مع بعض جواسيسه وسار حتى أتى الركب وطاف حوله بالصفة المذكورة ورآهم ساكنين قد غشيم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبة قريبة الصباح فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله وداهمهم وكان الشجاع منهم الذي يركب فرسه وينجو وانقسم الركب ثلاثة أقسام قسم قصد الكرك مع جماعة من العرب وقسم أوغلا في البرية مع جماعة من العرب أيضاً وقسم استولى العدو عليه فساقهم بحماهم وأحاطهم

يبق الا بعض العساكر المصرية معه فلما علم بذلك ريكاردوس فرح وظن انها
 فرصة مناسبة له وأراد اغتنامها فسار بالعساكر الصليبية حتى بلغوا بيت نوبة وبينها
 وبين القدس عشرون ميلا وقد ألهمهم المسلمون بنهمهم وأضعفهم بسلمهم يتسلطون
 عليهم من كل ناحية ويكمنون لهم تحت كل رابية وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان
 بالقدس وفي آخر شهره وصل ريكاردوس الى قلونية وهي على فرسخين من القدس
 فلما سمع السلطان صلاح الدين بقرهم فرق ابراج البلد على الامراء واستعد للقتال
 فلما وصلت الصليبيون الى قلونية صب المسلمون عليهم البلاء وتابعوا ارسال السرايا
 فبلي الصليبيون بما لا قبل لهم به فامر ريكاردوس بعقد مجلس مشورتهم مؤلفاً
 من خمسة أعضاء من جمعية الهيكليين (الدوية) ومن خمسة أمراء فرنساويين
 ومن خمسة أمراء من اهل سوريا فدام انعقاد هذا المجلس جملة ايام وكان الاعضاء
 الفرنسيون قد طلبوا حصار القدس عاجلاً لعلهم بان العساكر الاسلامية في أجزائها
 وباقي الاعضاء قرروا بان هذه الاشاعات غير حقيقية وانها فقط حيلة وشراك وانه
 لا يجوز حصار هذه المدينة لانها الآن في غاية القوة خصوصاً لوجود السلطان بها
 وبعد مناقشات قرروا بأغلبية الآراء بعدم حصار هذه المدينة المقدسة والرجوع
 عنها والتوجه الى الديار المصرية ومحاصرة مدينة القاهرة (فانظر قرار مجلس
 مشورة الصليبيين الثالثة وكيف انها خرجت من بلادها بقصد تخلص القدس من
 المسلمين والآن قرروا بعدم حصاره ومحاصرة القاهرة كأن القاهرة هي بيت
 المقدس الذي فيه قبر المسيح على دعواهم) مع ان هذا القرار جاء كما قال مؤرخوهم
 مذهلاً مببلاً وكان السلطان صلاح الدين أحضر عنده جميع الامراء وفي مقدمتهم
 الامير أبي الهيجاء السمين والمشطوب والاسدية بأسرهم فقام خطب القاضي
 ابن شداد خطيباً يحثهم على الجهاد ومما قاله ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد
 به الامر بإبعه الصحابة على الموت في لقاء العدو ومحن أولى من تأتى به والمصلحة
 الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا
 العدو فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ثم شرع السلطان بعد ان سكنت زماناً
 وهو يفكر والناس سكوت كان على رؤوسهم الطير ثم قال الحمد لله والصلوة على
 رسول الله اعلمو انكم جند الاسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون ان دماء المسلمين
 وأموالهم وذرائعهم معلقة في ذمكم وان هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه
 الا أنتم فان لويم أعتكم والياذ بالله طوي البلاد كطي السجل للكتاب وكان

مدينة صور ذلك الرجل المشهور بالكر والدهاء وهو السبب في تجريد هذه الحروب الصليبية الثالثة وكان كوزاد هذا مقياً بمدينة فارسوا اليه وقد علمونه بانتخابهم هذا ففرح بذلك اهل مدينة صور وعسكره وشرعوا في الاحتفال بعيد له وكان ذلك في ثالث عشر ربيع آخر سنة ٥٨٨ هـ وكان رجلاً من الاسماعيلية الحشاشين دخلاً مدينة صور قبل ذلك بمدة وتنصروا وأظهروا الترهيب والتعبد ولزما الكنيسة وشكروها القسيسون والرهبان وأحببها كوزاد (وهو لا يعلم بأنهما سيكونان قاتليه) ولم يكن يصبر عنهما ففي اليوم المذكور الذي هو أعظم الايام يوم ورود الخبر بانتخابه رئيساً على جميع العساكر الصليبية وثب عليه الاسماعيليان وجرحاه جراحاً بليغة واحتفى احدهما بكنيسة فاتفق ان كوزاد حمل اليها لتسد فيها جراحاته فوثب عليه الاسماعيلي نائياً واجهز عليه فقبضوا عليهما وسألوهما عن اسباب ذلك فقالوا ان الذي أغرانا هو ريكاردوس (ولكن مؤرخي الصليبيين قد برأوا ريكاردوس من ذلك وبعض مؤرخي العرب قال ان السلطان صلاح الدين أرسل الى سنان رئيس الاسماعيلية يقول له أرسل من يقتل ريكاردوس او كوزاد ولما علم سنان بان قتل ريكاردوس صعب أرسل هذين الرجلين الى صور وجرى ما تقدم) ثم بعد قتل كوزاد المذكور تزوج أرملة هنري دى شمبانيا وعمه ملك فرنسا فيلبس وخاله ملك الانكليز ريكاردوس فأقيم ملكاً على صور ثم ان خاله ريكاردوس لتصميمه على السفر تنازل له عن البلاد التي امتلكها فصار هنري الى عكا فقبضوه واحتفال لائق بملك لهم . وفي اثناء ذلك قدم من بلاد الانكليز وفد آخر جدد قلق ريكاردوس وانزعاجه بما أخبروه عن بليلة مملكته من اعمال اخيه يوحنا وبان الملك فيلبس ملك فرنسا قد هدد أمانة نورماندية

﴿ في تقرب الصليبيين الى القدس ورجوعهم عنه بقرار مجلس مشورتهم

وما فعله السلطان ﴿

لما اتت الوفود من بلاد الانكليز الى ريكاردوس وعزم على السفر وولى ابن أخته على بلاد فلسطين اراد ان يظهر اثرأ من شجاعته أمام الصليبيين لتكون تذكاراً له لجمع عسكره بجهة الرملة وفي تاسع جمادي الاولى سنة ٥٨٨ هـ سار الى قلعة الداروم فاستولى عليها وخربها وكان السلطان صلاح الدين لدخول فصل الشتاء قد أمر باعادة المساكر الى بلادها (وهو مقيم بالقدس الشريف) ليستريحوا ولم

فغضب الدوك دي برغونيا وخرج هو وعساكره الفرنساوية من تحت سنجق الصليب فأرسل اليه ريكاردوس وفداً لمصالحته وارجاءه وفي ثالث محرم سنة ٥٨٨ سار ريكاردوس بالمعسكر الصليبي الى عسقلان فشرعوا في بناء اسوارها وكان ريكاردوس يحثهم على ذلك ويطوف حولهم ثم ان بعض امراءهم شكوا من ذلك التعب وقالوا ما اتينا من بلادنا الى آسيا لتبتي المدن بل لتخليص القدس من أيدي المسلمين وكان الامير ليوبولدوس دي اوطريش هو وجيشه النمساوي متمتعاً عن الشغل وقال لريكاردوس اني لست حداداً ولا نجاراً ولا بناء ثم انه سحب عسكره وخرج عن معسكر الصليبيين بغضب وكذلك بعض الامراء قد أهملوا معسكر الصليبيين راجعين الى وراثهم أما ريكاردوس فلم يهتم لهم وداوم في بناء السور وفي أثناء ذلك نظر ريكاردوس من بعد دخانه فقصده وكان ذلك جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وهم لا يعلمون بما دهمهم فوصل اليهم ريكاردوس وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين فلما وقع على احدهما ركب الفريق الثاني وواقعه حتى ركب الفريق الاول فدافعوه وواقوه وساقوا قدامهم اطفالهم وخلصوا ناجين وسلم المسلمون من أعدائهم ولم يفقد منهم الا اربعة وكانت وقعة عظيمة دفع الله خطرهما وهول ضررها وفي حادي عشره كبس عز الدين جزديك تبني على من نزل بها من الصليبيين فأوقع بهم البلاء وساق منهم اثني عشر أسيراً ومتاعاً كثيراً وأغار ايضاً على ظاهر عسقلان في ثاني صفر وجاء بثلاثين اسيراً وفي ليلة رابع عشر صفر كنت سرية مقدمة فارس الدين ميمون القصري عند تبني الى ان عبرت قوافل الفرنج فساقها باحمالها وانقلها ونسأها ورجالها

وفي عزم ريكاردوس على السفر الى بلاده وموت كونزاد

صاحب صور وغيره

اجتمعت العساكر الصليبية في سهل عسقلان للاحتفال بعيد الفصح واذا بوفد قد اقبل من بلاد الانكليز قاصداً ملكهم ريكاردوس وأخبروه بان أخاه يوحنا خرب المملكة واستولى عليها فلما سمع هذا الخبر جمع اليه رؤساء العساكر وأعلمهم بما جرى وانه يرغب السفر الى بلاده فتكثروا لذلك وشرعوا في انتخاب رئيس عليهم بدلا منه يكون ذا كفاءة فانتخبوا الامير كونزاد صاحب

قد حلّ والغيث قد اتصل فوصل القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء المجاورة
كنيسة القمامة وفي ثالث الحجة وصلت العساكر المصرية بقيادة أبي الهيجاء السمين
ومعها أموال ونحو الصليبيون الى النطرون فقوى السلطان اليك فوقعوا على سرية
فغنموها وساقوا منها الى القدس ما يزيد عن خمسين أسيراً عدا من قتل منهم
وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيزر يوم عيد الاضحى فحجر منهم وضجى
واحتوى على عشرة من مقدميهم اسرا وقتلا وانهزم باقي الصليبيين في الجبال وتركوا
خيولهم فغنمها المسلمون ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدة مقامهم بالنطرون
وأخذوا يقطعون الطريق على تجارهم حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بما فيها ولم يقدر
الصليبيون على تخليصها فرحلوا عائدين الى الرملة في الثاني والعشرين من شهره
وكان السلطان قد شرع في تحصين القدس وعمارة أبراجه وأسواره وحفر خنادقه
وأرسل الى البلاد يجمع رجال هذه الاعمال في هذا اليوم وصل من الموصل خمسون
رجلا لقطع الصخور من الحندق وأقبل الامراء للعمل فيه وعمل فيه السلطان بنفسه
بنقل الحجارة هو وأولاده وأمرأؤه وأجناده ومعهم القضاة والعلماء وقد قال الرشيد
ابن النابلسي من قصيدة له عن قصد الصليبيين المقدس

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أو ما	فيهم ليب على العلات يعتبر
فكم نرتهم ضربا اذ انتظمو	وكم نظمتم طعناً اذ انتروا
كم قد سقيتهم ذلاً فلا عجب	ان عربدو اسفها فالقوم قدسكروا
ان يموك فلا بدع لجهلهم	تسعى الى الاسد في غاباتها الحمر
زاروا نموراً ولا تفني وقاحتهم	اذا أسودك في أبطالهم زاروا
خام عن حوطة البيت المقدس لا	خوف وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصما	فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الايام هفوتها	وتحصد الفتة الاوغاد ما بذروا

وقد قسم السلطان سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده فشرعوا في انشاء
سور جديد وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه فيتبعه الاكابر
والامراء في نقل الصخور واهتم السلطان بذلك اهتماماً زائداً

﴿ بناء الصليبيين مدينة عسقلان وما جرى في أثناء ذلك وغضب بعضهم ﴾

عقد الصليبيون مجلس شوراهم الملكي فقرر مسيرهم الى عسقلان وتعمير أسوارها
التي هدمها السلطان صلاح الدين وكان هذا على غير مرام العساكر الصليبيين

ونافعا لمصالح المسلمين عرضة على أخيه السلطان صلاح الدين فأجابه الى ذلك فلما
 شاع الخبر في معسكر الصليبيين اجتمع القسيسون والاساقفة والرهبان عند جوانا
 أخت ريكاردوس وانكروا عليها ذلك وخوفوها واتهموها في دينها وقالوا هذه
 فضيحة فظيمة ونسبة شنيعة وتكونين عاصية للمسيح فرجعت عن قصدتها
 ✠ مراسلة ريكاردوس لمصالح الدين بالصلح وما جرى بعد ذلك
 وتعمير بيت المقدس ✠

وبعد ذلك أرسل ريكاردوس الى السلطان صلاح الدين يقول له ان المسلمين
 والصليبيين قد هلكوا وخربت البلاد وتلفت الاموال والارواح وان هذا كله
 بخصوص القدس والصليب والبلاد وحيث ان القدس متعبدا فلا نزل عنه ولولم يبق منا
 واحد وأما البلاد فيعاد لنا ما هو قاطع الاردن وأما الصليب فهو خشية عندكم
 لاقيمة لها وهو عندنا عظيم الشأن فيمن به السلطان علينا ونستريح من هذا العنا
 الدائم فأرسل له السلطان في جوابه ان القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو
 عندكم فانه مسرى نينا ومجتمع الملائكة فلا يتصور ان نزل عنه ولا تقدر على التلطف
 بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الاصل واستيلائكم كان طارئاً
 عليها لضعف من كان بها من المسلمين ذلك الوقت وأما الصليب (صليب الصلوات)
 فأتلافه عندنا قرينة عظيمة لا يجوز ان نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام . ثم
 تواتر الخبر ان الصليبيين عزموا على النهوض فصار السلطان من مخيمه بالنطرون
 الى الرملة سابع شوال سنة ٥٨٧ هـ وحصلت واقعة في ناحية يازور في ثامنه وكان
 النصر فيها للمسلمين وفقد منهم ثلاثة وفي سادس عشره وقعت واقعة أخرى عظيمة
 قتل فيها جماعة من الامراء وأسر فارسان من الصليبيين معروفان بالبأس سوى
 غيرهما وقتل منهم زهاء ستين وورد خبر بان الاسطول المصري استولى على مراكب
 الصليبيين وفيها مركب تعرف بالمسطح وفي ثامن عشره اجتمع الملك المعادل
 وريكاردوس على طعام ومحادثة وانفصلا على توادد ومطايبة وطلب منه الاجتماع
 بخدمة السلطان صلاح الدين فامتنع السلطان وقال الملوك اذا اجتمعوا تقبح بينهم
 الخاصة بعد ذلك . واذا انتظم أمر حسن الاجتماع وفي ثالث القعدة رحل الصليبيون
 الى الرملة وأظهروا قصد القدس بتلك الرحلة ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم
 وفي الثالث والعشرين من شهره رحل السلطان الى القدس ينوي الاقامة وكان الشتاء

❖ في وقوع ريكاردوس في الاسر ونجاته وعرض زواج أخته جوانا بالملك العادل ❖

ساكن السلطان صلاح الدين مهتما بتخريب مدينة عسقلان وصله من عز الدين جرديك كتاب يذكر فيه ان الصليبيين قد تقسموا وصاروا يخرجون من يافا ويغيرون على البلاد القريبة منها ويطلب تحريك السلطان لعله يبلغ منهم غرضاً في عزاتهم فعزم على الرحيل وفارق عسقلان في يوم الثلاثاء ثاني رمضان سنة ٥٨٧ هـ ونزل بالرملة يوم الاربعاء ثالثه وأمر بتخريب حصنها وتخريب كنيسة اللد وركب جريدة الى القدس فوصله يوم الخميس رابعه لاجل تقويته وخرج منه يوم الاثنين ثامنه وفي هذا اليوم خرج ريكاردوس وبعض خاصته لائزده والصيد بين حقول صارون وجلس تحت شجرة هو ومن معه من الامراء والعساكر ففاجأته العساكر الاسلامية فركب هو ومن معه خيولهم ولكن قد كانت احاطتهم العساكر الاسلامية من كل ناحية فلم يقدروا على المدافعة عن انفسهم فخاف ريكاردوس من سقوطه بيد المسلمين (فكان المسلمون لا يعلمون انه الملك) فاراد أحد خاصته وهو وليم دي براتراس المولود في اقليم بروفانص بفرانسا ان يحمي ريكاردوس وكان وليم هذا لابساً ملابس أفخر من ملابس ريكاردوس فنادى المسلمين بالعربية قائلا (آواه يا شجعان احفظوا لي حياتي أنا هو الملك) فهجم عايه فرسان المسلمين وشدوا وثاقه وأخذوه أسيراً وبهذه الحيلة نجا ريكاردوس وهرب الى يافا لان المسلمين فرحوا باسره وليم ظانين انه الملك ولما علموا خطأهم أرسلوه الى دمشق ليسجن بها . اما ريكاردوس فانه أراد مكافأة هذا الامين على أمانته فطلب من السلطان صلاح الدين اطلاقه وفداء بمشرة امراء من المسلمين المأسورين عنده وتم ذلك فعلا وكان السلطان قد نزل على النطرون في ثالث عشره وختم بها مراسله ريكاردوس يطلب المهادنة وكانت الرسل تتردد الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب بامر ريكاردوس وأعلموه بان للملك اختاً اسمها جوانا كانت متزوجة بوليم ملك صقلية ومات ويرغب تزويجها للملك العادل بالشروط الآتية : ان يكون القدس وجميع بلاد الساحل التي بأيدي المسلمين للملك العادل وتكون عكا وما بيد الصليبيين من البلاد الى جوانا اخت ريكاردوس وان فرسان جمعية الهيكلين (الداوية) وجمعية ماري يوحنا المعمدان (الاستبارية) خاضعين لهذا الاتفاق وان الملك العادل يقطعهم البلاد والقرى دون الحصون فلما وجد ذلك الملك العادل صواباً

(غابة) كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الصليبيون مكيدة فعادوا عنهم وزال عن المسلمين ما كانوا فيه من الضيق وقتل من المسلمين اياز الطويل مملوك السلطان صلاح الدين وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله وقد اشتهرت شجاعته بين العسكريين بحيث انه اذا كان في موضع وعرفه الصليبيون خافوا منه وسبب قتله سقوط جواده فلما رأى السلطان ما حل بالمسلمين سار حتى اتى طلبه فوقف فيه ودق الصنوج فاجتمع في الطلب خلق كثير ووقفت الصليبيون قبالهم على رؤس التلؤلؤ والروابي ثم رجعوا الى منزلهم لخوفهم من وجود كمين وتراجعت باقي العساكر المنهزمة والجرحى وصدم الملك الافضل وانفتح دمل كان في وجهه . ثم سار ريكاردوس بمسكرو الصليبيين الى يافا ولم يكن بها أحد من المسلمين فلكوها واقاموا بها واخذوا في بناء الاستحكامات فيها أما السلطان صلاح الدين فانه رحل باثقاله الى مدينة الرملة تاسع عشر شعبان وهناك عقد مجلساً من أخيه الملك العادل وأمراء المسلمين واشتارهم فأشار علم الدين بن سلمان بن جندر بخربائها للعجز عن حفظها على ما بها ووافق الجماعة على ذلك وقالوا ان الصليبيين قد تقووا باخذ عكا وما فيها من الاسلحة فلم تسمح نفس السلطان بتخريبها ونذب الناس الى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد وقالوا هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا سبيل الى حفظ المدينتين فاعمد الى اشرف الموضعين فحصنه وحكمه فقرر الرأي على اقامة العادل ومعه عشرة من الامراء بقرب يافا حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم وسار السلطان حتى اتى عسقلان وضرب خيمته شمالها فبات هناك مهموماً بسبب خراب عسقلان وقال والله لان افقد أولادي كلهم أحب اليّ من ان أهدم منها حجراً واحداً ولكن اذا قضى الله بذلك لحفظ منفعة المسلمين فكيف أصنع فاستحضر الوالي وأمره بذلك وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكرة بمعرفة معلومة ويرجا يخربونه ودخل الناس البلد ووقع فيه الضجيج والبكاء وشملهم عليه حزن عظيم وكان هو بنفسه وولده الافضل يحثان الناس على الخراب خشية ان يسمع العدو فيحضر ولا يمكنهم من خرابها واباحهم الناس الذي كان ذخيرة في البلد وأمر بحرق البلد فاحترقت والاخبار تتوارد من جانب الصليبيين بعمارة يافا وكان عرض سور عسقلان تسعة اذرع وفي بعض مواضع عشرة واحرق برج الاستناريه وذلك لغاية آخر شعبان

الملك ريكاردوس فبعد ترتيبه عكا جعلها مستقراً لزوجه برنجاريا وقد اخذه طمع فتح البلاد فجمع من العساكر الصليبية مائة الف ورفع علمه على سارية مقامة على اربعة دواليب نجر بمجل في وسط جيشه نوى الاستيلاء على عسقلان ويافاو قيسارية وكان ذلك في أول شعبان سنة ٥٨٧ هـ وسار نحو حيفا على شاطئ البحر لا يتعد عنه فلما سمع السلطان برجيلهم نادى في معسكره بالرحيل فساروا وكان على اليزك الملك الافضل نجل السلطان ومعه سيف الدين ايازكوش وعز الدين جرديك فضايقوا للصليبيين في مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقه الصليبيين فقتلوا منهم جماعة وأسروا جماعة فعاد ريكاردوس الي الساقة فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فزّلوا بها ونزل المسلمون بالقرب منهم وقدم السلطان ثقله الى مجدل بابا ثم سار الصليبيون الى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم من قدروا عليه فيقتلونه لان السلطان كان قد اقسم انه لا يظفر باحد منهم الا قتله أخذاً بثأر من قتلوه ممن كان في عكا فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقتلواهم قتالا شديداً ونزل الصليبيون بنهر القصب وبات المسلمون قريباً منهم وفي اثناء اقامتهم على نهر القصب خرج من الصليبيين جماعة مسترسلين وتقدموا على البركة فصر بهم ابن المقدم فعبر اليهم من ورائهم هو ومن معه وهم لم يأخذوا من خلفهم الحذر ففاجأهم وجمعهم وفرغ من القتل والاسر فيهم قبل ان يدرّكهم المدد ثم نهض الصليبيون اليه وحملوا عليه وجرت وقعة شديدة انتهت بهزيمة الصليبيين واحضر الاسارى لدى السلطان ثم رحل السلطان وعبر شعراء ارسوف ونزل على قرية تعرف بدير الراهب وكان المسلمون قد سبقوهم اليها ولم يمكنهم مسيرتهم لضيق الطريق فلما وصل الصليبيون حمل المسلمون عليهم حملة منكرة الحقوهم بالبحر فقتل منهم كثير والمسلمون يكبرون ويهللون ثم ان الصليبيين اجتمعوا وحملوا حملة واحدة وفي مقدمتهم ريكاردوس الشجاع وفرسان جمعية ضياف الغرباء (الاستباريه) وكانت هذه المعركة عمومية وقد اظهر فيها ريكاردوس من البسالة والشجاعة العجيبة وقتل من أمراء الصليبيين يعقوب دي افسناس وفي حال وقوعه صرخ قائلاً يا ريكاردوس انتقم من الاعداء عن موتى وولى المسلمون منهزمين لا يولي أحد على أحد وكان كثير من السوق قد الفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حاهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون الى القلب الذي فيه السلطان صلاح الدين وكان بالقرب من المسلمين شعراء

لم يبقوا من الاسرى الا المقدمين والاقوياء للعمل فتصرف السلطان في المال المجموع وأرسل أسارى الصليبيين و صليب الصليبوت الى دمشق

﴿ رمي علم النمسا في الخندق وسفر ملك فرانس الى بلاده ﴾

لما دخل الملك فيلبس ملك فرنسا وريكاردوس ملك الانكليز مدينة عكا كما تقدم اقسما بينهما خزان القوت وذخائر الحرب وكل ما كان فيها وكان الملك فيلبس قد استعمل الرفق واللين في عسكره بخلاف ريكاردوس المتصف دائماً بالحق وحدة الطبع والشراسة ضد عساكر الصليبيين انفسهم ومن ذلك انه عند ما دخلوا المدينة ورفعوا اعلامهم على أسوارها رفع ليوبولدوس دوك دي اوپريش (ملك النمسا) علمه على احد ابراج المدينة فغضب ريكاردوس من ذلك وأمر بنزع علم النمسا ورميه في الخندق فلما فعل ذلك تألم ليوبولدوس باطناً ولم يظهر غيظه من هذه الاهانة وكتبها في قلبه وحرّم على عساكره الانتقام عن هذه الاهانة قائلاً لهم سوف أنتقم بنفسى من عدوي عند وجود الفرصة ثم ان كوزاد صاحب صور لما وجد شدة معاملة ريكاردوس انسحب بعساكره من عكا راجعاً الى صور ولهذا السبب أيضاً عزم الملك فيلبس اوغسطوس ملك فرانس الى العود الى بلاده وخصوصاً لما اعتراه مرض ضيق الصدر ولم يعد يحتمل كبر ملك الانكليز ولعلمه بانه لا يمكنه الاقامة مع ريكاردوس بالمسألة ففرح بذلك ريكاردوس لابتعاد ملك مثل هذا عنه لكونه كان يشاركه في الانتصار والكسب ثم التمس من الملك فيلبس القسم بانه في رجوعه الى مملكته لا يمارس شيئاً ضد بلاد الانكليز ولا يتعرض لها مدة غياب ريكاردوس عنها فخلف له على ذلك ثم سافر من عكا بحراً الى مدينة صور وترك من جيشه الفرنساوي عشرة آلاف محارب تحت رئاسة الدوك دي برغونيا ثم سافر من صور قاصداً بلاده وقال مؤرخوهم سافر الملك فيلبس بعد ان اهداه السلطان صلاح الدين هدايا عظيمة لانه كان رأى فيه صفات جليلة يعكس غيره من الصليبيين وانه هو أعظم ملوك اوربا ووصل الى مدينة روميه وزار قبور الشهداء وقابله اهلها باحتفالات عظيمة ثم سار منها الى مملكته فدخل مدينة باريس باحتفال عظيم

﴿ سفر ريكاردوس من عكا وواقعة ارسوف وتخريب عسقلان ﴾

بعد سفر الملك فيلبس من عكا الى بلاده صار الرئيس على جميع الصليبيين

المدينة التي كانت تتوارد من جميع مین بلاد المغرب حاملة طغيات من المقاتلين
 الذين كانوا يتقاطرون منسدين نزولا حول تل طورمان وفوق ارمال بيولوس
 وبالاجمال انه في مدة هذا الحصار قد حصدت سيوف الاسلام وانواع الامراض الرديئة
 من الصليبيين نحو مائة الف مقاتل ، وكان لما اتفق المشطوب مع الصليبيين
 على الصلح حدد لتحصيل المال والاسرى مدة شهرين فلما حلفوا له على ذلك سلم
 البلد اليهم ودخلوا سلميا فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين
 وعلى اموالهم وحبسوهم وأظهروا انهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما بذل لهم
 وراسلوا السلطان في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع
 في جمع المال فلما اجتمع عنده من المال مائة الف دينار جمع الامراء واستشارهم
 فاشاروا بان لا يرسل شيئا حتى يحددوا الحلف باطلاق اصحابه وان يضمن رجال
 جمعية الداوية (الهيكليين) ذلك لانهم اهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين
 في ذلك فقال الداوية لا نخلف ولا نضمن لاننا نخاف غدر من عندنا ثم قال ملوك
 الصليبيين اذا سلمت لنا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار في من عندنا فحينئذ
 علم صلاح الدين عزيمتهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيئا وأعاد الرسالة اليهم وقال
 نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيك رهنا على الباقي وتطلقون
 اصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحافون على الوفاء فقالوا لا نخلف ولا نفعل شيئا
 من ذلك بل تسلمون المال الذي تحصل والاسرى والصليب وتقتنون بأمانتنا حتى نسلم اليكم
 اصحابكم فأبى السلطان ذلك لعلمه انهم اذا تسلموا المال والصليب والاسرى بدون
 رهن لا يؤمن غدرهم فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم الى ظاهر
 خنادقهم بجميع عساكرهم وركبوا في وقت العصر في اليوم السابع والعشرين من
 رجب وساروا حتى اتوا الابار تحت تل العياضية ثم أحضروا من الاسرى المسلمين
 نحو الثلاثة آلاف وأوقفوهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلهم صبرا طمنا
 وضربا بالسيف (وهي نقطة سوداء في تاريخ ريكاردوس) وايزك الاسلامي يشاهد
 الصليبيين ولا يعلم ماذا يصنع لبعده عنهم وكان اليزك قد انفذ للسلطان وأعلمه بركوب
 القوم ووقوفهم فأنفذ الى اليزك من قواه وبعد ان فرغ الصليبيون من قتل الاسرى
 حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة قتل فيها وجرح من الجانبين خلق
 كثير ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال
 فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم قتلواهم حزن شديد أما الصليبيون فاتهم

فرانسا فيلبس أوغسطس وقال له انا قد أخذنا منكم بلاداً كثيرة وكنا نهدم البلد وندخله ومع هذا اذا سألونا الامان أعطيناهم وحملناهم الى مأمهم وكرمناهم ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على انفسنا وبعد مداولة ملك فرانسا مع ديوان المشورة العسكري قال انه لا يعطي الامان للمسلمين الا بعد ان يرجعوا مدينة القدس وجميع البلاد التي استولوا عليها بعد حرب طبرية (سواحل سوريا) فانظر فرق المعاملة بين المسلمين في استيلائهم على المدن من الصليبيين وكيف كانوا يعطونهم الامان ويوصلونهم الى الجهات التي يريدونها ومعاملة هؤلاء الصليبيين لمساكر عكا المسلمين وعدم اعطائهم الامان) فاغظ المشطوب له القول وانصرف عنه ولما دخل البلد بهذا الخبر خاف جماعة من الامراء فاخذوا لهم بركوسا وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي منهم عز الدين ارسل وحسام الدين تمر تاش ابن الجاولي وسنقر الوشاتي وهو من الاسدية الاكابر ثم ان سيف الدين المشطوب اتفق مع الصليبيين على تسليم البلد بجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي الف دينار والف وخمسة أسير مجاهيل ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم وصيلب الصلبوت على انهم يخرجون بانفسهم سالمين وما معهم من الاموال والاقشة المختصة بهم وذرايعهم ونساءهم وضمنوا لكونراد صاحب صور عشرة آلاف دينار لانه كان واسطة الصلح ولاصحاب اربعة آلاف ولما وقف السلطان على ذلك انكره وأعظمه وعزم على ان يكتب اليهم بانكار ذلك وجمع أمراءه وأصحاب مشورته فاحس المسلمون الا وقد ارتفعت اعلام الصليبيين على اسوار البلد وذلك ظهيرة يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وهكذا دخلوا البلد صلحاً بعد حصار سنتين وسفك دماء كثيرة وموت نيف ومائة الف مقاتل كما قال مؤرخوهم ونصه « بعد ما ينيف عن مدة سنتين من حصار هذه المدينة باتعاب وشدائد وأعمال كلية وحروب شديدة دخلها المسيحيون آمنين في اليوم الثالث عشر من شهر حزيران سنة ١١٩١ ونشروا بيارق الصليب فوق أسوارها فهذه كانت نهاية حصار عكا الذائع الصيت الذي فيه سفكت دماء عظيمة المقدار والصليبيون ندبوا فيه فقدان عدد وافر من كل ذي رتبة من الشجعان ضمن نحو مائة معركة حربية خصوصية وتسع حروب عمومية عظيمة حدثت أمام اسوار هذه المدينة بمساكر كانت اجواقها تحضر وتبتدي بالحرب بعد ان تكون العساكر التي قبلها قد تلاشت اما تماماً او في اكثر اجزائها بعد ان تصل المراكب

اوغيرها يجرىها المسلمون فعمدوا الى اقامة سور من تراب يسترون وراءه للمحاربة كي لا يصيبهم نشاب ولا سهام من المسلمين باعلى سور البلد ثم أخذوا يمدونه شيئاً فشيئاً الى أن صار قريباً من سور البلد فاختار المسلمون لان العدو قرب منهم وليس في وسعهم ايصال أي أذى اليه لان السور التراب لا تؤثر فيه النار ولا السهام ولم تزل الحرب قائمة حتى ضعفت نفوس أهل البلد وتمكن العدو من الخنادق فلاثا ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه فوقعت بدنة من الباشورة ودخل بعض الصليبيين منها فاجتمعت أهل البلد على هذا الثقب وقتلوا ما يزيد عن المائة وخمسين نفساً وكان من ضمنهم كل من روطروا • وتيوددي شامانيا • والكونت دي بلواز واستافانوس دي صاناسرا • وغوي دي شاتيليون • وجفروا دي أومالا • وفيس كونت دي شاتا لارولت • وفلورانت دي انجارس • وراول دي كوزي ثم ان بعض الصليبيين أراد الصعود على سور البلد وكان في مقدمتهم الباريك كلامان فنصب سلماً وصعد عليها الى أن بلغ السور وتبعه بعض رجاله ونصبوا السلام فتكرست بهم ووقعوا جميعاً ولم ينالوا مرادهم وأما الباريك فان المسلمين تكاثروا عليه وقتلوه

طلب الصلح ودخول الصليبيين عكا

تابع السلطان صلاح الدين زحفه وهجائه على معسكر الصليبيين لكي يشغلهم عن محاربة أهل البلد ولكنهم لم ينفكوا عن قتالهم ومضايقتهم فامر قائماز النجمي بان يزحف هو وأنحابه الى اسوار العدو وترجل جماعة من امراء الاكراد كالجناح وأنحابه وهو أخو المشطوب وزحفوا حتى بنوا أسوار العدو ونصب قائماز علمه بنفسه على سورهم وقاتل عن العلم ووصل عز الدين جرديك النوري وسوق الزحف قائمة فترجل هو وجماعته وقاتل قتالا شديداً وبات العسكر تلك الليلة على الحيل تحت الحديد منتظراً نجاح الامل ولما علم السلطان بان عكا قد وهنت أرسل الى جماعة من فيها سراً وقال لهم خذوا من العدو حذراً واتفقوا واخرجوا ليلاً من البلد يداً واحدة وسيروا الى جانب البحر وصادموا العدو بالقهر وأتركوا البلد بما فيه فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ولم يعلم ان التهاه به يهلكه فما تمكنوا من المراد حتى اسفر الصباح ولم يصح كذلك في الليلة الثانية لوصول الخبر الى الصليبيين فخرسوا الجوانب والابواب ثم ان الامير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب وكان هو مقدم العسكر في البلد خرج الى ملك

بطسه كبيرة مملوءة بالرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسارت من بيروت وفيها
سبعماية مقاتل فلقبها ريكاردوس فقاتلها وصبر من فيها على القتال واحتاطت بها
مراكب الانكليز من كل جانب ولما يئس من بها من الخلاص نزل المقدم الى اسفلها
وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية فخرقها خرقاً واسعاً لثلا يظفر بها العدو بمن فيها
وما معهم من الذخائر ففرق جميع ما فيها ولما وصل ريكاردوس الى عكا كما تقدم
فرح به الصليبيون وقويت شوكتهم وبالغوا في محاصرة البلد وقتل أهلها ليلاً ونهاراً
واسرعوا الى طمي الخندق وكانوا يرمون فيه جثث الاموات وصنعوا دبابة عظيمة ذات
اربع طبقات الاولى من خشب والثانية من رصاص والثالثة من الحديد والرابعة
من التحاس وكانت تعلو على سور البلد ويركب فيها المقاتلة تخاف منها أهل البلد
وقربها اصحابها من السور فواصل المسلمون رشقها بالنفط ليلاً ونهاراً الى ان
احترقت وزادت شكوى اهل البلد لاستفحال أمر العدو ومواصلة قتالهم ليلاً
ونهاراً من حين قدوم ريكاردوس ثم ناب كلا من ريكاردوس وقلبس مرض شديد
فارسل ريكاردوس الى السلطان صلاح الدين يطلب دجاجاً وطيراً وأرسل ثانية
يطالب فاكهة وتلجأ فارس الى كل ما طلب والقتال مستمر من الصليبيين
وأهل البلد حتى ضعفت الحامية وبقي أكثر المسلمين بدون نوم عدة ايام لا ليلاً
ولا نهاراً وفي سابع جمادى الآخر ركب السلطان بالعسكر الاسلامي وزحف على
خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر وجرى قتال عظيم وهو كالوالدة الثكلي يجرى
فرسه من طلب الى طلب ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه بالاسلام وعيناه
قد غرقتا بالدمع وكلما نظر الى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على من بها
من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ولم يأكل في ذلك اليوم طعاماً ولما
هجم الليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ثم ركب سحراً
وأصبحوا على ما أمسوا عليه وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها
انا قد بلغ بنا العجز الى غاية ما بعدها الا التسليم ونحن في الفقد ان لم يعملوا
معنا شيئاً نطلب الامان ونسلم ونشتري مجرد رقابتنا وكان هذا أعظم خبر ورد على
المسلمين فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر لان رجال الصليبيين
وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم وهجم
عليهم بعض العسكر من اطرافهم فقتلوا وذبوا غاية الذب . ثم ان الصليبيين بعد
ما أعيتهم الحيلة في الاستيلاء على البلد وانهم كلما عملوا ابراجاً أو دبابات أو كبوشاً

خوفاً من التأخر عن الجهاد فأشار بحملها اليه في صقلية فجاءت بها والدته ووقت السفر قد دنا فأجل الزفاف الى وقت آخر وعهد بخطيبته الى اخته جوانا أرملة وليم ملك صقلية المتقدم ذكرها وركب اسطوله وهما معه وسار قاصداً المشرق فهبت عليهم أنواء شديدة قذفت بمراكبهم الى سواحل كريد فافتقد ريكاردوس الاسطول فعلم ان ثلاثاً من سفنه قد ضاعت وفيها خطيبته وحاشيتها فانفذ من يبحث عن السفن فأنبأوه ان اثنتين منها جنحتا عند سواحل قبرص وان ملكها اسحق قتل التوتية وحجر على النساء في ليموسا وطلب من ريكاردوس ان يقدم اليه ليعقدا مؤتمراً فغضب ريكاردوس لذلك غضباً شديداً وسبه بالانكليزية ويقال انها المرة الوحيدة التي تكلم بها ريكاردوس بالانكليزية لانهم كانوا يستعملون اللغة الفرنسية القديمة (النورماندية) اذ ذلك وأسرع ريكاردوس الى قبرص وخرج الى البر بصاكره وقبض على ملكها وأوقفه بسلاسل من فضة واغتم وجوده هناك فرصة للاقتراح بخطيبته برنجاريا فزفت اليه وكان ريكاردوس قد ألف أثناء اقامته في صقلية جمعية من الفرسان سماها (جمعية السير الازرق) لان أعضاءها كانوا يلبسون في أنفادهم اليسرى سيوراً من جلد أزرق وقد تعاهدوا على فتح عكا فسار ريكاردوس بحيشه قاصداً تلك المدينة

✽ وصول الصليبيين الى عكا ومحاصرتهم لها وقتل بعض أمراءهم ✽

وصل الملك فيلبس ملك فرنسا الى عكا في ثاني عشر ربيع الاول سنة ٥٨٧ ففرح به الصليبيون وجملوه رئيساً عليهم وكتب السلطان صلاح الدين الى عز الدين سامة متولي بيروت بمحاربة من يمر به من الصليبيين وكان في أثناء اقامة الملك ريكاردوس ملك الانكليز بجيزة قبرص قد سافرت بعض مراكبه قاصدة عكا فخرج عليها عز الدين واستولى على خمس مراكب مملوءة رجالاً ونساءً وأموالاً وخيلاً وتقدم الصليبيون الى عكا فنصبوا عليها المتجنيقات وذلك في رابع جمادي الاولى وأرسل اهل عكا الى السلطان بالاستئثار العظيم والتماس أن يشغل العدو عنهم فركب السلطان بمسكروه وكان هذا دأبه معهم كلما ضيقوا على البلد فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر وإذا رجع عنهم عاودوه وكانت العلامة بين السلطان وأهل البلد انه متى زحف العدو عليهم دقوا صنوجهم فتدق صنوج السلطان اجابة لهم وكان السلطان مخيماً على شفر عم واستبعد منزلته فتحول الى تل العياضية تاسع جمادي الاولى ثم وصل الملك ريكاردوس في ثالث عشره وكان السلطان لما علم بقرب وصوله قد أمر بتجهيز

ستون فكان الذين دخلوا اقل من الذين خرجوا وأهمل نواب السلطان تجنيد الرجال وانفاذهم وكان على خزانة ماله قوم من التصارى فكانوا اذا جاءهم جماعة قد تجندوا تقتنوا عليهم بانواع شتى تارة باقامة معرفة وتارة بغير ذلك فتفرق بهذا السبب خلق كثير وزاد الامر خطارة تواني صلاح الدين نفسه لوثوقه بنوابه واهمال النواب فانتهى الشتاء والامر كذلك وكان من جملة الامراء الذين دخلوا عكا سيف الدين علي بن احمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الاسديہ بعد جاولي وذلك في غرة سنة ٥٨٧ وكان قد اشار بعض الامراء على السلطان بان يرسل الى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والاقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام لانهم قد جربوا وتدربوا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه فلم يفعل السلطان ذلك خوفاً من ان ضجرهم وملهمهم يحملهم على القتل

﴿ سفر العساكر الصليبية الثالثة في البحر وما جرى لملك الانكليز ﴾

بسيديليا وقبرص وزواجه

بعد ان تعاهد ملك فرنسا فيلبس اوغسطس وملك الانكليز ريكاردوس الملقب بقلب الاسد على المقاتلة في مدينة ميسينا بجزيرة سيديليا (صقلية) لنصرة الصليبيين باراضي فلسطين سار ملك فرنسا عن طريق جنوى وسار ملك الانكليز الى مرسيليا وانتظر اسطوله فلم يحضر حتى ملّ الانتظار فركب سفناً صغيرة وقصد ميسينا وأوعز الى جنده ان يركبوا الاسطول حين وصوله ويلحقوا به . وأخيراً التقى الحيشان في ميسينا على حدود سيديليا مما يلي ايطاليا وكان لريكاردوس أخت اسمها جوانا تزوجت بوليم ملك سيديليا فبات في شرخ شبابه واختلس الملك من أرملة امير اسمه تشكريد واستولى على اموال زوجها فعلم بذلك ريكاردوس في أثناء اقامته بميسينا فعزم على محاربة اهل سيديليا ورفع علمه على اسوار ميسينا ولما رأى ذلك الملك فيلبس ملك فرنسا اغتاض منه فامر عساكره بانزال العلم الانكليزي من على السور فعزم ريكاردوس على محاربة فيلبس ولكن ملك فرنسا لكونه اكبر سناً من ملك الانكليز لم يرغب في هذه الحرب وأعمال السلاح المعد لمحاربة المسلمين ضد الصليبيين فركب مراكبه وسار قاصداً فلسطين وأما ملك الانكليز فانه تهدد تشكريد ملك سيديليا فأرضاه بمال مقداره عشرون الف اوقية من الذهب . وكان ريكاردوس قد خطب برنجاريادي نافار ولم يتأت له الاقتران بها في انكلترا

من سافر من عساكره بعد وفاة ملك النمسا فلقى الصليبيين بحيش عرمرم تام التعبئة وولى أولاده الافضل علي والظاهر غازي والظاهر القلب وأخاه العادل أبا بكر الميمنة المؤلفة من عساكر مصر ومن انضم اليها وكان في الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماء ومعر الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمراءه واتفق ان السلطان أخذه مغمص كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكرو نزل فيها ينظر اليهم فسار الصليبيون شرقي نهر هناك حتى وصلوا الى رأس النهر فرأوا عساكر المسلمين وكثرتها فارتاعوا ولقيهم الجاليشية واطمروهم من السهام ما كاد يستر الشمس فتحولوا الى غربي النهر وثبت الجاليشية على قتالهم حتى تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً وكان مقصد الجاليشية ان يحمل الصليبيون عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس ولكن الصليبيين ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلاً فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخنادقهم والجاليشية في اكتافهم يقتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرمح وتارة بالسهم وكلما قتل منهم قتل أخذه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم ولولا ذلك الالم الذي حدث للسلطان لكانت هذه الواقعة هي الفصل (وانما لله امر هو بالغه) فلما بلغوا خنادقهم واستكنوا بها لا يخرجون عاد المسلمون الى خيامهم وقد قتلوا من الصليبيين خلقاً كثيراً وفي الثالث والعشرين منه كن جماعة من المسلمين وتحرش بالعدو وجماعة أخرى نخرج اليهم بعض عسكر الصليبيين فقاتلوهم يسيراً وطاردوا متقهقرين فقبهم الصليبيون حتى جازوا الكمين نخرج عليهم من فيه فزقوهم ولم يفلت من سيوفهم احد

﴿ في دخول البدل العسكري عكا ﴾

لما حل فصل الشتاء وعصفت الرياح خاف الصليبيون على مراكزهم التي يحاصرون بها عكا لانها لم تتمكن من الميناء ولا امكنها رد المسلمين عن دخول البلد فسيروها الى بلادهم صور وغيرها فافتتح طريق عكا في البحر وأرسل اهلها الى السلطان يشكون الضجر والملل والسآمة وكان بها الامير حسام الدين ابوالهيجاء السمين مقدماً على جندها فامر السلطان باقامة البدل وانفاذه الى البلد واخراج من فيها وأمر أخاه الملك العادل مباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني فكان يرسل عليها الى عكا كل جماعة تقدم عليه من العساكر فيحتل البلد ويخرج جماعة فدخل اليها عشرون اميراً وكان بها

البطسة من البرج المذكور وكان طمعهم شديداً لأن الهواء كان مساعداً لهم فاقودوا النار واشعلوا فيها النفط فانفكس الهواء عليهم واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج الخشبي بأسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة ولم يصب البرج بضرر (برج الذبان) ثم احترقت البطسة التي كانت معدة لاحتراق مرآكب المسلمين فوثب المسلمون عليها فاخذوها . وأما البطسة التي كان فيها القبو فانهم انزعجوا وخافوا وهما بالرجوع فاختلفوا واضطربوا اضطراباً عظيماً فانقلبوا وهلك جميع من بها لانهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها فكان ذلك من أعظم آيات الله وقد رد الله كيدهم في نحورهم

واقعات الدبابات والحدق والكمين

• انشأ الصليبيون دبابات من حديد تشبه البرج على عجل تتحرك بها وفيها المقاتلة ولها رأس عظيم برقة شديدة من حديد وهي تسمى كبشاً ينطح بها السور بشدة وغنف قهدهم بتكرار النطح وآلة أخرى وهي قبو وفيها رجال أيضاً ولها رأس محدد كرأس المحراث ويسمى سفود فرأس الكبش مدور يهدم بثقله والسفود يشق بجمده وفي ثالث رمضان سنة ٥٨٦ زحف الصليبيون على البلد في خلق لا يحصى بدباباتهم فامهلهم أهل البلد حتى نشبت مخالب اطماعهم فيه وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى كادوا يلصقونها بالسور وتحصن منهم في الحدق جماعة عظيمة فاطلق المسلمون عليهم الجروج والمجانيق والسهام والنيران وصاحوا مسيحة الرجل الواحد وفتحوا الابواب وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم في الحداق فهربوا واعمل السيف في من بقي في الحدق منهم ثم هجموا على دباباتهم فالقوا فيها النار والنفط وتمكنوا من احراقها لهرب المقاتلة فكان لبيب شديد وارتفعت الاصوات بالتكبير والتهليل وسرت النار بالدبابات من واحدة الى أخرى فاحترقت كلها وعلق المسلمون في الكبوش الكلايب الحديد فجروها وهي مشتعلة حتى أخذوها وأدخلوها في البلد وكانت منشأة من آلات هائلة عظيمة فالقي عليها الماء حتى برد حديدتها بعد أيام فكانت زنته مائة قنطار وفي يوم الاثنين حادي عشر شوال اقام من الصليبيين على البلد الملك فريديريكوس الصغير ملك النمسا بفرقة عظيمة لمحاصرته وخرج باقي مسكرهم ومعه ميرة أربعة أيام للجيش والحيل وكان يزك السلطان مخبياً على تل العياضية فلما رأى السلطان ذلك نقل اقبال المسلمين الى ميمون وهي على ثلاثة فراسخ من عكا وكان قد عاد اليه

﴿أحراق منجنقات الصليبيين ومراكبهم وإداء الأمانة بعد الموت﴾

ونصب الصليبيون على البلد منجنقات هائلة محكمة على السور وتوارت حجارها حتى أرت فيه أترأً بيناً وخيف من غائلته فأخذ سهمان من الجرخ العظيم وأحرق نصلاهما حتى امسيا كالشعلة من النار ثم رميا في المنجنق الواحد فعلقا فيه واجتهد الصليبيون في إطفاء النار فلم يقدرُوا وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالاً عظيماً واتصل اللهب بالآخر فأحرقه واشتدت نارهما بحيث لم يقدر أحدان يقرب من مكانهما ليحتال في إطفائهما وكان في أثناء ذلك يرسل السلطان الكتب والمال المخصوص بنفقات العساكر التي داخل البلد بواسطة أناس عوامين ومن غريب ما حصل أن عواماً من هؤلاء العوامين اسمه عيسى مسلماً أخذ كتاباً من السلطان وشد على وسطه ثلاثة أكياس داخلها ألف دينار وعام في البحر كما دته (لأنه كان يفتس بذلك من وراء مراكب العدو ويخرج في المينا من البحر) فاته القضاء المحتوم وكان كلما يصل إلى البلد يرسلون طائراً إلى السلطان فيعلم بوصوله فلما انتظر السلطان الطائر عن هذه الرسالة قابضاً الطائر فاستشعر السلطان بهلاك عيسى العوام فلما كان بعد أيام بينما الناس على شط البحر في البلد وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريباً فاقتدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب ومشمع الكتب وكان الذهب نفقة المجاهدين فما رؤي من لم يمكنه أن يؤدي الأمانة في حال حياته فادها بعد وفاته إلا هذا الرجل الذي برأه الله مما قالوه فيه وكان يوجد برج اسمه برج الذبان في وسط البحر مبني على الصخر على باب مينا عكا يحرس المينا وكان متى عبره المراكب أمن من غائلة العدو فأراد الصليبيون أخذه لتبقى المينا بحكمهم ويمنعوا دخول شيء من البطس إلى البلد فتقطع الميرة عنها فاجتهد ليوبولدوك دي أوطريش وعساكره وعساكر البيزاويه فحملوا على صواري بطسة كبيرة برجا وملؤوه حطباً ونفطاً لاجل أن يسبروا فإذا قاربت البرج ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصواري ولصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه فيحرقوه من الأعلى ويقتلوا من فيه من المقاتلة ويأخذوه وعبوا بطسة أخرى بالحطب والوقود على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين بطس المسلمين ثم يلهبونها فتحرق البطس الإسلامية ويهلك من فيها وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو عملوه فيها بحيث لا يصل إليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح حتى إذا أحرقوا ما أرادوا أحرقه دخلوا تحت القبو فامنوا ثم أحرقوا ما أرادوا وقربوا

ومعهم من آلات الحرب والحصار شيء كثير . وكان السلطان قد أمر بشحن بطسة كبيرة بالفلال والبصل والحين والغنم وغير ذلك من الميرة من مينا بيروت لان أهل البلد قد اشتدت حاجتهم الى الطعام والميرة فركب في تلك البطسة جماعة من المسلمين وتزبوا بزي الافرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة لتظهر من بعد وعلقوا الصلبان وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليهم واعترضوهم في الحرافات والشواني وقالوا لهم زراكم قاصدين البلد واعتقدوا انهم منهم فقالوا اولم تكونوا أخذتم البلد فقالوا نأخذ البلد بعد فقالوا نحن نرد القلوع الى العسكر ولكن وراءنا بطسه أخرى في هوائها فانذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة أفرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر فنظروا فراوها فقصدوها لينذروها فاشتدت البطسة الاسلامية في السير واستقام لها الريح حتى دخلت مينا البلد وسلمت ولله الحمد وكان ذلك في أواخر شهر رجب سنة ٥٨٦ ثم أرسل بهاء الدين قراقوش الى البلد والحاجب حسام الدين لؤي مقدم الاسطول الى السلطان في أول شعبان يذكر ان له انه لم يبق بالبلد ميرة الا قدر يكفي البلد الى ليلة النصف من شعبان لا غير فاسرها يوسف في نفسه ولم يبد لها احد لامن خاصته ولا من الجيش خشية الشيوع والبلوغ الى العدو فتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب السلطان الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادام والمير وجميع ما يحتاج اليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء فاقلت البطس الثلاث من الديار المصرية ولجبت في البحر تتوخي التوتية بها الريح التي تحمها الى عكا فطابت لهم الريح حتى وصلوا اليها ليلة النصف من شعبان وقد فبت الأزواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم وخرج أسطول العدو يقاتل البطس والعساكر الاسلامية تشاهد ذلك من الساحل والناس في تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤوسهم يتهلون الى الله تعالى في القضاء بسلامتها الى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلي يشاهد القتال ويدعور به بنصره وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره وفي قلبه ما في قلبه والله يشبهه ولم يزل القتال حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح يشتد والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعا يخرق الحجب حتى وصلت بحمد الله سالمة الى مينا البلد وتلقاها أهل عكا تلقى الامطار عند جذب وكان دخولها وقت العصر رابع عشر شعبان

وعز الدين جردبك التوري ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم ويشغلوا بالنهب وكان كما ظن ولما علم باشتغالهم بالنهب صاح بالناس وحمل بنفسه يتقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة واتصل الامر بجميع الميمنة حتى وصل الصائغ الى عسكر الموصل وهجموا على العدو هجمة الاسود على فرانسها وأوقعوا فيهم القتل فعاد الصليبيون هاربين الى خيامهم وعلى أعقابهم ناكسين والسيف يعمل فيهم وصاح صائغ السلطان في الناس يا أبطال الموحدين هذا عدوكم قد أمكنكم الله منه وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه فبادر الى اجابة دعوته أهل حلقته وخاصة ثم عسكر الموصل يتقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ثم عسكر مصر يتقدمهم سنقر الحلبي وتتابعت العساكر وتحاربت الابطال وقامت سوق الحرب فلم يكن الا ساعة حتى ترمى الصليبيون صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية وغطت قتلاهم الارض من خيم الملك العادل الى خيامهم فكان اولهم بالحيام الاسلامية وآخرهم بخيام العدو صرعى على الثول والوهاد وكان ما بين العسكرين ما يزيد عن فرسخ مفروش بشلائهم ولم ينج من القوم الا التادر وأسر نفر يسير لان السلطان أمر بالابقوا على احدوكان هذا جميعه في الميمنة وبعض القلب اما الميسرة فما اتصل الصائغ بهم الا وقد نجح الامر وقضى القضاء على العدو لبعده المساقين وكانت هذه الواقعة ما بين الظهر والعصر ثم أمر السلطان العساكر الاسلامية بالرجوع وكانت النصره في هذا اليوم عظيمة جداً للمسلمين ولم يقتل منهم الا عشرة انفس ومن الصليبيين ثمانية آلاف وقال مؤرخوهم بان عسكر الصليبيين لما رأى عساكر السلطان قد سافرت طمع في الباقي وطلب من رؤسائهم حرباً عمومية ضد المسلمين فتمنعوهم فلم يمتنعوا وخرجوا بدون ارادة رؤسائهم ويعترفون بالواقعة كما تقدم ويقولون هذا جزاء مخالفتهم لاوامر الرؤساء: وكان المسلمون الذين بالبلد ينظرون الى هذه الواقعة من أعلى السور ولما علموا بكسرة الصليبيين خرجوا من البلد وأوقعوا في عسكر الصليبيين قتلاً ونهباً حتى أنهم أخذوا القدور وفيها الطعام وكثيراً من الاقشة

﴿ حصار عكا من البحر ودخول الزاد اليها قهراً ﴾

لما رأى الصليبيون اتصال المدد من البحر الي عكا عزمواعلى محاصرة المينا من البحر لمنع دخول مراكب المسلمين اليها وكان ورد للصليبيين مدد من البحر من فرنساويين وانكليز وإيطاليين تحت رئاسة قائدهم هنريكوس كونت دي شمبانيا

فاخرجوه ميتاً وحزنوا عليه حزناً شديداً وكان معه ولده فاقاموه ملكاً مكانه ولكن الخلاف وقع بينهم فاحب بعضهم العود الى بلاده وبعضهم مال الى تملك اخيه فعادوا وسار ولده فيمن رضي به ملكاً قاصداً انطاكية فوصلوها وقد تقشى بينهم الوباء فاهلكهم وبددهم فحسن لهم صاحبها المسير لمشاركة الصليبيين في حصار عكا فساروا على جبلة واللاذقية وغيرها من البلاد التي ملكها المسلمون وخرج اهل حلب اليهم واخذوا منهم خلقاً كثيراً ومات اكثر من أخذ فبلغوا طرابلس واقاموا بها اياماً فكثرت فيهم الموت فلم يبق منهم الا الف رجل وعلى قول مؤرخهم خمسة آلاف نسمة (فانظر الى لطف الله كيف خرجت هذه الحملة الصليبية من بلادها نحو ٢٠٠ الف مقاتل وقيل اكثر وكيف بقي منهم الف فارس) ثم وصلوا الى عسكر الصليبيين حول عكا فوجدوهم في خلاف وكان الملك قليج ارسلان يكتب السلطان باخبارهم ويده انه يمنعهم من العبور في بلاده فلما عبروها ارسل يعتذر بالعجز عنه لان اولاده حكموا عليه وحجروا عليه وفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته فلما ورد الخبر الى السلطان بعبور الملك فريدريكوس استشار امراءه فاشار كثير منهم بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل وصولهم الى عكا فقال السلطان بل نقيم الى ان يقربوا منا حينئذ نفعل ذلك لثلاثي تسلم من بعكا من عساكرنا ولكنه سير من عنده من العساكر عسكر حلب وجبلة واللاذقية وشيزر وغير ذلك ليكونوا في اطراف البلاد يحفظونها من العدو فكفي الله المسلمين القتال

﴿ الواقعة العادلية على عكا بين الصليبيين والمسلمين ﴾

لما ارسل السلطان العساكر الاسلامية الى بلادها خوفاً من ملك النصارى وعلم الصليبيون ان العساكر قد تفرقت في اطراف البلاد وان المينة قد خفت لان معظم من سار كان منها أجمعوا رأيهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بقتة ويهجمون على طرف المينة فجأة فخرجوا واستخفوا طرف المينة وفيها تخيم الملك العادل فلما بصر الناس بهم صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها وركب السلطان وصاح منادياً يا للاسلام وكان هو اول راكب وهو كالفائدة لولدها الثالثة لوحيدها ثم ضرب الصنوج فاجابته صنوج الامراء من اماكنها وركب الناس وسارع الصليبيون في قصد المينة حتى وصلوا الى تخيم الملك العادل قبل ان تركب جميع العساكر ودخلوا في وجاهه وامتدت ايديهم في السوق واطراف الخيم بالنهب والغارة وركب العادل واستركب من يليه من المينة كالطواشي قايمز النجمي

الى ملك الروم مسجون بالقسطنطينية وكان يظن ملك الروم صديقاً له فوجده عدواً فغضب وأخذ يحارب جميع المدن التي يجتازها حتى انه املاك المدن الآتية ادريناوبولي . ديدموتيك . سيافريا . غاليلي . وسائر السهول الواقعة على شاطئ بوربونديا الايمن مع هاليسبونت وكادت تقع مدينة القسطنطينية في يده وكانت العساكر المقبلة من بلاد البندقية ومن انكونا ومن جنوى يبراً كهم قد علمت بما جرى للعساكر الصليبية النمساوية فعزموا على ضرب مدينة القسطنطينية من البحر فحينئذ خاف الملك اسحاق ملك الروم من هذه الجيوش فاطلق سراح وفد ملك النمسا وقدم الذخائر للصليبيين وهباً لهم ١٥٠٠ مركب و ٢٦ غلياطه لاجل زول العساكر النمساوية فيها وتقلهم الى مواني اسياولما نزلوا باراضي اسيا الصغرى مارين بمملكة قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان ثار بهم التركان وظلوا يترصدهم ويقتلون من انفرد منهم وكان الزمن شتاء وقد أهلكهم البرد فلما قربوا من مدينة قونية خرج اليهم الملك قطب الدين ملك شاه ابن قليج ارسلان وحارهم فلم يقدر عليهم فعاد الى قونية وسار الصليبيون ورائه ولكنهم ضلوا الطريق وساروا في ارض لا ماء فيها حتى هلكوا من العطش ومن الجوع وكانوا يترامون في الطرق ويستخرجون دم الحيل ويمتصونه الى ان وصلوا الى مدينة قونية فارسلوا الى قليج ارسلان هدايا عظيمة وقالوا له ما قصدنا بلادك ولا اردناها وانما نحن نقصد البيت المقدس وطلبوا منه ان يأذن لرعيته في اخراج ما يحتاجون اليه من قوت وغيره فاذن في ذلك فاتاهم ما يريدون فشبعوا وزودوا وقال المؤرخون النمساويون ان الملك فريديريكوس لما وصل الى مدينة قونية حاربها حتى امتالكها) وساروا الى بلاد الارمن فنالهم تعب زائد ومشقة عظيمة وفي ذات ليلة حصلت زلزلة عظيمة وشعروا بققعة الاسلحة وصهيل الحيل كان حيوشاً قد فاجأهم فنقطعت قلوبهم خوفاً ولكنهم لم يروا احداً فكانوا يتساءلون عن سبب ذلك فقالت رؤساؤهم ان في ذلك رمزاً عن قرب حصول حادث مهول يقعون فيه (وهذا ما ذكره مؤرخوهم أيضاً) ثم وصلوا الى بلاد الارمن وصاحبها لافون ابن اسطفان فارسل اليهم وفداً لمقابلتهم وقدموا لهم جميع ما يحتاجون اليه من ذخائر وزاد وغيره من العلف وقدموا لهم الطاعة ثم سار الصليبيون قاصدين انطاكية فحصل لهم من التعب ما لا يوصف ثم ساروا وكان في طريقهم هر فترلوا عنده ونزل الملك فريديريكوس في الهر ليغتسل ففرق في مكان لا يبلغ الماء فيه وسط الرجل فاعتريته قشعريرة شديدة وطلب الاعانة

أبرقت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر وخلصهم من القتل وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه شيئاً وقال انا صمت ذلك لوجه الله تعالى ولا أريد الجزاء الا منه وارسل السلطان بطلب العساكر الشرقية فأول من أتاه عماد الدين زنكي وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم أتاه علاء الدين بن عز الدين مسعود سيره ابوه مقدماً على عسكره وهو صاحب الموصل ثم وصل زين الدين يوسف صاحب اربل وكان كل منهم اذا وصل يتقدم الى الصليبيين ويقاتلهم ثم ينضم الى الآخرين ووصل الاسطول من مصر فلما سمع الصليبيون بقربه جهزوا اسطولا ليلقاء في طريقه ويقاتله فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من كل جهة ليشتغلوا بقتاله عن قتال الاسطول فيتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا وخرج اسطولهم وكانت الناس خرجت على جانب البحر تقوية للاسطول وائسأاً له ولرجالهم والثقي الاسطولان في البحر والعسكران في البر واضطربت نار الحرب واستعرت وباع كل فريق روحه وجرى قتال شديد اقشع عن نصرة الاسطول المصري بعد اخذ مركب منه وقتل من باسطول الصليبيين ونهب ما فيه وأخذ منه مركباً ايضاً ودخل الاسطول المصري المنصور الى عكا وكان قد صحبته مراكب من الساحل فيها مير وذخائر وطابت قلوب اهل البلد بذلك وانشرفت صدورهم واتصل القتال بين العسكرين خارج البلد الى ان فصل بينهما الليل وعاد كل فريق الى خيمه وقتل من الصليبيين في هذا اليوم كثيرون لان اهل البلد اشتدوا في قتالهم والاسطول وعساكر السلطان فكان قتال الصليبيين في ثلاث مواضع .

﴿ الحروب الصليبية الثالثة ﴾

(سفر ملك النمسا والمانيا الى فلسطين وما جرى له ووفاته)

ثم أقام الملك فريديريكوس عوضاً عنه في تدبير المملكة مدة غيابه عنها ولده هنريكوس وسافر من راتسبوناً بعسكره محتازاً بلاد هونكريا ثم بلغاريا حيث لاقت العساكر النمساوية موانع واهانات كثيرة من سكانها فكان كل من كان يقع في ايديهم يعذبونه ويربطونه من رجله في الشجر منكساً . وكان جالساً على تخت القسطنطينية الملك اسحاق فلما بلغه قدوم العساكر النمساوية ارسل الى السلطان صلاح الدين يخبره بذلك ووعدته بمنعهم من العبور وأمر عساكره بمحاربة النمساويين فلما وصل الملك فريديريكوس الى مدينة فيلبوبولي تحقق ان وفده الذي ارسله

وأصلحوا الطرق لها وعملوها بمجمل لاجل جبرها وتسييرها الى حيث شاءوا
وشرعوا في طم خندقها وزحفوا بها في ٢٠ ربيع اول سنة ٥٨٦ فآشرفت على
السور وقاتل من بها من عليه وأنكشف من بالبلد وأشرفت البلد على الهلاك وكان
السلطان لما وجد البلد محصورة رغب بعض الناس في السباحة ودخول الميناء
فكانوا واسطة في المفاوضة بينه وبين البلد فأرسل اهلها احد العوامين الى السلطان
وأخبروه بتلك الابراج وبضررها وانها اذا استمرت أخذ العدو البلد عنوة فركب
مسرعاً بعسكره وتقدم الى الصليبيين وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيماً دائماً
يشغلهم عن اهل البلد فافترق الصليبيون فرقتين فرقة تقاتل السلطان وفرقة تقاتل
اهل عكا ولكن خف الامر عنهم ودام القتال ثمانية ايام متتابعة آخرها ٢٨ منه
وسم الفريقان القتال وملوا منه للملازمة ليلاً ونهاراً والمسلمون تيقنوا من استيلاء
العدو على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الابراج لانهم لم يتركوا حيلة
الا عملوها ولم يقدمهم ذلك شيئاً وتابوا رمي النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فمن
الطاف الله بهم ان شخصاً من اهل دمشق اسمه علي ابن شيخ النحاسين كان في
عكا وهو مولع بجمع آلات التفاطين وإيجاد عقاير تقوي عمل النار . فلما رأى
تلك الابراج وما فعلته باهل المدينة شرع في عمل ما يعرفه من تلك الادوية المقوية
لنار ولما فرغ منها حضر الى الامير بهاء الدين قراقوش حاكم البلد وقال له ان
يأمر المنجنقي ان يرمي بالمنجنيق المحاذي لاحد هذه الابراج ما أعطيه لكي يحرقه
وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد
غيظاً بقوله وقال له قد بالغ اهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط فلم يفلحوا فقال له
من حضر لعل الله جعل الفرع على يد هذا ولا يضرنا اذا وافقناه على كلامه
فأجابته الى ذلك وأمر المنجنقي بامثال أمره فرمى عدة قدور خالية من النفط
والصليبيون اذا رأوا القدور لا تحرق شيئاً يفرحون ويرقصون ويلعبون على سطح
البرج حتى علم ان الذي القاه قد تمكن من البرج التي قدرة مملوءة وجعل فيها
النار فاشتعل البرج ورمى ثانية وثالثة فاضطربت النيران في نواحي البرج فاحترق
بما فيه من السلاح والزرديات وكان شيئاً كثيراً وكان الصليبيون قد استهانوا امر
القدور الاولى لانها لم تفعل شيئاً فاطمأنوا وتركوا السمي في الخلاص ولما احترق
البرج الاول انتقل الى البرج الثاني وقد هرب من فيه خوفاً فأحرقه وكذلك
الثالث وكان ذلك يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله والمسلمون ينظرون فرحين وقد

﴿ وصول العساكر المصرية والاسطول المصري ﴾

﴿ وهجوم الصليبيين على الزك ﴾

في منتصف شهر شوال سنة ٥٨٥ هـ وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فلما وصل قويت النفوس به وبمن معه واشتدت ظهورهم وأحضر معه من آلات الحصار ومن الدرق والطارقيات والنشاب والاقواس شيئاً كثيراً وفي منتصف شهر القعدة وصل الاسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤ فجاء على مراكب الصليبيين فبغتها وسحقها وبددها وظفر ببطستين كبيرتين بما فيها من أموالهم ورجالهم وغلاهم وكان عدد مراكب الاسطول خمسين مركباً فيها زهاء عشرة آلاف مقاتل وأرسل السلطان الى عكا في المراكب جماعة من الامراء باجنادهم وأزوادهم فاستظهر بهم من البلد وبالاسطول وحمدوا الله وأخذت العساكر الاسلامية تخرج الى العدو ليلاً وتذيقه مرارة القتل والاسر والسرقة وكانوا يخفون بالحشيش في أجراف الانهار ليفتكوا بمن يرد الماء وقد وأرسل صاحب الموصل الى السلطان من أحمال النفط الابيض شيئاً كثيراً مع عزة وجوده ومن التروس والرماح من كل جنس أحكمه وأجوده وأقام السلطان بموضعه بالحروب مدة الشتاء وكان يزكه وطلائمه لا تنقطع عن الصليبيين فلما هل شهر صفر سنة ٥٨٦ هـ سمع الصليبيون بان صلاح الدين قد سار للصيد ورأوا العسكر الذين في الزك قليلاً وان الاحوال التي في مرج عكا كثيرة تمنع من سلوك من يريد ان ينجذ الزك فاعتصموا الفوصة وخرجوا من خندقهم على الزك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحوا أنفسهم بالنشاب حتى فنى نشابهم فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم الامر وعلم المسلمون انه لا ينجيهم الا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتالاً مستقلاً الى ان جاء الليل وقتل من الفريقين جمع كثير وعاد الصليبيون الى خنادقهم . ولما عاد السلطان الى المعسكر بلغه الخبر فندب الناس الى نصرة اخوانهم فاتاه الخبر ان الصليبيين قد وصلوا مأمنهم

﴿ احراق أبراج الصليبيين وواقعة الاسطول ﴾

كان الصليبيون مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة ابراج من الخشب عالية جداً طول كل برج منها ستون ذراعاً وعملوا كل برج منها خمس طبقات وكل طبقة علوة بالمقاتلة وغشوها بالجلود المدهونة بالخل وعالجوها بما يمنع النار من احراقها

حتى لحقوا أصحابهم والطرده وراءهم فلما رأوهم الصليبيين منهزمين والمسلمون خلفهم في عدد كثير ظنوا ان من حمل منهم قد قتل وانه انما نجا منهم هذا نفر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الحرب والهزيمة وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وحياى الرجال وتداعت وتراجعت الناس من كل جانب وظل المسلمون ينقلون ويضربون الى ان وصل المنهزمون الى معسكرهم فهجم المسلمون عليهم في الحيام فخرج منهم أطلاب كانوا عدوها خشية من هذا الامر مستريحة فردوا المسلمين وكان التعب قد أخذهم والعرق قد ألجمهم فتراجعوا عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودماهم فرحين مسرورين وعاد السلطان وجلس وحصروا من قتل منهم من الغلمان والمجهولين ١٥٠ نفرأ ومن المعروفين استشهد ظهر الدين أخو الفقيه عيسى والامير مجلى ابن مروان والحاجب خليل الهكاري ومن قتل من الصليبيين بلغ سبعة آلاف وقيل أقل . في اثناء هزيمة المسلمين رأى الغلمان خلو الحيام من معارض لان العسكر انقسم قسمين منهزم ومقاتل ولم يبق في الحيم أحد فظنوا ان الكسرة تم على المسلمين وان العدو سينهب جميع ما في الحيم فاسرعوا هم في نهب جميع ما فيها فلما عاد السلطان الى الحيم ورأى ما حصل سارع في ارسال الكتب والرسل برد المنهزمين وتبع من شذ من العسكر فردهم وأخبرهم بانتصار المسلمين وأمر السلطان بجمع الاقشة من اكف الغلمان فجمعوا ذلك حتى المخالى امامه فامر بان كل من يعرف له شيئاً وحلف عليه يسلمه أما الصليبيون فانهم عادوا الى خيمهم وقد قتلت شجعانهم وقتل مقدموهم وأمر السلطان باخراج عربيات من عكا ليحملوا القتلى ويرموهم في النهر ثم جمع رؤساء جيوشه واستشارهم فيما يفعل وهل يناجز العدو أم لا فقالوا جميعاً الاوفق ان تنتظر قدوم الملك العادل وتستريح العساكر لان العساكر قد تعبت جداً وعند قدوم الملك العادل نشره في الراي فوافقهم على ذلك وأشير على السلطان بالانتقال الى الخروبة فسار اليها رابع رمضان وأمر باغلاق أبواب عكا فوجد الصليبيون بذلك فرجالهم وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حوالى عكا من البحر الى البحر وأخرجوا ما كان في مراكمهم من آلات الحصر . وعملوا حولهم سوراً من تراب حفر الخندق فكان معسكرهم كانه بلد ورتبوا على سورهم رجالا لحفظه . وكان الذي أوجب رحيل السلطان من هذا الموضع هو فساد الهواء بدم المقتولين ونتاجة الرائحة

وأما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد والأمير مجلي وجماعة المهرانية والهاكرية ومجاهد الدين برقيش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين وعسكره وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكوج ورسلان بغا وجماعة الاسديه الذين يضرب بهم المثل وكان في مقدمة القلب الفقيه عيسى والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه يحثهم على القتال ويدعوهم الى النزال ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى منه أربع ساعات وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين واخرج لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلات كثيرة وتكاثروا على تقي الدين وكان في طرف الميمنة على البحر فراجع عنهم شيئاً اطماعاً لهم لعلمهم ينفصلون عن اصحابهم فينال منهم غرضه فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً فامده باطلاب من القلب حتى قوى جانبه وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في قلب معسكر الصليبيين ضعف من في قلب المسلمين ومن خرج منه من الاطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم على عسكر ديار بكر فانكسروا كسرة عظيمة وسرى الامر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين الى العياضية لانهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من الصليبيين الى خيم السلطان فقتلوا طشت دارا واسماعيل المكبس وابن رواحة وأما الميسرة فلما ثبتت وأما السلطان فانه أخذ يطوف على الاطلاب ينهضهم ويوعدهم ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم بالاسلام ولم يبق غير خمسة رجال معه وهو يطوف ويتخرق الصفوف واوى الى تحت التل الذي كانت عليه الحيام اما المنهزمون من العسكر فبلغت هزيمتهم الى الاقحوانة وراء جسر طبرية والحقهم الصليبيون الى العياضية فقط حتى اذا ماراؤهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم الى عسكرهم فلقبهم جماعة من الغلمان والخر بندي والساسة فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة واما الذين صعدوا الحميم فلم يقتلوا غير الثلاثة المذكورين ثم راوا ميسرة الاسلام ثابتة فعلموا ان الكسرة لم تتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم والسلطان واقف تحت التل يجمع الناس ليعودوا الى الحملة على العدو فلما رأى الصليبيين نازلين عن التل اراد رجاله لقاءهم فامرهم بالصبر الى ان ولوا ظهورهم واسرعوا يطلبون اصحابهم فصاح في الناس فحملوا عليهم وقتلوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم

للفارح حظ نريد ان يصطرع صبيان صبي منا وصبي منكم فاخرج صبيان من البلد الى صبيين من الافرنج فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الافرنج فاحتضنه وضرب به الارض واخذه اسيراً فاشتراه منه بعض الصليبيين بدينارين وقالوا هو اسيرك حقاً فاخذ الدينارين واطاقه

• {ورود المدد للصليبيين وواقعة عكا الكبرى} •

وما زالت الامداد تتوالى على الصليبيين من البحر مع المراكب من بلاد البندقية وبيزا وجنوى وكذلك عدد وافر من العساكر الفرنسية والاطالية والنمساوية والانكليزية واتحدوا مع الصليبيين الآخرين وكان يوجد بين الصليبيين الجند أساقفة ورؤساء كنائسيون وامراء ودوكلات مثل كونت دي فرارا وانسلموس أمير المونت راله وفيس كونت دي شاطالاروتل وحاكم برغاس مع رئيس اساقفة بيزا وارملة ملك الدانيمرك وصحبها ٤٠٠ عسكري . وغوي دي داميارا واسقف نيرونا وصلا مع بعض عساكر رومانية وجمعوا جميع جنودهم واعلأهم الى جنود الصليبيين الذين كانوا برئاسة غوي (الذي كان أسيراً) يحاصرون عكا حتى اصبح جيش الصليبيين نيفاً ومائة الف مقاتل ثم قرأهم على مقاتلة المسلمين قتالاً شديداً فرتبوا صفوفهم كما يأتي فالملك غوي تقدم على العساكر الفرنسية وعلى خيالة الاسبتارية (جمعية ضياف الغرباء) وامامه أربعة فرسان حاملون بشائر الانجيل المقدس والشاب كوزاد صاحب صور ترأس جنود البندقية ولومبارديا وأهل صور ولاندغرافا دي طورينجا ترأس العساكر النمساوية والبيزاوية والانكليزية في وسط الحرب . والدوك دي غوالدرا قاد عساكره وفرسان الداوية (جمعية الهيكلين) وأقاموا الخفر منهم ورؤساء كنائس رافينا . وبيزا . وبيزانصون . وكانطورباري . وبوفيس . وغامبراي . وغيرهم تسلحوا بالخذ والزرديات . وفي يوم الاربعاء الحادي والعشرين من شهر شعبان سنة ٨٥٥ هـ تحرك الصليبيون فأمر السلطان صلاح الدين أن ينادي في الناس بالاسلام فركبوا وكان السلطان قد انزل الجند في الحليم ميمنة وميسرة وقلباً على تعبئة الحرب حتى اذا وقعت صيحة لايحتاجون الى ترتيب جديد وكان هو في القلب وفي ميمنة القلب ولده الافضل ثم ولده الظافر ثم عسكر الموصل يتقدمهم ظهر الدين ابن البكنكري ثم عسكر ديار بكر وعليه قطب الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس ثم قايماز النجمي وجوع عظيمة تتصل بطرف الميمنة ويلها الملك المظفر تقي الدين بحجفله وعسكره وهو مطل على البحر

الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذي جدد
 وصار الطريق آمناً واليزك بين الطريق وبين العدو ودخل السلطان في ذلك اليوم
 عكا وورقي على السور ونظر الى عسكر الصليبيين . وتراجع الناس عن القتال بعد
 صلاة الظهر لسقيا الدواب والاستراحة ولم يعودوا الى القتال وفي صباح الاحد ثلثه
 رأى بعض الامراء تأخير القتال الى ان يدخل الخيش الراجل كله الى عكا ويخرجوا
 مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو ومن وراءه وترك العساكر من خارج
 من سائر النواحي ويحملون حملة الرجل الواحد وكان السلطان يعاين هذه الامور
 كلها بنفسه ويلاحظها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه
 ووفور همته كالوالدة الشكلي وقال أحد اطبائه انه بقي من يوم الجمعة الى يوم الاحد
 لم يتناول من الغذاء الا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه وفعلوا ما كانوا قد عزموا عليه
 واشتدت منعة العدو وحصى نفسه في خيامه ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس
 وتمطر سماء حربها الرؤس من كل رئيس ومرؤس حتى كان يوم الجمعة نامنه فعزم
 الصليبيون على الخروج بمجموعهم فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول
 وساروا الهوبنا غير مفرطين في نفوسهم ولا خارجين من راجلهم والرجالة حولهم
 كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً حتى قاربوا خيام اليزك فصاح السلطان بالعساكر
 الاسلامية فركبوا باجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد فعاد الصليبيون ناكسين على
 عقبهم والسيوف يعمل فيهم فالسلم منهم جريح والعاطب طرح يشتدون هزيمة فيعثر
 جريحهم بقتيلهم حتى لحق خيامهم من سلم منهم وكفوا عن القتال اياماً وكان قصارهم
 ان يحفظوا نفوسهم واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون اليها . ثم رأى
 السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون الى مصارعهم فنقل الثقل الى تل
 العياضية وهو تل قبالة تل المصليبين مشرف على عكا وخيام العدو . ثم بلغ السلطان
 ان جماعة من الصليبيين تخرج للاحتشاش من طرف النهر مما يبت عليه قاصر
 السلطان بان يكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لحقتهم على خيلهم فهجموا
 عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً واسروا جماعة واحضروا الرؤس بين يديه وذلك
 يوم السبت تاسع عشره وفي مساء ذلك اليوم كانت حرب شديدة بين أهل البلد
 والصليبيين قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين وطال الامر بين الفتيين ولا يخلو يوم
 عن قتال وانس البعض بالبعض حتى ان الطائفتين كانتا تتحدنان معاً ويتركان القتال
 ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة وشموا يوماً فقالوا الى كم يتقاتل الكبار وليس

ليسجن فيها وسار السلطان بجريدة من المنية حتى تقابل بقية العسكر الذي كان قد أرسله بطريق تبين بمرج صفورية الذي واعدهم اليه وأمر الثقل ان يلحقه الى مرج صفورية ولم يزل سائراً حتى شارف العدو من الخروبة وبعث بعض العسكر فدخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعثاً بعد بعث حتى اجتمع فيها خلق كثير وسار من الخروبة الى تل كيسان في أوائل مرج عكا فنزل عليه وأمر الناس ان ينزلوا على التعية فكان في آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر الميمنة بالقرب من تل العياضية واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت ورتب اليك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لا يخرج منها أحد الا يجرح أو يقتل وكان عسكر الصليبيين على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد وعدد فرسانهم الفان وعدد راجلهم ثلاثون ألفاً وكان المدد يأتيهم من البحر خصوصاً ممن اتاهم من طاشقي القرزيين والدانيين وعددهم اثنا عشر الف غير الذي اتاهم من الإنكليز والفلامنديين وكان مقدمهم رئيس أساقفة كانطورباري ويعقوب دي افسناس الفلامندي وجري بينهم وبين اليك مقاتلات عظيمة متواترة والمسلمون يتهاقون على قتالهم والسلطان يمنهم من ذلك الى وقته ثم وصل تقي الدين من حماء ومظفر الدين بن زين الدين واستفحل أمر الصليبيين فاستداروا بالبلد في آخر شهر رجب ومنعوا الناس من الدخول والخروج اليها فعظم على السلطان ذلك وضاق صدره وثارته همته العالية في فتح الطريق الى عكا لتستمر وصول الميرة والنجدة اليها فباكرهم في أول شعبان وضايقهم مضايقة شديدة فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة وانتشر عسكر الصليبيين الى ان ملكوا التل وكانت ميسرة عسكرهم الى البحر الحلو ممتدة الى البحر المالح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا واتصلت الحرب الى ان حال بين الفتيين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الاخرى واصبحوا يوم السبت ثاني شعبان على القتال وانفذ السلطان طائفة من شجيمان المسلمين الى البحر من شمالي عكا ولم يكن هناك للصليبيين خيم لكن عسكره كان قد امتد جريدة شمالي عكا الى البحر فحمل شجيمان المسلمين على عسكر الصليبيين الواقف شمالي عكا فانكسروا كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً والتفت السالمون منهم الى خيامهم وهجم المسلمون خلفهم الى أوائل خيامهم ووقف اليك الاسلامي مانعاً من ان يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل اليه داخل وانفتح

وأرسل الى عسكر عكا ان يسير حتى يكون وراء عسكر الصليبيين حتى اذا تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم وركب هو وعسكره الى الجبهة التي عندها هزيمة عسكر تبين ورتب عسكره ثمانية اطلاب واستخرج من كل طلب عشرين فارساً وأمرهم ان يتأروا للعدو حتى يخرج اليهم ويناولهم فيهربون من وجهه حتى يصلوا الى الكمين ففعلوا وخرج اليهم من الصليبيين معظم عسكرهم وجرى بينهم وبين هذه السرية السيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وانفت من الانهزام وحملت الجبهة على مخالفة السلطان واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الامر وقد هجم الليل فبعت بعونا كثيرة فساد الصليبيون ناكسين على أعقابهم ومن نوادر هذه الواقعة ان مملوك للسلطان اسمه ايبك الساقى وقع عن فرسه فجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فجرح منهم عدة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو على آخر رفق فظنوه ميتاً فتركوه وانصرفوا عنه ثم ان المسلمين جاؤا في صباح يوم الثلاثاء ٩ منه الى موضعهم فأروا القتل ورأوا المملوك حياً فحملوه في كساء وهو لا يعي شيئاً فيئسوا من حياته فعرضوا عليه الشهادة وتركوه وعادوا اليه فأروه قد قويت نفسه فأقبلوا عليه بمشروب فغوفي وكان بعد ذلك لا يحضر موقعة الا كان له فيها أثر عظيم ثم عاد السلطان الى خيمه في يوم الاربعاء ١٠ منه

محاصرة الصليبيين عكا ومحاربتهم ومصارعة الصبيان

لما كان السلطان على حصن الشقيف بلغه ان الصليبيين خرجوا بجمعهم من مدينة صور وساروا قاصدين عكا بقيادة ملكهم غوي الذي كان أسيراً وأطلق سراحه السلطان فلم ير المسارعة بالمسير الى عكا خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف فاقام مستكشفاً للحال الى يوم الاحد ثاني عشر رجب سنة ٥٨٥ فوصل رسول يقول ان الصليبيين رحلوا ونزلوا عين بصره ووصل أوائلهم الى الزيب فعظم عنده ذلك وكتب الى سائر أرباب الاطراف بالمسير اليه وسار السلطان بالثقل (عموم الجيش) ليلاً وأصبح يوم الاثنين ١٣ منه سائراً الى عكا على طريق طبرية اذ لم تكن طريق أخرى تسع العسكر وسير جماعة على طريق تبين يستشرفون العدو ويواصلونه باخباره وظل مواصلاً الزحف حتى أتى الجولة في منتصف النهار فنزل فيها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضع يقال له المنية صباح الثلاثاء وفيه بلغه خبر نزول الصليبيين على عكا فأرسل صاحب الشقيف الى دمشق

جمادى الاولى سنة ٥٨٥ بلغه من اليزك ان الصليبيين قد قطعوا الجسر الفاصل بين
أرض صور وأرض صيدا وهي الأرض التي عليها السلطان فركب نحو اليزك وكان
جماعة من الصليبيين قد عبروا الجسر فنهض اليهم يزك الاسلام وكانوا في عدة وقوة
فقاتلوهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجرحوا اضعاف ما قتلوا ورموا في النهر جماعة
ففرقوا ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بابيك الاخرش وكان شجاعاً
باسلاً مجرباً للحرب ممارساً له جمع به فرسه فلجأ الى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فنى
نشابه ثم بالسيف حتى قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه وفي يوم الاربعاء تاسع
عشر من ذاك الشهر ركب السلطان كي يشرف على القوم على عادته فتبع العسكر خلق
عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة فامرهم بالرجوع فلم يفعلوا وخاف عليهم لان المكان
حرج وليس للراجل فيه ملجاء ثم اندفع الرجالة على الجسر وناوشوا العدو القتال
وعبر منهم جماعة اليهم وجرى بينهم قتال شديد واجتمع عليهم من الصليبيين خلق عظيم
لانهم علموا ان ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان
لانه كان بعيداً عنهم ولم يكن معه عسكر لانه لم يخرج للقتال وانما ركب مستشرفاً
عليهم على عادته ولما بان له الواقعة وظهر له غارها بعث اليهم من كان معه
ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والصليبيين قد تكاثروا حتى خافت منهم
السرية التي بعثها السلطان وظفر الصليبيون بالرجالة ظفراً عظيماً وأسروا
جماعة وعدد من قتل من الرجالة فكان ١٨٠ في ذلك اليوم وقتل من الصليبيين
عدد عظيم وغرق أيضاً منهم كثيرون وكانت هذه الواقعة لم يتفق للصليبيين مثلها
ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في هذه الواقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم
وقرر معهم ان يهجم على الصليبيين ويعبر الجسر ويقاثلهم ويستأصل شافتهم وكانوا
قد رجلوا عن صور ونزلوا قريباً من الجسر وبين الجسر وصور فرسخ وزيادة
فلما صمم على ذلك رحل الصليبيون عاشرين الى صور ملتجئين الى سورها فرأى ان
يسير الى عكا ليلاحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي فسار على تبين ولم يرجع
على مرج عيون فضى الى عكا ورتب أحوالها وعاد الى العسكر بمرج عيون منتظراً
مهلة صاحب الشقيف ولما كان يوم السبت سادس جمادى الاخرى بلغه ان جماعة
من رجالة العدو يخرجون الى جبل تبين فيحطبون ووراءهم من الفرسان من يحفظهم
فارسل الى عسكر تبين ان يخرج منهم نفر يسير الى أولئك المحتطين فاذا تبعهم خيل
العدو ينهزمون الى جهة عنها لهم وان يكون ذلك في صبيحة يوم الاثنين ٨ منه

الصليبيين والصليب الذي كان على قبة الصخرة (وقيل صليب الصابوت الذي احدث في واقعة حطين) وتاج ملك القدس . وفي يوم الجمعة الثالث من ربيع الاول خرج السلطان من دمشق فصار حتى نزل في مرج فلوس ونزل في صباح يوم السبت رابع شهره في مرج برغوث فاقام به والعساكر تتابع الى الحادي عشر ورحل الى بانياس ومنها الى مرج عيون فخيم به وهو قريب من شقيف ارتون فكان يركب كل يوم يشارفه ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب نخاف صاحب الحصن من كثرة العساكر وعلم ان لاقدرته عليها فرأى بان الصلح مع السلطان هو اسلم طريق الى سلامته ففرز بنفسه الى باب خيمة السلطان وطلب الاذن في الدخول فاذن له فدخل فاحترمه السلطان واكرمه وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على شئ من التواريخ والاحاديث وكان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وأكل مع السلطان الطعام ثم خلا به وذكر انه تحت طاعته وأن يسلم اليه الحصن من غير تعب وطلب أن يعطي موضعاً لسكنه في دمشق لانه لا يقدر بعد ذلك على مساكنة الافرنج واقطاعاً بدمشق تقوم به وباهله وان يفتح له مدة ثلاثة شهور ليظل في حصنه ويتمكن من تخلص أهله وجماعته من صور ويأخذ غلة هذه السنة فاجيب الى ذلك كله وأقام يتردد الى خدمة السلطان في كل وقت وينظر المسلمين في صحة دينه وينظرونه في بطلانه وكان حسن المحاوره متادباً في حديثه ثم ظهر ان جميع ذلك مخادعة منه لطول الوقت وظهر على ذلك دلائل كثيرة في تحصيل الميرة واتقان الابواب فرأى السلطان أن يصعد الى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع كل نجدة وميرة تأتيه واطهر ان ذلك فراراً من وخم المرج ففرز صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فاطله السلطان وقال تفكر في ذلك وتأخذ رأي الجماعة ثم وكل به من حيث لا يشمر فانكشفت سريرته الفادرة فقبض عليه السلطان وطلب تسليم الحصن فقال انا انفذ الى نوابي في التسليم وكان قد أوصاهم بما يفعلونه فقالوا لا نسلم ويبقى عندكم مكانه فقيدوه وحملوه الى قلعة بانياس ثم احضره السلطان في سادس رجب وهدده وتوعده فلم يفد فأمر بسجنه في دمشق وعين بعض الامراء لحصار الحصن صيفاً وشتاء

❖ مناوشات بين الصليبيين وعساكر المسلمين ❖

قلنا ان مدينة صور امتلأت بالصليبيين الذين اتوها من جميع البلاد التي فتحها المسلمون ولما وجدوا كثرتهم اتفقوا جميعاً على مهاجمة المسلمين فخرجوا وعسكروا على باب صور وبينما كان السلطان في مرج عيون محاصراً شقيف ارتون يوم الاثنين سابع عشر

فأعلمه الخبر والافرنجي معه فركب في طائفة من رجاله الى الموضع الذي اختفى فيه الصليبيون فكبسهم فاخذهم على غرة وتبهم في الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد وكان معهم مقدمان من الاستبارية (جمعية ضياف الغرباء) فحملوا الى السلطان وهو على صفد ولما احضر المقدمين احضرها ليقتلها وكانت عادة قتل الداوية (جمعية الهيكليين) والاستبارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم قال له أحدهما لا أظن ان ينالنا سوء وقد نظرنا الى طلعتك المباركة ووجهك الصييح وكان السلطان كثير العفو والاستعفاف يقبل الاعتذار فيعفو ويصفح فلما سمع كلامهما لم يقتلها وأمر بسجنهما ثم سار الى قلعة كوكب ونازلها وحاصرها وأرسل الى من بها يعلمهم بانهم اذا سلموا أمنهم واذا امتنعوا يقتلهم وينهبهم فلم يصفوا اليه واصرروا على الامتناع فجد في قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رشقهم بالاحجار وزحف مرة بعد مرة وكانت الامطار كثيرة لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً فلم يتمكن المسلمون من القتال كما يريدون وطال مقامهم الى أن زحف اليها دفعات في يوم واحد فوصلوا الى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا الى السور الاعلى فلما رأى الصليبيون ذلك اذعنوا بالتسليم وطلبوا الامان فأمهم وتسلم الحصن منهم في منتصف القعدة وسيرهم الى صور فوصلوا اليها واجتمعوا بها . وكانت صور قد امتلأت بالصليبيين وابطالهم لان أهل جميع البلاد التي فتحت ساروا اليها وأرسلوا الى أوروبا يطلبون النجدة كما تقدم فلذلك تذكر السلطان صلاح الدين لتركة صور وعدم استيلائه عليها قبل فتح القدس وعرض بنائه ندماً وأسفاً . وسار الى القدس وعيد فيها عيد الاضحى ومنها الى عكا فاقام بها الى آخر السنة

* { في بناء استحكامات عكا وحصار شقيب ارتون } *

قلنا ان السلطان أقام بعكا في آخر سنة ٥٨٤ فامر باحضار بهاء الدين قراقوش من مصر ومعه المهندسون وطائفة البنائين وما يلزمهم لعمارة سور عكا واستحكاماتها فوصلوا في شهر محرم سنة ٥٨٥ والسلطان مقيم بها فاقام بهاء الدين قراقوش والياً عليها وأمر ببناء السور أمتن بناء وترك معه حسام الدين بشاره وسار الى دمشق فوصلها في مستهل شهر صفر وأقام بها وجاءه من بغداد رسول الخليفة فامر بالخطبة لولي العهد عدة الدين أبي الفضل نصر محمد بن الامام الناصر فخطب له بذلك في يوم الجمعة ١٣ صفر ثم عاد الرسول ومعه رسول من السلطان بهدايا عظيمة واسرى من

﴿ الهدنة ورجوع السلطان عن انطاكية وفتح الكرك وصفد وكوكب ﴾

لما فتح السلطان بغراس عزم على التوجه الى انطاكية وحصرها بخاف بوهيموند صاحبها فارسل يطلب الهدنة على أن يطلق كل اسير عنده من المسلمين بعد ان استشار الامراء فاشاروا اكثرهم في ذلك ليرتاح الناس ويجمعوا ما يحتاجون اليه أما السلطان فانه اجابه وجعلت مدة الهدنة ثمانية أشهر ثم أرسل رسوله الى بوهيموند ليستلم منه الاسرى وذلك في ثاني شعبان سنة ٥٨٤ هـ وعاد الى حلب في ثلثه ومنها سار الى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار وعسكر الموصل ولما هلك رمضان اشير عليه بالاستراحة في شهر الصوم فقال ان العمر قصير والاجل غير مأمون وقد بقي بيد الصليبيين حصن كوكب وصفد والكرك وغيرها ولا بد من اخذها فانها في وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر اهلها وان اغفلناهم ندمنا وكان السلطان قد جعل على الكرك من يحصره فلازموا حصاره مدة طويلة حتى فئت ازواد أهله وذخائرهم وأكلوا دوابهم فراسلوا الملك السائل اخا صلاح الدين ونائبه على هذه البلاد ببذلون تسليم القلعة اليه ويطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأرسل الى مقدم العسكر المحاصرين بذلك فسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضاً ما يقاربهم من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وارتاح المسلمون من تلك النواحي . ثم سار السلطان في منتصف شهر رمضان الى قلعة صفد فحصرها وقتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمي ليلا ونهاراً بالحجارة والسهم وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم وأزوادهم النفوذ في المدة التي كانوا فيها محصورين فخافوا من بطشه فارسلوا اليه يطلبون الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا منها وساروا الى مدينة صور . ولما كان السلطان محاصراً سفد اجتمع من في مدينة صور وقالوا ان فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب وحينئذ يقطع طمعنا من هذه البلاد واتفق رأيهم على ارسال نجدة اليها سراً من رجال وسلاح وغير ذلك فارسلوا مائتي رجل من شجعانهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين واتفق ان رجلاً من المسلمين المحاصرين كوكب خرج للاصطياد فاقى رجلاً من تلك النجدة فاستغرب وجوده بتلك الارض فضربه ليعلمه بحاله وسبب قدومه الى هناك فافر ودله على اصحابه فعاد الجندي المسلم الى قايمار النجدي وهو مقدم العسكر

خلق عظيم وهذه القلعة من قلاعهم المشهورة ويوم أخذها كان يوماً عظيماً ثم عاد الناس إلى خيامهم غانمين وعاد السلطان إلى معسكره وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلاً كبيراً منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً فنزل عليهم السلطان ورق لهم وانفذهم إلى صاحب انطاكية استماله له لانهم كانوا من ذوي قرياه وكانت هذه القلعة مقابلة لحصن اقاميا وتناصفها في أعمالها وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي وقد مدحه الشهاب قتيان الشاغوري بقصيدة منها

لما ملكت حصون انطاكية يئس الصليب وحزبه من مظهر
أردت كل مثل متكبر بموحد متواضع ومكبر
برزت إلى برزية عزمتك التي مدت يداً عن مطلب لم يقصر
فتناولته بيدها من باذخ في الافق ذي مثل يروع مسير
فأنهض لصور فهي أحسن صورة في هيكل الدنيا بدت لمصور
ما سور سور عاصم منه وهل سور المعاصم عاصم لمصور

﴿ فتح حصن دريساك وحصن بفراس ﴾

ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً ومنه سار حتى نزل على دريساك يوم الجمعة ثامن رجب سنة ٥٨٤ هـ وهي قلعة منيعة قريبة من انطاكية فنزل عليها وقتلها قتلاً شديداً بالمنجنيات وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وحوه بالرجال والمقاتلة ووقفت في الشجرة رجال يحمونها عن يصعد فيها وكان كلما قتل منهم رجل قام غيره مكانه وهم قيام عوض الجدار واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان واشترطوا مراجعة انطاكية وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير ورق عليها العلم الإسلامي في يوم الجمعة ثاني عشر رجب وتسلمها بما فيها وسار السلطان إلى قلعة بفراس وهي قلعة منيعة أقرب إلى انطاكية من دريساك وكانت كثيرة العدد والرجال فنزل العسكر في مرج لها واحدق العسكر بها وأقام يرك لحفظها من ناحية انطاكية خوفاً من هجوم أهل انطاكية يضرب على بابها بحيث لا يمكن أحد الخروج منها ولم يزل يقاتل بفراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان على استئذان انطاكية ورقى العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان وتسلمها بما فيها من الأموال والذخائر والفلال وتسلمها السلطان مع دريساك إلى علم الدين صاحب عزاز وفتح السلطان أبراج ومغارات وشققان كثيرة حتى خاص ذلك الأقليم

وعن الصغير ديتارين فسلمت القلعة وأقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيدوبلاطنس وقلعة الجماهرين وغيرها

فتح بكاس والشعر والسرمانية وبرزية

ثم رحل السلطان حتى أتى بكاس وهي قلعة حصينة على جانب العاصي ولها نهر يخرج من تحتها وكان النزول على ذلك الشاطئ يوم الثلاثاء سادس جمادي الآخرة سنة ٨٤٤ فصعد السلطان بجريدة إلى القلعة وهي جبل مطل على العاصي فاحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف المضائق إلى يوم الجمعة تاسع شهره ففتحها عنوة وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان فيها وكان لها قلعة (صغير قلعة) تسمى الشعر قريبة منها يعبر منها إليها بجسر وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق فسلطت عليها المنجنيقات من سائر الجوانب ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الأمان وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشره وسألوه أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان انطاكية لأنها تابعة لها فأذن في ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشره ثم عاد السلطان إلى عسكره وسير ولده الظاهر إلى قلعة تسمى سمرمانية يوم السبت سابع عشره فقاتلها قتالاً شديداً وضائقها مضايقة عظيمة وتسلمها أيضاً يوم الجمعة الثالث والعشرين منه ومن غريب الاتفاق أن فتوح الساحل من جبلة إلى سمرمانية في أيام الجمع المتوالية وهذا من نوادر الفتوح التي لم يتفق مثالا . ثم سار السلطان بجريدة إلى قلعة برزية وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق تحيط بها أودية من سائر جوانبها فحاصرها وفي صباح الأحد الخامس والعشرين منه ركب عليها المنجنيقات وآلات الحصار من سائر نواحيها وشد القتال وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة ليلاً ونهاراً وظل يقاتلها حتى يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه فقسم العسكر ثلاثة أقسام كل قسم يقاتل شطراً من النهار ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر حتى لا يفتقر القتال ساعة واحدة وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه فلما ركب وسار عدة خطوات صاح في الناس خملوا حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بضع ساعة حتى رقي الناس على الأسوار وهجموا على القلعة فاخذوها عنوة وطلب من فيها الأمان وقد ملئت الأيدي منهم فلم يك ينفعهم أمانهم ونهب جميع ما كان فيها وأسر جميع من كان بها وكان قد أوى إليها

فدخل اليهم قاضي جبلة يخوفهم من المسلمين فطلبوا الامان فأمنهم السلطان ورفعت الاعلام الاسلامية على الحصنين وكان ذلك في اليوم الثالث من النزول عليهما وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الابنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه ووصل اسطول صقلية بأزاء ميناء اللاذقية فلما سلمها الصليبيون الى السلطان عزم من بالاسطول على أسر كل من يخرج منها غيظاً وحنقاً لأنهم سلموها سريعاً فلما سمع بذلك اهل اللاذقية أقاموا بها ودفعوا الجزية ثم طلب مقدم الاسطول مقابلة السلطان والامان له فأمنه وحضر بين يديه وقال ما معناه (انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالصليبيين ما فعلت فذلوا فآركهم يكونون بمالكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم والالاء من البحر ما لاطاقتك به فيعظم عليك الامر ويشد الحال) فاجابه صلاح الدين بنحو كلامه من اظهار القوة والاستهانة بكل من يبغي من البحر وانهم ان خرجوا اذاقهم ماذاق أصحابهم من القتل والاسر فانقلب على وجهه ورجع الى أصحابه

﴿ فتح حصن صهيون وغيره من الحصون ﴾

ثم رحل السلطان عن اللاذقية في يوم الاحد ٢٧ جادى الاولى سنة ٥٨٤ طالباً صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها صباح الاربعاء ونصب عليها ستة منجنيقات وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة وليس لها خندق محفور الا من جانب واحد وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب فلما اقبلت العساكر الاسلامية وقع فاستبشرت بالنصر واشتد القتال عليها من سائر الجوانب فضربها منجانيق الملك الظاهر ولد السلطان وكان نصبه أمام جهة قريبة من السور وكان الحجر صائباً فلم يزل يضر بها حتى هدم من السور قطعة عظيمة ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان على الزحف وركب وتقدم وتواترت المنجنيقات بالضرب وارتفعت الاصوات وما كان الا ساعة حتى رقي المسلمون على أسوار الربض واشتد الزحف وعظم الامر وهجم المسلمون الربض وانضم من كان في الربض الى القلعة بما أمكنهم ان يحملوه من أموالهم ونهب المسلمون باقي الاموال واستدارت العساكر حول أسوار القلعة فلما رأى الصليبيون الهلاك استغاثوا بطالب الامان فأمنهم السلطان على أن يسلموا بانفسهم وأموالهم ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير وعن المرأة خمسة

الغيرة للدين على قصد السلطان وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية
فسار صلاح الدين معه في الرابع من جمادى الاولى فنزل بانطربوس في سادسه
فرأى الصليبيين قداخلوا المدينة واحتموا في برجين حصينين تخرب المسمون دورهم
ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم وكان الداويه (جمعية
الهيكلين) باحدى البرجين فحصرها صلاح الدين فنزل من بالبرج الثاني وطلبوا
الامان فانهم وسلموه وخرب البرج والتى حجارته في البحر

﴿ فتح جبلة واللاذقية وغيرهما وخبر اسطول صقلية ﴾

ثم رحل السلطان من انطربوس في الرابع عشر من جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ
ونزل على مرقية وقد أخلاها سكانها فخم فيها السلطان وكانت الطريق الى جبلة ضيقة
المساك وهناك الجمعية الاستتارية (ضياف الغرباء) حصن اسمه المرقب ولا طريق
الاتحت تله وما اتفق ان صاحب جزيرة صقلية أرسل اسطولا يحتوي على ستين
قطعة من الشواني كل واحدة منها مثل قلعة ولما وصل الاسطول الى ساحل
فلسطين أمام طرابلس سمع بمسير السلطان فجاء ووقف في البحر تحت المرقب
ليمنعوا من يجتاز بالسهام فلما رأى السلطان ذلك أمر بالطارقيات والجفنيات فصفت
على الطريق مما يلي البحر من اول المضيق الى آخره وجعل وراءها الرماة
فمنعوا الصليبيين من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق
ووصلوا الى جبلة في اليوم الثامن عشر من ذاك الشهر وتسلمها السلطان وقت
وصوله وكان قاضيا قد سبق اليها ودخل فلما وصل السلطان رفع أعلامه على سورها
وتحصن الصليبيون الذين كانوا بها بالقلعة فبازال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى
استنزلهم بشرط الامان وان يأخذ رهائن منهم عنده الى ان يطلق الصليبيون رهائن
المسلمين الذين بانطاكية وكان قد أخذهم بوهيموند من القاضي . ثم جاء مقدمو
الجيل مطيعين وكان في الجيل على طريق حماء حصن يعرف ببكسراييل وكان
استعادته الجيليون من الصليبيين منذسنيين فتسلمه السلطان أيضاً منهم ثم سلم جبلة
الى سابق الدين عثمان صاحب شيزر وبجل قاضي جبلة وحكمه في ولاية حكمه
وقضائه ثم سار الى اللاذقية فوصل في الرابع والعشرين منه فترك الصليبيون المدينة
لعمجزهم عن حفظها وصعدوا الى حصنين لها على الجيل فامتعوا بهما فدخل المسلمون
المدينة وحصروا القامتين وزحفوا عليهما وتقبو الاسوار ستين ذراعاً وأشعلوا فيها
النار وعظم القتال واشتد الامر عند الوصول الى السور فلما أيقن الصليبيون

﴿ في اتحاد فرنسا وانكلتره للمسير الى سوريا ﴾

اجتمع الملكان فليس وريكاردوس بمدينة نورمنديا واتفقا على تهذيب العساكر وابعاد كل الرذائل عنها فاصدرا امراً بمنع النساء من السفر صحبة العساكر لان وجودهن في وسط العسكر في الدفتين السابقتين اخل انتظام العساكر وامراً ايضاً بعدم لعب القمار وجما عساكرهما تحت علم الصليب في مدينة فاسلاي حيث كان القديس برزردوس (الذي كان محرصاً على الحروب الصليبية الثانية) وجددا تحالفهما على يديه وتواعدا على المسير الى سوريا وان يسافر ريكاردوس الى مرسيليا ثم ينزل في المراكب وان فليس يسافر الى جنوي ثم يتقابلان معاً بمينا ميسنا بجزيرة سيسيليا

﴿ حصر حصن كوكب وفتح بعض البلاد ﴾

في اوائل محرم سنة ٥٨٤ هـ سار السلطان من عكا بمن بقي معه من العساكر الى قلعة كوكب فحصرها ونازلها ظاناً ان تملكها سهل فلما رآها عالية منيعة والوصول اليها متعذر وجنوده مشغولة بها وبصفد والكرك رحل عنها وكانت البلاد الساحلية من عكافا وراها جنوباً جميعها قد اصبحت ملكه فلم ير ان يظل في وسط بلاده ما يشغل قلبه ويحتاج الى حفظه وخوفاً من ان ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم فلماذا اقام على كوكب بعد رحيله قايماز النجمي ليدبر حصارها ثم اتاه بعض رسل ملوك المسلمين يهتثون بالفتح وسار الى دمشق وكتب الى جميع عماله بالبلاد وجميع امراء الاسلام بخروج العساكر لمحاربة الصليبيين ثم رحل عن دمشق في منتصف ربيع الاول فزل على بحيرة قدس غربي حصن بجاءته العساكر فسار حتى نزل على حصن الاكراد من الجانب الشرقي فاقام يومين وسار جريداً وترك العسكر في محله تحت الحصن ودخل بلاد الصليبيين فاغار على صافيتا والعرمية ويحمور وغيرها من البلاد ووصل الى قرب طرابلس وابصر البلاد وعرف من أين يأتيها ومن أين يسلك منها ثم عاد الى معسكره سالماً وقد غنم العسكر كثيراً من الدواب على اختلاف انواعها وفي اثناء وجود السلطان تحت حصن الاكراد اتاه قاضي جبلة وهو منصور ابن ثيل ليستدعيه اليه ليسلمها له وكان هذا القاضي عند بوهيموند صاحب انطاكية وجبله مسموع الكلمة له الحرمه الوافرة والمنزلة العالية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها فحملته

الواحد منها ثلاثة ريات مصرية تقريباً) ثم طلب الاموال من أغنياء البلاد وصيارفها واكثرهم من اليهود وحدث ان اليهود سيقوا من فرانساً بمصا الاضطهاد فالتجأوا الى انكلترا وكان وصولهم اليها يوم تنصيب ريكاردوس فثارت عليهم رعا الناس بدعوى ان الملك أمر بذبحهم فدارت عليهم رحى الموت حتى جرت دماؤهم في الاسواق والتجأ منهم نحو خمسة الى قلعة بورك بنسائهم واولادهم فضيق عليهم أهل المدينة فالتمسوا ان يقبلوا منهم الفدية فما ارادوا فاشتد غيظ اليهود وقطوا من الحياة فاحرقوا كل ما كان لديهم من الاموال والمتاع والحلى وفضلوا ان يقتل بعضهم بعضاً من ان يقتلهم عدوهم فقتلوا اولادهم بأيديهم ثم أخذوا يقتل احدهم الآخر وبقيت منهم بقية استقلوا وفتحوا أبواب القلعة فدخل اليهم بعض الرعا التأثيرين وقتلوه وحصل مثل ذلك أيضاً في نوريش وستامفورد وليكولن وغيرها وكل ذلك حصل بغير ارادة الملك فعاقب المعتدين عقاباً طفيفاً وأمن من بقي من اليهود وجعلهم تحت حمايته فلما اهتم باعداد الحملة الصليبية طلب مساعدتهم فامدوه بالمال

﴿ التحريض على الحروب الصليبية ببلاد النمسا ﴾

بعد ما عزم كل من ملك فرانساً وملك انكلترا على السفر الى بلاد فلسطين سافر غويليوم السوري المفوض بانذار الحروب الصليبية من قبل البابا الى بلاد النمسا وقابل ملكها فريد ريكوس الاول الملقب باللحية الحمراء وكان بينه وبين كرسى البابا بعض ضغائن فازالها ثم طلب منه المساعدة في تخليص بيت المقدس من يد المسلمين فامر في الحال بمقد جمعة في ما يانص وفي هذه الجمعية لبس الاتواب المكرسة المختصة بالحروب الصليبية ثم اقتدى به أعظم أمراء مملكته وكذلك جميع كنائس المانيا أثرت فيها خطب غويليوم السوري فاستعدوا للسفر برئاسة ملكهم المذكور وبما ان الملك فريد ريكوس كان عرف ببلاد فلسطين في الحروب الصليبية الثانية اذ كان مع عمه الملك كونراد الذي رجع بخفي حنين وعرف ما يلزمه من الجيش وما يحصل له من المشقة والتعب خاف من نيات افراد العساكر الصليبية في اثناء مسيرهم فلذلك قرر بانه لايقبل تحت علمه الصليبي احداً من الراغبين في السفر الا اذا كان معه على الاقل ثلاث وزنات فضة وذلك بعد انعقاد جمعية في مدينة نورامبارك فلذلك امتنع عن السفر الاشقياء الذين كانوا يفرحون بسفرهم للنهب في الطريق وعزم على ان يكون مسيره برأ

يسندون اليه رؤوسهم . ثم تلا عليهم منشور البابا فحذب قلوب سامعيه الى الغيرة والحرارة كما ان فليب أوغسطس ملك فرنسا وهنريكوس الثاني ملك انكلترا تعافقا وتقدما قبل الجمع واستلما صليب الحرب المقدسة ثم تبعهم ريكارد دوك دي غونيا ابن السلطان اريكوس ثم فيلبس كونت دي فلاندر او هو كوز دوك دي برغونيا وهنريكوس كونت دي شامبانيا وتيبوت كونت دي بلواز ومثلهم امراء سواسون ونافار وباروفاندوم وأقسام الاخوان يوسالين ومتي دي هورانس على تخليص اورشليم (القدس) من ايدي المسلمين ثم هتف أعضاء هذه الجمعية صارخين هلموا نحو الصليب . فلنذهبن وراء الصليب . وشرعوا جميعاً في التجهيزات للمسير للحروب الصليبية

﴿ ضريبة العشور للحروب الصليبية الثالثة ﴾

لما شرع كل من ملك فرنسا وملك انكلترا في اعداد معدات السفر للحروب الصليبية وجدوا ان ذلك يحتاج لاموال عظيمة فمعدوا مجلس شورا هم الذي قرر باتحاد اراء الملكين والامراء والاشراف بان كل من لم يرغب السفر للحروب الصليبية او تعذر عليه السفر يدفع عشر مداخله مع عشر ثمن موجوداته المتنقلة (لا الثابتة) وقد سموها (ضريبة العشور الصلاحية) رمزا الى انتصار السلطان صلاح الدين عليهم وحرم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفع هذه الضريبة وعينوا لجمعها اناساً اقتضوها بصرامة كلية غير ان الاموال المجموعة من ضريبة العشور الصلاحية لم تكن كافية لهذه الاستعدادات ولذلك اكره ملك فرنسا اليهود على ان يدفعوا الى الخزينة مبلغ خمسة آلاف وزنه فضة (كل وزنة تساوي مائة درهم)

﴿ موت ملك الانكليز وتولية ولده ريكاردوس وذبح اليهود ﴾

في اثناء تلك الاستعدادات مات الملك هنريكوس الثاني ملك انكلترا ثم حضر ابنه ريكاردوس الى بلاد الانكليز لاستلام زمام الملك وأخذ يشغل في اكتساب الفخر باسترجاع القدس ولذلك ترى ان أول أمر سعى اليه عند استلامه مقاليد الاحكام انما هو جمع النقود استعداداً للحملة الصليبية فبذل في سبيل ذلك كل تلبد وطارف واستخدم كل وسيلة ممكنة حتى انه باع طاعة الاسكوتلانديين الذين أخضعهم أبوه بمبلغ عشرة آلاف ميرك (الميرك نقود اسكوتلاندية قديمة يساوي

خزائن الارض وكنوزها لاجل اكتساب البلاد جديداً التي مات فيها يسوع المسيح لكي يكتسب لنا بموته خزائن السماء وكنوزها والاوان الذي فيه تباح الخيرات الزائلة لاجل امتلاك الخيرات الدائمة) ثم انه اختتم منشوره المذكور بقوله (غير انكم لا تسرون الى هذه الحروب الصليبية باثواب فاخرة وملابس ثمينة آخذين صحنكم الطيور والبواشق والكلاب للصيد بل نجبواكل ما يشير الى السعة ولا يفيد سوى البذخ والمجد الباطل واحتشموا في محاميلكم أولى من اهتمامكم بما يرجع الى الفخفخة والصلف ثم أظهروا باعمالكم حقائق روح التوبة والخشوع) وبعد تحرر هذا المنشور لم يتمكن البابا من اعمال الوسائط اللازمة لارسال حملة صليبية ثالثة لانه اعتراه مرض في مدينة (بيزا) ومات وتعين بعده البابا اكليمنضوس الثالث الذي بعد تعينه اناب عنه في التحريض على ذلك رئيس اساقفة صور المذكور وفوض اليه الانذار بهذه الحرب المقدسة وبعد ذلك اخذ الاسقف غويليوم الصوري المذكور بخطب في أهالي ايطاليا ويحرضهم على التجهيز لاسترداد القبر المقدس ثم اسرع الى بلاد فرانساً منهمضاً غيرتهم الشهيرة

﴿ صا ح فرانساً وانكلترا وتحريضهم على الحروب الصليبية ﴾

بينما كان الملك فليب أوغستوس ملك فرانساً يحارب الملك هنريكوس الثاني ملك انكلترا لاجل تملك بلد فاكسين حضر غويليوم الصوري لتحريضهم على الحروب الصليبية فوجدهم على هذه الحالة فسمى بينهما في الصلح حتى انه كلفهما باصدار أمر بعقد جمعية عمومية من الجيشين في فرانساً للمفاوضة في الحروب المقدسة وبعد انعقاد تلك الجمعية التي حضرها ضباط الجيشين قوبل غيليوم باحتفال ديني عظيم ثم أخذ يشرح لهم حوادث حروب المسلمين وكيفية استيلائهم على القدس وان هذه المدينة صارت الآن مسكونة بشعب بربري وانها تدفع الخراج والجزية تحت رق العبودية وان سكانها المسيحيين والصليبيين مساقون كالغنم الى بلاد الاسلام يباعون في الاسواق كالعبيد ثم قال ما يأتي : ان امارات المشرق المسيحية بقيت صامدة على ثلاث مدن فقط وهي انطاكية وطرابلس وصور لاغير ونحن قد شاهدنا باعيننا ما كان قد فاه به اشعيا النبي بقوله ان الرب قد مد يده وضرباه بالقروح من حد نهر الفرات الى حد نيل مصر لان سكان أربعين مدينة قد طردوا من مساكنهم وفقدوا خبراتهم وموجوداتهم المختطفة منهم وساروا تائبين مع عيالهم بالشقاء والضنك فيما بين شعوب اسيا خالين من ان يجذبوا لهم حجراً

مزم ففتحها وأخرج الصليبيين منها وكان السلطان قبل ذلك قد وكل عليها بعض
المسكر لمحاصرتها ورحل السلطان عن مدينة صور في آخر شوال وسار تقي الدين
الى دمشق عن طريق هونين واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل
والجزيرة وسنجار وماردين ورحل السلطان الى عكا من طريق الناقورة وهي
طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب المثل لا يمر بها الا جل جل فعبرت بها
الانقال والاحمال في أسبوع وكان قد عين يوم رحيله امراء يقيمون على صور
الى أن تعبر الانقال وخيم السلطان عند التل وسار العادل الى مصر والظاهر الى
حلب وفي مدة رحيل السلطان توفي الامير سيف الدين محمود أخو عز الدين
جاولي وسبب ذلك أنه كان باقياً من اعمال الصليبيين حصنان بدون فتح وهما حصن
صفد وفيه الداوية (الهيكليين) وحصن كوكب وفيه الاسبتارية (جمعية ماري
يوحنا المعمدان) واحتاج السلطان في فتحهما الى المطاولة فوكل بحصن صفد جماعة
يعرفون بالناصرية ومقدمهم مسعود الصلبي ووكّل بكوكب هذا الامير سيف الدين
فاقام في حصن عقربلا وهو قريب من حصن كوكب ومنع عن المقيمين فيه المطعم
والمشرب وضيق عليهم المذهب الى ان دخل الشتاء فاخذت الحراسة فلما كانت
ليلة آخر شوال وكانت ليلة باردة حرس اصحاب سيف الدين حتى ضجروا فغلهم
النحاس فما استيقظوا الا واخرج كوكب عليهم باركة فدافعوا عن انفسهم حتى استشهدوا
وأخذ الصليبيون غنيمة المسلمين ودخلوا بها كوكب

❖ في التحريض على طلب الحروب الصليبية الثالثة ❖

بينما كان البابا أوربانوس الثالث موجوداً في مدينة البندقية مشدداً في تحريض
أهل البندقية على سرعة تجهيز عمارة مراكب المشيخة وارسالها الى فلسطين
اسعافاً لآخوانهم الصليبيين بلغه خبر سقوط مدينة أورشليم (القدس) في ايدي
صلاح الدين سلطان المسلمين فسقط طريق الفرائش مريضاً ولما اشتد مرضه انتقل
الى مدينة فراغات هناك ثم تعين بعده البابا غرغوريوس الثامن وبعد تعيينه
حضر بين يديه غويليوم الصوري رئيس اساقفة صور وزامى على قدميه وطلب
منه المساعدة التامة في تسيير حملة صليبية لاسترداد القبر المقدس من أيدي المسلمين
فاصدر البابا منشوراً عاماً لسكان أوروبا أوضح لهم فيه عظم ما ألم بالصليبيين
آخوانهم وخصوصاً امتلاك المسلمين مدينة القبر المقدس وقد جاء في هذا المنشور
ما يأتي (انه لقد جاء الزمان الذي فيه يصير الامتحان والحين الذي فيه نستخدم

والدبابات وكان اهل صلاح الدين متولين الحرب مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه نقي الدين وكانت للصليبيين شوان يحاربون بها كي يمنعوا العساكر الاسلامية من محاربة البلد فارسل صلاح الدين يطلب الشواني التي بعكا فارسلت اليه وعددها عشر برجالها فلما وصلت منعت شواني العدو من مقاتلة المسلمين فتمكن حينئذ المسلمون من الدنو من البلد ومن قتاله فقاتلوه برأ وبجرأ وضايقوه حتى كادوا يظفرون نجاة الاقدار بما لم يكن في الحساب وذلك ان عبد السلام المغربي مقدم شواني المسلمين الموصوف بالحذق في صناعته وشجاعته وقف على باب المينا في ليلة لمنع خروج شواني العدو فباتوا ليلتهم يحرسون فلما كان وقت السحرا امنوا فناموا فما شعروا الا بشواني الصليبيين قد نازلتهم وضايقتهم فاوقعت بهم فقتل الصليبيون من أرادوا قتله وأخذوا خمس شوان من المسلمين بما فيها وأدخلوها مينا صور والمسلمون في البر ينظرون اليها ورعى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر فمنهم من سبح ففجا ومنهم من غرق وأسر المقدم عبد السلام ومتولي بهدران الفارسي وأمر السلطان بمسير الشواني الباقية الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فخرجت شواني الصليبيين وراءها ففجا منها شيني رئيس جليل والباقيون نظروا شدة طلب العدو لهم فالتقوا انفسهم في الماء وخرجوا الى البر على وجوههم وبعد هذا طمع الصليبيون فخرجوا عصر أحد الايام للقتال فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الصليبيين وأسر أحد مقدميهم وظن انه كوزاد فسلمه السلطان الى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم ان كوزاد لا يزال حياً ثم طال الحصار حتى ضجر كثير من امراء المسلمين لانهم رأوا ما لم يألفوه من تعمير الفتح عليهم فاشاروا على السلطان بالرحيل لثلاثي الرجال وكان البر قد اشتد عليهم وكان رأي السلطان وبعض الامراء كالفقيه عيسى وحسام الدين طمان وعز الدين جرديك النوري الثابت الجنان الى الفتح لثلاثي يصيغ ما تقدم من الاعمال واتفاق الاموال وقال السلطان قد همدنا السور وقاربنا الامور فاصبروا ففعلوا وصابروا فتفتحوا ولا تمجلوا فاظهروا الموافقة وفي انفسهم ما فيها فلم يصدقوا القتال وتعلموا بان الرجال جرحى واللف قد قل فلم يسع السلطان بعد ذلك الا الرحيل فامر بنقل الانقال فحمل بعضها الى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لثلاثي يناله العدو وفي أثناء حصار السلطان لصور جاء الخبر بان الصليبيين المقيمين في هونين قد طلبوا الامان فانفذ الامير بدر الدين

رم فتحها وأخرج الصليبيين منها وكان السلطان قبل ذلك قد وكل عليها بعض
العسكر لمحاصرتها ورحل السلطان عن مدينة صور في آخر شوال وسار تقي الدين
الى دمشق عن طريق هونين واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل
والجزيرة وسنجار وماردين ورحل السلطان الى عكا من طريق الناقورة وهي
طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب المثل لا يعبرها الا جل جل فعبث بها
الاثقال والاحمال في اسبوع وكان قد عين يوم رحيله امراء يقيمون على صور
الى أن تعبر الاثقال وخيم السلطان عند التل وسار العادل الى مصر والظاهر الى
حلب وفي مدة رحيل السلطان توفي الامير سيف الدين محمود أخو عز الدين
جاولي وسبب ذلك انه كان باقياً من اعمال الصليبيين حصان بدون فتح وهما حصن
صفد وفيه الداوية (الهيكليين) وحصن كوكب وفيه الاسبتارية (جمعية ماري
يوحنا المعمدان) واحتاج السلطان في فتحهما الى المطاولة فوكل بحصن صفد جماعة
يعرفون بالناصرية ومقدمهم مسعود الصلتي ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين
فاقام في حصن عقربلا وهو قريب من حصن كوكب ومنع عن المقيمين فيه المطعم
والمشرب وضيق عليهم المذهب الى ان دخل الشتاء فاخذت الحراسة فلما كانت
ليلة آخر شوال وكانت ليلة باردة حرس اصحاب سيف الدين حتى ضجروا فغلهم
النحاس فما استيقظوا الا وافرغ كوكب عليهم باركة فداغوا عن انفسهم حتى استشهدوا
وأخذ الصليبيون غنيمة المسلمين ودخلوا بها كوكب

❖ في التحريض على طالب الحروب الصليبية الثالثة ❖

بينما كان البابا أوربانوس الثالث موجوداً في مدينة البندقية مشدداً في تحريض
أهل البندقية على سرعة تجهيز عمارة مراكب المشيخة وارسالها الى فلسطين
اسعافاً لآخوانهم الصليبيين بلغه خبر سقوط مدينة أورشليم (القدس) في أيدي
صلاح الدين سلطان المسلمين فسقط طرخ الفراش مريضاً ولما اشتد مرضه انتقل
الى مدينة فرارفات هناك ثم تعين بعده البابا غرغوريوس الثامن وبعد تعيينه
حضر بين يديه غويليوم الصوري رئيس اساقفة صور وراى على قدميه وطلب
منه المساعدة الثامة في تسيير حملة صليبية لاسترداد القبر المقدس من أيدي المسلمين
فاصدر البابا منشوراً عاماً لسكان أوروبا أوضح لهم فيه عظم ما ألم بالصليبيين
آخوانهم وخصوصاً امتلاك المسلمين مدينة القبر المقدس وقد جاء في هذا المنشور
ما يأتي (انه لقد جاء الزمان الذي فيه يصير الامتحان والحين الذي فيه نستخدم

والدبابات وكان اهل صلاح الدين متولين الحرب مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه نقي الدين وكانت للصليبيين شوان يحاربون بها كي يمنعوا العساكر الاسلامية من محاربة البلد فارسل صلاح الدين يطلب الشواني التي بعكافارسلت اليه وعددها عشر برجالها فلما وصلت منعت شواني العدو من مقاتلة المسلمين فتمكن حينئذ المسلمون من الدنو من البلد ومن قتاله فقاتلوه برأ وبجرأ وضايقوه حتى كادوا يظفرون فجاءت الاقدار بما لم يكن في الحساب وذلك ان عبد السلام المغربي مقدم شواني المسلمين الموصوف بالخذق في صناعته وشجاعته وقف على باب المينا في ليلة لمنع خروج شواني العدو فباتوا ليلتهم يحرسون فلما كان وقت السحرا منوا فناموا فاشعروا الا بشواني الصليبيين قد نازلتهم وضايقتهم فاوقعت بهم فقتل الصليبيون من أرادوا قتله وأخذوا خمس شوان من المسلمين بما فيها وأدخلوها مينا صور والمسلمون في البر ينظرون اليها ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر فقتلهم من سبع فنجوا ومنهم من غرق وأسر المقدم عبد السلام ومتولي بهدرا الفارسي وأمر السلطان بمسير الشواني الباقية الى بيروت لعدم انتفاعها بها لقلتها فخرجت شواني الصليبيين وراءها ففجأ منها شيني رئيس حيل والباقيون نظروا شدة طلب العدو لهم فالتقوا انفسهم في الماء وخرجوا الى البر على وجوههم وبعد هذا طمع الصليبيون فخرجوا عصر أحد الايام للقتال فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الصليبيين وأسر أحد مقدميهم ونظن انه كوزاد فسلمه السلطان الى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم ان كوزاد لا يزال حياً ثم طال الحصار حتى ضجر كثير من امراء المسلمين لانهم رأوا ما لم يألوه من تعمير الفتح عليهم فاشاروا على السلطان بالرحيل لثلاثي الرجال وكان البرد قد اشتد عليهم وكان رأي السلطان وبعض الامراء كالفقيه عيسى وحسام الدين طمان وعز الدين جريدك النوري الثابت الجنان الى الفتح لثلاثي يضيع ما تقدم من الاعمال واتفاق الاموال وقال السلطان قد هدمنا السور وقاربنا الامور فاصبروا ففعلوا وصابروا فتفتحوا ولا تمجلوا فاظهروا الموافقة وفي انفسهم ما فيها فلم يصدقوا القتال وتعلموا بان الرجال جرحى والعلف قد قل فلم يسع السلطان بعد ذلك الا الرحيل فامر بنقل الانقال فحمل بعضها الى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لثلاثي يناله العدو وفي اثناء حصار السلطان لصور جاء الخبر بان الصليبيين المقيمين في هونين قد طلبوا الامان فانفذ الامير بدر الدين

رم ففتحها وأخرج الصليبيين منها وكان السلطان قبل ذلك قد وكل عليها بعض
المسكر لمحاصرتها ورحل السلطان عن مدينة صور في آخر شوال وسار تقي الدين
الى دمشق عن طريق هونين واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل
والجزيرة وسنجار وماردين ورحل السلطان الى عكا من طريق الناقورة وهي
طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب المثل لا يعبرها الا جل جل فعبرت بها
الاثقال والاحمال في اسبوع وكان قد عين يوم رحيله امراء يقيمون على صور
الى أن تعبر الاثقال وخيم السلطان عند التل وسار العادل الى مصر والظاهر الى
حلب وفي مدة رحيل السلطان توفي الامير سيف الدين محمود أخو عز الدين
جاولي وسبب ذلك انه كان باقياً من اعمال الصليبيين حصان بدون فتح وهما حصن
صفد وفيه الداوية (الهيكليين) وحصن كوكب وفيه الاسبتارية (جمعية ماري
يوحنا المعمدان) واحتاج السلطان في فتحهما الى المطاولة فوكل بحصن صفد جماعة
يعرفون بالناصرية ومقدمهم مسعود الصلتي ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين
فاقام في حصن عقربلا وهو قريب من حصن كوكب ومنع عن النقيمين فيه المطعم
والمشرب وضيق عليهم المذهب الى ان دخل الشتاء فاخذت الحراسة فلما كانت
ليلة آخر شوال وكانت ليلة باردة حرس اصحاب سيف الدين حتى ضجروا فغلهم
التعاس فما استيقظوا الا واقرنح كوكب عليهم باركة فداغوا عن انفسهم حتى استشهدوا
وأخذ الصليبيون غنيمة المسلمين ودخلوا بها كوكب

❖ في التحريض على طالب الحروب الصليبية الثالثة ❖

بينما كان البابا أوربانوس الثالث موجوداً في مدينة البندقية مشدداً في تحريض
أهل البندقية على سرعة تجهيز عمارة مراكب المشيخة وارسالها الى فلسطين
اسعافاً لآخوانهم الصليبيين بلغه خبر سقوط مدينة أورشليم (القدس) في أيدي
صلاح الدين سلطان المسلمين فسقط طرخ الفراش مريضاً ولما اشتد مرضه انتقل
الى مدينة فرارات هناك ثم تعين بعده البابا غرغوريوس الثامن وبعد تعيينه
حضر بين يديه غويليوم السوري رئيس اساقفة صور وراى على قدميه وطلب
منه المساعدة التامة في تسيير حملة صليبية لاسترداد القبر المقدس من أيدي المسلمين
فاصدر البابا منشوراً عاماً لسكان أوروبا أوضح لهم فيه عظم ما ألم بالصليبيين
آخوانهم وخصوصاً امتلاك المسلمين مدينة القبر المقدس وقد جاء في هذا المنشور
ما يأتي (انه لقد جاء الزمان الذي فيه يصير الامتحان والحين الذي فيه نستخدم

والدبابات وكان اهل صلاح الدين متولين الحرب مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه نقي الدين وكانت للصليبيين شوان يحاربون بها كي يمنعوا العساكر الاسلامية من محاربة البلد فارسل صلاح الدين يطلب الشواني التي بعكافارسلت اليه وعددها عشر برجالها فلما وصلت منعت شواني العدو من مقاتلة المسلمين فتمكن حينئذ المسلمون من الدنو من البلد ومن قتاله فقاتلوه برأ وبجرأ وضايقوه حتى كادوا يظفرون فجاءت الاقدار بما لم يكن في الحساب وذلك ان عبد السلام المغربي مقدم شواني المسلمين الموصوف بالحدق في صناعته وشجاعته وقف على باب المينا في ليلة لمنع خروج شواني العدو فباتوا ليلتهم يحرسون فلما كان وقت السحراأمنا فناموا فما شعروا الا بشواني الصليبيين قد نازلتهم وضايقتهم فاوقعت بهم فقتل الصليبيون من أرادوا قتله وأخذوا خمس شوان من المسلمين بما فيها وأدخلوها مينا صور والمسلمون في البر ينظرون اليها ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر فنهض منهم من سبح فنجوا ومنهم من غرق وأسر المقدم عبد السلام ومتولي بهدران الفارسي وأمر السلطان بمسير الشواني الباقية الى بيروت لعدم انتفاعها بها لقلتها فخرجت شواني الصليبيين وراءها ففجأ منها شيني رئيس حيل والباقيون نظروا شدة طلب العدو لهم فالتقوا انفسهم في الماء وخرجوا الى البر على وجوههم وبعد هذا طمع الصليبيون فخرجوا عصر أحد الايام للقتال فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الصليبيين وأسر أحد مقدميهم وظن انه كوزاد فسلمه السلطان الى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم ان كوزاد لا يزال حياً ثم طال الحصار حتى ضجر كثير من امراء المسلمين لانهم رأوا ما لم يألفوه من تعمير الفتح عليهم فاشاروا على السلطان بالرحيل لثلاثي الرجال وكان البرد قد اشتد عليهم وكان رأي السلطان وبعض الامراء كالفقيه عيسى وحسام الدين طمان وعز الدين جريدك النوري الثابت الجنان الى الفتح لثلاثي يضيع ما تقدم من الاعمال واتفاق الاموال وقال السلطان قد هدمنا السور وقاربنا الامور فاصبروا فملحوا وصابروا تفتحوا ولا تمجلوا فاظهروا الموافقة وفي انفسهم ما فيها فلم يصدقوا القتال وتعلموا بان الرجال جرحى والعلف قد قل فلم يسع السلطان بعد ذلك الا الرحيل فامر بنقل الاثقال فحمل بعضها الى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لثلاثي بناله العدو وفي أثناء حصار السلطان لصور جاء الخبر بان الصليبيين المقيمين في هونين قد طلبوا الامان فانفذ الامير بدر الدين

دعوته اللهم فكما فتحت على يده البيت المقدس بعد ان ظنت الظنون . وابتلي المؤمنين . فافتح على يده أداني الارض وأقاصيها . وملكه صياحي الكفر ونواصيها . فلا تلقاه منهم كتيبة الا مزقها . ولا جماعة الا فرقها . ولا طائفة بعد طائفة الا ألحقها بمن سبقها . اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه . وانفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه . اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها . وأرجاء الممالك واكنافها . اللهم زل به معاطس الكفار . وارغم به أنوف الفجار . وانثر ذوائب ملكه على الأمصار . وأنب سرايا جنوده في سبل الاقطار . اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه الى يوم الدين . واحفظه في بني وبني أيوب الملوك الميامين . واشدد عضده ببقائهم . واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما أجريت على يده في الاسلام . هذه الحسنة التي تبقى على الايام . وتتخذ على مر الشهور والاعوام . فازرقه الملك الابدی الذي لا ينفذ في دار المتقين . وأجب دعاءه في قوله رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ وان أعمل صالحاً ترضاه وادخاني برحمتك في عبادك الصالحين .

﴿ حصار مدينة صور وفتح هونين ﴾

لما فتح السلطان صلاح الدين القدس أقام بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وجعل دار الاستبارة (جمعية القديس ماري يوحنا المعمدان) مدرسة للشافعية وهي حسنة جداً ثم سار الى مدينة صور وكان قد اجتمع بها من الصليبيين عالم كثير لان الصليبيين أهل عسقلان والقدس وغيرهم لما سلموا بلادهم وأخذوا الامان ساروا الى صور وكان قد جاءها كوزاد بن المريكز منفرداً بسفنه وتسميه العرب المريكس فاقام حاكماً بها وحصنها كل التحصين ووصل صلاح الدين الى عكا وأقام بها أياماً ثم سار الى ان وصل الى صور تاسع رمضان فنزل على نهر قرب البلد حتى اجتمع العسكر الاسلامي فلما علم كوزاد بقدم صلاح الدين الى بلده أخذ يحدد التحصين ويعمق الخنادق ومدينة صور واقعة على رأس ممتد في البحر فكانت محاطة بالمياه من ثلاث جهات ومتصلة بالبر من جهة واحدة ثم سار صلاح الدين في الثاني والعشرين منه الى تل يقارب سور البلد وقسم القتال على عساكره وجعل لكل أمير من امرائه وقتاً يحارب فيه بعسكره لكي تكون الحرب متصلة دوماً على اهل البلد وكان موضع القتال قريباً وبكفيه جماعة للمحاربة فقط فزحفت العساكر الاسلامية بالمنجنيقات

وخذوا في انتهاز الفرصة . وازالة ما بقي من الفضة . وجاهدوا في الله حق جهاده .
 وبيعوا عباد الله انفسكم في رضاء . اذ جعلكم من خير عباده . واياكم ان يستذلکم
 الشيطان . وان يتدخلكم الطغيان . فيخيل لكم ان هذا النصر بسببكم الحداد .
 وبخيلكم الحياء . وبجلادكم في مواطن الجلال . لا والله ما النصر الا من عند الله ان
 الله عزيز حكيم . واحذروا عباد الله بمدان شرفكم بهذا الفتح الجليل . والمنح
 الجزيل . وخضكم بهذا الفتح المبين . وأعلق أيديكم بحبله المتين . ان تقترفوا
 كبيراً من مناهيه . وان تأتوا عظيماً من معاصيه . فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد
 قوة انكانا . والذي آتينا آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الفاوين .
 والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم . وأشرف عاداتكم . انصروا الله ينصركم
 اذكروا أيام الله يذكركم . اشكروا الله يزدكم ويشكركم . جدوا في حسم الداء .
 وقطع شافة الاعداء . وتطهير بقية الارض التي اغضبت الله ورسوله . واقطعوا
 فروع الكفر واجتثوا أصوله . فقد نادت الايام بالثارات الاسلامية . والملة المحمدية
 الله اكبر فتح الله ونصر . غلب الله وقهر . اذل الله من كفر . واعلموا رحمكم
 الله ان هذه فرصة فانهزوها . وفريسة فناجزوها . ومهمة فاخرجوها . واهلكوها
 وابرزوها . وسيروا اليها عزوماتكم وجهزوها . فالامور بأواخرها . والمكاسب
 بذخائرها . فقد أظفركم الله بهذا العدو المخدول . وهم مثلكم أو يزيدون . فكيف
 وقد أضحي في قبالة الواحد منهم منكم عشرون . وقد قال الله تعالى . ان يكن منكم
 عشرون صابرون يغلبون مائتين . أعاننا الله واياكم على اتباع أوامره . والازدجار
 بزواجره . وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده . ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان
 يخذلكم فن ذ الذي ينصركم من بعده .

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة وقال بعد الدعاء للخليفة
 اللهم وأدم سلطاننا . عبدك الخاضع لهيبتك . الشاكر لنعمتك . المعترف بموهبتك
 سيفك القاطع . وشهابك اللامع . والحامي عن دينك المدافع . والذاب عن حرمك
 المانع . السيد الاجل الملك الناصر . جامع كلمة الايمان . وقامع عبدة الصلبان . صلاح
 الدنيا والدين . سلطان الاسلام والمسلمين . مطهر البيت المقدس . ابا المظفر يوسف بن
 أيوب . محيي دولة أمير المؤمنين . اللهم عم بدولته البسيطة . واجمل ملائكتك بربايته
 محيطة . واحسن عن الدين الحنيفي جزاءه . واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه .
 اللهم ابق للاسلام مهجته . ووق للايمان حوزته . وانشر في المغارب والمشارق

النبوة . والوقعات البدرية . والعزمات الصديقية . والفتوح العمرية . والجيوش العثمانية .
والفتكات العلوية . جددتم للإسلام أيام القادسية . والوقعات اليرموكية . والمنازلات
الخيرية . والهجمات الخالدية . فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم افضل
الجزاء . وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الاعداء . وقبيل منكم ما
تقربتم به اليه من مهراق الدماء . واثابكم الجنة فهي دار السعداء . فأقدروا رحمكم
الله هذه النعمة حق قدرها . وقوموا لله تعالى بواجب شكرها . فله النعمة عليكم
بتخصيصكم بهذه النعمة . وترشيحكم لهذه الخدمة . فهذا هو الفتح الذي فتحت له
أبواب السماء . وتبلغت بأنواره وجوه الظلماء . وابتهج به الملائكة المقربون . وقر
به عينا الانبياء المرسلون . فاذا عليكم من النعمة بان جعلكم الجيش الذي يفتح عليه
البيت المقدس في آخر الزمان . والجند الذي تقوم بسيفهم بعد فترة من النبوة
أعلام الايمان . فيوشك ان تكون الهاني به بين أهل الخضراء . اكثر من الهاني
به بين أهل الغبراء . اليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه . ونص عليه في
خطابه . فقال تعالى سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد
الاقصى الذي باركنا حوله الآية اليس هو البيت الذي عظمته الملوك . واثنت عليه
الرسول . وتليت فيه الكتب الاربعة المنزلة من الحكم عز وجل . اليس هو البيت
الذي امسك الله عز وجل الشمس على يوشع لاجله ان تغرب . وباعد بين خطوتها
ليتيسر فتحه ويقرب . اليس هو البيت الذي أمر الله موسى ان يأمر قومه باستنقاذه
قلم يحبه الا رجالان . وغضب عليهم لاجله فالتفاهم في السية عقوبة لامصيان . فاحدوا
الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنوا اسرائيل . وقد فضلهم على العالمين
ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الامم الماضيين . وجمع لاجله كلمتكم وكانت
شقي . واغناكم بما أمضه كان وقد عن سوف وحتى . فليهنكم ان الله قد ذكركم به
في من عنده . وجعلكم بعد ان كنتم جنوداً لاهوائكم جنده . وشكركم الملائكة
المنزلون . على ما أهديتم الى هذا البيت من طيب التوحيد . ونشر التقديس
والتحميد . وما أمطم عن طرقهم فيه من اذى الشرك والتلث . والاعتقاد
الفاجر الخيث . فالآن يستغفر لكم املاك السموات . وتصلي عليكم الصلوات
المباركات . فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم . واحرسوا هذه النعمة عندكم
بتقوى الله التي من تمسك بها سلم . ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم . واحذروا
من اتباع الهوى . وموافقة الردى . ورجوع القهقري . والنكول عن العدا .

واعزازة لاوليائه ونصره لانصاره . وتطهير بيته المقدس من ادناس الشرك
واوضاره . حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره . واشهد ان لا اله الا
الله وحده لا شريك له الاحد الصمد . الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً
أحد . شهادة من طهر بالتوحيد قلبه . وأرضى به ربه . وأشهد أن محمداً صلى
الله عليه وسلم عبده ورسوله . رافع الشك . وداحض الشرك . وراحض الافك .
الذي أسرى به من المسجد الحرام الى هذا المسجد الاقصى . وعرج به منه الى
السموات العلى . الى سدره المنتهى . عندها جنة المأوى . اذ يغشى السدره ما يغشى .
ما زاغ البصر وما طغى . صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق الى
الايمان . وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اول من رفع عن هذا البيت شعار
الصلبان . وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن . وعلى أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب منزل الشك ومكسر الاوثان . وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم
باحسان . أيها الناس ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى . والدرجة العليا .
لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة . من الامة الضالة . وردّها الى
مقرها من الاسلام . بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام . وتطهير
هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وان يذكر فيها اسمه . واماطة الشرك عن طرفة .
بعد ان امتد عليه رواقه . واستعمر فيه رسمه . ورفع قواعده بالتوحيد . فانه بني
عليه . وبالتقوى فانه أسس على التقوى . من خلفه ومن بين يديه . فهو موطن أبيكم ابراهيم
ومعراج نبيكم محمد عليه السلام . وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام . وهو مقر
الانبياء . ومقصد الاولياء . ومقر الرسل . ومهبط الوحي . ومنزل نزل الامر والنهي .
وهو في أرض المحشر . وصعيد المنشر . وهو في الارض المقدسة التي ذكرها الله في
كتابه المين . وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة
المقربين . وهو البلد الذي بعث الله اليه عبده ورسوله . وكتبه التي القاها الى مريم . وروحه
عيسى الذي شرفه الله برسالاته وكرمه بنبوته . ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته . فقال
تعالى . لن يستكف المسيح ان يكون عبداً لله . وقال لقد كفر الذين قالوا ان الله هو
المسيح بن مريم . وهو اول القبلتين . وثاني المسجدين . وثالث الحرمين . لا تشد الرحال
بعد المسجدين الا اليه . ولا تعقد الخناصر بعد المواطنين الا عليه . ولولا انكم ممن
اختاره الله من عباده واصطفاه . من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة . التي لا يجاريكم
فيها مجار . ولا يباريكم في شرفها مبار . فطوبى لكم من حيش ظهرت على أيديكم المعجزات

كما تقدم لم يتمكن من اقامة صلاة الجمعة في هذا اليوم لان الصليبيين كانوا قد بنوا على محراب المسجد الاقصى مخزناً للغالل وبنّت جمية الهيكلين غربيه داراً كبيرة لسكنها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من مراحيض وغيره فامر السلطان بازالة جميع ما أحدثوه من المباني وكان على رأس قبة الصخرة المقدسة صليب كبير مذهب فتسلق جماعة من المسلمين الى أعلى القبة وأنزلوه فهتف المسلمون بالتكبير والتهليل وكان الصليبيون قد بنوا عليها بناية وذلك ان البطاركة والقسوس كانوا يقطعوا منها ما يبيعونه للملك اوروبا تبركا بها فشفق عليها أحد ملوكها وبنى عليها لعدم مسها فامر السلطان بازالة ما عليها من المباني أيضاً وأمر بتطهير ذلك جميعه وكان السلطان يكنس بيده وبعد الفراغ من كنس الصخرة والمسجد الاقصى أمر بنفسها بالماء مراراً ثم غسلها بنفسه بماء الورد وأمر باطلاق البخور عليها ثم فرش المسجد ومحل الصخرة بالديسب الفاخرة وأمر بأعمال منبر من خشب لتأدية صلاة الجمعة القابلة ريثما يصل المنبر الذي كان قد أمر بصنعه الملك العادل محمود نور الدين أتابك لوضعه بالقدس لانه كان عازماً على فتحه ومات ولم يتم ما عزم عليه فامر بوضعه في حلب . وأما محراب داود عليه السلام فانه كان خارج المسجد الاقصى في حصن منيع عند باب المدينة وموضع عال رفيع وهو الحصن الذي يقيم به الوالي فرتب السلطان له اماماً ومؤذنين وقواماً وهو مثابة الصالحين ومزار القادين والرائحين فاحياه وجدهه وأمر بعمارة جميع المساجد وفي يوم الجمعة التالي الموافق ٤ شعبان عزموا على اقامة صلاة الجمعة فاستعدت العلماء والخطباء وكل منهم يطلب ان يكون هو الخطيب ليحصل له الشرف العظيم ولما قربت الصلاة أمر السلطان القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي بان يخطب ويصلي بالمسلمين وخلع عليه خلعة سوداء من تشريفات الخلافة فصعد المنبر وتلا الخطبة الآتية

﴿ أول خطبة بالمسجد الاقصى بعد فتحه ﴾

افتتح الخطبة بآيات الحمد الواردة بالقرآن الشريف بعد البسملة ثم قال الحمد لله معز الاسلام بنصره . ومذل الشرك بقهره . ومصرف الامور بامرهم . ومديم النعم بشكره . ومستدرج الكافرين بمكره . الذي قدر الايام دولا بعدله . وجعل العاقبة للمتقين بفضله . وافاء على عباده من ظله . وأظهر دينه على الدين كله . الفاهر فوق عباده فلا يمانع . والظاهر على خليفته فلا ينازع . والامر بما يشاء فلا يراجع . والحاكم بما يريد فلا يدافع . أحمد على اظفاره واطهاره .

الآن قرت جنوب في مضاجعها ونام من لم يزل حلقاً له السهر
يا بهجة القدس اذ أضحى به علم الاسلام من بعد طي وهو منتشر
وقال نحر الكتاب ابو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر من اهل بغداد
هذه القصيدة في الفتح وهي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهلهم له تسعين عاماً
حتى تجرد له صلاح الدين نذكر منها ما يأتي

جند السماء لهذا الملك أعوان	من شك فيهم فهذا الفتح برهان
مقرأى الناس ماتحكيه في زمن	وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الانبياء وما	له سوى الشكر بالافعال ائمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده	صيدا وماضعفوا يوماً وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم	خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس	نخام عنها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر الاسلام	يطوى ويحوى وهو سكران
تسمعون عاماً بلاد الله تصرخ والا	سلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبي صلاح الدين دعوتهم	بامر من هو للمعوان معوان
للتناصر ادخرت هذه الفتوح وما	سمت لها همم الاملاك مذ كانوا
حياه ذو العرش بالنصر العزيز فقا	ل الناس داود هذا أم سليمان
في نصف شهر غدا للشرك مصطلاً	فطهرت منه اقطار وبلدان
فاين مسلمة عنها واخوته	بل أين والدهم بل أين مروان
وعد عما سواه فالفرنجة لم	ييدهم من ملوك الارض انسان
لو ان ذا الفتح في عصر النبي لقد	نزلت فيه آيات وقرآن
يا قبج اوجه عباد الصليب وقد	غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خزنت عند اله العرش سائر ما	ملكته وملوك الارض خزان
قاله بيقك للاسلام تحرسه	من ان يضام ويلقى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة	فالكفر في سنة والنصر يقظان
يا جامعاً كلمة الايمان قانع من	معبوده دون رب العرش صلبان
اذا طوى الله ديوان العباد فـ	يطوى لاجر صلاح الدين ديوان

﴿ اظهر محراب المسجد الاقصى والصخرة المقدسة ومحراب داود ﴾

لما دخل السلطان صلاح الدين بيت المقدس في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣

صلاح الدين عدداً من الصليبيين فوهبهم لهم فاخذوا قطيعهم ولم يصل خزان
السلطان الا القليل وكان بالقدس الملكة سيلا زوجة الملك غوي الماسور وزوجة
البرنس رانود وغيرهم من نساء مقدمي الصليبيين فاطلقهم بخدمهم وحشمهم
واستأذنته الملكة سيلا في المسير الى زوجها الملك غوي وكان محبوساً بقلعة نابلس
فاذن لها فتوجهت اليه وأقامت عنده وأتته امرأة البرنس رانود وطلبت اطلاق
ولد لها محبوس في الاسر فقال لها صلاح الدين ان سلمتي لي قلعة الكرك أطلقته
فتوجهت الى الكرك فلم يرض الصليبيون الذين بها تسليمها فلم يطلق ولدها وخرج
البطريك الاورشليمي ايراكلوس يتبعه الاكليروس ومعهم الاواني المقدسة مع خزنة
كنيسة قبر المسيح وغيرها وكان له من المال كثير فقيل للسلطان ان يأخذ ما معه
فقال لا أغدر به وسير الجميع مع من يحميمهم الى مدينة صور وكان هذا اليوم يوم
فرح واقتزار لحيش المسلمين فنقاطر الشعراء من سائر الأنحاء لتهنئة السلطان
صلاح الدين بما آتاه الله من الفتح ونظموا القصائد وألقيت الخطب وسالت أقلام
الكتاب وفاضت قرائمهم فكنت ترى فيهم اما خطيباً يبشر ويحرض واما شاعراً
يحمد الله ويمدح الفتح أو مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من الفخر لحيش الاسلام
وقد أشار العماد في قصيدة طويلة الى ذلك منها

قل للمليك صلاح الدين أكرم من	يمشي على الارض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى	صور فان فتحت فاقصد طرابلسا
اثر على يوم انطرسوس ذا لب	وابعث الى ليل انطاكية العسسا
واخل ساحل هذا الشام أجمعه	من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منهم نفساً ولا نفساً	فانهم يأخذون النفس والنفسا
نزلت بالقدس فاستفتحته ومي	تقصد طرابلسا فانزل على قدسا

وقال أبو الحسين بن جبير الاندلسي من قصيدة

هو الفاتح البيت المقدس بمد ما	محامته سادات الدنا ومسودها
فضيلة فتح كان ثاني خليفة	من القوم مبدئها وأنت معيها

وقال الرشدي بن بدر النابلسي من قصيدة طويلة

هذا الذي كانت الآمال تنتظر	فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذالفتح لا والله ما حكيت	في سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به حان هلك المشركين فيا	لله طيب العشايا منه والبكر

ارسل باليان دي ايبالين رئيسهم العسكري وطلب الامان لنفسه ليحضر الى السلطان صلاح الدين في هذا الامر فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف فلما ينس من ذلك قال له أيها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله انما هم يقترون عن القتال رجاء الامان ظانين انك تجيهم اليه كما اجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن ابناؤنا ونساءنا ونحرق أموالنا وامتعنا ولا نترككم تفتنمون منها ديناراً واحداً ولا درهاولاً تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك اخبرنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرها من المواضع ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة أو حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل امثاله ونموت اعزاء او نظفر كراماً فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان والا يخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يدري عاقبة الامر فيه عن أي شيء تنجلي وقالوا نحسب انهم اسارى بايدنا فنيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للصليبيين فاستقر ان يؤخذ عن الرجل عشرة دنائير يستوي فيه الغني والفقير ومن كل طفل من الذكور أو الاناث دينارين ومن كل امرأة خمسة دنائير فن أدى ذلك الى أربعين يوماً فقد نجحوا وان انقضت الاربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا فاجيب الى ذلك وسامت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرون من رجب سنة ٥٨٣ هـ أي في صباح ليلة المعراج وكان يوماً مشهوداً ورفعت الاعلام الاسلامية على أسوار المدينة ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أميناً من الامراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا الحيانة ولم يحفظوا في عملهم الأمانة واقتسم الامناء الاموال ولو أدت كلها للملاة الخزان لان المدينة كانت مملوءة لكثرة ما اجتمع فيها من عسقلان والداروم والرملة وغزة وغيرها ودفع باليان ثلاثين الف دينار وبقي بعد ذلك من لم يكن معه ما يعطي وأخذ أسيراً نحو ستة عشر الف ما بين رجل وامرأة وصبي ثم قام جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فكان يطلق ويأخذ هو قطيعتهم واحتال آخرون بان ألبسوا الصليبيين زي الجند المسلمين وأخرجوهم وأخذوا منهم قطيعة قررورها واستهوب جماعة من

واعطيتكم اراضي بمقدار ما أنتم تستطيعون أن تقوموا بأعمالها . فاجابه سكان المدينة بقولهم (اننا لانقدر أن نترك لك مدينة قدمنا فيها الهنا بالجسد وبأكثر من ذلك نحن لانقدر أن نبيعها انتهى) وكان السلطان قد ارسل الى مصر يطلب الاسطول الذي بها في جمع من انقائه ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة فسار الاسطول يقطع الطريق على الافرنج بحراً ويفتح مايجده من مراكبهم . واجتمع الصليبيون بيت المقدس كما تقدم وحصنوه بما وجدوا اليه سيلا وصعدوا على سوره بمجدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بمجدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة بقدر استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ولما قرب صلاح الدين زحف فرحاً الى القدس الامير جمال الدين شروين بن حسن الزرزاري فقابله فريق من الصليبيين كان قد خرج للاستطلاع فقاتله ليلا في موضع يعرف بالقبيبات فاستشهد رحمه الله ولما علم بذلك صلاح الدين اسرع بالمسير ونزل على القدس في منتصف رجب سنة ٥٩٣ هـ بالجانب الغربي وكان مشحوناً بالمقاتلة من الفرسان والرجال ثم انتقل الى الجهة الشمالية نحو باب عمودا وكنيسة صهيون في عشرين منه ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ونصب الصليبيون على السور منجنيقات ورموا بها وقاتلوا أشد قتال لان كل واحد من الفريقين كان يرى ذلك القتال دينياً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه الى امر سلطاني وكانت فرسان الصليبيين تخرج كل يوم الى ظاهر البلد يقاتلون وبيارزون فيقتل خلق كثير من الفريقين وعن استشهاد المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من اكابر الامراء وأبوه صاحب قلعة جعبر وكان عز الدين يباشر القتال كل يوم بنفسه فقتل وكان محبوباً عند الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم فحملوا حمله رجل واحد فازالوا الصليبيون عن مواقعهم وادخلوهم بلدهم وزحفوا الى الخندق فاجتازوه ووصلوا الى السور فقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات ترمي دراكاً وتمكن النصابون من عملهم ولما علم الصليبيون انهم قد اشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم للمشاورة فيما يفتقون فاتفق رأيهم على طاب الامان وتسليم البيت المقدس الى صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم في طلب الامان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابته وقال لا افعل بكم الا كما فعلتم باهله المسلمين حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هـ هجرية من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثله فلما رجع الرسل خاسين محرومين

فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما أقبح رد فلما رأى السلطان ذلك جدد في قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وزحف مرة بعد أخرى وتقدم النقبابون إلى السور فقالوا من باشورته شيئاً وصار ملكهم يكرر لهم الأرسال بالتسليم وبشير عليهم ويعدهم أنه إذا أطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين ناراً واستنجد بأهل أوروبا وأجلب الخيل والرجال من أقاصي البلدان وهم لا يجيبون إلى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفاً ووهناً وإذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضاً ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها فاجابهم إليها وكان قد قتل أثناء الحصار من الأمراء الأكابر حسام الدين إبراهيم بن حسين المهراني نخاف الصليبيون أن تأخذ عشيرته منهم بثاره إذا خرجوا فاحتاطوا بذلك فيما اشترطوا لانفسهم فأجيبوا إلى ذلك جميعه وسلموا المدينة في آخر شهر جمادي الآخرة وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوماً وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ووفى لهم الأمان . وأقام السلطان بظاھرھا وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزه ومشهد إبراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وجميع ما كان للادوية

﴿ فتح اليت المقدس شرفه الله ﴾

لما تسلم السلطان عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساعد الجد والاجتهاد في قصده واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لباتها من النهب والغارة فسار نحوه معتمداً على الله منتزاً فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه اذا فتح بقوله عليه الصلاة والسلام (من فتح له باب خير فلينتهزه فانه لا يعلم متى ينفق دونه) وكان القدس مملوئاً من الصليبيين حتى قدرهم بعض المؤرخين بستين الف مقاتل ماعدا النساء والصبيان والجميع بدون ملك فلذلك انتخبوا عليهم رئيساً عسكرياً وهو باليان دي ايبالين فاجتهد في الاستعداد لمحصرة المدينة من داخلها . وسار السلطان صلاح الدين إلى أن قرب من المدينة فراسل إلى الصليبيين رسولا من قبله يخاطبهم بما يأتي حسب تقرير مؤرخي فرانساقائلا لهم (انني انا نظيركم اعرف ان اورشليم) (القدس) هي بيت الله فانا لست آتياً لكي ادنس قداسها بسفك الدماء فاتم اهملوها لي وانا اخصصكم بقسم من خزائني

بوصول عمه صلاح الدين اليه فارسل اليه يعلمه بالامر ويحثه على السير اليه فرحل من عكا في ثامن جمادي الاولى ونزل عليها في ١١ منه فحصرها وضايقها وقتلتها وهي من القلاع المتينة على جبل فلما ضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما انضموا الى عسكر السلطان أحضرهم اليه وكساهم واعطاهم نفقة وصيرهم الى اهلهم وبقى الصليبيون محصورين خمسة ايام ثم أرسلوا يطلبون الامان فامنهم على انفسهم فسلموا اليه ووفى لهم وسيرهم الي مائنتهم ثم سار السلطان الى صيدا فاجتاز بطريقه بصرفند فاخذها صفوا عفوا بغير قتال وسار عنها الى صيدا وهي من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها خالية من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة واصله فلما كان في ٢١ منه ثم سار عنها في يومه نحو بيروت وهي من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها فوصل اليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد وقتلوا على سورها قتلا شديداً واغتروا بحصانة البلد وظنوا انهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم مرة بعد أخرى فينبأ الصليبيون يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة ونحوها زائدة فأتاهم من أخبرهم ان البلد قد دخله المسلمون من الناحية الاخرى قهراً وغلبة فأرسلوا الرسل يستطلعون فلم يجدوا احداً فارادوا تسكين الخواطر فلم يتمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الامان فامنهم على انفسهم وأموالهم وتسلمها في ٢٩ منه فكانت مدة حصرها ثمانية ايام وفي أثناء حصار بيروت كان صاحب جيبيل من جملة الاسرى المسجونين بدمشق ففاوض نائب السلطان بدمشق في تسليم جيبيل بشرط اطلاقه فأعلم صلاح الدين بذلك فأحضره اليه مقيداً فسلم حصنه للعساكر الاسلامية وأطلق مابه من أسرى المسلمين وأطلقه السلطان كما اشترط

﴿ فتح عسقلان وما يجاورها من البلاد والحصون ﴾

لما ملك السلطان بيروت وجيبيل وغيرها لم يبق عنده أهم من فتح عسقلان والقدس فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من عساكر مصر فانزلوها يوم الاحد سادس عشر جمادي الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر الملك غوي ومقدم الداوية (الهيكليين) اليه من دمشق وقال لهما ان سلمتاهي البلاد فلما الامان فأرسلنا الى من بعسقلان من الصليبيين يأمرانهم بتسليم البلد

وأسير وإنه لم يسلم منهم الا القليل الا انه نزل يومه وركب يوم الخميس ٢٩ منه
وقد صمم على الزحف على البلد وقتاله فيينا هو يعمن النظر في اختيار الجهة التي
يزحف منها ويقاقل اذ خرج كثير من أهلها يطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأمنهم
على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وخبرهم بين الاقامة والظعن فاخاروا الرحيل خوفاً
من المسلمين وساروا عنها متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقي
على حاله ودخل المسلمون اليها يوم الجمعة غرة جماد الاولى وصلوا بها الجمعة في
جامع كان للمسلمين قديماً جعله الفرنج بيعة لهم ثم جعله صلاح الدين جامعاً وهذه
أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد ان ملكه الصليبيون واستنقذ ما كان بها من
أسرى المسلمين وهم ما ينوف عن أربعة آلاف مسلم وسلم البلد الى ولده الافضل
واعطى جميع ما كان في البلد ملكاً للداوية (الهيكليين) للفقير عيسى وغنم المسلمون
ما بقي مما لم يطق الصليبيون حمله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فرأوا فيها
من الذهب والجوهر والسقلاط والبندق والسلاح وغير ذلك من الامتعة كثيراً
لانها كانت مينا عمومية لتجار الافرنج والروم وغيرهم ففرق صلاح الدين وابنه
الافضل ذلك جميعه على أصحابهما وفي مدة اقامة السلطان في عكا أرسل عساكره
الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والقولة وغيرها من البلاد
المجاورة لمدينة عكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وقدموا من
ذلك ما سد القضاء وأرسل صلاح الدين الى أخيه العادل بمصر يبشره بما فتحه
الله على يديه ويأمره بالسير الى بلاد الصليبيين من جهة مصر بمن بقي عنده من
العسكر ومحاصرة ما يليه منها فدارع الى ذلك وسار عن مصر فنازل حصن مجدل
يابا وحصره وغنم ما فيه وسار الى مدينة يافا وهي على الساحل فحصرها وملكها
عنوة ونهبها وأسرى الرجال وسبي الحرير وجرى على أهلها ما لم يجز على أحد
من تلك البلاد وورد كتابة بذلك الى صلاح الدين . وقد سير السلطان حسام
الدين عمر بن لاجين في عسكر الى نابلس فأتى سبسطيه وبها قبر زكريا عليه السلام
فاخذته من أيدي الصليبيين وسلمه الى المسلمين ووصل الى نابلس فدخلها وحصر
قلعتها واستنزل من فيها بالامان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على أملاكهم
وأموالهم . وسير تقي الدين قنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور

﴿فتح تبنين وصيدا وجيل وبירות﴾

لما وصل تقي الدين الى تبنين نازلها وأقام عليها فراي حصرها لا يتم الا

صلى الله عليه وسلم ثم عرض عليه الاسلام فابى ثم سل سيفه وضربه بنفسه فاطارها مته
فسحب الى باب الخيمة فارتعدت فرائص الملك ولم يشك في انه يثنى به فاستحضره
وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك أما هذا فانه جاوز الحد

﴿ اخذ قلعة طبرية ﴾

لما فرغ السلطان من هذه الواقعة في يوم السبت أقام بموضعه باقي يومه فلما
اصبح يوم الاحد ٢٥ ربيع آخر عاد الى طبرية ونازلها فارسلت صاحبها زوجة
رايموند صاحب طرابلس تطلب الامان لها ولاولادها واحبابها ومالها فاجابها الى
ذلك فخرجت بالجميع فوفي لها فسارت آمنة ثم أمر الملك غوي وجماعة من
أعيان الصليبيين الاسرى فarsلوا الى دمشق وأمر بمن اسر من الداوية (الهيكليين)
والاستنارية (جمعية ماري يوحنا) الرهبانيين بان يجمعوا ليقتلهم وأمر بان كل من
عنده اسير منهم يأخذ بدله خمسين ديناراً مصرياً ولما جمعوه أمر بقتلهم
وقد خص هؤلاء بالقتل لانهم أشد شوكة من جميع الصليبيين فاراح الناس من شرهم
وكتب الى نائبه بدمشق ليقول من دخل البلد منهم اما القمص رايموند صاحب
طرابلس الذي هرب من الوقعة السابقة فانه ذهب الى صور ثم قصد طرابلس
ولم يلبث الا أياماً قلائل ومات ومدح العماد السلطان بقصيدة منها

يا يوم حطين والابطال عابسة	وبالعجاجة وجه الشمس قد عابسة
رأيت فيه عظيم الكفر محتقراً	معقراً خده والانف قد تعسا
يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد	اصاب اعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص اذطار ذاك الرأس في دمه	كأنه ضفضع في الماء قد غطسا
ما زال يعطس مزكوماً بغدرته	والقتل تسميت من بالغدر قد عطسا
عمرى ظباء من الاغنام مهركة	دما من الشرك ردا هابه وكسا
من سيفه في دماء القوم منغمس	من كل من لم يزل في الكفر منغمسا
افناهم قتلهم والاسر فانتكسوا	ويدت كفرهم من خبثهم كنسا

﴿ فتح عكا وغيرها من الحصون ﴾

لما فرغ السلطان من طبرية سار عنها في يوم الثلاثاء ٢٧ ربيع آخر سنة ٥٨٣
ووصل الى عكا يوم الاربعاء ٢٨ منه وقد صعد أهلها على سورها يظهررون الامتناع
والحفظ فعمجب السلطان لانهم علموا ان عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل

معهما الصليبيين وقتلوا منهم كثيراً فلما رأى رايغوند شدة الأمر وعلم أن لا طاقة لهم على المسلمين اتفق هو وجماعة وحلوا على من بينهم وكان مقدم المسلمين في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فلما رأى حملة الصليبيين حملة مكروب علم أن لا سبب للوقوف في وجوههم أمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريق يخرجون منه وكان بعض المتطوعة قد اشعل في تلك الأرض نارا فالتهب الهشيم الكثير وهبت الريح فحملت حر النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال وانهمز رايغوند وتبعه بعض عسكره وحمل الصليبيون حملات متداركة فكانوا يحملون الحملة فيرجعون وقد قتل منهم كثير فوهنت لذلك قواهم وهنا عظيما فحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها واعتصم من بقي من الصليبيين بتل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب عليه السلام وارادوا ان ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم بها فاشتد عليهم القتال من سائر الجهات ومنعواهم عما ارادوا ولم يتمكنوا الا من نصب خيمة ملكهم وأخذ المسلمون صليهم الاعظم (صليب الصليوت) فكان ذلك عليهم من أعظم المصائب وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك ودام فيهم القتل والاسر وبقي الملك على التل في قسم من جيشه ومعه الامراء والقواد فحمل عليهم المسلمون حملة شديدة حتى هلك الصليبيون فنزلوا عن خيولهم وتراموا الى الارض فاخذتهم العساكر الاسلامية أسرى باليدوكان في جملتهم الملك غوي ملك القدس والبرنس رانود صاحب الكرك والشوبك وجميع ضباط الصليبيين حتى كان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحداً ومن يرى الاسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً ولم يصب الصليبيون منذ خرجوا من بلادهم الى فلسطين اي من سنة ٤٩١ الى الآن بمثل هذه الواقعة فلما فرغ المسلمون من ذلك نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الصليبيين غوي دي لوزنيانا ورانود دي شانيلون صاحب الكرك وأجلس الملك غوي الى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاء ماء مثلوجا فشرب وأعطى الباقي الى رانود فشرب فقال السلطان صلاح الدين للترجان ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني بل الذي سقاء الملك وكان من جيل عادة العرب ان الاسير اذا اكل او شرب من مال من أسره أمن فتصدد السلطان بقوله هذا ان الملك غوي أمن وأما رانود فلم يأمن ثم أمر السلطان بمسيرهم الى موضع معين لنزولهم فمضوا وأكلوا شيئاً ثم استحضرهم بين يديه فاقعد الملك غوي في الدهليز وأوقف رانود وقال له على ما حصل منه ثم قال السلطان ها أنا انتصر لمحمد

كثيرون فان النار لا يضرها كثرة الحطب فقال رايموند هاأنا واحد منكم وبين أيديكم فقرروا بمسير العساكر الى مرج صفورية فزحفوا وكان أمامهم رايموند مع عساكره وغوي سلطان القدس مع الفرسان الهيكليين (الداوية) وضياف الغربا أى جمعية ماري يوحنا المعمدان (الاسبتارية) كانوا وراء الحوش بصفة خفراء وكان في الوسط باقي الصليبيين مع مطران عكا حاملا الصليب الحقيقي (صليب الصلبوت الذي صلب عليه المسيح كما يدعون) فلما بلغ ذلك السلطان صلاح الدين عاد عن طبرية الى عسكره وكان قريباً منه وانما كان قصده من محاربة طبرية ان الصليبيين يفارقون مكانهم ليقاثلهم وكان المسلمون قد نزلوا على الماء وكان الوقت قيط شديد الحر فحصل للصليبيين عطش ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء من المسلمين وقد افنوا ما هناك من ماء الصحاريح ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين فبقوا على حالهم الى الغد وهو يوم الجمعة وقد اخذ العطش منهم وأما المسلمون فانهم طعموا قهيم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يحرض بعضهم بعضاً وقد وجدوا ربح النصر والظفر وكلأوا حال الصليبيين بخلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرائتهم فكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية وفرق فيهم النشاب

﴿ واقعة حطين واخذ المسلمين صليب الصلبوت ﴾

لما كان صبح يوم الجمعة ٢٣ ربيع آخر ركب العسكران وتصادما وذلك بارض قرية تسمى اللوبيا ولم يزل القتال مشتبكا الى ان حال بينهم الظلام وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة ما لم يروه السابقون وبات كل فريق شاكياً سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة وفي صباح يوم السبت ٢٤ منه ركب السلطان وتقدم الى الصليبيين وركبت الصليبيون بترتيبهم السابق حتى اذا دنا بعضهم من بعض اقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر فقتلوا من خيول الصليبيين كثيراً فاجتمع الصليبيون وقد اشتد بهم العطش وهم يقاتلون فساروا نحو طبرية لعلهم يردون الماء فلما علم السلطان صلاح الدين ذلك صدهم عن مرادهم ووقف بالعسكر في وجوههم وطاف بنفسه في المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم والناس يتبعون اوامره فحمل مملوك من ممالিকে الصبيان حملة منكرة على صف الصليبيين فقاتل قتالا عجب منه الناس ثم تكاثر الصليبيون عليه فقتلوه فلما قتل حمل المسلمون حملة منكرة وضعموا

الاغارة على اعمال طبرية حتى اصبح صفورية فخرج اليهم الصليبيون من جمعة الهيكلين (الداوية) وجمعة ماري يوحنا المعمدان (الاستباريه) واقتتلوا قتالا شديداً وخرج من الصليبيين فارس راكب حصاناً ابيض وهو يدعى يعقوب دي مالي رئيس الاستبارية وهجم على العساكر الاسلامية فقتلوه وقتلوا باقي قومه وأسروا اكثرهم وأبقن باقي الصليبيين بالهلاك وهرب مقدم الهيكلين وعادت العساكر الاسلامية سالمة غائمة فكانت هذه الواقعة باكورة البركات وجاءت البشرى الى السلطان وهو على الكرك والشوبك فسار السلطان حتى خيم بعشتر ثم سار حتى قابل العساكر الاسلامية فبعي العسكر قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقا وعرف كل منهم موضعه وسار على تعية فنزل بالاقوانة بقرب طبرية وكان البرنس رايوند المتني لصلاح الدين قد اصطالح مع قومه لان ملكهم غوي قد ارسل له البطرك والقسوس والرهبان فقالوا له لاشك انك اسلمت والا لما كنت تصبر على ما فعله المسلمين في صفورية وتهده البطرك ان يحرمه فلما رأى رايوند شدة الامر عليه خاف واعتذر وتاب وسار معهم الى القدس وتصلح مع الملك غوي

﴿ فتح طبرية ومجلس مشورة الصليبيين ﴾

لما رأى الصليبيون ما حصل لهم جمعوا عساكرهم باراضي صفورية . ثم عرض السلطان عساكره في منتصف ربيع الآخر على تل يعرف بتل تسيل ورتبهم واندفع قاصداً بلاد العدو في وسط نهار الجمعة وكان دائماً يقصد بوقعاته الجمع لاسيما اوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب الى الاجابة فسار ونزل على بحيرة طبرية غربي المدينة على سطح الجبل لتعية الحرب منتظراً ان الصليبيين اذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من مكانهم ولا فارقوا خيامهم فنزل وأمر عساكره بالنزول امام عساكر الصليبيين لاجل منعهم من القتال ونزل بجريدة من عسكره الى طبرية وقتلها ونقب بعض ابراجها واخذ المدينة عنوة في ساعة ولجأ من بها الى قلعها فامتنعوا بها وفيها زوجة رايوند واولاده فهب المدينة واحرقها ولما بلغ الصليبيون ما فعله صلاح الدين من اخذ طبرية واحراقها بعد سلب ما بها عقدوا مجلسهم للمشورة بمدينة القدس فقام رايوند وقال اني متنازل عن مدينة طبرية للعدو ويلز منا التجمع حول القدس لحفظه من العدو لاني ما رأيت قط جيشاً مثل هذا ذا قوة وبطش فقام رانود صاحب الكرك وقال له قد اطلت في التخويف من المسلمين ولا شك انك تريد هم وتميل اليهم والا ما كنت تقول هذا وأما قولك انهم

﴿ اختلاف الصليبيين وأنجياز راييموند الى السلطان صلاح الدين ﴾

كان راييموند صاحب طرابلس وصياً على بودوين الخامس ولما توفي بودوين وتولى بعده زوج أمه غوى دي لوزيانا طالب البرنس راييموند بحساب ما جباه من الاموال مدة ولاية الصبي فادعى انه انفق عليه وزاده ذلك الامر نفوراً وكبرا وجاهر بالعداوة وراسل السلطان صلاح الدين وانتفى اليه واعتضده وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج الصليبيين ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعدوه النصر والسعي له في كل ما يريد وضمن له ان يجعله ملكاً مستقلاً للصليبيين قاطبة وكان عنده جماعة من فرسان راييموند أسرى فاطلقهم فخل ذلك عنده أعظم محل واطهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الصليبيين فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم وكان ذلك في سنة ٥٨٢ هجرية

﴿ غدر رانود صاحب الكرك بالهدنة ﴾

كان البرنس رانود صاحب الكرك من أشد أعداء المسلمين وكان يوالي غدراتهم وكان السلطان يحاصره المرة بعد الاخرى حتى اذله خضع وطلب الهدنة فهادنه وتحالفا بعدم التعرض لاحد وترددت القوافل من الشام الى مصر ومن مصر الى الشام ففي هذه السنة اجتازت به قافلة عظيمة غزيرة الاموال كثيرة الرجال ومعها جماعة من الجند كانت واردة من مصر فغدر رانود بهم وأخذهم عن آخرهم وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم وادعهم السجن فنادوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين فاستخف بهم وقال قولوا لمحمدكم يخلصكم فبلغ ذلك السلطان وراسله في اطلاقهم فابى فحملة الدين والحمية على انه نذر ان نظفر به قتله

﴿ واقعة صفورية وحصار الكرك ﴾

في اول محرم سنة ٥٨٤ برز السلطان من دمشق في العسكر العرمرم فلما وصل الى رأس الماء أمر ولده الملك الافضل بالاقامة هناك لمقابلة الامراء القادمين لمساعدته من جميع البلاد وسار السلطان الى بصرى وخيم على قصر السلامه ثم سار ونزل على الكرك واخاف أهله واخذ ما كان حوله ورعى زرعهم وقطع أشجارهم وكرومهم ثم سار الى الشوبك وفعل به مثل ذلك ووصل عسكر مصر فتلقاه وفرقه على أعمال التلعتين واقام على هذه الحالة شهرين والملك الافضل مقيم برأس الماء ومعه جميع العساكر القادمة ينتظر أمراً من أبيه فلما طال به الانتظار سار بسرية منهم قاصداً

وقبل وفاة المذكور بأيام قليلة توفي بودوين الرابع الذي كان كفيفاً وتنازل عن الملك كما تقدم ثم بعده وفاة بودوين الخامس تولت المملكة والدته سيلا أخت بودوين الرابع وتنازلت عن الملك لزوجها غوى دي لوزيانا وألبسته التاج أمام القسوس والبطاركة ورؤساء جمعية مارى يوحنا المعمدان وجمعية الهيكلين وأمرتهم باتباع أحكامه وأوامره فأجابوها بالسمع والطاعة وصار من ذلك الوقت ملكاً على القدس

﴿ حساب المنجمين بخراب الكون ﴾

في سنة ٥٨٢ • حكم الفلكيون رصاد النجوم انه في الثامن والعشرون من جمادى الآخرة من هذه السنة تقتزن الكواكب السيارة الخمس والشمس والقمر في برج الميزان ويشير ذلك هواء عظيماً وغياً سمومياً وفي يوم الثلاث التاسع والعشرين تهلك جميع البلاد وتحمل الرمل وقالوا يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء الى نصف ليلة الاربعاء وخوفوا من ذلك جميع ملوك العجم والروم وأشعروهم بتأثيرات النجوم فشرعوا في حفر مغارات في الصخور وتعقب السرايب وتوثيقها وسد منافسها على الريح وتقلوا اليها الماء والازاد وانتقلوا اليها وانتظروا الميعاد وخاف كذلك جميع الرعايا في كل البلدان ولما جاءت ليلة الميعاد فكانت ليلة هادية وما تحرك فيها ريح قط فخرى أهل التنجيم من ذلك وعملت الشعراء في كذبهم أشعاراً قال أبو الفنائم منها

قل لابي الفضل قول معترف	مضى جمادى وجاءنا رجب
وما جرت زعزع كما حكموا	ولا بدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا	أبدت أذى في قرانها الشهب
يقضي عليها من ليس يعلم ما	يقضي عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والاصطرلاب خير	من سفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفي	أي مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الامر واحد ومقى	للسبع في كل حادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحل	باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق	وانحجب التماذي وزالت الريب
فليطلل المدعون ما وضعوا	في كتبهم ولتتحرق الكتب

وبقي الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد الا ان بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً فأمر السلطان بالقاء الاحجار والتراب لردمه فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام والاحجار من المنجانيقات فأمر أن يبنى بالاختشاب سقايف يمكن الرجال يمشون تحتها لردمه ومنجانيقات المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلاً ونهاراً أما الصليبيون فانهم زحفوا لتجدة اخوانهم فلما بلغ السلطان قدومهم سار لينهم وكانوا قد نزلوا في مكان يقال له الواله فسار حتى نزل باللقاء على قرية يقال لها حسان امام الصليبيين في طريقهم ورحل منها الى موضع يقال له ماء عين ثم رحل الصليبيون الى الكرك فسار بعض العسكر وراءهم فقاتلهم الى آخر النهار ولما رأى السلطان تصميم الصليبيين على الكرك ورأى الساحل خالياً سار بمسالكهم فاغار على نابلس ونهبها وغنم ما فيها ثم سار الى سبسطيه وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وجماعة من أسرى المسلمين فاستنقذهم ورحل الى جنين فنهبا وخربها وعاد الى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث السرايا في طريقه ميمناً وشمالاً يضمنون ويخربون

﴿ مرض السلطان وصلحه مع عز الدين صاحب الموصل ﴾

في سنة ٥٨١ هـ سار السلطان بعسكره قاصداً الموصل فوصلها وحاصرها وضايق أهلها ثم أصابه مرض وهو يقيم الحصار فاغتنم عز الدين صاحب الموصل فرصة مرضه وأرسل اليه يطلب الصلح فصالحه بشروط ان تبقى البلاد بيد عز الدين ويخطب للسلطان فيها وان السلطان اذا طلب عسكراً للجهاد يكون عز الدين ملزوماً بالسفر بنفسه للمساعدة ثم رجع السلطان الى حران وهو مريض واشتد به المرض حتى يش الناس منه وسافر اليه أخوه العادل ومعه الاطباء من حلب وعاده جميع الامراء والعساكر وفي أثناء مرضه أثار عليه بعض الزائرين ان ينذر لله نذراً اذا شفا الله من مرضه هذا وهو ان يشتغل بفتح البيت المقدس وانه لا يصرف بقية عمره الا في قتال الاعداء الصليبيين ثم أخذ السلطان في التقدم في الشفاء من ذلك المرض شيئاً فشيئاً الى ان عوفي تماماً ففرح جميع المسلمين بذلك

﴿ وفاة بودوين الخامس وولاية غوى دي لوزينانا ﴾

في سنة ٥٨١ هـ توفي الملك بودوين الخامس ابن أخت بودوين الرابع وهو صغير السن كما تقدم وكانت مدة حكمه سنتين وكان النائب عنه البرنس رايوند صاحب طرابلس

ضعيفاً طائش الرأي فسار مرة في عشرة آلاف مقاتل فلقاه السلطان صلاح الدين فهزمه وقتل رجاله ولذلك كرهه الصليبيون وعزلوه بودوين الرابع وأقام وكيلاً عنه راييموند صاحب طرابلس ثم ان الملك بودوين الرابع تنازل عن الملك لابن أخته سييلا من زوجها الاول غويليوم دي مونت فراثا وعمره خمس سنوات فهذا الفتى صعد على كرسي سلطنة القدس (أورشليم) سنة ١١٨٣ ميلاديه ولقب ببودوين الخامس

﴿ مناوشات الصليبيين مع العساكر الاسلاميه ﴾

انتهت سنة ٥٧٩ هـ في مناوشات تقع بين الصليبيين وعساكر السلطان صلاح الدين وكان النصر دائماً ملازماً لعساكر السلطان لانه في كل واقعة كان يقتل ويؤسر بعض الصليبيين خصوصاً في جهات بيسان فانهم استولوا على أشياء كثيرة من أمتعة وقماش وغلال والجلالوت وهي قرية عامرة فانهم عثروا على نجدة للصليبيين كانت قاصدة الشوبك والكرك فانقضوا عليهم وقتلوهم وأسروا منهم زهاء مائة نفر. ثم بلغ السلطان ان الصليبيين اجتمعوا في صفوريه ورحلوا الى الفولة وهي قرية معروفة وكان غرضه المصاف فلما سمع ذلك تعي للقتال وسار للقاء العدو فالتقوا وجري قتال عظيم فقتل من العدو جماعة وجرح منهم جماعة وهم ينضم بعضهم الى بعض يحمي راجلهم فارسهم ولم يخرجوا للمصاف وظلوا سائرين حتى اتوا العين فزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا الى المصاف وهم لا يخرجون فرأى السلطان ان يرذل عنهم قليلاً لعلهم يخرجون فيضرب معهم المصاف فرحل ونزل تحت الحيل مترقباً خروجهم فنكص الصليبيون على أعقابهم فزحف عليهم وأخذ يرميهم بالنشاب ويطلب مصافهم فلم يخرجوا ولم يزل السلطان وراءهم حتى نزلوا الفولة راجعين الى بلادهم فعادهم ثم طلب السلطان أخاه العادل نائبه بمصر وولاه حلب وأرسل تقي الدين الى مصر نائباً عنه وأتاب سيف الاسلام على جميع اليمن

﴿ محاصرة الكرك ودخول السلطان بلاد الصليبيين ﴾

في سنة ٥٨٠ هـ طلب السلطان العساكر المصرية الى الكرك وسار اليها بمن معه وحاصرها بعد مجيء العساكر المصرية وركب المتجانيقات عليها وضيق عليهم الحصار ولما بلغ الصليبيون ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم فلك المسلمون الرض

فركبها وقتلهم فرساناً ورجالة فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام اخافة البلاد الحرام وعاد بالباقيين الى مصر فقتلوا جميعاً ثلاثاً يدل من يظل منهم حياً على تلك الجهات فقال ابو الحسن ابن الذروي يمدح لؤلؤ بقصيدة منها

مر يوم من الزمان عجيب كاد يبدي فيه السرور الجهاد
اذ أتى الحاجب الاجل بأسرى قرنتهم في طيها الاصفاد
بجمال كأنهن جبال وعلوج كأنهم اطواد *
قلت بعد التكبير لما تبدي هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الاعادي وسواه من اللآلى يصاد

* { استيلاء السلطان على حلب } *

في سنة ٥٧٩ هـ سار السلطان الى آمد وحصرها وفتحها عنوة بعد حرب شديدة وسلمها الى صاحب الحصن نور الدين ثم سار الى تل خالد فيحاصره واستلمه وسار الي عنتاب فتسلمها ايضاً بالامان ثم سار الى حلب وحاصرها وشدد حصارها وأقام عليها أياماً والقتال بين العسكرين كل يوم فلما رأى عماد الدين صاحب حلب كثرة المصاريف شح بالمال فحضر عنده بعض الاجناد وطلبوا منه شيئاً فاعتذر اليهم بقلة المال عنده فقال له بعضهم من يريد ان يحفظ مثل حلب يخرج الاموال ولو باع حلي نسائه فقال عماد الدين الي تسليم حلب وأخذ العوض عنها وأرسل الى السلطان الامير طمان الباروقي بانه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيدين والخابور والركة وسروج وجري اليمين على ذلك فنزل منها في ١٨ صفر سنة ٥٧٩ هـ وسلمها واستلم البدل عنها ونصب السلطان علمه الاصفر فوق السور وقال محي الدين بن الزكي قاضي دمشق في مدح السلطان قصيدة منها

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتح القدس في رجب
فوافق فتح القدس في رجب سنة ٥٨٣ هـ وهو من الاتفاق العجيب وجعل فيها ولده الملك الظاهر غازي

* في تنازل بودوين الرابع وولايته بودوين الخامس *

في سنة ٥٧٩ هـ عمي السلطان بودوين الرابع المسمى بالملك الابرص وصار كفيفاً ولذلك انتدب غوى دي لوزينانا زوج أخته سيلا وأقامه نائباً على الملك وكان

الف وستمائة وستا وسبعون أسيراً ثم أرسل اليه مظفر الدين كوكبري صاحب حران واعلمه انه معه وطلب منه سرعة قدومه الى الفرات لخدمته صلاح الدين في السير لمظفرا انه يريد حصر حلب تسترا فلما قارب الفرات سار اليه مظفر الدين واجتمع به فقصده البيرة وكان صاحبها معه ثم سار الى الزها فحاصرها في جاد الاولي سنة ٧٨٠هـ وقتلها اشد قتال ووالى الزحف عليها وكان بها الامير نغر الدين مسعود فلما رأى شدة القتال أذعن للتسليم وطلب الامان وسلم البلد وسار في خدمة صلاح الدين الذي سلمها الى مظفر الدين مع حران ثم سار السلطان الى الرقة فلما كان في نصيبين فلما أيضاً وجع أمراته واستشارهم في أي البلاد يبدأ بالموصل أو سنجار أو جزيرة ابن عمر فاشاروا عليه بالموصل فسار اليها وحاصرها فوجد هامة جداً وعلم ان ليس له قدرة عليها ولكنه لازم حصارها ثم حصل تردد في الصلح فلم يتم وأخيراً تركها وسار الى سنجار وحاصرها وجد في قتالها الى ان تسلمها بالامان وقفل عائداً

﴿ الصليبيون في البحر الاحمر او بحر القلزم وهلاكهم ﴾

في سنة ٧٨٠هـ أيضاً طمع البرنس رانود بالاستيلاء على أراضي الحجاز فانشأ المراكب ونقل أخشابها على الجمال الى الساحل ثم ركبها وشحنها بالرجال والآلات القتال وجعلها قسمين قسم سار الى جزيرة قلعة ايله ففتح اهلها من ورود الماء فقال اهلها شدة وضيق عليهم والتسم الثاني سار نحو عيذاب وافسد في السواحل ونهب وأخذ ما وجد من المراكب الاسلامية وما فيها من التجار وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة لانهم لم يمهّدوا بهذا البحر أفرنجياً لا تاجراً ولا محارباً وكان بمصر الملك العادل ابو بكر بن أيوب نائب عن أخيه صلاح الدين فعمّر اسطولا في بحر القلزم بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ وشحنه بالرجال البحريين ذوي التجربة من أهل النخوة للدين وسار الى ايله فظفر بمراكب العدو بعد ما خرقتها وأخذ جندها ومن هرب منهم في البرية تتبعته العرب وأحضرتة اليه ثم سار نحو عيذاب مقتنياً أثر الباقي من مراكب الصليبيين فوجدهم قد قتلوا اهل عيذاب وأسروهم ونهبهم وساروا فنبعهم فوجدهم قد قطعوا طريق التجار وشرعوا في القتل والنهب وتوجهوا الى أرض الحجاز فعمم البلاء على الناس وأشرف أهل المدينة ومكة على خطر وسار لؤلؤ يتبعهم فوصل رابغ ساحل الحوراء فأدركهم هناك فأوقع بهم من القتل والاسر فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خر جوا الى البر واعتصموا ببعض تلك الشعب فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم وقتلهم اشد قتال وأخذ خيلاً من عرب البلاد

﴿ في سفر السلطان صلاح الدين الى الشام ومحاربة الصليبيين ﴾

لما بلغ السلطان خبر وفاة الملك الصالح خاف على بلاده من عز الدين وندم على سفره من الشام وعزم على العودة اليها لحفظ بلاده وفي هذه السنة أيضاً سار بهاء الدين قراقوش الى بلاد الغرب فاوغل فيها ونهب ما قدر عليه وحارب عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان ثم بلغه ان ابراهيم السلحدار احتوى على أهل قراقوش وبلده فرجع اليه فهرب ابراهيم وسار الى خدمة ابن عبد المؤمن وملك قراقوش ما كان بيد ابراهيم أما السلطان صلاح الدين فانه رأى ان عز الدين قد خرق المعاهدة بملكه واتصل به أيضاً ان أمراء الموصل تأمروا عليه سرّاً مع الصليبيين فجمع عساكره واستصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر لحفظ الثغور المصرية ثم سار السلطان من البركة وأخذ على طريق صدر وابله في المفاوز فبات باليوب ثم سار على الجسر ووادي موسى حتى وصل عقبة أيله وهناك سمع باجتماع الصليبيين على الكرك فاحتز بحفظ الاطراف وانحاز بحمي ثم عقبة شتار ثم القريتين وأغار في تلك الايام على اطراف بلاد العدو ثم تجرد السلطان بكائه وسلك بهم سمت الكرك الى الحسي وأمر أخاه تاج الملوك بوري على العسكر وأمره ان يسير بهم على يمينه ففعل واجتمع بالسلطان بالازرق بعد أسبوع ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاه لانه لما بلغه تجمع الصليبيين على الكرك اغتم خلو ديارهم فاغار على بلاد طبريه وعكا وفتح دبوريه وجاء الى حيس جلدك بالسواد وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين ففتحه واسكن المسلمين فيه فبقى عيناً على الصليبيين بعد ما كان لهم ورجع بالاسرى والغنائم منصوراً ومعه الف أسير وعشرون الف رأس من الانعام ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق في ١٧ صفر سنة ٥٧٨ وفي اوائل ربيع اول خرج السلطان وأغار على بلاد طبريه ويسان والتحم القتال بينه وبين الصليبيين تحت حصن كوكب فانهزمت الصليبيون وقتل وأسّر منهم كثير وعاد السلطان منصوراً

﴿ محاصرة بيروت براً وبحراً ومسير السلطان الى الموصل ﴾

أمر السلطان الاسطول المصري بالحجى الى بيروت فسار اليها ونازلها واغار عليها وسار السلطان فوافاه اليها ونهب ما لم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة أيام فاتاه الخبر وهو عليها ان قد نزل دمياط جمع عظيم من الافرنج وكانوا قد خرجوا من بلادهم لزيارة القدس فاسروا من بها بعد ان غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى

﴿ محاربة عز الدين فرخشاه رانود صاحب الكرك ﴾

في سنة ٧٧٧ هـ كان رانود دي شاتيلون من أشد الصليبيين عداوة للمسلمين قد عزم على المسير في البر الى تيماء ومنها الى المدينة المنورة باراضي الحجاز وكان دائماً ينتقض عهوده فجمع جيشه واستعد لذلك فسمع عز الدين فرخشاه فجمع العساكر الدمشقية وسار الى الكرك ونهبها وخربها وعاد الى اطراف بلاد الصليبيين وأقام بها ليمنع البرنس رانود من العبور الى بلاد المسلمين ولما طال مقام كل منهما في مقابلة الآخر وخاف رانود من العساكر الاسلامية أمر بتفريق عساكره الى بلادهم وانقطع طمعه من الحركة فعاد عز الدين فرخشاه الى دمشق

﴿ وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ﴾

في التاسع من رجب سنة ٧٧٧ هـ مرض الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وكان مرضه بالقولنج فلما اشتد عليه وصف له الاطباء شرب الخمر تداوياً بها فقال لا افعل حتى استفي الفقهاء فاستفتى فافتاء فقيه من مدرسى الحنفية بجواز ذلك فقال له ارايت ان قدر الله تعالى بقرب الأجل يؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لا والله فقال الصالح والله لا لقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه علي فلم يشربه . فلما آيس من نفسه احضر الامراء وسائر الاجناد وأوصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل واستحلفهم بذلك فقال له بعضهم ان عماد الدين ابن عمك ايضاً وزوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وتولى تربيته وليس له غير سنجار فلو اعطيته البلد لكان اصلح وعز الدين بلاده واسعة ولا حاجة به الى بلدك فقال اعلم ذلك ولكن قد علمتم بان صلاح الدين قد ملك اكثر الشام سوى ما بيدي ومضى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها وان سلمتها الى عز الدين امكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعيخوا من فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات في الخامس والعشرين منه وكان حليماً كريماً عفيف اليد والفرج واللسان وكان عمره ١٩ سنة وبعد وفاته ارسلوا الى ابن عمه عز الدين فحضر واستلم حلب واقام بها واستلم جميع الخزائن والسلاح ثم بادل بها ابن عمه عماد الدين بسنجار فاستلم عماد الدين حلب واستلم عز الدين سنجار

لقد جل الله منك الورى بأوفى مليك وفي هجان
ازرت ابن لاون لأواءه فأضحى به خبراً عن عيان
ودان من الذل لا يرعوى حذاراً من الراعفات اللدان

﴿ وفاة شمس الدولة وورود التشرىف للسلطان ورجوعه الى مصر ﴾

كان السلطان قد أنفذ أخا شمس الدولة تورانشاه الى الاسكندرية وجعل اليه ولايتها فلما أقام بها لم توافقه وكان يعتاده القوانيخ فأت به في ٥ صفر سنة ٥٧٦ ودفن بقصر الاسكندرية ثم نقلته منها اخته ست الشام بنت أيوب ودفنته في مدرستها التي أنشأها بظاهر مدينة دمشق فهناك قبره وقبرها هي وولدها حسام الدين عمر بن لاجين وقبر زوجها ناصر الدين ابن اسد الدين شيركوه وكانت قد تزوجته بعد لاجين ووصل الخبر الى السلطان وهو نازل بظاهر حمص فحزن عليه حزناً شديداً لأنه كان شجاعاً بأسلاً عظيم الهبة واسع الصدر جواداً كريماً قال فيه ابن سعدان قصيدة منها

هو الملك ان تسمع بكبرى وقصر فانهما في الجود والبأس عباده
وما حاتم ممن يقاس بمنله نخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولد بذراه مستجيراً فانه يحيرك من جور الزمان وعدواه
فلا تتحمل للسحائب مذمة اذا هطلت جوداً سحائب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منهما فليمن يمناه ولليسر يسراه

وفي رجب من السنة المذكورة وصات رسل الديوان العزيز الناصري صدر الدين الشيخ أبو القاسم عبد الرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشرىف الجديد فخرج السلطان للقاءهم بموكبه وقابلهم بالاحترام اللائق والتعظيم والتبجيل ثم ركبوا ودخلوا المدينة وهذه أول خلعة وصلت من الامام الناصر الى السلطان الناصر وهذه الخلعة هي ثوب أطلس اسود واسع الكم مذهب وبيقار اسود مذهب وطيلسان اسود مذهب ومشدة سوداء مذهب وطوق وتخت وسرفسار وجواد كيت من ركائب الخليفة عليه سرج اسود وسلال اسود وطوق مجوهر وقصة ذهب وعلم اسود وعدة خيول وبقج وركب السلطان بالخلعة وكان يوم عظيم زينت له دمشق وأولت الولاة لرسل الخليفة ثم اراد السلطان الرجوع الى مصر فأناب عنه بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه لقوته ليكون امام الصليبيين

الاسطول على عدة من المراكب تحطياً وتكسيراً وأخلى المينا من الباقي وهذا مما لم يمهّد من اسطول اسلامي في سالف الدهر ومما يذكر ان عساكر الاسطول قتلوا بعض رجال قلعة عكا رميةً بالسهم من بعد كبير

﴿ وفاة المستضيء بامر الله وخلافة الناصر لدين الله ﴾

في ثاني ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ توفي الامام المستضيء بامر الله أمير المؤمنين ابو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضي الله عنه وأمه أم ولد ارمنيه تدعى غضة وكانت خلافته تسع سنين وستة اشهر وواحداً وعشرين يوماً وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية كثير البذل للاموال والناس معه في أمن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليماً قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفو والصفح عن المذنبين فقد كانت أيامه كما قيل

كان أيامه من حسن سيرته مواسم الحج والاعیاد والجمع
ثم اخذت البيعة لولده الناصر لدين الله فبايعه أخوه الأمير ابو منصور هاشم ثم بنو أعمامه وخواصه ثم الولاة وأرباب المناصب والاعيان وكان والده المستضيء قبل وفاته قد عهد اليه وسمي ولي العهد

﴿ محاربة السلطان بلاد الارمن ﴾

في سنة ٥٧٦ هـ استمال ابن لاوون ملك الارمن بعض التركان ليرعوا مواشيهم في مراعي بلادهم ثم غدر بهم وأسروهم فلما بلغ ذلك الى السلطان صلاح الدين سار بجيشه ودخل بلاد الارمن وحارب ملكهم وأذل أعوانه وأجناده ومن خوف ملكهم أمر باحراق قلعة شامحة تعرف بالنفاقير فبادر المسلمون الى اخراج ما فيها من الآلات والغلات ففقروا بها وتمموا هدمها الى الاساس ووجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً بآلات من نحاس وفضة وذهب مضى عليها زمن طويل وأخذ السلطان كثيراً من الارمن أسرى فبذل ملكهم كثيراً من المال وتمهد ان يطلق من عنده من الاسارى لاجل خروج السلطان من بلاده فلم يرض السلطان بما بذله فزاد في المال وانه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الصليبيين ويعتقهم فاجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك وأذن للارمني وذل وأطلق ما بيده من الاسارى واشترى الاسرى من الصليبيين وعقهم ورجع السلطان منصوراً فقال الجلال الواسطي ابو غالب محمد وكان مشاهداً هذه الواقعة قصيدة منها

يوم الاثنين الي اطفاء النيران ليم نعبه وقال من جاء بقربة ماء فله دينار فكانت الناس للقرب حاملين ولاوعية الماء ناقلين حتى اغرقوا تلك الثقوب فخدمت فماد نقابوها وقد بردت فخرقوه وعمقوه وفتحوه وشقوا احجره وفلقوه ثم حشوه وعلقوه واستظهر وافيهِ يوم الثلاث والاربعا ثم اُحرقوه واشتد الحرص عليه لان الخبر اتاهم بان الصليبيين قد اجتمعوا بطبريه في جمع كثير فلما اصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر وتعالى النهار انقض الجدار واستبشر المسلمون وكان الصليبيون قد جمعوا وراء ذلك الموضع المتداعي حطباً فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم فاجتمعوا الى الجانب البعيد من النار وطلبوا الامان فلما خدمت النار دخل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا ما به الف قطعة من الحديد من جميع انواع الاسلحة وشيئاً كثيراً من الاقوات وغيرها ووجي بالاسارى الى السلطان فن كان مرتدياً او رامياً ضربت عنقه وأكثر من أسر قتلة المتطوعون في الطريق وكان عدد الاسارى نحو ٧٠٠ وخلص من الاسر اكثر من مائة مسلم وسير باقي الاسارى الى دمشق وأقام السلطان في منزله حتى هدموا الحصن الى الاساس وكان الصليبيون قد حفروا في وسطه جب ماء معين فامر السلطان برمي القنلى فيه وكان عند السلطان رسول من راي موند قص طرابلس وهو يشاهد بليّة قومه وأهل ملته ومدة مقام السلطان على الحصن في ايام فتحه وبعدها حتى دكها اربعة عشر يوماً وبعد ذلك سار السلطان الى أعمال طبريه وصور وبيروت وغيرها فاغار عليها وأرجف قلوبهم بوصوله اليها ثم رجع الى دمشق ومرض جماعة من الامراء المسلمين لان الحر كان شديداً وأتت الجثث تفشى الوباء وتوفى أكثر من عشرة أمراء

﴿ محاربة الاسطول المصري ميناء عكا ﴾

سار الاسطول المصري يغزو بلاد الصليبيين ومراكبهم وكانت قوة الاسطول قد زادت في هذه السنة واستخدم فيه عساكر بحرية مغربية ممن سبق لهم غزو الافرنج وكذلك رجاله المصريين الاقوياء المعروفين بالشهامة والقوة ومراكبه كانت كئناً الا انها تمزق مروق السهام ورواكد هي مدائن الا انها تمر مر السحاب غير الجهام فلا أعجب ان تسمى غربانا وتشت من ضلوعها أجنحة الحمام وتسمى جوارى وكى يسر مجراها من النصر فوصلت في الاحد حادي عشر جمادي الاولى سنة ٥٧٥ ميناء عكا وكانت مملوءة بمراكب الصليبيين ومراكب التجارة فاستولى

فطلب الصليبيون جثته فافدوها بأسير مسلم وطال أسر الآخرين فمهم من افتدى بمال وأطلق ومنهم من مات ومنهم من بقي مسجوناً وهذه الواقعة كانت في مرج عيون وكانت عدة الصليبيين عشرة آلاف فارس وانهزم ملكهم مجروحاً وكان لنز الدين فرخشاه في هذه الواقعة بلاء حسن ومن أحسن ما اتفق انه في اليوم الذي كسر فيه الصليبيين بمرج عيون ظفر الاسطول المصري ببطسة كبيرة فاستولى عليها وعلى أخرى وعاد الى الثغر مستصحباً ألف رأس من السبي فأقرب ما النصرين في المصرين وانظر كيف عم النصر وتساوى في البر والبحر

* تخريب حصن بيت الاحزان *

كان الصليبيون قد بنوا حصناً عند مخاضة بيت الاحزان سموه بحصن بيت الاحزان فلما بلغ خبره الى السلطان أشار عليه الامراء بمخابرتهم في هدمه لان بقاء هذا الحصن يضر بالمسلمين كثيراً فأرسل السلطان الى الصليبيين يطلب منهم هدم الحصن فقالوا الاهدمه الا اذا أعطانا تكاليفه وكان هذا الحصن للجمعية الهيكلية الرهبانية فجعل لهم السلطان ستين ألف دينار فأبوا فزادهم الى ان جعل المبلغ مائة ألف دينار فأبوا فقال تقي الدين عمر للسلطان الاحسن ان تصرف هذا المبلغ في العساكر وهم يهدمونه بالقوة فسار السلطان بجيشه الي ان وصل الى المخاضة في يوم السبت ١٩ ربيع أول سنة ٥٧٥ هـ فغيم بالقرب منها وضاق ذلك المرح عن العساكر واحتاج الي نصب ستائر فركب السلطان بكرة الاحد ٢٠ منه الي ضباع صفد وكانت قلعة صفد يومئذ للدوايه وهي الجمعية المذكورة فأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها فأخذ كل ما احتاج اليه ورجع بعد الظهر ورجعوا الي الحصن بعد العصر فأمسى المساء الا وهم قد استولوا على الباشورة وانتقلوا بكليتهم اليها وباتوا طول الليل يحرسون وخافوا ان يفتح الصليبيون الابواب ويغيروا عليهم على غرة منهم واذا بالصليبيين قد اوقدوا النار خلف كل باب ليأمنوا من المسلمين اغتراراً فاطمان المسلمون وقالوا ما بقي الا نقب البرج ففرقه السلطان على الامراء فأخذ فرخشاه الجانب القبلي وأخذ السلطان الجانب الشمالي وقصد ناصر الدين شيركوه بقره نقباً وكذلك تقي الدين وكل كبير في الدولة جعل له قسماً وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه لكن ما انقضى يوم الاحد الا وقد تم نقب السلطان وعلق وحشي بالخطب ليلة الاثنين وحرق وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاثة اذرع وكان عرض السور تسع اذرع فمات أثر بذلك فاحتاج السلطان صديحة

يوم الاثنين الي اطفاء النيران ليم نعبه وقال من جاء بقربة ماء فله دينار فكانت الناس للقرب حاملين ولاوعية الماء ناقلين حتى اغرقوا تلك الثقوب فخدمت فماد نقابوها وقد بردت فغرقوه وعمقوه وفتحوه وشقوا حجره وفلقوه ثم حشوه وعلقوه واستظهروا فيه يوم الثلاث والاربعا ثم أحرقوه واشتد الحرص عليه لان الخبر اتاهم بان الصليبيين قد اجتمعوا بطبريه في جمع كثير فلما اصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر وتعالى النهار انقض الجدار واستبشر المسلمون وكان الصليبيون قد جمعوا وراء ذلك الموضع التسداعي خطباً فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم فاجتمعوا الى الجانب البعيد من النار وطلبوا الامان فلما خدمت النار دخل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا مائة الف قطعة من الحديد من جميع انواع الاسلحة وشيئاً كثيراً من الاقوات وغيرها ووجي بالاسارى الى السلطان فن كان مرتدياً او رامياً ضربت عنقه وأكثر من أسر قتلة المتطوعون في الطريق وكان عدد الاسارى نحو ٧٠٠ وخلص من الاسر اكثر من مائة مسلم وسير باقي الاسارى الى دمشق وأقام السلطان في منزله حتى هدموا الحصن الى الاساس وكان الصليبيون قد حفروا في وسطه جب ماء معين فامر السلطان برمي القنلى فيه وكان عند السلطان رسول من راي موند قص طراباس وهو يشاهد بليّة قومه وأهل ملته ومدة مقام السلطان على الحصن في ايام فتحه وبعدها حتى دكها اربعة عشر يوماً وبعد ذلك سار السلطان الى أعمال طبريه وصور وبيروت وغيرها فاغار عليها وأرجف قلوبهم بوصوله اليها ثم رجع الى دمشق ومرض جماعة من الامراء المسلمين لان الحر كان شديداً وأتنت الجثث ففتشى الوباء وتوفى أكثر من عشرة أمراء

﴿ محاربة الاسطول المصري ميناء عكا ﴾

سار الاسطول المصري يغزو بلاد الصليبيين ومراكبهم وكانت قوة الاسطول قد زادت في هذه السنة واستخدم فيه عساكر بحرية مغربية ممن سبق لهم غزو الافرنج وكذلك رجاله المصريين الاقوياء المعروفين بالشهامة والقوة ومراكبه كانت كناناً الا انها تمزق مروق السهام ورواكد هي مدائن الا انها تمر مر السحاب غير الجهام فلا أعجب ان تسمى غرباناً وتنتشر من ضلوعها أجنحة الحمام وتسمى جوارى وكم يسر مجراها من النصر فوصلت في الاحد حادي عشر جمادي الاولى سنة ٥٧٥ ميناء عكا وكانت مملوءة بمراكب الصليبيين ومراكب التجارة فاستولى

فطلب الصليبيون جثته فافدوها بأسير مسلم وطال أسر الآخرين فنهزم من افتدى بمال وأطلق ومنهم من مات ومنهم من بقي مسجوناً وهذه الواقعة كانت في مرج عيون وكانت عدة الصليبيين عشرة آلاف فارس وانهزم ملكهم مجروحاً وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الواقعة بلاء حسن ومن أحسن ما اتفق أنه في اليوم الذي كسر فيه الصليبيون بمرج عيون ظفر الاسطول المصري ببطسة كبيرة فاستولى عليها وعلى أخرى وعاد الى الثغر مستحجباً ألف رأس من السبي فأقرب ما النصرين في المصرين وانظر كيف عم النصر وتساوى في البر والبحر

* { تخريب حصن بيت الاحزان } *

كان الصليبيون قد بنوا حصناً عند مخاضة بيت الاحزان سموه بحصن بيت الاحزان فلما بلغ خبره الى السلطان أشار عليه الامراء بمخابرتهم في هدمه لان بقاء هذا الحصن يضر بالمسلمين كثيراً فأرسل السلطان الى الصليبيين يطلب منهم هدم الحصن فقالوا الانهدمه الا اذا أعطانا تكاليفه وكان هذا الحصن لجمعية الهيكلين الرهبانية فجعل لهم السلطان ستين ألف دينار فأبوا فزادهم الى ان جعل المبلغ مائة ألف دينار فأبوا فقال تقي الدين عمر للسلطان الاحسن ان تصرف هذا المبلغ في العساكر وهم يهدمونه بالقوة فسار السلطان بجيشه الي ان وصل الى المخاضة في يوم السبت ١٩ ربيع أول سنة ٥٧٥ هـ فغيم بالقرب منها وضاق ذلك المرج عن العساكر واحتاج الي نصب ستائر فركب السلطان بكرة الاحد ٢٠ منه الي ضياع صفد وكانت قلعة صفد يومئذ للدواويه وهي الجمعية المذكورة فأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها فأخذ كل ما احتاج اليه ورجع بعد ان ظهر ورجعوا الي الحصن بعد العصر فأمسى المساء الا وهم قد استولوا على الباشورة وانتقلوا بكليتهم اليها وباتوا طول الليل يحرسون وخافوا ان يفتح الصليبيون الابواب ويعيروا عليهم على غرة منهم واذا بالصليبيين قد اوقدوا النار خلف كل باب ليأمنوا من المسلمين اغتراراً فاطمان المسلمون وقالوا ما بقي الا نقب البرج ففرقه السلطان على الامراء فأخذ فرخشاه الجانب القبلي وأخذ السلطان الجانب الشمالي وقصد ناصر الدين شيركوه بقربه نقباً وكذلك تقي الدين وكل كبير في الدولة جعل له قسماً وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه لكن ما انقضى يوم الاحد الا وقد تم نقب السلطان وعلق وحشي بالحطب ليلة الاثنين وحرق وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاثة اذرع وكان عرض السور تسع اذرع فما تأثر بذلك فاحتاج السلطان صديحة

✽ مسير السلطان صلاح الدين الى سوريا ومحاربة الصليبيين ✽

في شوال سنة ٥٧٣ هـ سار السلطان صلاح الدين قاصداً سوريا فزل دمشق وأخذ يتقل من بلد الى آخر متفقداً القلاع والحصون وفي شهر ربيع أول سنة ٥٧٤ هـ سار جميع كثير من الصليبيين الى مدينة حماه وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغنيمة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيم بحماه سار اليهم فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فانهمز الصليبيون وكثر القتل والاسر فيهم واسترد منهم ما غنموه وكان صلاح الدين نازلاً بظاهر حصن خملت الرؤوس والاسرى والاسلاب اليه فامر بقتل الاسرى . وفي شهر القعدة سار الملك بودوين الرابع بحيشه الى دمشق فاغار على أعمالها فنهبها وأسروا وقتلوا فارسل السلطان عز الدين فرخشاه في جمع من العسكر اليهم وأمره اذا قاربهم يرسل اليه يخبره على جناح الطائر ليسير اليه وتقدم اليه ان يأمر أهل البلاد بالانزاح من بين يدي الصليبيين فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم فلم يشعر الا والصليبيون قد خالطوه فاضطر الى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس والقي فرخشاه نفسه عليهم وغشي الحرب ولم يكلها الى سواه فانهمز الصليبيون ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفري وغيره ولم يزد عدد عما كر فرخشاه على النفي فارس . وفي هذه السنة أغار البرنس رانود دي شاتيلون على جمع من التركان فاجحف باموالهم وكان صلاح الدين على حصن بانياس فسير اليه ولد أخيه تقي الدين عمر الى حماه وابن عمه ناصر الدين محمد بن شريكوه الى حصن وأمرها بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو

✽ محاربة الصليبيين بمرج عيون وانتصار الاسطول المصري ✽

في ثاني محرم سنة ٥٧٥ هـ جاء الخبر الى السلطان بان الصليبيين قد خرجوا فالتقاهم وتقاتلوا قتالا شديداً وانتصر المسلمون على الصليبيين وأسرت فرسانهم وشجعانهم وانهمزت رجالهم في أول اللقاء فكان من جملة الاسرى مقدم جمعية الهيكلين الرهبانية ومقدم جمعية القديس يوحنا المعمدان وصاحب طبريه وأخو صاحب جبيل وابن بارزان صاحب الرملة وقسطلان يافا وابن صاحب مرقية وكثير من خيالة القدس وعكا وغيرهم من المقدمين الاكابر ما زاد عن مائتين ونيّف وسبعين ثم عرضوا الاسرى على السلطان فامر بنقلهم الى دمشق ومات مقدم جمعية الهيكلين

كانت عساكره مزدهجة على عبور النهر اذ فاجأته العساكر الصليبية بغتة وسرايا المسلمين في القرى مغيرة فوقف الملك المظفر تقي الدين ونازلهم الحرب فاستشهد من أصحابه عدة من الكرام وكان لتقي الدين ولد اسمه أحمد قد طرشاربه فاستشهد أيضاً بعد ما قتل من الصليبيين كثيرين وكان له ولد آخر اسمه شاهنشاه قد أسر بيد الصليبيين بحيلة عماها معه أرمي بدمشق ثم سلمه الى جمعية الهيكلين الرهبانية وتفرقت العساكر الاسلامية بالصحراء وحمل الصليبيون على السلطان فقتل ووقف ومعه من الامراء ابراهيم بن قنار وفضل الفيضي وسويد ابن غنم المصري وصار السلطان يسير ووقف حتى لم يبق من ظن انه تخلف أحدهم العساكر وودخل الليل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل وقد تعسفوا السلوك في تلك الرمال وبقوا أياماً وليالي بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا الى الديار ووقع في الاسر كثير من المسلمين منهم الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير وقد انتهت هذه الواقعة بظفر الصليبيين

﴿محاربة الصليبيين حماء وحارم ورجوعهم الى بلادهم﴾

وصل في سنة ٥٧٣ هـ الى ساحل سوريا من البحر ملك يقال له اقلندس وكان يعتقد خلو الشام من حامية فاجتمع بالصليبيين واتحدوا وساروا الى حماء في ٢٠ جمادي الاولى وكان صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي مريضاً وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب بالقرب منها فدخلها وخرج للحرب وقاتل مع الصليبيين قتالاً شديداً انتهى بكسرهم ورحيلهم عنها بعد حصارهم أربعة أيام ولما قتل من الصليبيين ما يزيد عن الف فارس انهزموا من حماء ونزلوا على حصن حارم فخرج انهم الملك الصالح وكانت حارم تابعة كمشكين فطلب أخذها قابوا تسليمها اليه ولما حاصرها الصليبيون جاء الملك الصالح لمحاربتهم وأقام الحصار من ابتدا شهر جمادي الآخرة فلما رأى أهل القلعة الخطر المحدث بهم من الصليبيين سلموها الى الملك الصالح في العشر الآخر من شهر رمضان وما اتصل ذلك بالصليبيين حتى رحلوا عنها عائدين الى بلادهم وعاد الملك الصالح الى حلب واجتمع قسم من الصليبيين وقصدوا أعمال حمص فنهبوا وغنموا وأسروا وسبوا فصار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم وكن لهم في الطريق فلما وصلوا اليه خرج عليهم من كمينه ووضع السيف فيهم فقتل أكثرهم وأسرى جماعة من مقدميهم ومن سلم منهم لم يفلت الا وهو مثخن بالجراح واسترد منهم جميع ما غنموه فردده على أصحابه وكان ذلك في سنة ٥٧٣ هـ

لمحاربة الصليبيين ايضاً عند ما بلغه خبر خروجهم لانشغال السلطان بمحاربة حلب وغيرها فحاربهم عند عين الجر في تلك المروج فلم يقو عليهم ووقع من أصحابه عدة في الاسر فبلغ ذلك السلطان فارسل اليه جنوداً مصرية فارجعوا الصليبيين على أعقابهم وعاد شمس الدولة الى دمشق وتقابل مع السلطان وفوض السلطان اليه دمشق ليكون امام الصليبيين وعاد هو الى مصر وكان خروجه من دمشق في يوم الجمعة، ربيع اول فوصل القاهرة يوم السبت ١٦ منه

﴿ تقوية اسطول مصر وبعض فتوحات ﴾

بعد رجوع السلطان الى مصر أعجبه حسن تنظيمها وسافر منها في شعبان الى دمياط لتفقد هاونها الى اسكندرية وهناك عرض عليه الاسطول المصري فوجد مرابطاً قد لحقه ضرر كثير فامر باصلاحها وتقويتها وجعل لها ديواناً مخصوصاً (يشابه البحرية) واقام عليه احد الامراء وكتب الى جميع الثغور بان يكون الامر امر قائد الاسطول وله ان يأخذ ما يحتاج من المسافر والمال وكان ذلك في رمضان فرجع الى القاهرة واما بهاء الدين قراقوش فانه سافر الى أوجلة وفتح بلاد فزان باسرها وخرج السلطان من القاهرة قاصداً اعمال الشرقية فاقام بمرج فاقوس وهو يركب الى الصيد والقنص والتطلع لاحوال الصليبيين وفي اثناء ذلك بينما السلطان قد غزم على محاربة الصليبيين بغزة اذ وصلت اساطيل ثغري دمياط واسكندرية باسرى الافرنج وقد اربوا على الالف ففرح السلطان بهذا الانتصار

﴿ حرب السلطان مع الصليبيين وواقعة الرملة ﴾

في شهر جمادي الاول سنة ٥٧٣ هـ سار السلطان بعساكره قاصداً بلاد الافرنج فوصل الى مدينة عسقلان في يوم الاربعاء ٢٩ منه فحارب الصليبيين وكسرهم وأخذ أكثرهم أسرى وتفرق عسكره في الاعمال مغيرين وميدين آمنين من طوارق الحدنان فلما رأوا ان الصليبيين خامدون استرسلوا وتوسط السلطان البلاد واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادي الآخرة بالرملة قاصداً بعض المعامل فاعترضه نهر عايه تل الصافية فازدحمت المساكر للعبور وكان بودوين الرابع ملك القدس قد بلغه خروج السلطان صلاح الدين قاصداً عسقلان فسار بعساكره وعساكر الجمعيات الرهبانيين فاخذوا طريق شط البحر وأخفوا مسيرهم السريع بكيمان الرمل الى ان وصلوا الى عسقلان بدون علم السلطان صلاح الدين ولما

عنده ليعتصد به ويؤوجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون الف دينار فاخذ عشرة آلاف لنفسه وفرق على رجاله عشرين الف دينار وكان الى جانب أوجلة مدينة يقال لها مدينة الازراقية فباع اهلها صنيع قراقوش في أوجلة وانه حرس غلالهم فساروا اليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيريه وطيب هوأه ورغبوه في المسير اليهم على أنهم يملكونه عليهم فاجاب رؤسهم واستخاف على أوجلة رجلا من اصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من اصحابه فحصل لقراقوش اموال كثيرة واتفق ان صاحب أوجلة مات فقتل اهل أوجلة اصحاب قراقوش فجاء قراقوش وحاصرها وفتحها عنوة وقتل من اهلها سبعمائة رجل وغنم اصحابه منها غنيمة عظيمة واستولى على البلد ثم ان اصحابه طلبوا العود الى مصر وخشي قراقوش الاقامه وحده فرجع معهم

﴿ حصار حلب وحرب الاسماعيليه ﴾

لما فرغ السلطان من حرب عزاز سار قاصدا حلب فحاصرها وضرب خيمته على رأس الباروقية فوق جبل جوشن ودخلت سنة ٥٧٢ هـ والسلطان مشدد حصارها فرأى أهل حلب ان لا طاقة لهم به فدخلوا من باب التذلل وطلبوا الصلح فاجابهم وعفى عنهم وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها وأرسل الملك الصالح الى السلطان أخذت خاتون وهي صغيرة فوقف احلالا لها قائما وقيل الارض وبكى على والدها نور الدين فسألته ان يرد عليهم عزاز فقال سمعاً وطاعة فاعطاها اياها وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً واتفق مع الملك الصالح ان يكون للسلطان من حماء وما فتحه الى مصر وان يطلق الملك الصالح أولاد الداية وكان الصلح عاماً لحلب والموصل وديار بكر وبعد ذلك تذكر السلطان ثاره عند الاسماعيليه وكيف رموه بتلك البلية فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصيات ونصب عليه المنجنيقات الكبار وأمرهم قتلوا وأسراً وساق أبقارهم وخرب ديارهم وهدم أعمارهم وهتك أستارهم حتى تشفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي صاحب حماء وكانوا قد راسلوه في ذلك لانهم جيرانه فرحل عنهم وقد انتقم منهم وكان الصليبيون قد أغاروا على البقاع فخرج اليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وهو متولي بعلبك فحاربهم وقتل منهم وأسّر أكثر من مائتي أسير وأحضرهم الى السلطان وهو محاصر مصيات فجدد شوقه لغزو الصليبيين وكان هذا من دواعي مصالحة سنان وعاد الى دمشق وكان شمس الدولة قد خرج منها

تؤثر ضربة الحشيشي شيئاً وأحس بصفايح الحديد على رأس السلطان فمد يده بالسكينة الى خده فخدشته فثبت جأش السلطان وقبض على رأس الحشيشي وجذبه ووقع عليه وادركه سيف الدين بازكوج وقتل الحشيشي وجاء حشيشي آخر فاعترضه الامير داود بن منكلاان فمنعه وجرحه الحشيشي في جنبه ومات بعد أيام وجاء آخر فعاقبه الامير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت إبطيه وبقيت يد الحشيشي من وراءه لا يتمكن من الضرب فصاح الامير علي اقتلوني أنا وإياه ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الحشيشي بسيفه ومازال يخنخض فيه حتى مات ونجا علي بن أبي الفوارس وخرج حشيشي آخر منهزماً فقابله شهاب الدين الحارمي خال السلطان فترزح الحشيشي عن طريقه فقصده اصحابه وقطعوه بالسيوف أما السلطان فسار الى خيمته فهاج العسكر وماج فاضطر السلطان للركوب والخروج ليراه جميع العسكر فسكن هياجهم وكان سبب ذلك ان أهل حلب خافوا من السلطان فارسوا الى سنان رئيس الاسماعيليين مرة ثانية وطلبوا منه قتل السلطان ووعدوه كما فعلوا أولاً فارسل اربعة من اعظم رجاله فترزوا بزي عساكر السلطان واندسوا بينهم وهو محاصر عزاز وحاربوا مع عساكره واظهروا بسالة عظيمة ثم حصل منهم ما تقدم وقلوا

{ استيلاء تور انشاه على حضرموت واستيلاء قراقوش على بعض بلاد المغرب }

في سنة ٥٧١ هـ سار شمس الدولة تور انشاه الى بلاد حضرموت ففتحها واستتاب عنه بها رجلاً كريداً يسمى هارون ثم ولى ثغر تعز مملوكه ياقوت وجعل اليه امر الجند وولى قلعة بمكر مملوكه قايماز ثم سار قاصداً سوريا فوصلها ولحق باخيه وهو يحارب سيف الدين صاحب الموصل فكانت له اليد البيضاء في ذلك . وبلغ قراقوش بان قلعة ازيري هي بوغاز المغرب وكانت خراباً . فاشير عليه بعمارتها وقيل له متى عمرت وسكنها جنود اقوياء شجعان ملكت برقة واذا ملكت برقة ملكت ما وراءها فسار بهاء الدين قراقوش ومعه جماعة من اجناده وماليكه الى القلعة وشرعوا في عمارتها واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فخدته عن بلاد المغرب وذكر له كثرة خيرها وغزارة أموالها وضعف أهلها ورغبه في دخولها فاخذ جماعة من اصحابه وسار في حادي عشر المحرم من هذه السنة فكان يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام فاشرف على مدينة أوجلة فلقى صاحبها واكرمه واحترمه وسأله المقام

وأصبح القوم على مصاف وذلك يوم الخميس عشرة شوال فالتقى العسكران وتصادما
 وجرى قتال عظيم وحمل السلطان بنفسه فأنكسر القوم وأسر منهم جمعاً عظيماً
 من كبار الامراء منهم الامير نغر الدين عبد المسيح فنزل عليهم وأطلقهم وعاد
 سيف الدين الى حلب ووكل السلطان ابن أخيه عز الدين فرخشاه بسرادق
 سيف الدين ثم أمر السلطان بالكف عن باقي العساكر وتسلم ما في السرادق من
 الاموال وما يتبعه من الاصطبلات وفرق جميع ذلك على عسكره ورأى في السرادق
 طيوراً من القماري والبلابل والحزار والبيغاء في الاقفاص فاستدعى مظفر الاقصر
 أحد الندماء وقال خذ هذه الاقفاص واذهب بها الى سيف الدين وقل له عد الى
 اللعب بهذه الطيور فهي سليمة لاتوقعك في مثل هذا المحذور وانها آذ من مقاساة
 الحروب . ثم نزل السلطان على حصن بزاعة وتسلمه في ٢٢ شوال وفتح منبج
 في ٢٩ منه وكان فيها الامير قطب الدين ينال ابن حسان فاخرجه منها وتسلم
 جميع ما بها من الخزائن والذخائر ومن جملة أموالها ٣٠٠ الف دينار ومن النفضة
 والاية الذهبية والاسلحة والذخائر ما يناهز النفي الف دينار وحانت من السلطان
 التفاته فرأى مكتوباً على الاكياس والانيه اسم يوسف فسأل عن هذا الاسم
 فقيل له كان ولد يحبه اسمه يوسف ويدخر هذه الاموال له فقال السلطان انا يوسف
 وقد أخذت ما خبي لي فتعجب الناس من ذلك ثم نزل على عزاز نصب عليها عدة
 منجانيقات وجد في القتال فتسلمها حادي عشر ذي الحجة بعد حصارها ٣٨ يوماً
 وقال العماد قصيدة منها

أعطاه رب العالمين دولة عزت أهل الدين في اعزازها
 حاز العلي ببأسه وجوده وهو أحق الخلق باحتيازها
 بجده أفنى كنوزاً في السلوك في الجدد على اكتنازها
 مهلك أهل الشرك طرأرومها أر منها افرنجها انجازها
 تفاخر الاسلام من سلطانه تفاخر الفرس بباراوازاها

* ماجرى للسلطان مع الحشيشين *

في حادي عشر ذي القعدة بينما كان السلطان محاصراً اعزاز وجالساً في خيمة
 الامير جاولي الاسدي قريباً من المنجنيقات اذ وثب عليه احد الحشيشية أو الاسماعيليه
 فضرب رأسه بسكين فثغته الزردية لانه كان دائماً متخوفاً من هؤلاء الملاعين فلم

الخليفة المستضيء العباسي ومعهم التشريفات الجليلة والاعلام السود وتوقيع من
الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام وفي ذلك يقول ابن سعدان الحلبي
يا أيها الملك العزيز فضله لقد غدت بالعلي مليا
كفى أمير المؤمنين شرفاً انك أصبحت له وليا
طارحك الود على شحط النوى فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من لباسه زخرفة لم يولها قلبك أدميا
نابت الروض سنا وبهجة حتى حكته رونقاً وريا
ثم سار السلطان صلاح الدين الى حصن بعين وحاصره حتى تسلمه
﴿ حرب السلطان مع الموصل وهدنة الصليبيين ﴾

لما دخلت سنة ٥٧١ هـ والسلطان نازل بمرج الصفر من أعمال دمشق جاءه
رسول الصليبيين بطلب الهدنة فاجابه السلطان على ذلك بعد ان اشترط عليهم أموراً
الترموها وأصاب الشام في ذلك العام جذب فاذن السلطان للعساكر المصرية بالرحيل
الى بلادهم ولما علم سيف الدين صاحب الموصل بما جرى بين السلطان والحليين
عتب عليهم ووبخهم ونسبهم الى العجلة وأنفذ من أخذ على الحليين الموائيق بنقض
العهد ثم توجه ذلك الرسول الى دمشق ليأخذ من السلطان العهد القديم فلما خلا
به طالبه السلطان بنسخة العهد (أي الذي تعاهدوا عليه) في السنة الماضية فغدا
الرسول وأخرج نسخة يمين الحليين لهم فتأملها وأطلع على ما اتفقوا عليه من
نقض العهد فردها اليه وقال لعلها قد تبدلت فعرف الرسول انه قد غلط وقال
السلطان كيف حلف الحليون للموصلين ومن شرط ايمانهم انهم لا يعتمدون
الا بمراجعتهم ايانا واستئذناننا ثم شاع خبر خروج الموصلين في الربيع فارسل الى
أخيه العادل بمصر يعلمه بذلك ويأمره ان يأمر العساكر بالاستعداد والخروج في
شعبان وكتب الى الخليفة ببغداد يعلمه بما جرى من الموصلين والحليين ونقضهم
العهد وانه الآن بين عدوين عدو متظاهرين بالاسلام وهم المذكورون وعدو آخر وهم
الصليبيون وطالب منهم ان يأمر ملوك الاطراف بمساعدته على الصليبيين أما سيف الدين
فانه قصد حلب واجتمع بالملك الصالح ثم سار الى ان وصل الى تل السلطان ومعه جمع
كثير وأهل ديار بكر وكانت العساكر المصرية قد وصلت فسار بها السلطان حتى أتى
قرون حماء فبلغهم انه قد قارب عسكرهم فاخرجوا اليه وتبعوا تعبئة القتال

راجعاً الى بلاده وحصل الغرض من رحيل صلاح الدين عن حلب ووصل الى
 حصن قسليم القلعة ورتب فيها والياً من قبله وقال العماد في فتح حصن قسيدة طويلة
 ايا بـن أبوب نحو الشآ م على كل ما يرتجيه ظهور
 بيوسف مصر وأيامه تفر العيون وتشفي الصدور
 رأث منك حصن لها كافيا فواتك منها القوي العسير

ثم سار صلاح الدين الى ان وصل الى بعلبك وكان فيها والي يقال له يمن فلما
 شاهد كثرة عساكر صلاح الدين اضطرب في أمره وراسل من بحلب على جناح
 طائر فلم يرجع اليه منهم خبر فطلب الامان وسلم بعلبك الى صلاح الدين في رابع
 رمضان وعاد الى حصن

* في استقلال صلاح الدين بالملك وسلطنته *

كان امراء حلب قد راسلوا سيف الدين صاحب الموصل يطلبون منه نجدة ابن
 عمه الملك الصالح فارسل لهم جيشاً كبيراً بقيادة أخيه عز الدين مسمود فوصل الى
 حلب بعد رحيل صلاح الدين عنها فخرجت معه عساكر حلب جميعها وساروا الى
 ان وصلوا حماء وحاصروها فلما علم صلاح الدين سار بفرقة من جيشه فتأخرت
 عساكر الموصل وحلب الى قرون حماء وراسلوا صلاح الدين في الصلح فاجابهم
 فطلبوا منه تسليم جميع القلع والحصون وانه يقنع بدمشق وحدها نائباً فيها عن الملك
 الصالح فاجاب فلما رآوه قد اجابهم طمعوا فيه وقالوا لا بد من المصاف ظناً منهم انه
 لكثرتهم وقتله يغلبونه وساروا يناوشونه القتال الى ان وصلت العساكر المصرية
 بقيادة تقي الدين عمر وقام المصاف بين العسكرين فانكسرت العساكر الحلبية
 والموصلية وانهزموا وتبعهم عساكر صلاح الدين واستباحوا أموالهم وخيامهم
 وأثمروا منهم جماعة وأمر صلاح الدين عساكره ان لا يوغلوا في طلبهم ولا
 يقتلوا من رآوه منهزماً ثم رحل حتى نزل بمرج قرأ حصار ولم يزل هناك حتى عيد
 الفطر فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وان يقر الملك الصالح على مافي يده
 وما هو جار تحت حكمه من الشام الاسفل الى بلد حماء فلم يرض بذلك فجعلوا
 له مع حماء الممرة وكفر طاب فرضي بذلك وحلف لهم على ذلك وعاد ثم رأى
 صلاح الدين قواته وانه لا يمكن أحد يعارضه في شيء مما طالما تمناه من استقلاله
 بالملك فصرح بسلطانه على مصر والشام ولما وصل الى حماء وصلت اليه رسل

فسار الى جباب التركان فلقبه أحد غلمان جرديك وأخبره بما جري لسيدته من الاعتقال والقهر فرحل صلاح الدين من ساعته عائداً الى حماه وطلب من أخي جرديك تسليم حماه اليه وأخبره بما جرى على أخيه ففعل وولاهها لآحد امرائه مبارز الدين علي بن أبي الفوارس وذلك مستهل جمادي الآخرة وسار صلاح الدين الى حلب ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة في ثالث الشهر وأمدت عساكره الى الحثاقية والى السعدى فلما رأى من بحلب عساكر صلاح الدين خافوا من الحليين ان يسلموا البلد كما فعل اهل دمشق فاشاروا على الملك الصالح ان يجمعهم في الميدان ويخطبهم بنفسه فامر ان ينادي باجتماع الناس الى ميدان باب العراق فاجتمعوا فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم يا اهل حلب انا ربيكم ونزيلكم واللاجي اليكم كبيركم عندي بمنزلة الاب وشابكم بمنزلة الاخ وصغيركم عندي يحمل محل الولد وختفته العبرة وسبقته الدمة فاقفن الناس وصاحوا صيحة واحدة ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء والويل وقالوا نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك ونبدل اموالنا وانفسنا لك . وأرسل صلاح الدين الى حاب رسولا يطلب الصلح فامتنع كمشكين فاشتد صلاح الدين في قتال البلد . واجتمع الامراء بالملك الصالح ليدبروا الحيل في قتل صلاح الدين فاجمعوا اراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية ومقدمهم ليرسل من يفتك بصلاح الدين وضمنوا له على ذلك اموالاً جمة وعدة من القرى فارسل سنان جماعة من اصحابه الفتاكين فجاءوا الى جبل جوشن واختلطوا بالسكاكر فعرفهم الامير ناصح الدين خارتكين صاحب بوقيس لانه كان مناصراً لهم فقال لهم ياويلكم كيف تجاسرتم على الوصول فقتلوه خوفاً من غائلته وجاء قوم للدفاع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض ووثب احد الاسماعيليه وبيده سكينه مشهورة ليقتل السلطان في خيمته فلما صار الى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله وطلب الباقيين فقتلوا بعد ان قتلوا جماعة ولما نيس من بحلب من هذه الحيلة راسلوا رايغوند صاحب طرابلس ونائب الملك بودوين الرابع وضمنوا له أشياء كثيرة متى فرحل صلاح الدين عن حلب فارسل رايغوند الى صلاح الدين في أمر الحليين وأخبره ان الصليبيين تعاضدوا وصاروا يداً واحدة فقال صلاح الدين لست ممن يهرب تألب الصليبيين وها أنا سائر اليهم ثم انهض قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكية فغنموا غنيمة حسنة وعادوا فقصد رايغوند جهة حمص فرحل صلاح الدين من حلب اليها فسمع رايغوند فنكص

ويوم دمياط والاسكندرية قد أصارهم مثلاً في الارض قد ضربا
والشام لولم يدارك أهله اندرست آثاره وعفت آياته حقبا
ولما اتصل بمن في حلب دخول الملك الناصر دمشق وميل الناس اليه خافوا
منه وأجمعوا على مراساته وارسلوا اليه قطب الدين ينال بن حسان برسالة ارعدوا
فيها وقالوا له (هذه السيوف التي ملكتكم مصر بايدينا والرماح التي حوت بها
قصور المصريين على اكتافنا والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي ترك
وأنت فقد تعدت طورك وتجاوزت حدك وأنت أحد غلمان نور الدين ومن يجب
عليه حفظه في ولده) ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان تلقاه بموكبه وبمنه وببالغ
في اكرامه ثم أحضره بعد ثلاثة أيام لسماع الرسالة منه فلما فاه ابن حسان بتلك
الشقاشق الباطلة وققع بتلك التموهات العاطلة لم يعره صلاح الدين طرفاً ولا سمعاً
وضرب عنه صفحاً وتغاضيا وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له (يا هذا اعلم انني
وصات الى الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الامور وحيطة الجمهور وسد الثغور
وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين) فقال له ابن حسان انك انما حضرت
لاخذ الملك لنفسك ونحن لا نطاولك على ذلك ودون ما ترومه خرط القتاد
وايتام الاولاد فلم يلفت لمقاله واومى الى رجاله باقامته من بين يديه ونادي في
عساكره للاستعداد بقصد الشام الاسفل ورحل متوجهاً الى حصص فتسلمها
وقاتل قلعها ولم ير تضيق الزمان عليها فوكل بها من يحصرها ورحل الى جهة حماه
فلما وصل الى الرستن خرج صاحبها عز الدين جرديك وأمر من فيها من العساكر
بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع اوامره وسار جرديك حتى لقي صلاح الدين
 واجتمع به بالرستن وأقام عنده يوماً وليلة وظهر من نتيجة اجتماعه به انه سلم اليه
مدينة حماه وسأله ان يكون السفير بينه وبين من بحلب فاجابه الى ذلك فلما
وصل حاب اجتمع بالامراء والملك الصالح واثار عليهم بمصالحة الملك الناصر
فاتهمه الامراء بالمخامرة وردوا مشورته واثاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح ولج
سعد الدين كمشكين في القبض عليه فغل بالحديد وحمل الى الحب الذي فيه اولاد
الداية ولما دلوه الى الحب وأحسن به أولاد الداية قام اليه منهم حسن وشمته أقبح
شتم وحلف بالله ان انزل اليهم ليقتلنه فامتنعوا من تدليته وأعلموا سعد
الدين كمشكين فحضر الى الحب وصاح على حسن وشمته وتوعده فسكن حسن
وانزل جرديك الحب . ولم يزل صلاح الدين مقبياً على الرستن ثم طال عليه الامر

وانقطع السور من هناك . وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة الى البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة وجاء طول هذا السور المحيط بالقاهرة ٢٩٣٠٢ بالذراع الهاشمي . وقلعة المقس المذكورة كانت برجاً مطلاً على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير صاحب شمس الدين عند ما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٧ هجرية وجعل في مكان البرج المذكور جنيحة . وحفر بهاء الدين خارج السور خندقاً جعله من باب الفتوح الى المقس ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر الى باب البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بأبراج مبنية بالحجارة الا ان هذا السور الثاني هدم جميعه والخندق ردم الا في بعض الاماكن

﴿ مسير الملك الناصر صلاح الدين الى سوريا واستيلاءه على دمشق وغيرها ﴾
بعد تولية قراقوش حكم مصر سار صلاح الدين قاصداً سوريا فخرج الى البركة في مستهل صفر سنة ٥٧٠ وأقام حتى اجتمع العسكر ثم رحل الى بليس في ١٣ ربيع اول وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى وشمس الدين بن المقدم عنده تستورى في الحث والبعث زنده وتستقدمه وجنده وسار مجدداً حتى أناخ على بصرى فاستقبله صاحبها وشدد ازره وسار صلاح الدين في آخر شهر ربيع الاول الى ان وصل الى دمشق ودخلها وكان يظن عكس ذلك ودخل الى دار العقيقي مسكن أبيه وبقي في قلعة دمشق جمال الدين ربحان الخادم بدون تسليم فراسله حتى استماله بالمال وتملك المدينة والقلعة ونزل بالقلعة سيف الاسلام اخو صلاح الدين وأظهر انه جاء لتربية الملك الصالح وحفظ ماله وبلاده وتدبير ملكه فهو أحق بصيانة حقه واجتماعه أعينها وفرق فيهم المال وخطب للملك الصالح ومدحه وحيش الاسدي بقصيدة اولها

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا	فكن لضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد	أدنى فريسته الايام ان وثبا
رأيت جلق ثغراً لا نظير له	فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها	وأزعم الخلق من أوطانها هربا
أحببتها مثل ما أحيت مصر فقد	أعدت من عدلها ما كان قد ذهب

الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل او قلعة القاهرة . وجعل قراقوش في القلعة بئراً
تقرأ في الصخر عميقاً جداً يسع كلا تحتاج اليه الحامية من الماء ولا يزال البئر والقصر
الى هذه الساعة يعرفان باسمه فالبئر (يدعى ببئر يوسف) ويظن بعض العامة انه
سمي هكذا نسبة الى يوسف الصديق ابن يعقوب والصحيح نسبتها الى يوسف صلاح
الدين الذي أمر باحتفاره والمظنون ان هذه البئر كانت محفورة من أيام قدماء
المصريين ثم طمرت بالرمال فاعاد صلاح الدين حفرها وتسمى أيضاً بالحلزون وما
بقي من القصر يعرف بديوان يوسف أو ديوان صلاح الدين . وابتنى قراقوش أيضاً
حواصل كبيرة في الفسطاط (مصر القديمة) لحزن الحاصلات التي ترد من الاقاليم
سنوياً ولا تزال تدعى الى يومنا هذا بمخازن يوسف وقطن بعض المتفرجين والعامة
انها من بناء فرعون في أيام يوسف الصديق . وبعد ان فرغ قراقوش من اصلاح
الترع والخجان والطرق وبناء القلعة أخذ بهم باتمام سور القاهرة وكان صلاح
الدين ابتداء بعمارته سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ على وزارة العاضد فعمل له قراقوش
رسماً عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاط وقصر الشمع وما بينها من الارض الا
انه استعظم ببناء هذا الاتساع فجعله محيطاً بالقاهرة والقلعة فقط واضطر لقيام مشروعه
هذا ان يهدم جوامع وبيوتاً وقبوراً كثيرة كانت قائمة في مكان السور ولم يكن
الاهالي معتادين على الاذعان لاوامر صلاح الدين كسلطان وكان بعضهم لا يزال
متشيعاً للدولة الفاطمية فاتهموه بالاستبداد ولقبوا بهاء الدين بقراقوش
أي الطير الاسود وهو العقاب ولا يزال بعض عامة الشرقيين يصفون هذا الاسم
بالاستبداد والعسف وينسبون اليه أحكاماً عجيبه في ولايته حتى ان الاسعد بن مماتي
له كتاب لطيف سماه الغاشوش في أحكام قراقوش وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه
والظاهر انها موضوعة لان صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ولولا
وثوقه بمعرفته وكفاءته ما فوضها اليه وكان قراقوش رجلاً سعيداً وصاحب
همة عالية .

وهذه هي المرة الثالثة لبناء سور القاهرة في المرة الاولى بناه جوهر وفي الثانية
بناه أمير الحيوش وفي الثالثة قراقوش بامر صلاح الدين فزاد فيه قطعة من باب
القنطرة الى باب الشرعيه ومن باب الشرعية الى باب البحر وبنى قلعة المقس وهي
برج كبير جعله على النيل بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع أولاد عنان
وهو خارج باب البحر على يسار الذهاب من الشارع الجديد الى محطة السكة الحديد

الصلاح بن نور الدين من الامراء الى صلاح الدين ولا أعلموه بما كان فكتب
الى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته
ويمنعه وكتب الى الامراء يقول (ان الملك العادل لو علم ان فيكم من يقوم بمقامي
أو يشق اليه مثل ثقته بي سلم اليه مصر التي هي اعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل
عليه الموت لاقامي وصياً على ابنه وأرى انكم تحاولون اخراج يدي ولكني سأذهب
الى دمشق بنفسي وأقدم عبودي الى هذا السلطان الجديد معترفاً بالافعال العظيمة
التي حملتها أبوه أما أنتم فسأعاملكم بمقتضي تصرف كل واحد منكم فاني أعتبركم
قوماً تلقون القلاقل والفتن في البلاد) ثم ان صلاح الدين أقام خصيه بهاء الدين
قراقوش حاكماً على مصر في غيابه وتجهز للسفر الى البلاد السورية

● حكم قراقوش وبناء القلعة والسور وغيرهم ●

لما عزم صلاح الدين على السفر الى سوريا وأقام بهاء الدين الاسدي قراقوش
حاكماً بمصر مدة غيابه وعهد اليه تدبير الاحكام وأمره ان يقيم البناءات اللازمة
لرواق البلاد ومنعتها ومنفعاتها فأفخذ بهاء الدين ما عهد اليه بغيرة ونشاط وكانت
جسور النيل قد أهمل شأنها منذ تولي الخلفاء الفاطميين فكان اذا فاض طفت
مياهه على الاراضي وخربت الطرق وأفسدت الزرع فهدم الطرق واحفر الترع
وأقام الجسور والسدود واستخدم لذلك حجارة بعض الاهرام الصغيرة التي كانت
تحيط باهرام الحيزه وغيرها من أبنية المصريين القدماء وأنشأ طريقاً تمتد طويلاً على
ضفة النيل فقيها من صدمات المياه وتسهل صلات العاصمة مع مصر العليا والسفلى
وشاد فوق الترعة التي كانت تجري بين الحيزه واهرامها جسراً عظيماً مؤلفاً من
أربعين قطرة لا يزال بعضها باقياً الآن

ولم يكن لصلاح الدين اذ ذاك مسكن الا القصران اللذان كانا مسكناً للخليفة
والوزير السابقين ولم يكونا منيعين حق المنعة فجعلهما منزلاً لضباط الحكومة وقواد
الحيوش وشاد عند الطرف الشمالي من جبل المقطم على سفحه قلعة منيعة لارهاب
الاهالي اذا حاولوا العصيان وجعل فيها قصراً لبلاطه وكان في ذلك المكان بناء قديم
من عهد الدولة الطولونية يعرف بقصر الهوى فهدمه وأقام القلعة على انقاضه
وأثنى بحجارتها من خرائب منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف
على كل المدينة وليس في القاهرة بناء آخر أعز موقعاً منها وهي التي لا تزال باقية

المملوك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجموا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعسكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا الى القتال وقد زال ما بهم من التعب وألم الجراح وكل منهم يظن ان صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله. وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين وعساكره فبكت أيديهم وازدادوا تعباً وفتوراً فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام. ووصلوا الى خيأهم فضموها بما فيها من الاسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة وكثر القتل في رجالة الافرنج فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانهم الى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب البعض وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الافرنج ففرقت نخاف الباكون من ذلك فولوا هاربين واحتجى ثلثمائة من فرسانهم على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى بكرة ودام القتال الى ان أضحى النهار فغلبهم اهل البلد وقهروهم فساروا بين قتيل وأسير ونهب المسلمون ما لا يحصى وأقلعت باقي مراكب الاسطول في يوم الخميس اول محرم سنة ٥٧٠

﴿ واقعة الكنز وقته ﴾

الكنز هو رجل مصري كان مقدماً على فرقة من الجيش وفي أول محرم سنة ٥٧٠ قام المذكور في الصعيد وجمع من كان في البلاد من العربان والعبيد وغيرهم خلق كثير وكان هناك أمير من الامراء الصلاحية أخ لحسام الدين أبو الهيجاء السمين ففتك به وبمن معه هناك فعظم قتله على أخيه وهو من اكبر الامراء وأشجعهم وطلب أخذ الثار وساعده سيف الدين (أخو صلاح الدين) وعز الدين موسك ابن خاله وعدة من أمراءه ورجاله وجاؤا الى مدينة طود فاحتمت عليهم فقاتلوا من فيها فظفروا بهم وقتلوا منهم كثيراً وذلوا بعد العز ثم قصدوا الكنز ورجاله وحاربوهم وقتلوا الكنز ومن معه من الاعراب والعبيد واطمأنت بعد قتله البلاد ولم يبق للدولة الصلاحية بعد كنزها كنز يفسد عليها بلادها وكان ذلك في شهر صفر سنة ٥٧٠

﴿ عزيم صلاح الدين على المسير الى بلاد سوريا ﴾

بعد انقضاء واقعة الكنز وخلو الديار المصرية من الفتن بلغ صلاح الدين ان سيف الدين غازي بن قطب الدين سار وملك بلاد الجزيرة ولم يرسل من مع الملك

• ورود اسطول جزيرة صقلية ومحاصرة الاسكندرية •

تقدم ان جماعة من المصريين كاتبوا الصليبيين في سوريا وجزيرة صقلية ولما احس صلاح الدين صلهم ورسول الصليبيين في مصر فاعلم أمحابه في سوريا بما كان أما ملك صقلية فلم يعلم ما تم فارسل أسطولا عظيما في أواخر شهر الحجة سنة ٥٦٩ الى نهر الاسكندرية ففي يوم الاحد ٢٦ منه وقت الظهر وصل أول الاسطول وظل يتنايع الى وقت العصر وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر (الناضورجية) فلا البحر لوفور عدته وكثرة مزايكه لانه كان يحتوي على ٣٦ طريدة تحمل الخيل و ٢٠٠ شيني (مركب حربية) في كل شيني ١٥٠ راجلا وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار وغيرها ست سفن وأربعين مركباً تحمل الازواد وصناع المراكب فكان عدد المقاتلين ثلاثين ألفاً ما عدا صناع المراكب وأبراج الزحف والدبابات والمنجنقات فيبلغ عدد جميعهم ٥٠ ألف رجل ولما تكاملوا نزلوا على البر وحملوا على المسلمين حملة أوصلوهم الى السور وفقد من أهل الثغر سبعة انفس وقتل محمود بن البصار وزحفت مراكب الافرنج داخله الى المينا وكان بها مراكب حربية ومراكب تجارية فصب الافرنج المنجنقات والدبابات وقتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر الا القليل ورأى الافرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم أما أهلها فانهم أرسلوا الى صلاح الدين وكان مقبياً بفاقوس بواسطة الحمام يعلمونه بالخبر ويطلبون منه المساعدة لدفع العدو عنهم ودام القتال اول يوم وعاود الافرنج القتال في اليوم التالي ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قرب السور ووصل في ذلك اليوم من العساكر الاسلامية كل من كان في اقطاعه قريباً من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الافرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال حتى ظهرت لهم أمارات النصر ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل أهل البلد وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من ظفرهم وفشل الافرنج وقتور حريمهم وكثرة القتل والجراح في العدو وأما صلاح الدين فلما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكاه ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها الى الاسكندرية مبشراً بوصولهم وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها فسار ذلك

والنذر الذي يحمل على الايدي والقلوب)

﴿ حصار الصليبيين حصن بانياس وعودهم عنه ﴾

لما مات نور الدين اجتمع الصليبيون لطمعهم في بلاده وساروا الى قلعة بانياس من أعمال دمشق فحصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم العساكر بدمشق وراسل الافرنج ولاطفهم ثم أغلظ لهم في القول وقال لهم ان انتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فتحن على ما كنا عليه والا فنرسل الى سيف الدين صاحب الموصل ونعلمه ونصالحه ونستجده ونرسل الى صلاح الدين بمصر فنستجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها وانتم تعلمون طمع صلاح الدين في بلادكم واذا طلبناه لذلك فلا يمتنع فعلموا صدقه فصالحوه على شيء من المال أخذوه وأسرى كانوا عند المسلمين أطلقوهم وتقررت الهدنة فلما سمع صلاح الدين بذلك انكره ولم يعجبه وكتب الى جماعة الاعيان كتباً دالة على التوبيخ والملام ومن جملتها كتاب الى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون يخبره فيه انه لما باغى قدوم الصليبيين خرج وسار أربعة مراحل ثم جاءه خبر الهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة واطلاق الاسارى وان ذلك لا يصح وكان يجب الانتظار لحين حضوره

﴿ وفاة الملك أموري وتولية ابنه الملك الابرس ﴾

في سنة ٥٧٠ توفى الملك أموري ملك القدس وقد كان طماعاً عديم الفطنة حق انه اتفق جميع خزائنه في طلب امتلاكه الديار المصرية ولم يحصل له ثمرة مطلقاً خلاف الحسائر التي عادت عليه وعلى قومه لانه قبل حروبه مصر كانت مراكبهم تأتي اليها بالتجارة وتأخذ منها المحصولات ولما علموا غدره منعوا من دخول البلاد المصرية وكان كثيراً ما تخرج المراكب المصرية في البحر تبحث على مراكب الصليبيين ونهبها وتأخذها وبعد وفاته تولى ابنه بودوين الرابع وكان عمره ثلاث عشرة سنة وذلك في سنة ١١٧٤ افرنكيه ولهذا الملك صفات جليله ولكن لسوء حظه ابتلى بمرض البرص ولذلك لقبوه بالملك الابرس والمرضه وعجزه عن تدبير المملكة اقيم له وكيل ملوكي (نائب الملك) وهو راييموند صاحب طرابلس وهو رابع اولاد راييموند دي سان غيلاس

بلعة الخوانيق وطلب بعض الأطباء فلم ينفع فيه الدواء وعظم الداء فمات يوم الأربعاء
الحادى عشر من شوال سنة ٥٦٩ وكان شجاعاً باسلاً وفاضلاً باراً وكان محبوباً معترفاً
عند المسلمين والصليبيين أعدائه وكانت مملكته شاملة جميع سوريا الشرقية وقسم
من سوريا الغربية والموصل وديار بكر وديار الجزيرة ومصر وبعض بلاد المغرب
وبلاد اليمن وكانت وفاته بدمشق ودفن فيها وقال فيه العماد

ياملكا أيامه لم تزل لفضله فاضلة فاخرة
غاصت بحمار الجود مذغيب انملك الفاضلة الزاخرة
ملكك دنياك وخلفها وسرت حتى تملك الآخرة

وقال أيضاً

لفقد الملك العادل يبكي الملك والعدل وقد أظلمت الافاق لاشمس ولاظل
ولما غاب نور الدين عنا أظلم الحفل وزال الحصب والخير وزاد الشر والحل
ومات البأس والجود وعاش اليأس والبخل وعن النقص لماهان أهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو العلم اذا مانفق الجهل وما كان نور الدين لولا نجسه مثل
وملك بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل ولم يبالغ الحلم وحلف له الامراء والمقدمون
بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام وتولى تربيته الامير شمس الدين
محمد بن المقدم ثم كتب الملك الصالح الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كتابا
يخبره فيه ب وفاة والده طالباً منه المساعدة والمعاونة على قتال الصليبيين فخطب الملك
الناصر له بمصر وضرب السكة باسمه وأرسل اليه صلاح الدين كتابا بتعزيته وافصحته
مع رجال دولته ومما فيه (الله الله ان تختلف القلوب والايدي فتبلغ الاعداء مرادها
وتعدم الآراء رشادها وتتقل النعم التي تمت الايام فيها الى ان اعطت قيادها فكونوا
يداً واحدة واعضاداً متساعدة وقلوباً يجمعها ود وسيوفا يضمها غمد ولا تختلفوا
فتشكلوا ولا تنازعوا فتفسلوا وقوموا على أمشاط الارجل ولا تأخذوا الامر
باطراف الانمل فالعداوة محدقة بكم من كل مكان والكفر مجتمع على الايمان ولهذا
اليث منا ناصر لانخذله وقائم لانسلمه وقد كانت وصيته الينا سبقت ورسالته عندنا
تحققت بان ولده القائم بالامر وسعد الدين كمشتكين الاتابك بين يديه فان كانت الوصية
ظهرت وقبلت والطاعة في الغيبة والحضور أديت وفعلت والا فتحن لهذا الولد يد
على من ناواه وسيف على من عاداه وان اسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب

بأنهم متى حضروا الى مصر وخرج صلاح الدين لمحاربتهم نارواهم في القاهرة
وأعادوا الدولة العلوية وان بقي صلاح الدين بمصر فيكون عساكره بعيدة عنه
فيثبوا عليه ويقبضوه باليد واشترك معهم زين الدين علي بن نجار الواعظ فعينوا
الخليفة والوزير فكل من بني رزيك وبني شاور طلبها لنفسه ورتبوا القضاء ودأى
الدعاة والحاجب ثم توجه زين الدين الى صلاح الدين وأعلمه بواقعة الحال فامرهم
بملازمتهم ومخاطبتهم على ما يريدون وان ينقل اليه أخبارهم يوماً فيوماً
ففعل وأطلعهم على كل ما يجري ثم وصل رسول من ملك الافرنج أموري بهدية
ورسالة وهو في الظاهر لصلاح الدين وفي الباطن للجماعة المؤامرين وكان يرسل
اليهم بعض النصارى وتأتيهم رسالهم تأتي الخبر الى صلاح الدين من بلاد الافرنج
بجيلة الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يتق اليه من النصارى وداخله
فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على جميع المؤامرين وصلبهم في
ثاني يوم رمضان سنة ٥٦٩ هـ وفي مقدمتهم عمارة البيني وفي هذه القضية قال العلامة
تاج الدين الكندي

عمارة في الاسلام أبدى جنابة	وباع فيها بيعة وصلياً
وأسمى شريك الشرك في بغض أحد	فأصبح في حب الصايب صلياً
وكان خيث الملتقى ان عجمته	تجد منه عوداً في النفاق صلياً
سياق غداً ما كان يسعى لاجله	ويسقى صديداً في لظى وصلياً

وصلياً في البيت الاول بمعنى النصارى وفي الثاني بمعنى مصلوب وفي الثالث بمعنى
الصلابة وفي الرابع ودك العظام وقيل انه الصديد أيضاً أي يسقى ما يسيل من أهل
النار وكان عمارة هذا عربياً فقهياً أدبياً

وفاة الملك العادل محمود أتابك نور الدين

ظل الملك العادل نور الدين حانقاً على صلاح الدين لانه رأى منه فتوراً في
محاربة الصليبيين فارسل الى الموصل وديار بكر وديار الجزيرة يطلب العساكر
للمسير الى مصر لاجراج صلاح الدين منها ووافق ذلك عيد الفطر في ثاني يوم
خرج نور الدين ومعه امرأه الى ان نزل الميدان وكان معهم هام الدين مودود وهو
من أكابر دولته فقال لنور الدين هل نكون هنا في مثل هذا اليوم من العام القابل
فقال نور الدين قل هل نكون بعد شهر فان السنة بعيدة ثم ان نور الدين مرض

﴿ استيلاء شمس الدولة تور انشاء على بلاد اليمن ﴾

جرت في مصر مؤامرة سرية بالانتقام من الدولة الايوبية لم ينفضها اصحابها لحوفهم من عقباها عليهم وخصوصاً من قوة تور انشاء فلذلك أخذ احد المتآمرين المدعو عمارة اليمني الشاعر يصف في بلاد اليمن لتور انشاء وبمظلمها في عينه ويطلب منه الخروج اليها للاستيلاء عليها ففي شهر رجب سنة ٥٦٩ هـ امر صلاح الدين أخاه شمس الدولة تور انشاء بالمسير فصار بعد ان جند الاجناد وتجهز بالآلات الحزب قاصداً اليمن فوصل الى مكة المكرمة وسار منها الى زبيد فلما قرب منها خرج اليه صاحبها عبد النبي ومعه رجاله وتقاتلوا فانهزم اهل زبيد فبعثهم شمس الدولة بعسكره الى ان وصل الى سور المدينة فلم يجدوا من يمنعهم فنصبوا السلام وصعدوا على السور وملكوا المدينة غنوة ونهبوها وأخذ عبد النبي وزوجته أسيرين وولي على المدينة سيف الدين مبارك بن منقذ ثم سار الى عدن وهي محصنة من جهة البر تحصيناً عظيماً وصاحبها اسمه ياسر فخرج بعسكره الى شمس الدولة لمحاربتة فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل اهله فلكوه وأخذوا صاحبه ياسر أسيراً وأرادوا نهب البلد فنعهم شمس الدولة وقال ما جئنا لتخرب البلاد وانما جئنا لنملكها ونعمرها فاستتاب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي ثم فتح حصن تمز وغيره واستولى على مدينة الجند وصنعاء التي حرقت قبل دخوله ثم عاد الى زبيد فوجد ابن منقذاً قتل عبد النبي بعد ان وقف منه على معرفة جميع كنوزه المدفونة وأرسل الى شمس الدولة صاحب طمار وبقي الملوك وصالحوه على أداء المال فكتب شمس الدولة تور انشاء الى اخيه صلاح الدين بمصر يعلمه بما من الله عليه من الفتح وانه أبطل الخطبة المهدية (التي كانت لعبد النبي لانه كان يدعي الامامة) وخطب للعباسيين

﴿ ظهور المؤامرة وصاب اعضائها ﴾

بعد مسير شمس الدولة الى البلاد اليمنية اجتمع جماعة منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العوريس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين والسودانيين وحاشية القصر ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الافرنج من ساحل الشام وجزيرة صقلية الى مصر ليلكوها ويعيدوا الدولة الفاطمية العلوية على شيء بذلوه من المال والبلاد ووعدوهم

كان جالساً مع ولده صلاح الدين في دار الوزارة وحولهما أرباب الدولة اذ تقدم كاتب نصراني كان في خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين والتفت الي نجم الدين وقال له يامولاي هذا تأويل مقالتي لك حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال صدقت والله ثم حمد الله وشكره. والتفت الي الحاضرين الذين حوله من قضاة وأمرأء وقال لكلام هذا النصراني حكاية عجيبية وذلك انني ليلة رزقت هذا الولد يعني السلطان الملك الناصر أمرني صاحب قلعة تكرت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من اخي أسد الدين وقتله النصراني وكنت قد الفت القلعة وصارت لى كالوطن فتقل علي الخروج منها والتحول عنها واغتممت لذلك وفي ذلك الوقت جاني البشير بولادته فتشأمت به وتطيرت لما جرى عليّ ولم افرح به ولم استبشر وخرجنا من القلعة وانا على طيرتي به لا أكاد اذ كره ولا أسميه وكان هذا النصراني معي كاتباً فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشأام به طلب مني أن أذن له في الكلام فاذنت له فقال يامولاي قد رأيت ما حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي وأي شيء له من الذنب وبما استحق ذلك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغي شيئاً وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله ثم ما يدريك ان هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت جليل القدر فمعتفني كلامه عليه وها هو قد اوقفني على ما كان قاله فتمعجب الجماعة من هذا الاتفاق

﴿ استيلاء بهاء الدين قراقوش على طرابلس الغرب وغيرها ﴾

في سنة ٥٦٨ هجرية أيضاً سار طائفة من الترك بقيادة بهاء الدين قراقوش من الديار المصرية الى جبال نفوسه واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من أعيان الامراء هناك وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن صاحب الغرب فاتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها وفتحها بالقوة فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيراً من بلاد الغرب ما خلا المهديه وسفاقس وقفصه وتونس وما والاها من القرى والمواضع وصار مع قراقوش عسكر كثير فحكم على تلك البلاد باسم الديار المصرية وجمع منها أموالاً عظيمة خزنها في مدينة قابس وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع بلاد المغرب

بالامير نجم الدين وكان السلطان مسعود وأتابك زنكي قد طعما ببغداد فسارا الى
 أن وصلا تكريت فتقابلا مع قراحه الساقى وهو أتابك بن السلطان محمود فجرد
 الف فارس عليهم ثم اردفهم بمسكر كثير فانهزم زنكي وقتل جماعة من اصحابه
 وجلة ممن كان في عسكره ولجأ الى سور تكريت وبه عدة جراحات وعلم به الامير
 نجم الدين وأخوه شيركوه فاصعداه القلعة بحبال ودأوا جراحاته وخدماه أحسن
 خدمة فاقام عندهم بتكريت خمسة عشر يوماً ثم سار الى الموصل وأعوزة الذهب
 فاعطياه جميع ما كان عندهما من الدواب حتى انهما اعطياه جلة من البقر حمل عليها
 ما سلم معه من امتعته فكان زنكي يرى لايوب هذه اليد ويعرف له هذه الصديعة ويواصله
 بالهدايا والالطاف مدة اقامته في تكريت وفي ذات يوم نزل أسد الدين من القلعة
 لبعض أشغاله ثم عاد اليها وكان بينهما وبين كاتب صاحب القلعة وهو نصراني ضغائن
 فاتفق في ذلك اليوم ان النصراني صادف أسد الدين صاعداً الى القلعة فعبث به
 بكلمة مضرة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني وصعد الى القلعة وكان مهيباً
 فلم يتجاسر أحد على معارضته وأخذ النصراني رجله والقاء من القلعة فبلغ بهروز
 صاحب القلعة ماجرى وحضر عنده من خوفه جراءة اسد الدين لانه ذو عشيرة
 كبيرة ولان أخاه نجم الدين استحوذ على قلوب الرعايا وربما كان منهما امر تخشى
 عاقبته ويصعب استدراكه فكتب الى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من أخيه
 ويأمره بتسليم القلعة الى نائب سيره بحجة الكتاب فاجاب نجم الدين الى ذلك بالسمع
 والطاعة وانزل من القلعة جميع ما كان له فيها من أهل ومال واجتمع هو وأخيه
 اسد الدين وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل وعظم على أهل تكريت
 خروج نجم الدين من القلعة وخرجوا جميعاً لتوديعه وبكوا واسفوا على مفارقه
 ولما اتصل بعماد الدين زنكي خبر قدومهما فرح لذلك وأمر الموكب بلقائهما
 واكرمهما اكراماً عظيماً واقطعهما في بلد شهر زور اقطاعاً سنياً وقيل انه اقطع
 أسد الدين بالموزر وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة وساعد
 أسد الدين وأخاه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك وجعلهما عنده في منزلة
 عالية وخرجا معه الى الشام وشهدا معه حروب الصليبيين وكان لاسد الدين في
 تلك المواقع اليد البيضاء واقاما في خدمة ولده الملك العادل محمود نور الدين الى أن
 أرسل أسد الدين لفتح مصر كما تقدم وأرسل نجم الدين الى ولده صلاح الدين
 بشأن قطع خطبة الفاطميين والخطبة للعباسيين ومما يحكى عن نجم الدين انه بينما

جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة ذبدان ففرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه ورجع من بقي منهم الى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها واخذوها فعاد السودانيون اليها وملكوها وانفذ ملك النوبة رسولا الى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هديه جارية وعبد فكتب اليه الجواب وأعطاه زوجتي نشاب وقال ما لك عندي جواب الا هذا وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبي وأوصاه ان يكشف له خبر البلاد ليدخلها فصار الحلبي مع الرسول حتى وصل دقته وهي مدينة الملك فوجدها بلاداً ضيقة ليس بها ذرع الا الادره وعندهم نخل صغار وليس بالمدينة عمارة الا دار الملك فقط وباقيها أخصاص ولما مثل امام الملك أمر ان تكوى يده فكوى عليها هيئة صليب وأمر له بخمسين رطل من الدقيق وصرفه

﴿ وفاة نجم الدين ايوب وبعض سيرته ﴾

في أثناء محاصرة صلاح الدين الكرك والشوبك توفي والده نجم الدين أيوب بمصر وكان راكباً فرسه بالقاهرة فشب به عند باب النصر يوم الاثنين ١٨ ذي الحجة سنة ٥٦٨ وحمل الى منزله وعاش ثمانية أيام وتوفي الى رحمة ربه في ٢٧ منه فدفن بالقاهرة الى جانب اخيه أسد الدين بالدار السلطانية الى أن نقل الى المدينة المنورة وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً وباه مزدحم الوفود وهو متاف الموجود ببذل الجود وكان شديد الركض ولعاً بلعب الكرة فلما وصل خبره الى ولده صلاح الدين اشتد روعه وحزن عليه حزناً شديداً وتجلد بالصبر وقال وتحطفته يد الردي في غيبي هبني حضرت فكنت ماذا أصنع وهو الامير نجم الدين أيوب بن شاذي ولا يعرف في نسبه أكثر من والده شاذي وكان مولده ببلد شبختان وقيل بجبل جور وربي في بلد الموصل ونشاء شجاعاً باذلاً وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه امانة وعقلا وسداداً وشهامة فولاة قلعة تكريت فقام في ولايتها أحسن قيام وضبطها اعظم ضبط وأجنى عن ارضها المفسدين وقطاع الطريق حتى عمرت وحسن حال أهلها فلما ولي السلطان مسعود الملك أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز خادم شحنة بغداد ومتولي العراق فاقر الامير نجم الدين في ولاية تكريت وأخاف اليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبیت عقاله وجعل جميع ذلك منوطاً

فأخذها وأخذها في شهر الحجة واتفق خروج الملك اموزي للاغارة على رواد من ناحية حوران وهو في جمع كثير من عساكره فنزلوا في قرية تعرف بسمسكين فركب نور الدين اليهم وأقبل بعساكره عليهم فلما عرفوا وصوله رحلوا الى الفوار ثم الى السواد ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين في عشترا فارسل سرية الى أعمال طبرية واغتم خلوها فتوجهت اليها السرية وأغارت عليها ونهبها فلما عادت لحقها الصليبيون عند المخاضه فوقفت الشجعان حتى عبرت السرية بما معها من الغنائم ولم يالحق بها ضرر أما صلاح الدين فانه سار قاصداً بلاد الكرك والشوبك لانها أقرب اليه وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ولا يمكن ان تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فاراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة نفرج الى الكرك وحاصرها وجرى بينه وبين الصليبيين وقعات كثيرة فبرح بهم وفرق عنهم عزمها وخرب عماراتها وفرق على أعمالها سراياه بغاراته فامتعت عنها العرب بعد ما كانت تتحد مع الافرنج دائماً

فتح بلاد النوبة

اجتمع السودانيون ببلاد النوبة وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر وصاروا الى أعمال أصوان وكان بها الأمير كثر الدولة فأنفذ يعلم الملك الناصر صلاح الدين وطلب منه نجدة فأنفذ فرقة من جيشه مع الشجاع البعلبكي فلما وصل الى أصوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد ان أخبروا أرضها فاتبعهم الشجاع والكنز فخرجت بينهم حرب عظيمة قتل فيها كثير من الفريقين ورجع الشجاع الى القاهرة واخبر بفعال العبيد وتمكنهم من بلاد اصوان فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف فوجدتهم قد دخلوا بلاد النوبة فسار قاصداً بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة وأمرها بالحقاقه الى بلاد النوبة فلما وصل نزل على قلعة ابريم واقتحمها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها من المال والميرة وخلص جماعة من الاسرى وأسرى من وجده فيها وهرب صاحبها . ثم رجع شمس الدولة الى اصوان ثم الى قوص وكان في صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم فاقطعه اياها وأنفذ معه جماعة من الاكراد البطالين فلما وصلوها تفرقوا فرقا وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة حتى ربحوا بها واكتسبوا أموالا كثيرة فمت أرزاقهم وكثرت مواشيهم واتفق انهم عدوا الى

شهاب الدين خالك وهل تظن بين هذا الجمع من يحبك ويخلص لك أكثر منا)
قال لا فقال (اعلم يا يوسف اننا والله لو رأينا نور الدين لم نمكك الا ان تقبل ركابه
وقتل بين يديه ولو أمرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما
ظنك بغيرنا . وكل الذين تراهم عندك من الامراء لو رأوا نور الدين وحده لم
يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها
فان أراد سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه بلغني انك تريد
الحركة الى هذه البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً
ويأخذني اليك وما هنا من يمنع) ثم قام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا
وأكثرهم أرسل الى نور الدين بما تم . ثم خلا نجم الدين أيوب بولده صلاح الدين
فقال له (أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك
فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الامور اليه ويقصدك
فلم تر معك من هذا العسكر أحداً وكانوا أسلموك اليه أما الآن بعد هذا المجلس
فسبكتبون اليه ويعرفونه قولي وما أظهرنا من الطاعة له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار
تعمل عملها والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى
أمنعه أو أقتل) ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه . فلما وصل كتاب صلاح
الدين الى نور الدين كما قصه أبوه سكى روعه وتوقف عن المسير الى مصر ثم أرسل
صلاح الدين الى نور الدين ستين الف دينار ومعها جملة من الهدايا فقال نور الدين
ما كانت بنا حاجة الى هذا المال ولا نسد به خلة الاقلال فهو يعلم انا ما انفقنا
الذهب في ملك مصر وبنا الى الذهب فقر وتمثل بقول أبي تمام
لم ينفق الذهب المربي بكثرة على الحصا به فقر الى الذهب
وقال انه يعلم ان ثغور الشام مفتقرة الى السداد ووفور الاعداد من الاجناد
ويجب عليه المعونة بالامداد وأرسل الموفق القيسراني وزيره الى مصر وأمره بعمل
حساب البلاد وايرادها ومصرفها لاجل تقرير شيء على صلاح الدين يدفعه في
كل سنة

﴿ محاربة نور الدين وصلاح الدين الصليبيين ﴾

في سنة ٥٦٨ سار كل من نور الدين بجيشه وصلاح الدين بجيشه لمحاربة الافرنج
فسار نور الدين الى مرعش فحاصرها وفتحها في شهر القعدة ثم سار الى بهسني

فاذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه بورقة علقوها بالطائر وأطلقوه الى المدينة التي هو منها فيصلها في ساعته فنقل الرقعة منه الى طائر المدينة الثانية وهكذا الى المدينة المقيم فيها الملك العادل فانحفظت الثغور بذلك حتى ان طائفة من الصليبيين نازلوا نغراً له فآناه الخبر في أول يوم فكتب نور الدين الى العساكر المجاورة الى ذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو وأرسله على طائر الحمام ففعلوا ذلك فظفروا فما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد

✽ النفور بين صلاح الدين ونور الدين ✽

كان صلاح الدين مع تظاهره في تأييد سلطة الخلفاء العباسيين لا يفر ساعياً الى اتمام مقاصده التي كانت لا تزال تحت طي الحفاء وهي استقلاله بمصر فاخذ في تربية الاحزاب واعداد القوات الى ما يمكنه من الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضه بذلك فاحس بذلك نور الدين فبعث اليه يستقدمه ومعه فرقة من رجاله مظهراً استنجاده في حربه مع الصليبيين عند الكرك وانما كان قصده الحقيقي ان يخرج من مصر وبقيه عنده تحت ملاحظته فأمن من غائلته . فادرك صلاح الدين مقصده هذا لكنه لم يستصوب مخالفة أوامره لثلاث تنافر القلوب فتعرقل مساعيه فكتب اليه انه اذعاناً لامره قد برح القاهرة بفرقة من الجند في ٢٠ محرم سنة ٥٦٨ لملاقاة جيوش نور الدين في الكرك . فلما وصل نور الدين اليها لم يجد فيها أحداً فانظر فلم يقدموا ثم ورد اليه كتاب ثان من صلاح الدين يخبره انه برح القاهرة بجنده الى الكرك فعرض له في الطريق ما ألجأه الى العود حالاً الى مصر وكان رجوعه في منتصف ربيع أول فعلم نور الدين انها مماثلة مقصودة فاقر على المسير بنفسه الى مصر والاشتغال بصلاح الدين عن الصليبيين ولكنه قبل ذهابه بعث الى صلاح الدين يتهده بالعزيز اذا لم يبادر الى ما أمر به فاستدعى صلاح الدين رجال عائلته وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء فلما تكامل الجمع اعلمهم بما كان بينه وبين نور الدين وما بلغه من عزمه على المجيء اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة فهض تقي الدين عمرو بن شاهنشاه أخو صلاح الدين فقال (الراي اذا جاءنا نور الدين قاتلناه ومنعناه عن البلاد) ووافقه غيره من أهلهم . فشتهم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين واستعظم أقوالهم وشم تقي الدين وأقمده وقال لصلاح الدين (ها أنا أبوك وهذا

الملقبون بالمعز والعزیز والحاکم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظاهر والفاخر والعاضد وكان يدعون الشرف والنسبة الى الامام علي والحقيقة انهم ينسبون الى مجوسي أو يهودي كما ذكر ذلك بكتب العلماء الاعلام وكانوا يسبون الصحابة ويقتلوا من يحبهم

● محاربة نور الدين الصليبيين باحية حصن عرقه وغيره ●

في سنة ٥٦٧ أيضاً خرجت مراكب تجاربه من مصر قاصدة الشام فاخذ افرنج اللاذقية مركبين منها مملوأتين بالامعة والتجار وغدروا بالمسلمين وكان نور الدين قد هادئهم فكشوا فلما سمع بمعلمهم استعظمه وراسل الصليبيين في ذلك وأمرهم باعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بامور منها ان المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء ولكنهم كانوا كاذبين فلم يقبل مغالطتهم وهو لا يهمل أمراً من أمور رعيته فلما لم يردوا شيئاً جمع العساكر من الشام والموصل وبث السرايا في بلادهم بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقه وأخرب ربهض وأرسل طائفة من العسكر الى حصني صافيتا وعريمه فأخذهما عنوة وكذلك غيرها ونهب وخرب وغنم المسلمون كثيراً وعادوا اليه وهو في عرقه فسار في العساكر جميعها الى قريب من طرابلس يخرب ويحرق وينهب وأما الذين ساروا الى انطاكية فاتهم فعلاوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس فراسله الصليبيون وطلبوا منه الهدنة واعادة ما أخذوه من المركبين فاجابهم الى ذلك وصح ففهم المثل (اليهودي لا يعطي الجزية حتى يلطم) وكذلك الصليبيون فاتهم لم يعيدوا أموال التجار بالتي هي أحسن حتى نهبت بلادهم وخربت

● بريد الحمام ●

لما اتسعت بلاد نور الدين وطالت مملكته حتى أصبحت من حدود التوبة الى همدان لا يتخللها سوى بلاد الصليبيين الذين ربما نازلوا بعض الثغور فلا يبلغه الخبر ليسير اليهم الا بعد ان يبلغوا الغرض فلذلك أمر في سنة ٥٦٧ باتخاذ الحمام الهوادي وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة الى اوكارها فاتخذت في سائر بلاده وترتب لها جرايات ورجال لتريتها فوجد بها راحة كبيرة وكانت الاخبار تأتيه في حينها لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعه من حمام المدينة التي تجاورهم

وكان حجمه مقدار الابهام ووجد فيه طبل للقولنج فانه دفع الى بعض الاكراد فلم يدر ما هو فكسره لانه ضرب عليه فحق ووجد ابريقاً عظيماً من الحجر المانع .
وان القضيبي الزمرد فان صلاح الدين أحضر صانع ليقطعه فابى الصانع قطعه فرماه بنفسه فانقطع ثلاث قطع ففرقه على نسائه وأما الأبريق فانفذه الى الخليفة ببغداد ومن جملة ما باعه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا لانه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة داخل القصر ويقال انها كانت تحتوي على مليوني كتاب واقتسم الناس بعد ذلك القصر وامتدحه الناس وقال العرقلة

أصبح الملك بعد آل علي مشرقاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق محمد الغرب للقبو م ومصر تزهو على بغداد
ما حووها الا بحزم وعزم وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزير ومن كان بها كالخصيب والاستاذ

ثم أرسل صلاح الدين البشار إلى نور الدين بالخطبة للعباسيين بمصر وعمل نور الدين قصيدة لتلى أمام الخليفة ببغداد وأرسل شهاب الدين ابو المعالي المطهر بهذه البشارة فيها

قد خطبنا للمستضى بمصر نائب المصطفى امام العصر
وخذلنا لنصرة المضد العا ضد والقاصر الذي بالقصر
وأشعنا بها شمار بني العباس فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعوى يدعوا ثبوراً وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين للخطبة للهاشمي في أرض مصر
واستنارت عزائم الملك العا دل نور الدين الكريم الاغر

فلما وصل شهاب الدين الى بغداد خرجوا بموكب لمقابلته وكذلك خرج أهل بغداد وكان يوماً مشهوداً وأنعم الخليفة على الملك العادل محمود نور الدين بتشريف عظيم القدر ومعه سيفان اشارة الى تملكه مصر والشام وعلى صلاح الدين بتشريف آخر ولما وصل التشريفان الى الملك العادل أخذ تشريفه وأرسل الى صلاح الدين تشريفه بمصر مع جملة خلع عظيمة من عنده ليفرقها على أرباب الدولة المصرية وكذلك جملة أعلام ورايات سود للخطباء بمصر وانتهت مدة الدولة الفاطمية أو العلوية التي حكمت البلاد من سنة ٢٩٩ الى سنة ٥٦٧ وكانوا أربعة عشر خليفة ثلاثة منهم بافريقيه بالغرب وهم الملقبون بالمهدي والقائم والمنصور وأحد عشر بمصر وهم

وكان قد دخل مصر انسان أعجى اسمه أمير عالم فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال أنا أبتيدي بها . فلما كان أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ صعد المنبر في أكبر جامع وخطب بالناس ودعا للخليفة المستضيء بأمر الله فلم ينكر ذلك احد عليه وكان موجوداً بالمسجد الامير نجم الدين وجماعة من الامراء خوفاً من حصول حادث لكي يعتذر صلاح الدين عن نفسه وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين جميع خطباء القاهرة ومصر بقطع خطبة العاضد وان يخطب للمستضيء العباسي ففعلوا ولم يعارضهم أحد وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك وقالوا ان سلم فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان ننقص عليه هذه الايام الباقية من عمره فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بشئ من ذلك وبعد وفاته جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصيه لحفظه وجعله كاستاذ دار العاضد بعد قتل جوهر مؤتمن الخلافة وكان لا يدخل القصر شئ أو يخرج منه الا بأمر صلاح الدين لحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد الى مكان منفرد ووكل لحفظهم وجعل أولاده وعمومته وابناءهم في القصر الكبير الكائن بحارة بيرجوان وكان عيشهم فيها طيباً ثم نقلوا بعد الدولة الايوبية منها وجعل عندهم من يحفظهم وأبعد عنهم النساء وأخرج من كان بالقصر من العبيد والجواري فاعتق البعض ووهب البعض وباع البعض وأخلى القصر من أهله وسكانه ودخلت مصر في حماية الخلافة العباسية الدينية في بغداد بعد خروجها منها مدة مائتين وثمان وستين سنة ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظنها مكيدة فلم يرض اليه فلما توفي علم صدقه وندم صلاح الدين على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض وقال لو علمت انه يموت من هذا المرض ما قطعها الى ان يموت . وفتح الخزان التي بالقصر وأخذ كل ما صلح له ولاهله ولأمرائه ولخواص مماليكه من الذخائر وزواهر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدرة اليتيمة والياقوتة العالية غالية القيمة والمصوغات التبرية والمصنوعات الغنبرية والاواني الفضية والصواني الصينية والمنسوجات المغربية والتركائيم والبنائيم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنشود والدر والياقوت والبسط والفرش وما لا يهد احصاءه ولا يحسد استقصاءه واسرف في العطاء وأطلق البيع في كل حديث وعتيق وليس وسحيق ورخيص وغال واستمر البيع فيه عشر سنين ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر ونيف قطعة واحدة

الذين ضافوه في السنة الماضية فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ هـ فعلم الملك أموري وهو في عسقلان ان صلاح الدين قد حاصر قلعة دارون وهو دير قديم للنصارى وموقعه على قمة جبل وعمر على أربعة أميال من غزّه اتخذ الصليبيون حصناً فاسرع للمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان وكان قد علم صلاح الدين بقدمه فسار للملاقاة فلاقاه في منتصف الطريق وحاربه وغلبه ونزل على غزّه فاستولى عليها واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ولكنهم اكتفوا بها أخذاً بالثأر فتركوا في غزّه حامية كافية وعادوا الى مصر . ثم بلغ صلاح الدين بان الصليبيين قد احتلوا آيله وتحصنوا فيها وهي قلعة على البحر الاحمر فسار اليها ومعه عصابة من رجاله الاقوياء وحمل معه مراكب مفككة نقلها على الجمال ولما وصل الى البحر عند آيله ركب تلك المراكب وانزلها الى البحر وهاجم آيله في ربيع أول سنة ٥٦٦ هـ برأً وبحراً وظل عليها حتى فتحها رجاله وقتلوا من كان فيها من الصليبيين وجعل فيها صلاح الدين جماعة من ثقاة وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره وعاد الى مصر

﴿ وفاة الخليفة المستنجد بالله وخلافة المستضيء بامر الله ﴾

في يوم السبت تاسع ربيع آخر سنة ٥٦٦ هـ توفي الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتني بالله وكانت خلافته احدى عشر سنة و٦٦ أيام وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس وهذا العدد له بحسب الجمل اللام والباء وفيه يقول بعض الادباء أصبحت لب بني العباس كلهم ان عددوا بحسب الجمل الخلفاء وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلاً فيهم كثير الرفق بهم ثم بويج بالخلافة ابنه المستضيء بامر الله أبو محمد الحسن

﴿ وفاة الخليفة العاضد لدين الله بمصر والخطبة فيها لبني العباس ﴾

كان نور الدين قد أرسل الى صلاح الدين يطلب منه الخطبة للعباسيين بمصر كما تقدم فاعتذر اليه صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين فلم يصغ نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاماً لافسحة فيه واتفق ان الخليفة العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الامراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فنهض من اقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من خاف ذلك الا انه لم يمكنه الامتنال أمر نور الدين

جاءته اخوته ووالده الى مصر على التدريج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم وبدولة ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم

في مشرق المجدنجم الدين مطلعهم وكل ابنائه شهب فلا أقفوا
جاءوا كيمقوب والاسباط اذوردوا على العزيز من أرض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء اخوته ولم يكن بينهم نزع ولا زل
وملكوا ارض مصر في شماخته ومثلها لرجال مثلهم نزل

* محاربة نور الدين حصن الكرك والزلزلة الكبرى *

بعد ما ودع نور الدين الامير نجم الدين سار بمسكركه الى بلاد الكرك في مستهل
شعبان سنة ٦٥٠ و نزل أياماً باللقاء على عمان وأقام على الكرك اربعة ايام فحاصرها
ونصب عليها منجانيقين فورد اليه الخبر بان الصليبيين قد تجمعوا ووصلوا الى ماء عين
فرحى اليهم نور الدين فلما سمعوا بارتداده عليهم ولوا مدبرين وعاد نور الدين الى
حوران فخيم بمشترأ وأقام ينتظر حركتهم ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه
وقصد نور الدين بلادهم حتى توسطها فنهب ما كان على طريقه وفي هذه السنة
أيضاً في ١٢ شوال حصلت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلاً عمت أ كثر البلاد
من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق الا ان أشدها وأعظمها كان بالشام
فخربت بعلبك وحص وحماء وشيزر وبعرين وغيرها وهدمت أسوارها وقلاعها
وسقطت الدور على أهلها وهلك من الناس كثير فسار نور الدين الى بعلبك
لتعمير سورها فرتب من يحمها ويمررها وسار الى حص ففعل مثل ذلك وسار منها
الى غيرها ماراً بجميع البلاد لحوفه من هجوم الصليبيين الى ان وصل الى حلب
فوجد أكثرها مهتماً فأقام بنفسه على عمارتها وأما بلاد الصليبيين فان الزلزلة
أضرت بها أكثر من سواها وهدمت أسوار مدنها فاجتهدوا في تعميرها خوفاً
من نور الدين وهكذا فان كلا من الفريقين انشغل عن الآخر وكانت هذه الزلزلة
قد حصلت في يوم عيدهم وهم في الكنائس فوقعت عروشها عليهم

* محاربة صلاح الدين بلاد الصليبيين *

في السنة التالية للزلازل سار صلاح الدين في جيش عظيم الى سوريا لمحاربة

جيوشاً ليسير بها مدداً الى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الحيوش الصليبية
مراكزها فشق عليه ذلك ووجع الامراء الذين سمحوا لهم بالانسحاب ثم عاد
الى القاهرة وامتدحه عمارة النبي بقصيدة منها

من شاكر والله أعظم شاكر ما كان من نعمي بني أيوب
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا حسبي فأنتم غاية المطلوب
جلبوا الى دمياط عند حصارها عن القوي وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربة لو لم يجملوها انت بكروب
فالناس من أعمال مصر كلها عقاءهم من نازح وقريب
ان لم تظن الناس قسراً فارغا وهم الباب فانت غير ليد

﴿ مسير نجم الدين ايوب وباقي عائلته الى مصر ﴾

ثم أرسل صلاح الدين الى نور الدين يطلب قدوم والده وباقي عائلته وكان الخليفة
المستنجد بالله العباسي ببغداد قد أرسل الى نور الدين يعاتبه من تأخير اقامة الدعوة
له بمصر فاعتنم هذه الفرصة وأحضر الامير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج الى
ولده بمصر وسلمه رسالة منها (وهذا أمر نجب المبادرة اليه لتحظى بهذه الفضيلة
الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لاسيما وامام الوقت
متطلع الى ذلك بكلية وهو عنده من اهم أمنيته) ثم ان الامير نجم الدين جهز
حاله للمسير الى مصر وسار معه نور الدين مشيعا الى رأس الماء وعاد نور الدين
بعد توديعه وسار نجم الدين الى ان وصل بالسلامة الى مصر في ٢٧ رجب سنة ٦٥٠ هـ
نخرج الخليفة العاضد من قصره لاستقباله وكذلك جميع الامراء والاعيان وباقي
أرباب الدولة المصرية الى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الاهليلج ولم يجز بذلك
عادة لهم وكان من أعجب يوم شهده الناس وخلع الخليفة العاضد عليه ولقبه الملك
الافضل وحمل اليه من القصر اللطاف والتحف والهدايا وأظهر صلاح الدين
من بره وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والاجر وأفرده داراً بجانب داره
وأقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة ومدح صلاح الدين عمارة النبي بقصيدة منها

صحت به مصر وكانت قبله تشكو سقاماً لم يعن بطيب
عجياً لمعجزة أتت في عصره والدهر ولاد لكل عجيب
رد الاله به قضية يوسف نسقاً على ضرب من التقريب

وكانت هذه الحملة بقيادة الملك اموري أيضاً فظن انه يقدر على اخذ دمياط بالهجوم
ويملكونها ليجعلونها ظهراً لهم يملكون به ديار مصر الا انه رأى منها مقاومة
ودفاعاً اضطره لاقامة الحصار فاقامه . فارسل اليها صلاح الدين العساكر في النيل
وحشر فيها كل من عنده وامدهم بالمال والسلاح والذخائر وارسل الى نور الدين
يشكوا ما هو فيه من المخاوف ويقول انه اذا تخلف عن دمياط ملكها الصليبيون
وان سار اليها وأخلى القاهرة خاف من غدر المصريين به وطلب منه المدد فجهز
نور الدين اليه العساكر ارسالاً لكل تجهزت طائفة ارسلها ثم سار نور الدين الى
بلاد الصليبيين بالشام فنهبا واغار عليها واستباحها ووصلت غاراته الى ما لم
تبلغه لخلو البلاد من مانع وكذلك الخليفة العاضد فانه أمد صلاح الدين بمليون دينار
مصري سوى الثياب وغيرها وارسل صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين وخاله شهاب
الدين الحارمي الى دمياط وطال امد الحصار حتى نفذت مؤونة الصليبيين فارادوا
العبور في النيل ليأتوا بالزاد فاقفهم حاجز أقامه المسلمون في عرض النهر وهو
عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد ممكن بمتاريس دمياط والظرف
الأخر بيرج هائل منيع الجانب وكانت ترد الامداد الى حامية دمياط من القاهرة
بكل سهولة . أما الصليبيون فكان انتظارهم للمدد من سوريا عبثاً فانتشر الجوع
في معسكرهم فحدث الشقاق بين الفرنسيين وهم الذين كانوا في سوريا واليونانيين
الذين أتوا بالمدد من القسطنطينية وأشدت حتى افضى الى الانفصال التام بعد ان
بلغ منهم الجوع مبلغاً عظيماً فكانوا يتخاصمون على كسرة خبز ويمضفون افنان
التخيل وما زاد تعاستهم تكاثر الامطار والذوابع على معسكرهم بدون انقطاع
حتى اصبحوا كانهم في طوفان عظيم وحصل من هياج الاعصار نوء في النيل
اسرع جريته فزاحمت مراكب الصليبيين وتلاطمت فلم يعد استخدامها ممكناً لوقوعها
بين قوتين متضادتين الريح ومجرى النيل فتكسر معظمها . وكان نور الدين قد
ارسل حملة بقيادة الامير قطب الدين خسرو الهمذاني فنزل دمياط في ١٥ ربيع أول
سنة ٥٦٥ واحرقت العساكر الاسلامية باقي مراكب الصليبيين ومنجانيقاتهم
وآلات حربهم وقتلوا منهم كثيراً . فلما حل بالصليبيين ذلك لم يروا بداً من العود
على اعقابهم الى سوريا صفر الايدي بعد ان تعاهدوا مع المسلمين ان لا يعارضهم
معارض في سيرهم فرجعوا خائنين في ٢١ ربيع أول وصدق فيهم المثل (ذهبت
النعامة تطلب قرنين فعادت بلا اذنين) وكان صلاح الدين قد اعد في القاهرة

سمع السودانون ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم أقيمتهم الى ان وصلوا الى سوق السيوفين فقتل منهم كثير وأسر منهم كثير وامتنعوا هناك على الغز بمكان فاحرق بهم وكان في دار الارمن قريباً من بين القصرين كثير من هذه الطائفة وكلهم رماة ولهم جارية في الدولة تجري عليهم فمضد ما قرب منهم الغز مروهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن ان يسيروا الى العبيد فاحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقاً وقتلاً ومروا الى العبيد فصاروا كلما دخلوا مكاناً أحرق عليهم وقتلوا فيه الى ان وصلوا الى باب زويله وكان مغلق فحصروا هناك واستمر فيهم القتل مدة يومين وكان صلاح الدين قد احرق المنصوره وهي حارة لهم بجهة باب زويله وأعظم حاراتهم وأخذت عليهم أفواه السكك فايقنوا انهم قد أخذوا للاحالة وطلبوا الامان فامنوا وذلك يوم السبت ٢٨ ذي القعدة وفتح لهم باب زويله فخرجوا الى الحيزه فعدى عليهم شمس الدولة في العسكر وقد قووا باموال المهزومين وأسلمحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد وتلاشى بعد هذه الواقعة أمر العاضد ودعيت بواقعة العبيد . ومن غرائب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبنى القاهرة يدعى جوهرأ والذي كان سبباً في زوال هذه الدولة وخراب القاهرة يدعى أيضاً جوهر الملقب بمؤمن الخلافة . فلما انتهت هذه الواقعة واستصلت جرثومة الفساد عاد صلاح الدين الى السكون فولي أخاه تورانشاه قوص واصوان وعيذاب مكافأة لما أظهره من البسالة في هذه الواقعة وجعل البلاد المذكورة له اقطاعاً فكان دخلها في تلك السنة (٢٦٦٠٠٠) دينار

* محاصرة الصليبيين ثغر دمياط *

لما علم الملك أموري ملك القدس خبر تملك اسد الدين شيركوه مصر خاف على بلاده لانه صار بين عدوين نور الدين من الشام وأسد الدين من مصر فجمع مجلس شوره وقر رأيهم على ارسال فريدريك بطريك صور ومعه يوحنا اسقف عكا للالتجاء بملوك فرانسا وانكلترا وسيسيليا وغيرهم من ملوك أوروبا فلم تنجح مسعاهم ثم ارسل الى عم زوجته ملك الروم بالقسطنطينية فارسل اليه عماره بحرية مؤلفة من مائة وخمسين مركباً مائة بالزخائر والمئون والعدة والرجال فاتحدت بقاى الصليبيين الموجودين بالشام وساروا برأً وبحراً الى مصر حتى اذا بلغوا الفرما ساروا الى دمياط فمكسروا بينها وبين البحر في أول صفر سنة ٥٦٥

الصلبيين على اُخراجه من مصر . فسير وارحلا الى الصليبيين وجعلوا كتبهم معه في نعل
فسار الرجل الى ان وصل الى البير ايضا قريبا من بليس فاذا ببعض أصحاب صلاح
الدين قابل الرجل هناك فانكر أمره لانه حمل نعله في يده وليس فيها أثر مشي
والرجل رث الهيئة فارتاب فيه وأخذ التعلين وشقهما فوجد الكتب بداخلهما
فحمل الرجل والكتب الى صلاح الدين فتبع خطوط الكتب حتى عرفت فاذا
الذي كتبها من اليهود الكتب فلما احضروه ليسألوه ويماقبوه على خطه نطق
بالشهاده قبل كلامه ودخل في عصمة اسلامه ثم اعترف بما جناه وان الذي امره هو
مؤمن الخلافة جوهر فبلغ ذلك الى جوهر فخاف على نفسه ولزم القصر وامتنع
من الخروج فاعرض صلاح الدين عن ذلك جملة وطال الامد فظن الخصي انه قد
أهمل أمره وشرع يخرج من القصر وكانت له منظره بناها بناحية الخرقاينه بقرب
قلوب في بستان فخرج اليها في جماعة وبلغ ذلك صلاح الدين فانهض اليه عدة هجموا
عليه وقتلوه في يوم الاربعاء ٢٥ ذي القعدة سنة ٥٦٤ واحزوا رأسه وأثابوه الى
صلاح الدين فاشتهر ذلك في القاهرة وأشيع فغضب المسكر المصري وساروا باجمعهم
وقد انضم اليهم عالم عظيم من الامراء والعامه حتى أصبح عددهم نيفا و ٥٠ ألفا
وساروا الى دار الوزارة وفيها صلاح الدين وقد استعدوا بالاسلحة فبادر شمس الدولة
نفر الدين توارنشاه أخو صلاح الدين ونادى بالعساكر الغز (الشاميه) ورتبهم
ووقفت الطائفة الريحانية والطائفة الحيوشية والطائفة القرنجية وغيرهم من الطوائف
السودانية ومن انضم اليهم في محلة بين القصرين فثارت الحرب بينهم وبين صلاح
الدين واشتد الامر وعظم الخطب حتى لم يبق الا هزيمة صلاح الدين واصحابه وعند
ذلك امر توارنشاه بالحملة على السودانيين فقتل منهم احد مقدمهم فانكسرت شوكتهم
قليلا وعظمت حملة الغز عليهم فانكسروا الى باب الذهب ثم الى باب الدهومة وقتل
حينئذ عدة من أمراء المصريين وكثير من سواهم . وكان العاضد في هذه الواقعة
يشرف من المنطرة فلما رأى أهل القصر كسرة السودانيين وعساكر مصر رموا
الغز من اعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى انكوا فيهم وكفوهم عن القتال وكاد
هؤلاء ينهزمون فامر حينئذ صلاح الدين باحراق المنطرة فاحضر شمس الدولة
النفطيين وأخذوا في اعداد قارورة النفط وصوبوها الى المنطرة حيث يقم العاضد
فخاف على نفسه وفتح زعيم الخلافة باب المنطرة وقال بصوت عال (أمير المؤمنين
يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب أخرجوه من بلادكم) فلما

معه من الخدمة والطاعة ما يصل اليك فكان كما قال . وكان نور الدين قد أثر عنده تنصيب صلاح الدين على الديار المصرية حتى قال ما أخطأت الا في نفاذي أسد الدين الى مصر بعد علمي برغبته فيها وكان يبلغ الملك الناصر صلاح الدين من أقوال نور الدين وبعض أصحابه اشياء تؤله غير انه ياقاها بصدر رحب وخلق عذب . وأمر صلاح الدين بإبطال المكوس والمظالم ما يقدر من ذلك بديوان صناعة مصر مائة الف دينار وما يستخرج بالاعمال البحرية والقبلية بمائة الف دينار فسمح بجميع ذلك وأصدر بهم منشوراً يقرأ على المنابر وسامح أيضاً في كثير غير ذلك وامتدحه الشعراء وقال احدهم شعر

فالشام يغبط مصر امدخلت بها كما الفرات عليكم يحسد النيل
نتم من الملك عفواً ما الملوك به غنوا قديماً وراموه فما نيلا

وقال بعضهم

لك الحسب الباقي على عقب الدهر بل الشرف الراقي الى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك اذا سعت بها الهمم العليا الى شرف الذكر
نهضتم باعباء الوزارة نهضة أقلمت بها الاقدام من زلة العثر
كسفتهم عن الاقليم غمته كما كسفتهم بانوار الغنى ظلمة الفقر
حيتهم من الافرنج سرب خلافة جريتم لها مجرى الامان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم ودائرة الانصار اضيق من شبر
جلبتهم اليه النصر اوساً وخزرجاً وما اشتقت الانصار الامن النصر
كتائب في جيرون منها أواخر وأولها بالنيل من شاطئ مصر
طلعتهم فاطلعتكم كواكب نصرة أضاءت وكان الدين ليلاً بلا فجر
وأبت اليكم يا ابن أيوب دولة ترأسلكم في كل يوم مع السفر
حى الله فيكم عزمة أسدية فكفكم بها الاسلام من ربة الاسر

* مقتل جوهر مؤتمن الخلافة وواقعة العبيد *

لما استقام صلاح الدين بالوزارة وعظم نفوذه وكثرت نصرائه داخل الحسد مؤتمن الخلافة جوهر الحضي وحدثه نفسه بخلع صلاح الدين وواقعة كثير من الاسراء المصريون والجنود وافق رأيهم ان يعثوا الى الصليبيين ببلاد الساحل يستدعونهم الي القاهرة حتى اذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكره ناروا وهم في القاهرة واجتمعوا مع

دينار و فرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها وطوق وتحت وسرفسار ذهب مجوهر وفي رقبة الحجر مشدة بيضاء وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر وقصة ذهب في رأسها طالعة مجوهره وفي رأسها مشدة بيضاء باعلام ذهب ومع الحلقة عدة بقج وعدة من الخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادي الآخرة سنة ٥٦٤ وقرئ المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والتورية وكان يوماً عظيماً وخلع الملك الناصر على جميع الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد وعم الناس جميعهم بالهيات مع أنه قبل هذا المنصب كرهاً وكان جاء الى مصر صحبة عمه أسد الدين كرهاً أيضاً « ان الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل » وأما الأمراء فانهم لم يلتفتوا اليه ولا خدموه وكان الفقيه ضياء الدين عيسى المكارى معه فسعى عند سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله اليه قائلاً له ان هذا الامر لا يصل اليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل قال الى صلاح الدين ثم قصد أيضاً الى قطب الدين وقال له ان صلاح الدين قد أطاعه باقي الأمراء ولم يبق سواك فالاحسن ان تطيعه وهكذا حتى أماله وسار الى عين الدولة الباروقي وفعل معه كما فعل مع سلفائه فلم يقبل منه ذلك وسار بعسكره الى نور الدين بالشام

وأما صلاح الدين فانه كان بصفته نائب عن الملك العادل محمود نور الدين وقائمقامه بالديار المصرية وكانت الخطبة في جميع البلاد باسم الملك العادل بعد ذكر الخليفة العاضد وكان الملك العادل نور الدين يكتب الملك الناصر صلاح الدين بالامير الاسفهلار وصار يحكم في الرعية بالعدل المملوء حلماء حتى أحبه الرعية واستمال قلوبهم وبذل لهم المال فقويت نفسه على ذلك وضعف أمر الخليفة العاضد وطلب صلاح الدين من نور الدين ارسال اخوته فلم يجبه الى ذلك وقال أخاف أن يخالف احد منهم أو امرك تفسد البلاد . وبعد مدة سير نور الدين الى مصر اخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أكبر من صلاح الدين وقال له ان كنت تسير الى مصر وتنظر الى أخيك يوسف الذي كان يخدمك فلا تسرفانك تفسد البلاد فأعاقبك وان كنت تنظر اليه انه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر اليه واشدد ازره وساعده على ما هو بصده فقال أفعل

فلم يسعفه بطلبه ولا مكنه من ارخاء الذؤابة وعندما أيس من ذلك أسلم وكان شريكه يعتبر نفسه نائباً لنور الدين في مصر وانه قائم بمنصب الوزارة باسمه ولكن لم تطل مدته لانه كان مواظباً على تناول اللحوم السمينة وكانت تتواتر عليه التخم والحوانيق فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياته في ٢٢ جمادي الثانية سنة ٥٦٤ ولم يمكث في منصبه الا شهرين وخمسة أيام ودفن في القاهرة ثم نقل الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان شجاعاً بارعاً قوياً ذا صولة عفيفاً ديناً كثير الخير وكان يحب أهل الدين والعلم كثير الايثار حديباً على أهله وأقاربه وخلف مالا كثيراً وترك كثيراً من الخيل والدواب وخمسة مائة مملوك وهم الاسديه وهو مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت على اقطاع مبلغه تسعمائة دينار وتنقل في خدمة الملك العادل محمود نور الدين الى ان ملك الديار المصرية وعقد له الغزاء بالقاهرة ثلاثة أيام

✽ وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف ✽

لما توفي أسد الدين كما تقدم أصبح كل من الامراء النوريه الذين كانوا قد صحبوا أسد الدين يطلب التقدم على العساكرو ولاية الوزارة منهم الاميرعين للدولة الياروقي وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبو الهيجاء وسيف الدين علي بن أحمد الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين ومالت الاسدية الى صلاح الدين فانفذ الحليفة العاضد يسأل عمن يصلح للوزارة فارشد من جماعة من الامراء على شهاب الدين الحارمي فانفذ اليه وأحضره وخطبه في تولي الوزارة فامتنع من ذلك وأشار بولاية صلاح الدين وكان الحارمي أولاً قد رغب في الوزارة وتحدث فيها فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها خاف ان يشتغل بطلبها فتفوته وربما تفوت صلاح الدين فأشار عليه لانها اذا كانت لابن أخته كانت في بيته وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته واقدمه على شاور في موكبة وقتله حين جاءه أمره مع صغر سنه فسارع الى تقليده الوزارة وما خرج شهاب الدين من حضرة العاضد الا وخلمة الوزارة قد أرسلت الى صلاح الدين وتلقب بالملك الناصر وكانت خلمة الوزارة عمامة بيضاء تنسي بطرز ذهب وثوب ديبقي بطرازي ذهب وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب وطيلسان ديبقي بطرازي دقيق ذهب وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار وسيف محلي مجوهر قيمته خمسة آلاف

جعلت الله عليكم وكيلا) وجاء في المنشور ما يأتي (من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين الى السيد الاجل الملك المنصور سلطان الحيوش ولي الأئمة مجير الامة أسد الدين كافي قضاء المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبي الحارس شيركوه العاضدي عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين . وادام قدرته واعلى كلمته سلام عليك فانه يحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ويسأله ان يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما الخ) فامر بقراءته على رؤوس الأشهاد وفرح به غاية الفرح وأعيدت قراءته عليه عدة مرات استحساناً لمعانيه . ثم ان الخليفة العاضد ارسل الى أسد الدين طبقاً من الفضة فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس اولاد اخوته وكان الكامل لما سمع بقتل ابيه قد التجأ الى القصر فقتله الخليفة

* حكم الملك المنصور اسد الدين شيركوه ووفاته *

لما استقر أسد الدين بالوزارة ولم يبق له منازع ولى الاعمال من يثق اليه واستبد بالولاية فاقطع البلاد للعساكر التي قدمت معه وصلاح الدين مباشراً للامور مقرر لها وزمام الامر والنهي مفوض اليه لكفايته ودرايته وحسن تأنيه وسياسته ونظب أسد الدين من القصر كاتب انشاء للوزارة فارسل اليه عبد الرحيم اليساني ومدحه الشعراء ومنهم العماد بقصيدة طويلة منها

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب	كم راحة جنيت من دوحة التعب
ياشيركوه بن شاذي الملك دعوة من	نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم	من المدى في العلاما حزت بالحجب
تمل من ملك مصر رتبة قصر	عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مضرا وأرجو أن تصير بها	ميسرا فتح بيت القدس عن كشب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من	فتح البلاد فبادر نحوها ونب
أنت الذي هو فرد من بسالته	والدين من عزمه في جحفل لجب

وفي حكمه شدد على النصارى وأمرهم بشد الزناير على أوساطهم ومنعهم من ارجاء الذوابة التي تسمى بالعزبه فكتب المهذب ابن أبي المليح زكريا وكان مسيحياً الى أسد الدين بقوله

ياأسد الدين ومن عدله	يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شد أوساطنا	فالذي أوجب كشف القفا

بلادها وكثرة خيرها وسعة أموالها تأقت أنفسهم الى الإقامة بها واختاروا سكنها ورغبوا فيها رغبة عظيمة وقوي طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها ثم علم انه لا يتم له ذلك وشاور باق فيها فاخذ في أعمال الحيلة عليه فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور وقال لهم قد علمتم رغبتى في هذه البلاد ومحبتى لها وحرصى عليها لا سيما وقد تحققت ان عند الصليبيين ما عندي وعلمت انهم كشفوا عورتها وعلموا مسالكها وتيقنت انى متى خرجت منها عادوا اليها وملكوها وهي معظم دار الاسلام وحلوة بيت مالهم وقد قوي عندي ان أثب عليها قبل ونوبهم وأملكها قبل ان يملكوها وأخلص من شاور الذي يابح بنا وبهم ويضرب بنا وبهم وقد ضيع صنيع أموال هذه البلاد في غير وجهها وقوى بها الصليبيين علينا وما كل وقت ندرك الصليبيين ونسبهم الى هذه البلاد التي قتل رجالها وهلك أبطالها فقالوا جميعاً لا يتم امر الا بعد قتل شاور وتفرقوا على إيقاع القبض عليه . وكان شاور يركب في الابهة العظيمة والعدة الحسنة على عادة الوزراء لانه كان الوزير اذا ركب سار في موكب الطبل والبوق وكان شاور قليل الركوب فاخذ الامراء يترصدونه الى ان ركب يوماً في ابنته وجلالته فلما عينه الامراء هابوه وأحجموا عنه وكان يوماً عظيم الضباب وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على أسد الدين فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل في وسط موكب ثم سايه ثم مد يده الى تلاييه وصاح عليه فرجله ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزائمهم ووقوفوا في عسكر شاور فتهبوا ما كان مع رجاله وقتلوا منهم جماعة وحمل الملك الناصر شاوراً راجلاً الى خيمة لطيفة وأراد قتله فلم يقدر من غير مشاورة أسد الدين وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور فانفذ التوقيع الى صلاح الدين فقتله في الحال وأنفذ رأسه الى القصر فخلع الخليفة العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة بدل شاور وذلك في ١٧ ربيع أول سنة ٥٦٤ هـ فسار أسد الدين ودخل القصر وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الحيوش وقصد دار الوزارة فترها وهي التي كان بها شاور وسلفاؤه وكتب له منشوراً بالوزارة من القصر كتب العاضد في طرته بخطه (هذا عهد لا عهد لوزير بمثله وتقلد امانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لجله والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبله نخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بان اعتزت خدمتك الى نبوة النبوة واتخذ للفرور سبيلاً ولا تنقض الايمان بعد توكيدها وقد

أسد الدين وكان ذلك غاية مناه وأرسل معه الفقيه عيسى الهكاري الى مصر برسالة ظاهرة الى شاور يعلمه بقدوم العساكر ورسالة سرية الى الخليفة العاضد وأمره ان يستحلفه على اشيائه عينا وان يكتم ذلك عن شاور فلما وصل اسد الدين شيركوه الى القاهرة نزل بارض اللوق وأخرج اليه شاور الاقامات الحسنة والخدم الكثرية ثم ارسل شمس الخلافة الى الملك اموري يستطلق منه بعض المال فصار اليه واجتمع به وقال قد قل علينا انال فقال اموري اطلب منه شيئا قال اشتي ان تهب لي النصف قال قد فعلت فقال شمس الخلافة ما بلغني ان ملكا مثلك وهب مثل هذه الهبة فقال اموري انا أعلم انك رجلا عاقلا وان شاور ملك وانكما ما سألتاني هذا المال الا لامر حدث فقال له صدقت هذا اسد الدين قد وصل نصرة لنا وما بقي لك مقام وشاور يقول لك ان ترحل ونحن باقون على الهدنة فانه أوفى لك ولنا ونحن نراضي هذا الرجل بشيء من هذا المال ونحمل الباقي اليك متى قدرنا وان راضينا به بأكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار فقال اموري انا راض بذلك وان بقي علي شيء حملته اليكم وعول على الرحيل فقال له بعد ان تطلق طي بن شاور ومن بقي من أسرى بليس معكم ولا تأخذ من بليس بعد انصرفك شيئا فاجابه الى جميع ذلك ورحل الصليبيون عن مصر ولما نزل اسد الدين بارض اللوق كما تقدم ارسل له العاضد هدية عظيمة وخلفاء كثيرة واخرج الى خدمته اكابر اصحابه ثم انه خرج اليه في الليل سرا متكررا واجتمع به في خيمته وافضي اليه بامور كثيرة منها قتل شاور ثم عاد الى قصره وكان شاور قد رأى ليلة نزل اسد الدين على القاهرة كانه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلا وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها باقلامه فسأل عنه فقبل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما اقام اسد الدين بالديار المصرية ورحل عنها الافرنج أمنت البلاد وتراجع الناس الى بيوتهم واخذوا في اصلاح ما شعثه الصليبيون وأفسدوه وتقاطر الناس الى خدمة اسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة واحسن اليهم وكذلك شاور فانه اخذ في التودد الى الاسد والتقرب اليه بجميع ما وجد السيل اليه وأقام له ولعسكره الميرة الكثرية والنفقات الغزيرة حتى استحوذ على قلبه وقوي ببقائه في ملكه وصفا له قلبه

﴿ قتل شاور ووزارة أسد الدين شيركوه ﴾

لما أقامت عسكر الشام بمصر تحت رئاسة أسد الدين شيركوه ورأوا طيب

حلف له قال له ان أباك قد وطن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلاد الى الصليبيين ولا يكتب نور الدين وهذا عين الفساد فاصعد أنت الى الخليفة والزمه بان يكتب الى نور الدين فليس لهذا الامر غيره . وأما الصليبيون فانهم ساروا الى مصر ولما قربوا من المدينة أمر شاور باحراقها وانذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم وتشتوا في جميع الانحاء وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت وأحرقت مصر في تاسع صفر سنة ٥٦٤ وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً (ومدينة مصر المذكورة هي مصر القديمة الآن التي على ساحل النيل) ثم نزل الصليبيون في بركة الحبش وابنت أخبارهم في الاطراف وتحطفوا من ظفروا به فانفذ شاور الى أموري شمس الخلافة فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه الى باب الخيمة ففعل فاراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له اترى دخاناً في السماء قال نعم قال هذا دخان مصر فاني ما آيت الا وقد احرقت بعشرين الف قارورة نفط وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل وما بقي فيها مايؤمل بقاءه ونفقه نخل الآن عنك مدافعي وكن كلما قلت لك انزل في مكان تقدمت الى غيره وما بقي لك الا ان تنزل القاهرة فقال هو كما تقول ولا بد من نزول القاهرة ومعي افرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام البرج تقع في خيمته فقاتلوا البلد اياماً ولما تيقن شاور الضعف عدل الى طريق المحاذعة والمخاتلة والمغارة والمدافعة الى ان تصل عساكر الشام فانفذ شمس الخلافة الى اموري برسالة طويلة وفي ضمنها (ان هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه الا بعد ان يقتل من الفريقين عالم عظيم وما تعلم انت ولا انا لمن الدائرة والرأي ان تحقن دماء اصحابك ودماء اصحابي وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً) فاستقرت المصانعة على اربعمائة الف دينار وقيل مليوناً يعجل له منها مائة الف دينار فاجاب اموري الى ذلك وانفقدت الهدنة وحلف اموري ورحل الى بركة الحبش وحمل شاور اليه مائة الف دينار في عدة دفعات سوف فيها الاوقات ثم أخذ يماطله بالباقي انتظاراً لقدم السأكر ويوهم انه يجمع لهم الاموال

﴿دخول اسد الدين شيركوه مصر ثالث مره﴾

لما وصل كتاب الخليفة العاضد الى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً وأنفذ

حاجة لى بك وليس لك عندي مقرر . فاجابه اموري ان لابد من حضوري وأخذي المقرر فلم شاور انه غدر بالمعهد ونقض الايمان وانه قد طمع في البلاد

﴿ استيلاء الصليبيين على بليس ﴾

لما علم شاور بغدر الصليبيين كما تقدم أخذ في تجنيد الرجال وحشد العساكر الى القاهرة وانفذ الى بليس فرقة من الجيش بقيادة طي ولده اما الملك اموري فانه سار يحد الى ان وصل الى بليس في أول صفر سنة ٥٦٤ هـ فجم عليها وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النحاس وابن الحياط يمحي وابن قرجه وهم الذين كانوا قد كاتبوه وطلبوا قدومه فارسل الى طي بن شاور وقال له اين نزل فقال على أسنة الرماح وقال له أنحسب ان بليس جينة تأكلها فارسل اليه أموي يقول نعم هي جينة والقاهرة زبدة ثم قاتل بليس ليلاً ونهاراً حتى اقتحمها بالسيف قهراً وقتل من أهلها خلقاً عظيماً وخرب أكثرها وأحرق حلق أدرها ثم أخرج الأسرى الى ظاهر البلد وحشرهم في مكان واحد وحمل في وسطهم برمح فرقمهم فرقتين فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لسكره وقال لفرقة قد أطلقتمكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر فاني قد ملكتها بلا شك ووقف الى ان عدي أكثرهم النيل الى جهة مينة حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الأسرى فاقسموهم وبقى أهل بليس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الصليبيين وهلك أكثرهم في أيديهم وافلت منهم اليسير لان الملك الناصر لما ملك ديار مصر وقف مغل بليس على كثرة على فكك الأسرى منهم وساح أهل بليس بخراجهم الى آخر ايامه

﴿ محاربة الصليبيين مدينة القاهرة ﴾

لما اتصل بشاور ما جرى على أهل بليس من القتل والأسر وان الصليبيين شحنوها بالرجال والعدد وجعلوها لهم ظهراً اشفق من ذلك وطلب الاذن بالدخول على الخليفة العاضد فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال اعلم ان البلاد قد ملكت ولم يبق الا ان تكتب الى نور الدين وتشرح له ما جرى وتطلب نصرته ومعوته فكذب جميع ذلك وسود أعاليها بالمداد وقيل ان الذي أشار بكتابة ذلك هو شمس الخلافة محمد بن مختار لانه لما رجع من مقابلة الملك اموري اجتمع بالكامل بن شاور وقال له عندي أمر لا يمكنني أن اخبرك به الا بعد أن تحلف لي بانك لا تطلع اباك عليه فلما

﴿ في محاربة نور الدين بلاد الافرنج ﴾

في هذه السنة جمع نور الدين العساكر فصار اليه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا على حصن فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الافرنج فاجتازوا على حصن الاكراد فاغاروا ونهبوا وقصدوا عرقه فنازلوها وحصروها وحصروا حلية وأخذوها وخربوها وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد وفتحوا العريضة وصافيتا وعادوا الى حصن فصاموا بها رمضان ثم ساروا الى بانياس وقصدوا حصن هونين وهو للافرنج ومن أمنع حصونهم ومعاقلهم فانهمز الافرنج عنه وأحرقوه فوصل نور الدين في الغد فهدم سورته جميعه وأراد الدخول في بيروت فتجدد في العسكر خلف أوجب التفرق فعاد قطب الدين الى الموصل وأعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات فاخذها في طريقه وهو عائد

﴿ في تجهيز الملك أموري عسكره للاستيلاء على الديار المصرية ﴾

لما رجع الملك أموري الى القدس تزوج بابنة أخي الملك عمانويل ملك الروم بالقسطنطينية وقد زاد طمعه وأخذ رجاله المقيمون بمصر والقاهرة يكتبونه ويطلبون منه القدوم الى مصر لاستلامها قائلين له انها خالية من حام يحميها أو يدافع عنها ومتى حضرت تستلمها بدون حرب وقتال فجمع مجلس شورا بمدينة القدس وأعلمهم بالملكيات الواردة اليه من مصر وعزمه على المسير اليها واستيلائها عليها فعارضوه خصوصاً رئيس جمعية الرهبان الهيكلين وجمعية ضيوف الغربا (ماري يوحنا المعدان) قائلين انه لا يصح نقض المعاهدة المحررة بينه وبين شاور وزير مصر وان لا تقصدها فانها طعمة لنا وأموالها تساق اليها تقوى بها على نور الدين وربما اذا قصدناها لئلا نملكها لا يسلمها صاحبها وعساكره وأهلها اليها ويقاتلونا دونها ويسلمونها الى نور الدين فلم يصغ الى قولهم وظل مصمماً على الدخول اليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها وظهر له من ضعف من بقي فيها . وكان يوجد في مصر بعض الامراء الذين يكرهون شاور فارسلوا اليه وطلبوا قدومه ليسلموه مصر مكيدة في شاور فلما سار الملك أموري ووصل الى الداروم كتب الى شاور يقول له اني قد قصدت الخدمة على ما قررت لي من العضا في كل عام فاجابه شاور ان الذي قررت لك انما جعلته متى احتجت اليك أو اذا قدم عليّ عدو فاما مع خلو بالي من الاعداء فلا

الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجابهم الى ذلك

❖ في رجوع أسد الدين والصليبيين من مصر ❖

لما عرض الصليبيون والمصريون على أسد الدين كما تقدم أجابهم بشرط ان ينسحب الصليبيون وأسد الدين من الديار المصرية بسلام وترجع الاسكندرية الى شاور وان الصليبيين لا يملكون من مصر ولا قرية فقبل الفريقان هذه الشروط وسلم مدينة الاسكندرية الى شاور في منتصف شهر شوال سنة ٥٦٢ وعاد أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الى دمشق في ١٨ القعدة وعادوا الى الخدمة النورية فامتدحه الشعراء والافاضل ومنهم العماد امتدحه بقصيدة طويلة منها

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر	ونلت ما عجزت عن نبيله القدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت له	ومن له مثل ما أثرته أثر
أسرت أم بركات الارض قد طويت	فأنت اسكندر في السرايم خضر
تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها	الا حديثك ما بين الوري سمر
فانت من زانت الايام سيرته	وزاد فوق الذي جاءت به السير
لوفي زمان رسول الله كنت أنت	في هذه السيرة المحمودة السور
اصبحت بالعدل والاقدام منفرداً	فقل لنا أعلي انت أم عمر
اسكندر ذكروا اخبار حكمته	ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
ورسم خبرونا عن شجاعته	وصار فيك عياناً ذلك الخبر
انخر فان ملوك الارض أذهلهم	ما قد فعلت فكل فيك مفتكر
سهرت اذ رقدوا بل هجت اذ سكنوا	وصلت اذ جنبا بل طلت اذ قصروا

وأما الصليبيون فلم يريدوا مبارحة القاهرة حتى استقر بينهم وبين شاور ان يكون لهم بالقاهرة حامية ويكون أبوابها بيد فرسانهم لينزع الملك العادل نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون للصليبيين من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار وجرى هذا كله بين الصليبيين وشاور بدون علم خليفة مصر العاضد لان شاور حكم عليه وحجبه وعاد الصليبيون الى بلادهم بعد ما تركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة

فيه ليأخذن اقطاعكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه الى يومنا هذا ويقول
لكم أناخذون أموال المسلمين وتقرون من عدوهم وتسلمون مثل هذه الديار
المصرية يتصرف فيها الكفار فقال اسد الدين هذا رأيي وبه أعمل ووافقهما صلاح
الدين يوسف بن أيوب ثم كثر الموافقون لهم على القتال فاجتمعت الكلمة على
اللقاء فاقام بمكانه حتى أدركه المصريون والصليبيون وهو على تعبته وقد جعل
الانتقال في القلب يتكثربها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فيها أهل البلاد
ثم انه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولئن معه ان الصليبيين
والمصريين يظنون انني في القلب فهم يحملون كل قوتهم بازائه وحملتهم عليه فاذا
حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم فاذا
عادوا عنكم فارجموا في أعقابهم واختار من شجعان اصحابه جمعاً يثق اليهم ويعرف
صبرهم وشجاعتهم ووقف بهم في الميمنة فلما تقابل الطائفتان فعل الصليبيون ما
ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظانين انه فيه فقاتلهم من به قتالا يسيراً ثم
انهزموا من أمامهم فنبعوههم حينئذ حل أسد الدين في من معه على من تحلف من
الصليبيين الذين حملوا على القلب فهزموهم ووضع السيف فيهم فأتحن وأكثرت القتل
والاسر وانهزم الباقيون فلما عاد الصليبيون من أثر المهزمين الذين كانوا في القلب
رأوا مكان المعركة من أصحابهم بالقمع ليس فيه منهم مقاتل فانهزموا أيضاً وكان هذا
من أعجب ما يؤرخ (ان النفي فارس تهزم عساكر مصر والصليبيين)

استيلاء اسد الدين على الاسكندرية ومحاربة المصريين والصليبيين

بعد الواقعة المذكورة سار أسد الدين الى نجر الاسكندرية وجي الاموال من
القرى التي في طريقها فلما وصل سلمت من غير قتال فاستتاب بها صلاح الدين ابن
أخيه وعاد الى الصعيد وتملكه وجي أمواله وأقام فيه حتى صام رمضان أما
المصريون والصليبيون فانهم عادوا الى القاهرة وجمعوا اصحابهم فاستعاضوا عن قتل
منهم واستكثروا وحشدوا وساروا الى الاسكندرية وبها صلاح الدين في عسكر
يمنعها منهم وقد أعانها أهلها خوفاً من الصليبيين الذين حاصروها وضيقوا عليها
فصبر أهل الاسكندرية وصدقوا مع صلاح الدين في الجهاد وقل الطعام بالبلد فصبر
أهله على ذلك ثم ان اسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان قد استمال شاور
بعض من معه من التركان بالمال ووصله رسول المصريين والصليبيين يطلبون

ان يسلم القاهرة للصليبيين ويحملهم على قتال أسد الدين الذي كان على بعد ١٢ ميلا من تلك العاصمة فرأى أسد الدين شريكوه ان جيشه بعد ان قاسى الاهوال في عبور الصحراء لا يسهل عليه الهجوم على هذه المدينة فاجتاز النيل الى البر الغربي بقرب اطيح ونزل بالجيزة تجاه مصر وبني له استحکامات تقيه من العدو فدخل الصليبيون القاهرة ولكنهم لم يوافقوا شاور على ما أراد الا بعد ان تعهد لهم بزيادة الجزية السنوية عما كان يدفعه للملك اموري قائد تلك الحملة فعين معتمدين من قبله لعقد المعاهدة بذلك فأنهوها على ما أراد الصليبيون فقبضوا منه مبلغ مائتي الف دينار نقداً على وعد ان يقبضوا مثله بعد مدة يسيرة

ثم اراد الملك اموري مهاجمة أسد الدين شريكوه على جسر يصنعه من القوارب فجعل شريكوه كلما ابتدأوا في بناء الجسر يشغلهم عن اتمامه فبقى الحيشان في مثل ذلك نحو ٥٠ يوماً أو أكثر تمكن اثناءها شريكوه من تملك الضفة الغربية للنيل

﴿ محاربة أسد الدين شريكوه المصريين والصليبيين ﴾

فبعد تملك أسد الدين البلاد الغربية للنيل سار الى الصعيد حتى بلغ مكلنا يعرف بالباين أما الصليبيون فانهم اجتازوا الى البر الغربي عند رأس الذلث ومعهم العساكر المصرية فأدركوهم هناك في ٢٥ جاد اول سنة ٥٦٢ وكان قد أرسل اليهم جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرتهم وجدهم في طلبه فعزم على قتالهم ولقائهم وان يحكم السيوف بينه وبينهم الا انه خاف ان تضعف نفوس أصحابه عن الثبات في هذا المقام الخطير الذي عطبهم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم فاستشارهم فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل الى الجانات الشرقي والعود الى الشام وقالوا له ان نحن انهزمنا وهو الذي لا شك فيه فالى أين نلتجى؟ وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح وعدونا ويودون لو شربوا من دماءنا (وحق لمسكر عدده الفا فارس قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم ان يرتاعوا من لقاء عشرات الالوف مع ان كل فرد من أهل البلاد عدو لهم) فلما قالوا ذلك قام رجل من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش وكان مشهوراً بالشجاعة وقال من يخاف القتل والجراح والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته والله لئن عديم الى الملك العادل نور الدين من غير غلبة وبلاء تعذرون

بلادهم وأظهر انه يريد محاربة طبريه فجعل من بقي من الافرنج مهمهم في حفظها وتقويتها فصار نور الدين الى بانياس لعلمه بقلعة من فيها من الحماة المدافعين عنها ونازلها وضيق عليها وقتلها وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين اميراميران فاصابه سهم فاذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف الله لك عن الاجر الذي أعد لك لتميت ذهاب الاخرى ثم جد في حصارها فسمع الافرنج فجمعوا رجالهم ولم يتكامل عدتهم حتى فتحها على ان الافرنج كانوا قد ضمفوا بقتل رجالهم بواقعة حارم وأسرهم ثم ملك القلعة وملاها ذخائر وعدة ورجالا وشاطر الافرنج في أعمال طبريه وقرروا له على الاعمال التي لم يشاطروهم عليها مالا في كل سنة ثم عاد نور الدين منها الى دمشق وكان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر يسمى الجبل لكبره وحسنه وفي أثناء مسيره سقط من يده في جهة كثيرة الاشجار ملتفة الاغصان وما بعد عن هذا المحل تذكره فأرجع بعض رجاله للبحث عنه ودلهم على الموقع الذي كان آخر عهده به فوجدوه

﴿ في دخول أسد الدين شيركوه مصر المرة الثانية ﴾

بعد خروج أسد الدين من بليس التقى بنور الدين فحارب معه الصليبيين وانتصرا الا ان انتصارهما لم يقلل شيئاً من رغبة أسد الدين في افتتاح مصر فكان من وقت الى آخر يبحث نور الدين على ذلك . وكان مما يهيج على العود الى مصر زيادة حقه على شاور فاذن له نور الدين بالمسير ومعه جماعة من الامراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب فلما علم شاور وزير مصر وتأكد انه اذا لم يسارع الى ملافاة الخطب لا تلبث مصر حتى تصير في يد نور الدين على ان الصليبيين من الجهة الاخرى لا ينفكون ليلهم ونهارهم ساعين الى افتتاح مصر وقد قطعوا السبيل على جيوش أسد الدين في سيرها الى مصر فصاروا بجيش عظيم تحت قيادة الملك اموري حتى لم يبق صايبي الا سار في ذلك الجيش أما أسد الدين فقطع سوريا حتى بلغ حدود مصر ودخلها في ربيع اول سنة ٥٦٢ وكان الصليبيون قد ساروا بقيادة ملكهم في الصحراء فلم يظفروا باحد ثم عادوا الى غزة فالعريش ثم الى بليس . أما جيش أسد الدين فكان قد تجاوز بليس حتى بلغ عطاس فعسكر قرب القاهرة وتهددها

نخاف شاور من قدوم الجيشين المذكورين وكل منهما يحاول الفوز لنفسه ففضل

بالموصل ونفر الدين قرا ارسلان بالحصن ونجم الدين الجي بماردین وطلب منهم مساعدته بالحيوش في حرب الافرنج فوردت اليه الامداد من كل جهة وسار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر الى من بقي من الافرنج بالساحل فخذوا جيوشهم وجاؤا وفي مقدمتهم رايند صاحب طربلس وبوهيموند الثالث امير انطاكية ودوك الروم ومقدمتها وجمعوا معهم من الحيوش ما لا يقع عليه احصاء وقد ملؤوا الارض فخرض نور الدين اصحابه وفرق تفأس الاموال على شجيمان الرجال فلما قارب الافرنج رحل عن حارم الى ارتاح طمعاً ان يتبعوه ويتمكن منهم اذا لاقوه فساروا حتى نزلوا وتيقنوا انه لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله فعادوا الى حارم وتبعهم نور الدين فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الافرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبه عسكر حلب فبددوا نظامهم وزلزلوا اقدامهم وولو الادبار وتبعهم الافرنج وكان ذلك باتفاق ورأي دبروه ومكر مكروه وهو ان يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف فاذا عادت فرسانهم من اثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون اليه ويعود المنهزمون في اثارهم وتأخذهم سيوف المسلمين من بين ايديهم ومن خلفهم فكان الامر كذلك . لان الافرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم فاقناهم قتلاً واسراً وعادت فرسانهم فلم يجد غير جثث القتلى ورأوا انهم قد ضلوا وارتم عليهم عسكر حلب المنهزمون فاخذ الافرنج في الوسط وقد احاط بهم المسلمون من كل جانب فخنثد حمي الوطيس وباشر الحرب المرؤوس والرئيس وقاتل الافرنج قتال من يرجو النجاة وحاربوا حرب من آيس من الحياة وانقضت العساكر الاسلامية عليهم فزقوهم وقد اوقعوا فيهم القتل والاسر بكثرة فاسروا البرنس بوهيموند الثالث صاحب انطاكية ورايند صاحب طربلس ودوك الروم وغيرهم من قوادهم وسار نور الدين بعد ذلك الى حارم فلما فيها في ٢١ رمضان من تلك السنة وبث سراياه في تلك الاعمال والولايات فهبوا وسبوا وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويدا وعادوا سالمين ثم ان نور الدين اطلق بوهيموند صاحب انطاكية بمال جزيل اخذه منه واسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم

فتح بانياس

لما فتح حارم نور الدين كما تقدم أمر عساكر الموصل وديار بكر بالعود الى

واسرعوا ملين دعوته وبادروا الى نصرته وطمعوا في ملك ديار مصر وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه فتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير سار بعسكره في اطراف بلاده مما يلي بلاد الافرنج ليمتنعوا من المسير فلم يمتنعوا لعلمهم ان الخطر في مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر اشد من الخطر في مسيرهم فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار الملك اموري في باقي عسكره وكان قد وصل الى ساحل الشام جمع كثير من الافرنج في البحر لزيارة بيت المقدس فاستعان بهم الملك اموري فاعانوه وساروا معه فلما دنا الافرنج من مصر فارقتها اسد الدين وقصد مدينة بليس واقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصن به فاجتمعت المساكر المصرية والافرنجية ونازات اسد الدين بمدينة بليس وحصروه بها ثلاثة اشهر فامتنع بها وسورها من طين قصير جداً وليس له خندق ولا جبل يحميها وهو يفاديهم القتال وبرأوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا منه مأرباً فينهاهم كذلك اذا تاهم الحبر بهزيمة الافرنج بحارم واستيلاء نور الدين على الحصن ومسيره الى باناس فحينئذ ارادوا العود الى بلادهم ليحفظوها ولعلمهم يدركون باناس قبل أخذها فلم يدركوها الا وقد ملكها على ما سيأتي وراسلوا اسد الدين في الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده فيها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم بما فعله نور الدين بالافرنج في الساحل فاخرج اسد الدين اصحابه بين يديه من بليس وبقي في آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقهم والمصريون والافرنج ينظرون فاتاه افرنجي فقال له اما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المصريون والافرنج وقد احاطوا بك وباصحابك فلا يبقى لك معهم بقية فقال شيركوه ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله كنت والله اضع فيهم السيف فلا اقتل حتى اقتل رجالا وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفي ابطالهم فيملك بلادهم ويفني من بقي منهم والله لو اطاعني هؤلاء يعني اصحابه لخرجت اليكم اول يوم لكنهم امتنعوا فصلب الافرنجي على وجهه وقال كنا نستعجب من افرنج الشام ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرتاهم ثم رجع عنه وسار شيركوه الى الشام وعاد سالماً وفي قلبه من شر شاور الاحن وكيف تمت بغدره تلك المحن

فتح حارم

في سنة ٥٥٩ اغتتم نور الدين خلو الشام من الافرنج فراسل أخيه قطب الدين

ضرغام مال اليتامى المودع عند الحاكم فكرهه الناس واستعجزوه ومالوا الى شاور
فتكر منهم ضرغام وتحدث بايقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم له ونزل أسد الدين
وشاور في أرض اللوق خارج باب زويله وطارد أسد الدين رجال ضرغام وزحف
الى باب سعادده وباب القنطرة واضرم النار في اللؤلؤة وما حولها من الدور وعظمت
الحروب بينهم وفي كثير من الطائفة الريحانية فبعثوا الى شاور ووعدوه بان يكونوا
اعواناً له فاحمل أمر ضرغام فارسل العاضد الى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمي
فخرج الرجال الى شاور وصاروا من جملة وفترت همه أهل القاهرة وأخذ كل منهم
يعمل الحيلة في الخروج الى شاور فامر ضرغام بضرب الابواق والطبول من فوق
الاسوار فلم يخرج اليه أحد وانفك عنه الناس وسار الى باب الذهب من أبواب
القصر ومعه ٥٠٠ فارس فوقف وطلب من الخليفة ان يشرف عليه من الطاق وتضرع
اليه وأقسم عليه بآبائه فلم يجبه أحد واستمر واقفاً الى العصر والناس تنحل عنه حتى
بقي في نحو ٣٠ فارساً فوردت عليه رقعة مكتوب فيها (خذ نفسك وانج بها)
واذا بالابواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر أسد الدين وشاور
فر ضرغام الى باب زويله فصاح الناس عليه ولعنوه وتحفظوا من معه وأدركه القوم
فرموه عن فرسه قريباً من الجسر الاعظم من القاهرة ومصر القديمة قرب جامع
السيدة نفيسة وجزوا رأسه في غاية جمادي الآخر وفر منهم أخوه الى جهة المطرية
فادركه الطلب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة وقتل أخوه الآخر عند بركة
الفيل وبقي ضرغام ملقى على الأرض يومين ثم حمل الى القرافة ودفن بها وأعيدت
وزارة مصر الى شاور فاستلم زمامها وصار يدفع الى أتاك نور الدين ثلث الدخل
مقابلة لما بذله في اعادته اليها وأقام أسد الدين بظهر القاهرة حسب الاتفاق الذي
عمل مع نور الدين بان يكون أسد الدين موجوداً بمصر فاستاء من ذلك شاور وأراد
ان يغدر به وعاد عنها كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضاً
وارسل اليه يأمره بالعود الى الشام فانفك أسد الدين من هذا الحال وأعاد الجواب
بطلب ما كان استقر فلم يجبه شاور اليه فلما رأى ذلك أرسل أسد الدين نوابه
فاستولوا على بليس وباقي الخوف الشرقي فارسل شاور الى الملك أموري
ملك القدس يستمدد ويخوفه من نور الدين ان ملك مصر وكان الافرنج قد
أيقنوا بالهلاك ان ملكها نور الدين فلما أرسل شاور اليهم يستجدهم ويطلب
منهم ان يساعده على اخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحسبوه

﴿ في دخول أسد الدين شيركوه مصر أول مرة ﴾

لما خرج شاور من مصر سار الى نور الدين بدمشق الشام يستجده ليعيده الى الوزارة فاحسن وفادته وأكرم مثواه فطلب منه ارسال العساكر الى مصر ليعيده اليها ويكون له فيها ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر وانه يتصرف طبق أمره ونهيه فاخذ نور الدين يقدم في ذلك رجلاً وأخر أخرى تارة تحمله رعاية شاور وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الافرنج وتارة يمنعه خطر الطريق ووجود الافرنج فيه الى ان قرر العمل واستخار الله تعالى وأمر أسد الدين شيركوه أحد رجاله بالتأهب للمسير معه قضاء لحق الوافد المستصرخ وحباً بالبلاد والوقوف على أحوالها وكان ذلك موافقاً لهوى أسد الدين اذ كان في صدره من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالي معه بمخافة فتجهز وسار مع شاور في جماد الاولى سنة ٥٠٩ هـ وساروا جميعاً وسار معهم نور الدين الى أطراف بلاد المسلمين مهدداً الافرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لاسد الدين فكان قصارى هم الافرنج حفظ بلادهم من نور الدين وفي أثناء ذلك قصد الملك أموري ملك القدس بلاد مصر لاختزال الهدنة المقرر على مصر دفعه للافرنج من يوم أخذوا عسقلان وهو ثلاث وثلاثون ألف دينار فلما وصلت الافرنج الى حصن بليس وملكوا بعض السور خرج اليهم همام أخو ضرغام وحاربهم فغلبوه ثم عادوا الى بلادهم وعاد همام عوداً رديئاً فها هو الا ان قدم رسل الافرنج على ضرغام في طلب مال الهدنة المقررة ثم وصل أسد الدين شيركوه الى مصر سالماً ومعه شاور ولما علم ضرغام بذلك اضطرب وأصبح الناس خائفين على أنفسهم وأموالهم فجمعوا الاقوات والماء وتحولوا من مساكنهم وخرج همام بالسكر في أول جماد الآخر سنة ٥٠٩ هـ فسار الى بليس فقابل أسد الدين وشاور وحصلت بينهم وقعة انهزم فيها همام وامتلك أسد الدين وشاور جميع ما كان مع عساكره وأسروا عدة ونزلوا الى التاج (قلوب) ظاهر القاهره يوم الخميس ٦ جماد الآخر فجمع ضرغام الناس وضم اليه الطائفة الريحانية والطائفة الحيوشية بداخل القاهرة وأسد الدين وشاور مقببان في التاج مدة أيام ثم ساروا ونزلوا في المقس (الازبكية) فخرج اليهم عسكر ضرغام فقاتلوه فانهم هزم ضرغام هزيمة قبيحة وساروا الى بركة الحبش ونزلوا بالشرف الذي عرف بعد ذلك بالرصد وملك أسد الدين مدينة مصر القديمة وأقام فيها أيام فاخذ

﴿ وفاة بودوين الثالث وولايه اخيه اموري ﴾

كان الملك بودوين الثالث ملك القدس مقبياً بمدينة انطاكية فاعتزته الحمى فامر بنقله الى مدينة طرابلس ومنها الى مدينة بيروت وهناك فاجأته الوفاة وكان ذلك سنة ١١٦٢ أفرنكية الموافقه لسنة ٥٥٨ هجرية فنقل جسمه الى القدس لكي يدفن تحت جبل الجبلجله فخرنت عليه الافرنج لما كان معروفا به بينهم من العدل وكرم الاخلاق والشجاعة ولم يكن له ولد يرث ملكه بعده والذي يستحق الملك هو أخوه أموري صاحب عسقلان ويافا ولما كانت صفات وأخلاق أموري المذكور بعكس أخيه عارض رؤساء المملكة بتوليته وأخيراً توجهوا ملكا عليهم وكان متصفاً بالكبر والبخل والطمع

﴿ وزارة شاور ووزارة ضرغام بعده ﴾

كان شاور في ابتداء أمره يخدم الصالح بن رزيك ثم ولاء الصالح حكم الصعيد وهو أكبر وظيفة بعد الوزارة فظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم ففسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فادام استعماله خوفاً من الخروج عن طاعته فلما جرح الصالح أوصى ابنه ان لا يتعرض لشاور قائلاً له اني انا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكنني عزله فلما توفي الصالح وولي ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستخدم بعضهم مكانه فارسل اليه بالعزل فجمع جموعاً كثيرة وسار الى القاهرة بهم فهرب منه العادل بن الصالح فاخذ وقتل وصار شاور وزيراً للخليفة العاضد لدين الله وكان ذلك في صفر سنة ٥٥٨ هـ وتلقب بامير الحيوش وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم وذخائرهم . وكان الملك الصالح قد رتب في عهد وزارته الامراء البرقية وجعل في مقدمتهم ضرغام أبا الاشبال فترقى هذا الرجل حتى صار صاحب الباب فلما تولى شاور الوزارة طمع ضرغام في سابها منه فجمع رفقته نخاف شاور وجمع اليه رجاله فاصبح الجيش فرقتين فرقة مع ضرغام واخرى مع شاور وفي شهر رمضان من السنة المذكورة نار ضرغام على شاور فاخرجه من القاهرة وقتل ولده الاكبر المسمى بطي وبقي شجاع المنعوت بالكامل وخرج شاور من القاهرة يريد الشام واستقر ضرغام في وزارة العاضد لدين الله وتلقب بالملك المنصور فشكر الناس سيرته وكان فارس عصره كاتباً جميل الصورة عاقلاً كريماً

لا يلبق ان يكون ذلك الاثر الشريف خارج سور المدينة فكانت حجة حقاً وأبي الا ان يجعله في بعض أجزاء قصره المدعو قصر الزمرد فاقام له مشهداً هناك . ثم في سنة ٧٤٠ هجرية احترق المشهد في ولاية السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثة فاعيد بناءه وقد اعتنى به السلاطين والأمراء في كل عصر بعمارة وزخرفته وتحليته واعلاء شأنه وأخيراً أقيم في جواره جامع حتى اذا كانت أيام الأمير عبد الرحمن كتخذ أحد أمراء المماليك أعيد بناء المشهد الحسيني في سنة ١١٧٥ وبعد ذلك أعيد بناء برمته في أيام الخديوي الأسبق اسماعيل باشا سنة ١٢٨٢ وكان الناظر على الاوقاف المصرية الأمير راتب باشا وتمت عمارته في ٢٨ محرم سنة ١٢٩٠ الا المآذنه قمت في سنة ١٢٩٥ وادخل في الجامع عدة بيوت ولم يبق من البناء القديم الا القبة المغطية لمقام الامام التي جري تصليحها في سنة ١٣١٦ بإمرافديننا الحالي عباس باشا الثاني فاصبح على ما نشاهده الآن وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين بالسكة الجديدة بالقاهرة تجاه خان الحليلي

﴿قتل الصالح بن رزيك وزير مصر﴾

كانت ادارة الاحكام بمصر منوطة بالوزير ولذلك كان النفوذ الاكبر للملك الصالح طلائع بن رزيك ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله أقل استعباداً من سلفه ولقب الصالح بلقب ملك ثم لقب بالسلطان ففتحت أعين الاعداء عليه وفي جملتهم عمه الخليفة فعزمت على قتله فارسلت أولاد الداعي فكمنوا له في دهليز القصر وضربوه حتى سقط على الارض على وجهه وحمل جريحاً لا يبي الى داره وفيه حياة فارسل الى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع أثره في خلافته فاقسم العاضد انه لا يعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت بريئاً فلم عمتك اليّ حتى انتقم منها فامر باخذها فارسل اليها فاخذها قهراً وأحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه محي الدين رزيك ولقبه بالملك العادل وكنيته أبو شجاع ومات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ وكان شجاعاً كريماً فاضلاً محباً لاهل الادب جيد الشعر وفيه عقل وسياسة وتدير وكان مهاباً في شكله عظيماً في سطوته وغناه وكان محافظاً على الصلوات فرائضها ونوافلها شديد المغالات في التشيع صنف كتاباً سماه الاعتماد في الرد على أهل العناد جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علي بن أبي طالب والكلام على الاحاديث الواردة في ذلك وله شعر كثير يشتمل على مجلدين

بالله أبي العباس احمد بن المقتدي باصر الله وكانت خلافته اربعاً وعشرين سنة وثلاثة اشهر وستة عشر يوماً ومات في ٢ ربيع الاول وكان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة وهو اول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه ثم بويع للمستجد بالله أمير المؤمنين واسمه يوسف بعد موت والده وكان للمقتني حظية وهي أم ولده علي فلما اشتد مرض المقتني ويشت منه أرسلت الى جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدها على ان يكون ولدها خليفة فقالوا كيف الحيلة مع ولي المهد فقالت اذا دخل على والده قبضت عليه وكان كل يوم يدخل على أبيه فلما استقرت القاعدة بينهم استحضرت أم علي بعض جوار وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي المهد المستجد بالله وكان له خصي صغير يرسله كل وقت يتعرف اخبار والده فرأى الجواري بأيديهن السكاكين ورأى بيد علي ووالده سيفين فعاد الى المستجد وأخبره وأرسلت هي الى المستجد تقول له ان والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده فاستدعى أستاذ دارعضد الدولة وأخذه معه وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجواري فضرب واحدة منهن فجرحها وكذلك أخرى وصاح ودخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهربت الجواري وأخذ أخاه أبا علي وأمه فسجنهما وأخذ الجواري قتل منهن وغرق منهن ودفع الله عنه . ولما توفي المقتني جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه ابو طالب ثم اخوه ابو جعفر وكان أكبر من المستجد ثم بايعه الوزير ابن هيرة والقاضي وأرباب الدولة والعلماء

❦ تاريخ جامع سيدنا الحسين رضي الله عنه ❦

كان أمير الحيوش أثناء حروبه في سوريا قد ظفر بمدفن رأس الامام الحسين في عسقلان فابتنى عليه مشهداً عظيماً فن أعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر انه لما علم بوجود مشهد سيدنا الحسين رضي الله عنه بتلك الجهة خاف عليه من هجمات الافرنج فعزم على نقله الى مصر فابتنى له جامعاً مخصوصاً خارج باب زويلة دعاه جامع الصالح نسبة اليه (ولم يزل موجوداً الآن ببول قصبة رضوان) بنية ان يجعل فيه الرأس الشريفه فلما فرغ من بنائه لم يتمكن الخليفة من ذلك بدعوى انه

وعادوا الى حزالسيف فقطعت
 فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر
 فقتلهم بالرأي طوراً وتارة
 فقولوا لنور الدين لافل جده
 تجهز الى أرض العدو ولا تن
 فمذك من أطف ربك مابه
 أعادك حياً بعد ان زعم الوري
 بوقت أصاب الارض ماقدأصابها
 وخيم جيش الكفر في أرض شيزر
 وقد كان تاريخ الشام وهلكه
 فقم واشكر الله الكريم بنهضة
 فنحن على ماقدعهدت زروعهم
 وغاراتنا ليست تفتز عنهم
 فاسطولنا اضعاف ما كان سائراً
 ونرجو بان يحتاج باقيهم به

﴿ وفاة الخليفة الفائز بنصر الله وولاية العاضد لدين الله العلوي ﴾

في سنة ٥٥٥ هـ توفي الخليفة الفائز بنصر الله العلوي صاحب مصر ولم يحكم الامدة
 ستة سنوات وكانت مصر قد انحطت في ايامه الى مهاوي الضعف وبعد وفاة الخليفة
 الفائز أخذ الملك الصالح بهم في اقامة من يخلفه فقدم السراي فقدموا له شيخين
 من العائلة الفاطمية لم يكن ثم أحق منه للخلافة فهم الى مبايعة جاء أحد اصدقائه
 وهمس في أذنه قائلاً (ان سلفك في الوزارة كان احسن تديراً منك لانه لم يسلم
 نفسه لخليفة سنة اكثر من خمس سنوات) فوكت هذه العبارة في اذن الوزير
 فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وعمد الى عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله
 ولم يكن بالغاً رشده فبايعه ولقبه بالعاضد لدين الله وهو الخليفة الرابع عشر للدولة
 الفاطمية العلوية ثم زوجه ابنته وممها ثروة عظيمة

﴿ وفاة الخليفة المقتني لامر الله العباسي وخلافة المستنجد بالله ﴾

وفي هذه السنة ايضاً توفي أمير المؤمنين المقتني لامر الله ابو عبد الله احمد بن المستظهر

فترجلت معه الابطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الاقدام
ودمهم البوار والحمام وانتصر المسلمون وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسراً
واستأضلت السبوق الرجاله وهم العدد الكثير فلم يفلت منهم غير عشرة انفار

﴿ محاربة المصريين غزه وعسقلان ﴾

في أوائل سنة ٥٥٣ هـ أرسل الملك الصالح بن رزك وزير الخليفة الفائز بنصر
الله بجريدة عسكرية في البر ومثلها في البحر باسطول كبير يقصد محاربة أهل غزة
وعسقلان فسارت العساكر المصرية بقيادة الأمير ضرغام وأغارت على أعمال غزة
وعسقلان وخرج الافرنج الذين بعسقلان تحت رياسة صاحبها امورى واقتلوا معاً
فظفر المسلمون بهم قتلا وأسراً فلم يفلت منهم الا اليسير وغنموا غنائم كثيرة وعادوا
سالمين وكان مقدم العساكر البحرية قد ظفر بعدة مراكب مشحونة بالافرنج
فقتل وأسر منهم العدد الكثير وحاز من اموالهم وعددهم وأناتهم مالا يكاد يحصى
وعاد ظافراً غانماً . وقد أرسل مؤيد الدولة إسماعيل بن منقذ قصيدة يشرح فيها حال
هذه الغزوه ويحرض فيها نور الدين على قتال الافرنج ويذكره بما من الله عليه
من العافية والسلامة من المرض الذي كان قد ألم به في رمضان في السنة الماضية ومن
القصيدة ما يأتي

ألا هكذا في الله تمضي العزائم	وتنضي لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستزل الاعدام طول عزهم	وليس سوى سمر الرماح سلام
ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم	وان بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الحيش في صفر فما انستنى	نصفه حتى اثنى وهو غانم
بعثناه من مصر الى الشام قاطعاً	مفاوز وجد العيش فيهن دائماً
فما هاله بعد الديار ولا ثنى	عزيمته جهد الظما والسقام
يباري خيولا ما تزال كأنها	اذا ما انقضت فهي النسور القشاعم
يسير بها ضرغام في كل مارق	وما يصحب الضرغام الا الضراغم
ورفقتة عين الزمان وحتم	ويحي وان لاقى المنية حاتم
وواجههم جمع الفرنج بمحملة	يهون على الشجعان فيها الهزائم
فلقوهم زرق الاسنة وانطوا	عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم
وما زالت الحرب العوان أشدها	اذا ما تلاقى العسكر المتضاحم

ما أشار به عليهم وراسلوا نور الدين في الصلح على ان يعطوه حصه من حارم فابي ان
يجبهم الا على مناصفة الولاية فاجابوه الى ذلك فصالحهم وعاد

﴿ انتصار العساكر النورية على الافرنج ﴾

في أوائل سنة ٥٥٢ هـ حصلت زلازل كثيرة باراضي الشام وهدمت كثيرا من
الحصون والقلاع والبيوت وجميع المباني وفي شهر ربيع اول كان نور الدين بناحية
بعلبك فانتبه الاخبار من ناحية حمص وحماه باغارة الافرنج على تلك الاعمال وفي
١٥ منه ورد المبشر من المعسكر المنصور برأس الماء بان ناصر الدين أميراميران لما
انتهى اليه خبر الافرنج وانهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد الى ناحية بانياس
لتقويتها أسرع اليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجلة فأدركهم قبل الوصول
الى بانياس وقد خرج اليهم من كان فيها من حماها فاقوع بهم وكان قد كمن لهم في
مواضع كئنا من شجعان الاتراك واندفع المسلمون بين أيديهم في اول المجال وظهر
عليهم الكمئنا فانزل الله نصره على المسلمين وقتل الافرنج وأسروا باقيهم وحصل
في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم
ومحقت السيوف عامة رجالهم ووصلت الاسرى والغنائم الى دمشق ثم وردت
بشرى ثانية من اسد الدين شيركوه باجتماع عدد كثير اليه من شجعان التركان وانه
قد ظفر بسرية وافرة من الافرنج ظهرت في معاقلهم من الشمال فانهزمت وتحفظوا
من ظفروا به ووصل اسد الدين الى بعلبك ومن معه من الشجعان واجتمعوا
بنور الدين وقرروا قصد بلاد الافرنج لتدوينها والابتداء بالتزول على بانياس وقدم
نور الدين دمشق في الاستعداد وتجهيز العساكر فخرج وتبعه كثير من الاحداث
والمتطوعة والفقهاء والصوفية في آخر شهر ربيع اول ونزل على حصن بانياس
وضايقه بالمنجانيقات وفي أثناء ذلك الحصار ورد خبر انتصار اسد الدين شيركوه
بناحية هونين على سرية من الافرنج ثم ان نور الدين قوى الحصار والحرب ففتح
الحصن المذكور بالسيف قهراً بعد مضي اربع ساعات بعد انتهاء النقب وسقوط
البرج فأخذوا الحصن وهرب بعضهم الى القلعة فحاصرها أيضاً فطلبوا الامان ثم
بلغه خبر جمع ملك الافرنج عسكره بين طبرية وبانياس بقصد استخلاصها فسار اليه
فلما شارفهم وهم غارون ورأوا رايته قد أظلمت بادروا بلبس السلاح والركوب
وافترقوا اربع فرق وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نورالدين

انه سيتولى مصر بناء على رؤية رآها في منامه فسار من ساعته الى مصر وصار يترقى في الحدم حتى ولي منية ابن خصيب

فلما صار أهل القصر الى ما صاروا اليه كتبوا الى طلائع وسألوه الانتصار لهم ولولا هم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليه اطلع من حوله من الاجناد عليه وتحدث معهم في المعنى فاجابوا الى الخروج واستمال جمعاً من العرب وساروا قاصدين القاهرة وقد لبسوا السواد فلما قاربوها خرج اليهم جميع من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباساً وحده فخرج عباس من ساعته من القاهرة وخرج معه ولده نصر ومعهما شيء من المال وجاعة يسيره من اتباعهم وقصدوا طريق الشام على أبله وذلك في ١٤ ربيع أول سنة ٤٤٩ هـ أما الصالح بن رزك فإنه دخل القاهرة بدون قتال وما قدم شيئاً على النزول بدار عباس المتقدم ذكره . واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله وسأله عن الموضع الذي دفن فيه فعرفه به وقلع البلاطة التي كانت عليه وأخرج الظافر ومن معه من المقتولين فحملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد ومشى الصالح والحلق قدم الجنائز وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودير أحواله . وأما عباس فأخت الظافر كآبت افرنج تسقلان بشأته واشترطت لهم مالا جزيلًا اذا امسكوه فخرجوا عليه وصادفوه فتواقعوا وقتلوا عباساً وأخذوا ماله وولده وانهزم بعض أصحابه وسيرت الافرنج نصر بن عباس الى القاهرة تحت الحفظ في قفص من حديد فلما وصل تسلم رسوهم ما شرطته لهم من المال فآخذوا نصرًا وضربوه بالسياط ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويله ثم انزلوه وأحرقوه

﴿ محاصرة نور الدين حصن حارم ﴾

في سنة ٥٠١ هـ حاصر نور الدين قلعة حارم وهي حصن غربي حلب بالقرب من انطاكية وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون واحصنها في محور المسلمين فاجتمعت الافرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه لمنعه وكان بالحصن مقدم كبير منهم فارس اليهم يعرفهم قوتهم وانهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء وقال لهم ان لقيتموهم هزموكم وأخذوا حارم وغيرها وان حفظتم انفسكم منه اطقنا الامتناع عليه ففعلوا

﴿ قتل الخليفة الظافر وولايته ابنه الفائز ﴾

لما ورد خبر امتلاك الافرنج مدينة عسقلان جاء خبر آخر أشد وطأة وهو ان العمارة المسيحية نزلت على سواحل مصر وأحرقت مدينة تانس في منتصف بحيرة المنزلة ونهب القرما الا انها لم تتقدم فاخذت ما أمكنها حمله من الغنائم وعادت من حيث أتت

كان ذلك والخليفة الظافر غارق في الشهوات الوحشية مشتغلا عن مهام الدولة فشق ذلك على وزيره العباس فاوعز الى ابنه نصر ان يقتله وينجي البلاد من شره ويتخلص مما كان يقوله الناس في عرضهما من معاشرته فاستدعاه الى دار ابيه سرأ بحيث لم يعلم به أحد وتلك الدار هي المدرسة الحنيفة التي تعرف بالسيفيه فقتله بها وأخفى قتله في منتصف محرم سنة ٥٤٩ فأتى نصر الى أبيه العباس وأعلمه بذلك من ليلته . ولما كان الصباح اقبل عباس الى القصر على جاري عادته في الخدمة وأظهر عدم الاطلاع على قضيته وطلب الاجتماع به ولم يكن أهل القصر قد علموا بقتله لانه خرج من عندهم خفية وما علم أحد بمخروجه فدخل الخدم ما وضعه ليستأذنون للعباس فلم يجدوه فدخلوا الى قاعة الحرم فقبل انه لم يبت هنا فطلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يبقوا له على خبر فتحققوا قتله فاخرج عباس اخوى الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما انما قتلتما اماننا ومانعنا حاله الا منكما فاصرا على الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلتهما في الوقت لينفي عن نفسه وابنه التهمة . فاستدعى العباس الفائز بن الظافر وكان عمره خمس سنوات وقيل سنتين فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وامر ان تدخل الامراء فدخلوا فقال لهم هذا ولد مولاكم وقتل عماء أباه وقد قتلتما به كما ترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل فقالوا باجمعهم سمعنا وأطعنا وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس وسموه الفائز وسيره الى أمه وقد اختل من تلك الصيحة فصار يصصر في كل وقت ويحتاج فاخذ عباس من ذلك الحين يدبر الامور وانفرد بالتصرف ولم يبق على يده يد وأما أهل القصر فانهم اطلعوا على باطن الامر وأخذوا في اعمال الحيله في قتل عباس وابنه فكتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الارمني وهو أبو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام علي بن أبي طالب بارض النجف من العراق في جماعة من الفقراء وكان من الشيعة الامامية فنبأ له الامام

﴿ استيلاء نور الدين على مدينة دمشق ﴾

بينما كان الافرنج محاصرين عسقلان كما تقدم كان نور الدين يتلهف ولا يقدر على الوصول الى عسقلان لتجدة اهلها وكان السبب في ذلك ان عسقلان واقعه بين بلاد مصر وبلاد الافرنج ومدينة دمشق وكان بدمشق مجير الدين فلما علم الافرنج ضعفه صاروا يغيرون عليه وينهبون الاهالي حتى جعلوا على المدينة اناوة سنوية يأخذونها فلذلك لم يتمكن نور الدين من العبور منها فعزم ان يستولى عليها وقال انا احق بحمايتها فارسل الامير اسد الدين شيركوه في العشر الثاني من محرم سنة ٥٤٩ هـ فوصل الى ظاهر دمشق وخيم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الالف فانكر ذلك مجير الدين وخاف منه فلم يخرج لتلقيه والاختلاط اليه وتراسلا فلم تسفر المراسلات عن سداد ولا نيل مراد وغلا سعر الاقوات لانقطاع الواصلين بالغللات ووصل نور الدين في عسكره الى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفاسريا عند دومه ورحل في الغد ونزل بيت الابار من القوطه وزحف الى البلد من شرقيه وزحف اليه من عسكر البلد واحداثه الخلق الكثير ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين الى مكانه ثم زحف يوماً بعد يوم وتأكد الزحف يوم الاحد عاشر صفر وظهر اليه العسكر الدمشقي فاندفع بين ايديهم الى سور قبلي البلد وتولى القتال اسد الدين شيركوه وابلى الجهد فكسر عساكر دمشق الى الاسوار من قبلي البلد ولم يكن احد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لان نور الدين كان من شرقها وجل العسكر مقابله ورأى من كان مع نور الدين من الجنداريه والحليين خلو السور من المقاتلة فأسرعوا الى السور وتعلقوا به وطلعوا في الحال الى أعلاه ويقال ان امرأة كانت على السور فذات حبلا فصعدوا عليه ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين وامتتع الاجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وكسروا الباب ودخلت منه العساكر وفتح باب توما أيضاً وكان مجير الدين لما احس بالغلبة قد انهزم من ضواحيه الى القلعة فانفذ اليه نور الدين امه على ماله ونفسه وخرج الى نور الدين فطيب خاطره وكان مجير الدين قد راسل الافرنج وطلب منهم المساعدة على نور الدين فلما حضروا وجدوا نور الدين قد استلم البلد فخافوا منه ورجعوا الى بلادهم

بان قتله وولي بعده وكانت الوزارة في مصر لمن غلب والحلفاء وراء الحجاب
والوزراء كالمتملكين

﴿ املاك الصليبيين مدينة عسقلان ﴾

كانت مدينة عسقلان تابعة للديار المصرية وكان الوزراء في كل سنة يرسلون اليها من
الذخائر والاسلحة والاموال والرجال من يقوم بحفظها وكانت حصينة منيعة وطالما
حاربها الافرنج وارتدوا عنها خائين وفي سنة ٥٤٨ هـ لما علم بودوين الثالث ملك
القدس ما حصل بمصر من اختلاف الوزراء انتهز الفرصة وراسل جميع الافرنج
المقيمين بالشام بمساعدته وسار من القدس وصحبه افرنج الشام ورهبان جمعية الهيكلين
ورهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان الى ان وصل الى اسوار مدينة عسقلان
من البر وحصرها وكان سير اليها خمسة عشر مركباً في البحر برئاسة حبرار صاحب
صيدا وحاصرها بحراً ثم تصادف ورود جموع من الصليبيين لمساعدة الافرنج
وكذلك ورود مراكب أوروبا فاضافوا الى العمارة البحرية تحت رئاسة حبرار
المذكور وكان مع بودوين برج كبير من الحشب اعلى من اسوار المدينة مركب
على دواليب سهل النقل وركبوا منجانيقات وكبوشاً ونازلوا المدينة وأخذوا
يقاتلونهم ويرمونهم بالمنجنيقات وكذلك اهل عسقلان يرمونهم بالنبال والمنجانيقات
حتى اشرفوا على الهلاك من داخل المدينة ثم وردت عمارة مصرية لنجدة المدينة
فاستبشر أهلها وقويت نفوسهم واشتدوا في القتال فرموا على الاخشاب الحربية التي
مع الصليبيين ناراً من أعلى السور فاقطعت بسرعة عظيمة ولكن الريح
عكست النار فارمتها على سور المدينة فظلت مشتعلة اربعا وعشرين ساعة حتى وقع
من السور جزء فانفتح مجال للصليبيين يدخلون منه المدينة وكان بالقرب من هذه
الجهة رهبان جمعية الهيكلين الذين طلبوا الدخول الى المدينة وحدهم وامتلاكها ولما
دخلوا من هذا الجزء المهذوم وجدهم المسلمون قليلاً فاقضوا عليهم وقتلوهم فهرب
باقيهم الى خارج السور فانكسرت قلوب الافرنج ثم ان المسلمين أخذوا يقاتلون
بشدة ولما وجدوا عجزهم عن المقاومة ارسلوا الى بودوين بتسليم المدينة بشرط ان
يخرجوا سالمين بمائلاتهم وامتعتهم فاجابهم الى ذلك وأعطاهم ميعاداً ثلاثة أيام وبعدها
سلموا المدينة اليهم وخرجوا منها سالمين وكانت مدة الحصار خمسة اشهر

المسلمين وظفر الفرنج وأخذ جوسلين سلاح دار نور الدين أسيراً ولأخذ ما معه من السلاح فارسله الى السلطان مسعود بن قليج ارسلان صاحب قونية وكان نور الدين قد تزوج ابنته وارسل مع السلاح اليه يقول قد انفذت لك بسلاح صهرك وسياتيك بعد هذا غيره فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين وعلم ان هو جمع المساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الافرنج وحذر وامتنع فاحضر نور الدين جماعة من التركان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والاموال ان هم ظفروا بجوسلين اما قتلا واما اسراً فاتفق ان جوسلين خرج من عسكره وأغار على طائفة من التركان فنهب وسبي فاستحسن من السبي امرأته منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله التركان فركب فرسه ليقاتلهم فاخذوه أسيراً فصانهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه وأجابوه الى ذلك وأخفوا امره عن نور الدين فارسل جوسلين في احضار المال فأتى بعض التركان الى نائب نور الدين بحلب فاعلمه بما كان فسير معه عسكرياً اخذوا جوسلين من التركان قهراً وكان نور الدين حينئذ بمحصر وفرح المسلمون لاسره وعظمت المصيبة على الافرنج وخلت بلادهم من حاميا وسهل أمرهم على المسلمين بعده وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهده وطالما صالحه نور الدين وهادنه فاذا آمن جانبه بالمهود والموائيق نكث وغدر فلقبه غدرة وحاق به مكره وبعد اسره فتح كثيراً من بلادهم وقلاعهم فنهبا عين تاب • وعزاز • وفورس • والراوندون وحصن البان وتل خالد وكفر لانا وكفر سوب وحصن نسرفوب بجبل بني عليم ودلوك ومرعش ونهر الجوز وبرج الرصاص وكان نور الدين اذا فتح حصناً لا يرسل عنه حتى يملاؤه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للافرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة الى شيء

❦ قتل ابن السلار وزير الخليفة الظافر ووزارة عباس ❦

في شهر محرم سنة ٤٨٥ هـ قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله الخليفة العلوي بمصر قتله ربيبه عباس بن أبي الفتوح بن يحيى الصنهاجي أشار اليه بذلك الامير اسامه بن منقذ ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فأمر ولده نصراً فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وولي الوزارة بعده ربيبه عباس وكان عباس قد قدم من المغرب الى مصر فزوج بن السلار بامه واجبه وأحسن تربيته فجازاه

الفرار ليلاً ونهاراً وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة فاجتمعت الافرنج من سائر بلادهم وساروا نحوه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا اليه الا وقد ملك الحصن وملاء ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال وجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جده في لقاهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم وصالحوه على ما أخذ

﴿ وفاة الحافظ لدين الله خليفة مصر وولاية الظافر بامر الله ﴾

في اليوم الخامس من شهر جمادي الآخر سنة ٤٤٤ هـ توفي الحافظ لدين الله عبد المجيد بن الامير أبي القاسم العلوي بمصر بعلة القولنج وكان كثير الاصابة بها فعمل له موسى النصراني طبيل القولنج وهو عبارة عن طبيل مركب من سبعة معادن عليه الكواكب السبعة وكان من خاصته ان الانسان اذا ضربه يخرج الريح من مخرجه ولهذا الخاصة كان ينفع في القولنج وكان سن الحافظ عند وفاته ثمانين سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و ٧ أشهر ولم يكن من التدبير والحكمة على شيء فكان يعهد ادارة الاحكام لوزرائه مكثفياً بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة ولم يكن لديه من السلطة السياسية الا الامضاء على الاوامر في تثبيت الامراء على اماراتهم شأن الدول عند قرب انحلال ملكها الا ان تغيير الوزراء جعل فيه بعض الاهتمام في الاحكام واستخاف ابنه اسماعيل أبا المنصور فبوع له ولقب بالظافر بامر الله ولكن هذا الاسم لم ينطبق على المسمى وكان سنه ١٧ سنة وهو أصغر أولاد أبيه سنًا وكان كثير اللهو والتفرد بالجوارى واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في قصره الآيلة الى خراب مملكته بعين المتردد المتهامل وبمثل ذلك كان ينظر الى تهديد جنود الملك روجار صاحب سيسليا بعد استيلاءه على أكثر بلاد المغرب ولولا لطف الله ووقوع الخلاف بين ملك سيسليا المذكور والملك عمانويل ملك الروم وحصول الحرب بينهما وموت جورجى وزير روجار بعد اصابته بمرض البواسير والحصا لكان حاصر مصر

﴿ اسر جوسلين ﴾

في سنة ٤٤٥ هـ سار نور الدين الى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمال حلب منها تل باشر . وعين تاب . وعزاز . وغيرها من الحصون فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم وبقي نور الدين فكان بينهما حرب شديدة انجلت عن انهزام

﴿ انهزام الافرنج بيغرى ﴾

في سنة ٤٤٣ هـ أيضاً هزم نور الدين محمود بن زنكي الافرنج بكان اسمه يغرى من أرض الشام وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها بقيادة رايوند صاحب انطاكية فعلم نور الدين فسار اليهم في عسكره فالتقوا بيغرى واقتتلوا قتالاً شديداً فانهمز الافرنج وقتل كثير منهم وأسر جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع الا القليل وأرسل من الغنيمة والاسرى الى أخيه سيف الدين والى الخليفة ببغداد والى السلطان مسعود وفي هذه الواقعة يقول ابن القيسراني بقصيدته التي أولها

يا ليت ان الصد مصدود أولا فليت النوم مردود
ومنها في ذكر نور الدين

وكيف لا يثنى على عيشنا الم محمود والسلطان محمود
وصارم الاسلام لا يثنى الا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة الا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها عند ملوك الكفر مشهود

﴿ قتل رايون صاحب انطاكية ﴾

في صفر سنة ٤٤٤ هـ سار نور الدين بعساكره الى حصن حارم وهو للافرنج حصنه وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل عنه الى حصن آنب فحصره فاجتمعت الافرنج مع رايوند صاحب انطاكية وساروا اليه ليرحلوه عن آنب فلم يرحل بل لقيهم وتصافى الفريقان واقتتلوا وصبروا وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حدائنه ما تعجب منه الناس وانجلت الحرب عن هزيمة الافرنج وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً وقتل أيضاً رايوند صاحب انطاكية ثم تخلف بعده على انطاكية ولده الصغير المدعو بوهيموند فتزوجت أمه قسطنسا رانود دي شاتيلون احد الافرنج ليدير شؤون البلد الى ان يبلغ ولدها ويستلم الحكم ثم سار نور الدين الى حصن قامييه وهو للافرنج أيضاً وقريب من مدينة حماه وهو حصن منيع على تل مرتفع من أحسن القلاع وأمنها وكان من فيه من الافرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبونها فكان اهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار فسار نور الدين اليه وحصره وضيق عليه ومنع من فيه عن

الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لايبقى لكم معه مقام في الشام فاجابوه الى التخلي عن الصليبيين وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم فاجتمع الملك بودوين وأرباب مملكته بالملك كونراد والملك لويس وخوفوهم من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد اليه وانه ربما أخذ دمشق ونضعف عن مقاومته فباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم وزال عنهم روعهم وتبينوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام وفي الغد أحاطوا بهم في مخيمهم وقد تحصنوا بأشجار البساتين فاحجم الافرنج عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد وظن المسلمون انهم يدبرون مكيدة أو حيلة ولم يظهر منهم الا النفر اليسير من الحيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفا من المهاجمة الى ان يجدوا لحمهم مجالا وليس يدنوا منهم أحد الا صرع برشقة أو طعنه وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الاحداث وجعلوا يقصدونهم في المسالك فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤسهم لطلب الجوائز عليها فرحلوا في سحر يوم الاربعاء عشره ربيع الاول فبعد رحيلهم عن دمشق أشار بعض المتقدمين بحصار مدينة عسقلان ولكن جميع الصليبيين ضعفت قلوبهم وذهبت شجاعتهم ولذلك رفضوا هذه الشورة وعاد كل منهم الى بلاده

﴿ استيلاء نور الدين على حصن العزيمة ﴾

بعد رحيل الصليبيين عن دمشق سار معين الدين انزالي بعلبك وأرسل الى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله ان يحضر اليه فاجتمعافو صلحهما كتاب القمص يونس صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العزيمة واخذه ممن فيه من الافرنج وكان سبب ذلك ان ابن الملك روجار صاحب صقلية خرج مع الملك كونراد ملك المانيا الى الشام وتقلب على الحصن المذكور واخذه من القمص وأظهر له انه يريد أخذ طرابلس أيضاً وكان روجار صاحب صقلية قد غزا افريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما استولى ابنه على حصن العزيمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده فسارا اليه مجدين فصبحاه وكتبا الى سيف الدين يستجدهانه ويطلبان منه المدد فامدهما فحصروا الحصن وتقبوا السور فاذعن الافرنج واستسلموا والقوا بأيديهم فلك المسلمون الحصن وأخذوا كل من فيه من رجل وصبي وامرأة وفيهم ابن روجار واخبروا الحصن وعادوا الى سيف الدين وعاد نور الدين الى حلب ومعه ابن روجار وأمه ومن أسر معهم وعاد معين الدين الى دمشق

السابع ملك فرنسا والملك بودوين الثالث ملك القدس بجميع عساكرهم وكذلك
رهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان ورهبان جمعية الهيكلين مقدمين أمامهم
البطريك حاملاً الصليب الخلاصي الحقيقي وساروا إلى أن وصلوا إلى سهل مدينة دمشق

✽ محاصرة الصليبيين مدينة دمشق ✽

في سنة ٤٤٣ هـ هجرية حاصر الصليبيون مدينة دمشق وفيها صاحبها مجير الدين
آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين وليس له من الأمر شيء وإنما كان الأمر إلى مملوك
جده طغتكين وهو معين الدين أنز فهو كان الحاكم والمدير للبلد والعسكر وكان عاقلاً
ديناً خيراً حسن السيرة فجمع العسكر وحفظ البلد وحصرهم الصليبيون فزحفوا
اليوم السادس ربيع أول فخرج العسكر وأهل البلد لمعهم وكان في من خرج الشيخ
حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي شيخ السادة المالكية
بدمشق وكان شيخاً كبيراً زاهداً عابداً خرج راجلاً فرآه معين الدين فقصدته وسلم
عليه وقال له يا شيخ انت معذور ونحن نكفيك وليس بك قوة على القتال فقال قد
بعت واشترى فلا نقله ولا نستقبله يعني قول الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين
أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) الآية وتقدم وخرج معه أيضاً الشيخ الزاهد عبد الرحمن
الحلحول فقاتلا حتى قتلا رحمهما الله وقوى أمر الصليبيين وتقدموا وضعف أهل
البلد عن ردهم وتقدم الملك كوزاد فنزل بالميدان الأخضر فاقن الناس بأنه يملك
البلد وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازي يستعيت به
ويستجده فجمع عساكره وسار إلى الشام واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من
حلب فنزلوا بمدينة حمص وأرسل إلى معين الدين يقول له قد حضرت ومعي كل من
يحمل السلاح من بلادي فاريدان يكون نوابي بمدينة دمشق لا حضر والقي الا فرنج
فان انهزمت دخلت انا وعسكري البلد واحتمينا به وان ظفرنا بالبلد لكم لا أنازعكم
فيه فارسل معين الدين إلى الصليبيين يهددهم ان لم يرحلوا عن البلد وكان قد حصل
بينهم انقسام لانهم ظنوا امتلاك المدينة فتشاحنوا على من يكون ملكها فلما سمعوا
بمجيء سيف الدين ضعف قلبهم وأرسل اليهم معين الدين يهددهم ويقول لهم ان ملك
المشرق قد حضر فان رحلتهم والا سلمت البلد اليه وحيثئذ تندمون وارسل أيضاً إلى
افرنج الشام يقول لهم باي عقل تساعدون هؤلاء الصليبيين الغرباء علينا وانتم تعلمون
انهم ان ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية وأما انا فان رأيت

فهجمت عليه العساكر الاسلاميه وفرقت بين جيشه وبين فرسانه وأوقعوا بهم
 ففر الملك لويس من هذه الموقعة ولحق بين نجا من جيشه وساروا الى ان
 وصلوا الى سور مدينة ساطاليا عند فم نهر جاسديوس وعند مشاهدتهم هذه المدينة
 ظنوا بانهم سيحتموا فيها لعلمهم بانها تابعة لملك الروم ولكن املهم خاب فوالى
 المدينة الرومي أمر بقفلهما في وجوههم مع انهم كانوا في غاية الشدة والجوع
 ووجدوا انفسهم ملتزمين بالاستمرار على المسير في البراري وأخيراً طلبوا منه ان
 يرسل لهم مراكبه ليسيروا بها الى انطاكية فامر لهم بالمراكب ولما وجدوها غير
 كافية لحملهم انقسموا قسمين قسم ركب البحر ومعه الملك لويس وقسم سار في البر
 تحت رياسة كونت دي فلاندر وارشامبود دي بوربون ودفع الملك لويس الى والى
 ساطاليا خمسين وزنة من الفضة ليوصل العساكر المسافرة برأ الى طرسوس ولكن
 هذا والى أهملهم ولم يرسل أحداً يدهم على الطريق السهل وسار الملك لويس
 بجزراً الى ان وصل انطاكية فخرج راييموند دي بوانيارس صاحبها وقابل الملك
 بالاحتفال والاكرام وقد فرح به وطلب الاشتراك معه في الحرب وقال له الافضل
 أن نحارب مدينتي حلب وقيساريه لان امتلاكهما يوطد الامان للجميع الصليبيين
 ويضعف قوة نور الدين ولكن ملك فرنسا وقواده رفضوا هذا الطلب وقالوا لا
 نحارب الا بعد زيارة القدس ثم بعد اقامته بانطاكية أياماً قليلة عزم على المسير الى
 القدس فسار هو وقواده الى ان وصلوها فخرج بودوين الثالث ملكها مع الكليروس
 والامراء والشعوب حاملين أغصان الزيتون فدخل المدينة بين هتاف وتهليل
 وذلك سنة ١١٤٧ الموافق سنة ٥٤٢ هـ وأقام بها الى ان وصل الملك كونراد ملك
 النمسا والمانيا فتوجهوا الى كنيسة القيامة فشكروا الله على نجاحهما

﴿ المشورة بالحروب الصليبية الثانية ﴾

بعد اقامة الملوك الصليبيين بالقدس عقد بودوين الثالث ملك القدس مجلساً
 للمشورة على محاربة الاسلام حضره الملكان المذكوران واعضاء مملكة القدس
 والرؤساء الكنائسيون وكان ذلك المجلس بمدينة عكا فقرروا محاصرة مدينة دمشق
 الشام ظانين بانهم اذا فازوا بهذه المدينة وامتلكوها وايالتها الحضة لم يبق عليهم خوف
 من حروب جديدة تضايقهم فيها المسلمون وتصير مدينة القدس محمية بدمشق وفي
 شهر مايو سنة ١١٤٨ سار كل من الملك كونراد ملك النمسا والمانيا والملك لويس

المسلك بدون زاد ولا ماء ففر الروم وتركوهم عند جبل طاوروس فسار الافرنج بعد ذلك ثلاثة ايام بحال يرثى لها من التعب والمشقات وعدم الاكل والشرب فطاعت عليهم العساكر الاسلامية وكانوا كامنين لهم بالجيل وانقضوا عليهم كالصواعق من كل ناحية فاحتارت العساكر الصليبية وهي لا تقدر لا على الرجوع ولا على التقدم وبعد قتل أكثرهم هرب الملك كوزاد وتبعه باقي عساكره ومن سلم من الصليبيين الاخر الى مدينة نيقية فبعضهم المسلمون وقتلوا معظمهم وهم منهزمون ولما وصلوا الى مدينة نيقية قابلهم الملك لويس ملك فرنسا بجيشه ثم جددا التحالف بمحاربة المسلمين ولكون الملك كوزاد لم يكن له قوة بالمسير حجة ملك فرنسا فرجع الى القسطنطينية وطلب من ملك الروم مساعدته بمراكبه الى القدس كإياتي

﴿ سفر العساكر الفرنسية ﴾

سار الملك لويس بعسكره حتى باغ أراضى برغاما وازمير حيث وردت اليه رسل ملك الروم فلم يلتفت اليهم وسار بعسكره نحو المشرق وضرب خيامه في واد بالقرب من كابسترا (وهو الآن وادي الفزلان) واحتفلوا هناك بعيد ميلاد المسيح ثم ساروا بطريق اللاذقية الى ان بلغوا فم نهر ليكوس وهناك أرادت العساكر الاسلامية منهم من عبور النهر ولكن الملك لويس شجع عساكره ورتبهم وسار بهم بدون مبالاة الى ان وجدوا سهلا فيه اجتياز النهر فدفعوا أنفسهم برئاسة الكونت اريكوس وتادوريكوس فعبروا النهر وكذلك اجتاز النهر الملك لويس وهجموا على العساكر الاسلامية فانهزموا من امامهم وسمع بذلك اهل اللاذقية القريبة من محل الواقعة نخافوا وأخلو المدينة ثم سار الملك لويس وعسكره الى ان وصل الى مدينة ساطاليا مجتازين في طرقات جبل كادموس مع جبال آخر مخيفه (التي سموها جبال اللعنه) وهناك وجدوا العساكر الاسلامية واقفة لهم بالرصاد نخاف الملك لويس وارسل قسما من عسكره تحت رئاسة عمه كونت دي موريانا مع جو فرو دي رنكوت فاغتمت العساكر الاسلامية فرصة انقسام الصليبيين وانقضوا على الباقيين في الجبل بصرخات مهيلة ورموهم بالنبال فالتجأوا الى قمة جبل تحتها واد عميق فضايقهم العساكر الاسلامية وأخذوا يقتلونهم ويكردسونهم في هذا الوادي

أما الملك لويس وباقي عسكره فانه هجم على الاسلام وسير جيشه أمامه

د عمانويل كل الطرق والحيل لمنعه فحصل بينهما خصام افضى الى الحرب فكانت الحاربة بين مدينة نيكوبولي ومدينة ادريانوبولي ثم دارت المحاربة بينهما بواسطة معتمدين من الجهتين ولكن خوف الملك عمانويل من الصليبيين وكدر كوزراد من خباثة الروم جعلت المحاربة بدون فائدة الى ان عقد الصلح فاخذ ملك الروم يتدبر حيلة يهلك بها عساكر الصليبيين فامر بمخلط الدقيق المطحون وغشه بالكلس الابيض ليباع الى الصليبيين ثم ضرب نقوداً مغشوشة تشبه الذهب والفضة وأمر ان يشتري بها من عساكر كوزراد جميع ما يرغبون بيه اما الملك كوزراد وعساكره فانهم كانوا ناصيين خيامهم في سهول (ساليفريا) بالقرب من القسطنطينية فهبت عواصف شديدة واعقبتها امطار غزيرة فجرت المياه من الجبال على المعسكر حتى غرقت خيامهم وامتعتهم ورحلوا قاصدين اراضي اسيا

ثم وردت الاخبار الى الملك عمانويل بقدم الملك لويس السابع ملك فرنسا فخرج للملاقاة وفد من عند ملك الروم وقدهوا له الاحترام اللائق بمقامه فتوجه معهم الى قصر الملك بالقسطنطينية ثم تبعه قواده وكان ملك الروم يقدم كل يوم للصليبيين عهوداً وموائيق في الظاهر ويرسل الى ملك ايقونييه ببلاد الاسلام يحرضه عليهم ميناً له نويا الصليبيين وانهم قادمون لاختذ باقي البلاد من المسلمين فشمروا بذلك فقرر مجلس شورا هم بان البلاد التي يملكونها وتكون من مملكة الروم لا يسلموها الى ذلك الملك ولكثرة خوف الملك عمانويل من الصليبيين ومن اقامتهم ببلاد اشاع في مدينته بان الصليبيين الذين بصحبة الملك كوزراد قد انتصروا على المسلمين فاتباعاً لهذه الاشاعة الكاذبة فرح الصليبيون وأمرؤا جيشهم بالمسير حالا لمشاركة اخوانهم ثم ساروا الى ان وصلوا الى بحيرة اسكانوس بقرب مدينة نيقية واثاء اقامتهم هناك انكسفت الشمس فتشاءموا وخافوا واتفق ان خوفهم هذا صادف محله لانه وردت لهم الاخبار بان الملك كوزراد وعساكره كسروهم المسلمون شر كسرة

✽ مسير العساكر النمساوية والالمانية ✽

وكان الملك كوزراد ومن معه من الصليبيين قد استصحب من الروم من يده على الطريق في بلاد اسيا فسار الروم أمامهم وأرادوا توصيلهم من نيقية الى ايقونيا فساروا بهم في الجبال بغير الطريق الحقيقي حتى فرغ ما معهم من الزاد وحينئذ علمت الافرنج بان الروم قد خانوهم ومكروا بهم وأضلوهم بطريق وعرة

ورسل من الملك روجار ملك بوليا وسيشيليا واعدين بان يرسلوا الى الصليبيين
مراكب بحرية مع الذخيرة والمؤن وان ابن الملك يذهب معهم في المراكب الى
الاراضي المقدسة وبناء على هذه المواعيد قرروا بعد تردد السفر براً

﴿ سفر الصليبيين واجتماعهم بالقسطنطينية ﴾

ثم ارسل القديس برنردوس الاوامر فكانت تعلق في المدين على الجدران
وتتلى فوق المنابر بالكنائس بخصوص السفر فاجتمع امير مونت فارّات والكونت
دي مورياما خال لويس السابع وجما العساكر الصليبية واجتازا بهم الحياض الالية
وحدود رونا ولومبارديا ونيومونت وكذلك الصليبيون الانكليز فانهم نزلوا في
المراكب من ميناء مايكا وساروا قاصدين الشرق. واما العساكر الفرنساوية فكان
موعد اجتماعهم بمدينة ما طنس والعساكر الالمانية والنمساوية بمدينة راتيسبون
وقد نزل الملك كونراد بعساكره في المراكب النهرية مجتازاً نهر الدانوب ذاهباً الى
مدينة راتيسبون لاجل تنويع ابنه بتسمية سلطان الرومانيين وترك تدير المملكة في غيابه
الى الانبا كوربي وسار قسم من عساكره في البر لابساً الخوذات مزينة بريش
النعام والزرع بالحديد اللامع ومدججون بالاسلحة الذهبية

وأما الملك لويس السابع فانه قبل سفره توجه الى كنيسة القديس ديونيسيوس
ليستلم السنجق الشايح الصيت الذي كان ملوك فرانسيس يسيرونه مرفوعاً امامهم في
ذهابهم الى الحروب وكان البابا أوجانيوس الثالث قد حضر الى فرانسيس وحضر
الاختفال ويده سلم الملك لويس السنجق القديم مع دُبوس وغداره علامة لسفره في
الحرب المقدسة ثم ودع سوجار وأوصاه بالمملكة وسار هو وزوجته وفريق من
بلاطه من باريس متوجهاً نحو مدينة ما طنس حيث اجتمع بعساكره ثم سار منها الى
بلاد المانيا ومنها قاصداً القسطنطينية المحل المين لاجتماع جميع الصليبيين تحت سناجق
الحرب المقدسة لينطلقوا منها الى مقابلة الاخطار العظيمة وطلب الانتصار

﴿ اخبار الصليبيين في القسطنطينية ﴾

كان جالساً في ذلك الزمان على تخت مملكة الروم التي عاصمتها القسطنطينية الملك عمانويل
الشاب ابن الملك اليكسيوس الاول وأخو الملك يوحنا السابق ذكره فجاءته أخبار
ورود العساكر الصليبية الثانية يخاف منهم على مملكته وليس له قوة على ممانعتهم
ثم وصل الملك كونراد ملك المانيا والنمسا بعساكره وجميع من تبعه من الصليبيين

دي شامبانيا وتيادي كونت دي فلاندره و غليوم دي نافاروراثود كونت دي
طوتار وانياس كونت دي سواسون وارشامبود دي بوريون وهو كوز دي لويزيان
ثم الكونت دي دروكس أخو السلطان والكونت دي بوريان عمه واساقفة نويون
ولانكرايس . وأراس وليزو وآخرون كثيرون من الرؤساء الكنائسيين على
محاربة المسلمين وفرح القديس برزدوس من تنويع أعماله بالنجاح وصار ينتقل في
مملكة فرنسا من مدينة الى أخرى محرّضاً على الحروب الصليبية في مدينة شارتراس
تجمعت العساكر والاشراف وطلبوا منه أن يكون قائدهم في الحرب ولما تفكر هذا
القديس ماجرى لبطرس السائح رفض طلبهم هذا ولخوفه ان يلزموه بذلك حرر
رسالة الى البابا أوجانيوس ينشده بان يعفيه من ذلك فاثاه الجواب حسب مرغوبه

﴿ تحريض الملك كوزاد ملك المانيا باتحاده مع الصليبيين ﴾

ثم ان القديس برزدوس المذكور سافر من مملكة فرنسا قاصداً مملكة النمسا
يشجول في كل اقليم منادياً بالحروب الصليبية ثم سار الى سيرييا الالمانية وكان
منقداً هناك مجلس عام للمملكة بامر الملك كوزاد الثالث فدخل القديس الكنيسة
التي بها الملك وعظماء دولته وشرع بتقديم الذبيحة الالهية ثم ابتدأ في القداس
وصور المسيح حاضراً والصليب في يده مخاطب الملك كوزاد
بتوبيخ صارم على قنوره فنجل الملك وأقسم بان يلبس ثوب الصليبيين منادياً بالحرب
المقدسة وكذلك اشرف المملكة ثم اجتمعت جمعية من الرؤساء الكنائسيين في مدينة
(راتيسبون) فقرروا قبول الرسائل المحررة لهم من القديس برزدوس بالتحريض
على الحروب الصليبية المقدسة وكان من هؤلاء اساقفة ياصاف وراتيسبون وفريزيان
ومن العظماء لاديسلاس دوك دي بوهومبا واوداكر أمير ستريا وراثاد كونت دي
كارينتينيا وفريدريكوس نسيب الملك كوزاد اما القديس برزدوس فانه عاد من
المانيا الى بلاد فرنسا

﴿ جمعية مدينة اتامبيس بفرنسا والاستعداد لسفر الصليبيين ﴾

لما عقد ملك فرنسا الثانية على السفر أمر باجتماع جمعية المملكة العامة في اتامبيس
في شهر فبراير سنة ١١٤٧ لانتخاب نائباً عنه يدير امور المملكة في غيابه فانتخبوا
الانبا سوجار رئيس كنيسة القديس ديونيسيوس فرفض سوجار قبول هذه الوظيفة
ولكن طاعته للاوامر الباباوية والملوكية الزمته بقبولها ثم انه حضر هذه الجمعية

في يوم حد الشعانين في سنة ١١٤٦ ميلادية موافقة سنة ٥٤١ هجرية امام باب المدينة المذكورة وهناك ظهر الملك بالزينة الملكية وبرزدوس بثوبه الزهاني وجلسا فوق تحت نصب لهذه الغاية ثم انه وقف برزدوس وقرأ بصوت عال المنشور البابوي وأخبر الشعوب بسقوط امارة الرها بيد المسلمين فشمّل الحاضرين الكدر وسلوا سيوفهم واعتمدوا على الحرب ولاجل أن يوطدهم على هذه العزم ويحميهم بالغيرة الدينية خطب فيهم الخطبة الآتية بحروفها قائلا (أيها السامعون أقوالي لا تلمسوا بعد الآن بالتهند والدموع صلاح الله التماساً باطلا ولا تلبسوا المسوح بل تدرعوا بالاسلحة التي تغلب فقعة آلات الحرب واضامات السفر والمشقات والاضرار الزمنية ومعركات الحرب انما هي اعمال التوبة التي يرسمها الله عليكم فاذهبوا افدوا خطاياكم بالانتصار واستخلاصكم الا ما كن المقدسة من الاخطار الملمة بها هو نحن ندامتكم وتوبتكم عن زلاتكم فلواتكم مخبر قائلا لكم ان الاعداء قد استولوا على مدينتكم أو حصونكم أو اراضيكم واحتفظوا نسائكم وبناتكم للسي ودنسوا معابدكم فمن منكم عند هذا السماع لا يركض متناولا اسلحته للمحاربة فهذه المصائب كلها احاقّت باخوتكم وشرو اعظم منها مزمنة أن تحل على الآخرين أيضاً من اخوتكم عليه يسوع المسيح التي هي عيلتكم فاي شيء اذا انتم تنتظرون لكي تصلحوا هذا المقدار العظيم من الشرور ولكي تنتقموا عن اهانات مثل هذه كلية الانواع فحينما الرب يستدعيكم الى حماية ميراثه افهل تظنون ان ذراعه الالهي اضحي الآن اقل قوة من ذي قبل واضعف اقتداراً مما سلف أو انه تعالى لا يستطيع أن يرسل اثني عشر طغمة من الملائكة او يقول كلمة واحدة بها يكرس اعداءه الى التراب وانتم ايها النبلاء الشرفاء المحامون عن الصليب المقدس تذكروا نموذجات ابائكم الذين استنقذوا اورشليم من العبودية واسماهم مكتوبة في السماء فاهملوا نظيرهم الحيرات البايده لكم تأخذوا رايات الغلبة العذيمة الفساد وتكتسبوا ملكاً عديم النهاية) اه

فصرخوا جميعاً قائلين . الله يريد هذا . الله يريد هذا . وقد أثرت فيهم هذه الخطبة كما أثرت خطبة البابا أوربانوس الثاني في مؤتمر كلارمون . ثم انطرح الملك لويس على اقدام هذا القديس ملتصقاً منه صليب الحرب وقد حرض جميع رعاياه الفرنساويين على اتباع اثره فيها وكذلك زوجته (اليونوره) فانها استلمت صايب حرب فاتبعهما كونت دي سان جيلاس وطولوز . وانريكويس بن طيبو كونت

﴿ ابتداء الحروب الصليبية الثانية ﴾

(طلب الصليبيين النجدة من البابا ومن ملوك أوروبا)

في سنة ١٠٩٥ فتح الملك العادل نور الدين (ارتاج) بال سيف (وحسن باراه وبصرفوت وكفر لانا) وأخذها من الأفرنج الذين كانوا قد طعموا فظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردون ما أخذ منهم فلما رأوا قوة وبطش نور الدين علموا أن ما أملوه بعيد وخافوا منه أن يأخذ جميع بلادهم فلذلك اجتمعت رؤساءهم في مدينة القدس وقرروا طلب الاعانة والنجدة من البابا ومن ملوك أوروبا جميعاً ثم أرسلوا وفداً إلى البابا أوجانيوس الثالث الذي كان مقيماً في مدينة فيتاريو ولما وصل إليه الوفد وقابله فأعلمه بما جرى على المسيحيين بالشام وإن نور الدين إذا دام على قتالهم أفتاهم خصوصاً استيلاء المسلمين على مدينة الرها تلك المدينة عظيمة القدر عندهم فبكى البابا وتذكر ما فعله سلفه البابا أوربانوس الثاني وبما فاز به من ثمرة أعماله فشرع في تحرير الرسائل إلى ملوك أوروبا مملوءة بالتحريض والاستحلاف بأن ينهضوا لأجل نجدة اخوتهم المسيحيين الذين في المشرق ويخلص بالتحريض ملك فرنسا لويس السابع وكذلك أرسل إلى القديس برنردوس معلمه رئيس دير كلارفوكس كامبرويسوس وأعلمهم بأن مدينة القدس في خطر من سيوف المسلمين فلما وردت رسالة البابا على الملك لويس السابع ملك فرنسا عقد جمعية في مدينة بورغاس من الرؤساء الكنائسيين ومن أشرف المملكة وأبلغهم اعتماده على الحرب المقدسة ثم إنه عمل بمشورة القديس برنردوس فأرسل وفداً إلى روميه لمقابلة البابا الذي قابله بمسرة ودعا للملك لويس بالنصر وأرسل منشوراً رسولياً إلى المسيحيين جميعهم يحرضهم فيه ويمنحهم الانعامات والاختصاصات جميعها الممنوحة من سلفه أوربانوس الثاني للصليبيين: الأولين وقد أناب عنه معلمه القديس برنردوس فأقامه رئيساً رسولياً للجيوش الصليبية وفوض إليه دعوة جميع المسيحيين إلى هذه الحرب المقدسة

﴿ جمعية فينزالاي بفرنسا ﴾

أمر الملك لويس بعقد جمعية أخرى في مدينة (فينزالاي) الصغيرة من إقليم بورغونيا تحت رياسته ورئاسة القديس برنردوس وحضر هذه الجمعية عدد عظيم من الأكليروس والأشراف والرجال من كل سن ورتبة وكان اجتماع هذه الجمعية

بعد ما كاد ان تدين له الروم ويحوي البلاد من غير شك وخلف من الاولاد سيف الدين غازي ونور الدين محمود الملك العادل وقطب الدين مودود وهو ابو الملوك ونصرة الدين أمير أميران وبنياً وبمد وفاته أخذ خاتمه من يده نور الدين محمود الملك العادل وكان حاضراً معه وسار الى حلب فلحقها وكان ذلك بآشارة أسد الدين شيركوه وكان حينئذ يتولى ديوان زنكي ويحكم في دولته جمال الدين محمد بن علي وهو المنفرد بالحكم ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الباغي سياني فاتفقا على حفظ الدولة وكان مع الشهيد أتابك الملك الب أرسلان ابن السلطان مسعود فسيره الى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه وقال لهم ان وصل أخي سيف الدين غازي الى الموصل فهي له وأنتم في خدمته وان تأخر فانا أقرر أمور الشام وأتوجه اليكم وكان سيف الدين غازي بناحية شهرزور وهي اقطاعه من أبيه وساعده على ذلك جمال الدين واستقر أمر سيف الدين غازي بالموصل وجعل جمال الدين وزيره وأرسلوا الى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين خلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع وكان سيف الدين هذا قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه وكان السلطان يحبه ولذلك لم يتوقف في تقرير اليمين له

﴿عصيان أهل الرها واستيلاء نور الدين عليها﴾

لما قتل أتابك زنكي كان جوسلين الثاني صاحب الرها بناحية تل باشر وما يجاورها من ولايته فراسل أهلها وعامتهم وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد اليه فاجابوه الى ذلك وواعدهم على يوم يصل اليهم فيه وسار في عساكره الى الرها وملك البلد وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم وأرسل الى جميع الصليبيين بالشام يستجدهم على المسلمين فبلغ الخبر الى نور الدين محمود بن زنكي وهو بجلب فسار مجدداً اليها في عسكره فلما قاربها خاف منه جوسلين خصوصاً لعدم ورود احد من الافرنج لتجده نفراً هارباً عائداً الى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبي أهلها في هذه الدفعة نهب وختل من أهلها ولم يبق بها منهم الا القليل وكان ذلك في سنة ٥٤١ هـ وكان قد بلغ خبر عصيانها الى سيف الدين غازي بن الشهيد أتابك زنكي فسير اليها العساكر وفي أثناء سيرهم اليها بلغهم خبر استيلاء الملك العادل نور الدين عليها فمادوا

خوفاً من اجتماع الافرنج والمسير اليه واستنقاذ البلد منه فسقطت البدنه التي نقبها
القبابون وأخذ البلد عنوة وقهراً وحصر قلعها فلكنها أيضاً ونهب الناس الاموال
واتلوا الرجال فلما رأى اتابك البلد أعجبت به ورأى انه لا يجوز تخريب بلد مثلها
فأمر بالثناء في العساكر برد ما أخذوه من الاسرى من رجال ونساء الى بيوتهم
واعادة ما غنموه من أناثهم وأمتعتهم فردوا جميع ذلك عن آخره ولم يفقد منه
شيء فعادت البلد على حالها الاول وجعل فيها عسكراً يحفظها ثم سار اتابك زنكي
قتل مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الافرنج شرقي الفرات ما عدا
البيره فانها حصينة منيعة وعلى شاطئ النهر فسار اليها وحصرها وكانوا قدأ كثروا
ميرتها ورجالها فبقى على حصارها الى ان وصله خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل
فرحل عنها وأرسل نائباً الى الموصل وأقام ينتظر الخبر يخاف من بالبيره من الفرنج
ان ينود اليهم وكانوا يخافونه خوفاً شديداً فأرسلوا الى نجم الدين صاحب ماردين
وسلموها اليه فلكنها المسلمون

● قتل اتابك عماد الدين زنكي وتولية اولاده ●

في سنة ٥٤١ هـ حاصر اتابك زنكي حصن جعبر وهو مطل على الفرات وكان
بيد سالم مالک العقيلي في اليوم الخامس من شهر ربيع آخر قتل الشهيد اتابك
عماد الدين زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل وبلاد الشام ومدينة الرها وبلاد
الفرات الشرقية قتله جماعة من ممالكة ليل اغيلة وهربوا الى قلعة جعبر فصاحوا على
من بها من أهلها من العسكر يعلمونهم بقتله وأظهروا الفرح فدخل
أصحابه اليه فأدركوه وبه رمق وفاضت نفسه رحمه الله وكان حسن الصورة أسمر
اللون مليح العينين قد وخطه الشيب وكان عمره يزيد عن الستين ودفن بالرقه
وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة وكان يمنع القوى من ظلم
الضعيف محباً لعمار البلاد وكان أشجع خلق الله ورثاه الحكيم ابي الحكم المغربي
بقصيدة منها

عين لا تدخري المدامع وابكي واستهلي دمعاً على فقد زنكي
لم يهب شخصه الردى بعد ان كانت له هيبة على كل تركي
خير ملك ذي هية وبهاء وعظيم بين الانام يزرك
يهب المال والحياد لمن يمسسه مادحاً بغير تلمي
أي فنك جرى له في الاعادي بعد ما استفتح الرها أي فنك

ورحل عائداً الى بلاده ثم وصلت الافرنج الى دمشق واجتمعوا بصاحبها فصار معين الدين آثر بعسكره الى قلعة بانياس وهي في طاعة زنكي ليحصرها ويسلمها للافرنج وكان واليها قد سار قبل ذلك منها بأسبوع الى مدينة صور للإغارة عليها فنازلها معين الدين وقاتلها وضيق على من بها ومعه طائفة من الافرنج فاستولى عليها وسلمها الى الافرنج فلما سمع بذلك زنكي فرق عساكره للإغارة على حوران وأعمال دمشق وسار هو فنازل دمشق سحراً ولم يعلم به احد من أهلها فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتجعت البلد واجتمع العسكر والعامه على السور وفتحت الابواب وخرج الجند فقاتلوه فلم يتمكن زنكي من الاقدام في القتال لقله جنوده لان عساكره كانت متفرقة ولما اجتمعت عاد بها الى بلاده

﴿ وفاة فولك ملك القدس وتولية ولده بودوين الثالث ﴾

في سنة ٥٣٧ الموافقة سنة ١١٤٢ توفي فولك دي الينو ملك القدس وكانت وفاته في سهل مدينة عكا حيث كان راكباً جواده فسقط عن ظهره عند جاحه فمات وله ولدان أكبرهما اسمه بودوين وعمره ثلاث عشرة سنة والثاني اسمه امورى فاستحق ولده الأكبر الولاية وتسمي بودوين الثالث تحت وصاية والدته ميليسيندا الى ان بلغ الرابعة عشرة سن رشده حسب عادتهم وأصبح بعدئذ بودوين ملكاً حراً

﴿ فتح زنكي مدينة الرها والبلاد الجزيرية ﴾

كان صاحب مدينة الرها جوسلين الاول قد توفي فجلس على تختها ولده جوسلين الثاني وكان شجاعاً ما كراً يغير على البلاد الجزيرية ويمتلكها فاراد اتابك زنكي محاصرة مدينة الرها ولعلمه بأنه متى قصد حصرها اجتمع فيها الافرنج فيمنعوه ويتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة فاشتغل بمحاربة ديار بكر ليوهم الافرنج انه غير متفرغ لقصد بلادهم فلما رآه جوسلين الثاني مشغولاً بمحاربة ملوك ديار بكر اطمأن على بلاده وفارق مدينة الرها وعبر الفرات الى البلاد الغربية فجاءت عيون اتابك اليه وأخبروه بما كان فنادى في معسكره بالرحيل وان لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه وسار بالعساكر الى ان وصل الى مدينة الرها فحاصرها ونازلها وقاتلها ثمانية عشر يوماً بآلات الحصار التي كان قد أحضرها من حلب وكان معه أبراج خشبية تعلق عن سور المدينة وقدم النقاين فقبوا سور البلد ولح في القتال

بزمك أيها الملك العظيم تذلل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما تبين أنك الملك الرحيم
جاء يطبق الفلوات خيلاً كأن الجحافل الليل البهيم
وقد ترك الزمان على رضاء فكان لحطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك في خميس تيقن أن ذلك لا يدوم

ولما عاد ملك الروم إلى بلاده نزل أتابك إلى حصن عرقه وهو من أعمال
طرابلس فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه وأسر حاميته من الأفرنج وخربه
وعاد سالماً غانماً

﴿ محاصرة زنكي دمشق واستيلاء الأفرنج على بانياس ﴾

في سنة ٥٣٤ هـ سار عماد الدين أتابك زنكي في ربيع الأول إلى دمشق فنزل
بالقاع وأرسل إلى جمال الدين محمد صاحبها يطلب منه تسليم دمشق واختيار أي بلد
بدلها فلم يجبه إلى ذلك فرحل وقصد دمشق فنزل على داريا في ثالث عشر
ربيع الأول فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لسكر زنكي وعاد الدمشقيون
منهزمين وقتل كثير منهم ثم تقدم زنكي إلى الموصل فنزل هناك ولفيه جمع كثير
من جنود دمشق فقاتلوه فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف فقتل منهم وأكثر
وأسر كذلك ومن سلم عاد جريحاً وهدد البلد ذلك اليوم بالآخذ وإن يملك لكن
زنكي أمسك عنه عشرة أيام وتابع الرسل إلى صاحب دمشق وبذل له بعلبك
وحمص وغيرها مما يختاره من البلاد فقال إلى التسليم فنعاه أصحابه وخوفوه عاقبة
فعله فلما لم يسلموا عاد القتال والزحف ثم إن جمال الدين مرض وتوفي ثامن
شعبان فطمع زنكي حينئذ في البلد وزحف عليه زحفاً شديداً ظاناً وقوع الخلاف
بين المتقدمين فبلغ غرضه وكان ما آمله بعيداً وتولى بعد جمال الدين مجير الدين
أبى ولده وتولى ترتيب دولته معين الدين أنز فاحسن التدبير ولما رأى أن زنكي
لا يفارقهم أرسل فولك ملك القدس واستدعاه إلى نصرته لدفع زنكي عن
دمشق واعدأ إياه بأنه يحصر بانياس ويسلمها للأفرنج وخوفه من زنكي إذا ملك
دمشق فأيقن بصحة قوله وعلموا أن ملكها لا يبقى لهم معه بالشام مقام فلما سمع
بذلك زنكي سار إلى حوران خامس رمضان عازماً على قتال الأفرنج قبل وصولهم
دمشق ولما سمعت الأفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم ولما رآهم كذلك عاد إلى حصر
دمشق ونزل بعددراً شمالها سادس شوال وأحرق عدة قرى من المرج والنوطة

قتالا شديداً فقتل من الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر عندهم وعادوا خاسرين فرحلوا الى قلعة الانارب نخاف من فيها من المسلمين في التاسع من شعبان فهربوا عنها فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعه والاسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا فلما سمع الامير اسوار نائب حلب بذلك رحل فيمن عنده من العساكر الى الانارب فوقع بمن فيها من الروم فقتلهم وخلص الاسرى والسبي وعاد الى حلب وأما الملك يوحنا فانه قصد قلعة شيزر لانها من امنع الحصون وحصرها لعلمه بانها لم تكن لزنيكي فلا يكون له في حفظها اهتمام لانها كانت للامير أبي العساكر سلطان بن علي منقذ الكناني فصب عليها ثمانية عشر منجنيقا فارسل صاحبها الى زنيكي يستجده فسار اليه فزل على نهر العاصي بينها وبين حماة فكان يركب كل يوم في عساكره ويسير الى شيزر بحيث يراه ملك الروم ويرسل السرايا تخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ثم يعود آخر النهار وكان الروم والافرنج قد نزلوا شرقي شيزر فارسل اليهم زنيكي يقول لهم انكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها الى الصحراء حتى نلتقي فان ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها وان ظفرت بكم ارحت المسلمين من شركم وكان لم يكن له بهم مطمع لكثرتهم وانما كان يفعل هذا ترهيباً لهم فاشار الافرنج على الملك يوحنا ببقائه وقتاله وهونوا أمره فقال لهم الملك أنظفون ان معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة وانما هو يريدكم قلة من معه لتطعموا وتصحروا له (أي تخرجوا له في الصحراء) فيخيند ترون من كثرة عساكره ما يعجزكم وكان اتابك زنيكي مع هذا يرسل افرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم انه ان ملك بالشام حصناً واحداً اخذ البلاد التي بأيديهم منهم وكان يرسل ملك الروم يتهده ويوهمه ان الافرنج معه فاستشعر كل واحد من الافرنج والروم بالخوف من صاحبه فرحل ملك الروم عنها في رمضان سنة ٥٣٢ وكان مقامه عليها اربعة وعشرين يوماً وترك المنجنيقات وآلات الحصار بحالها فسار زنيكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقه العسكر فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعهم الى قلعة حلب وكفى الله المؤمنين القتال وكان المسلمون بالشام قد اشد خوفهم وعلموا ان الروم ان ملكوا حصن شيزر لا يبقى لمسلم معهم مقام لاسيا مدينة حماة لقربها ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء اتابك زنيكي فاكثروا منهم أبو المجد المسلم بن الحضر بن المسلم بن قسيم الحموي بقصيدة منها

أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده ثم ان القيسيين والرهبان ساروا الى بلاد الروم وجميع بلاد النصرانية مستغفرين على المسلمين وأعلموهم ان زنكي اذا أخذ بعين ومن فيها من الافرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت وان المسلمين ليس لهم منه الا قصد البيت المقدس فخرج ملك الروم (بالقسطنطينية) ومعه كثير من عساكره ومن النصرانية وساروا على الصعب وقصدوا الشام لتخليص حصن بعين وأما زنكي فانه صبر في قتال الافرنج فصبروا وقلت عليهم الميرة والذخيرة لانهم كانوا غير مستعدين ولم يكونوا معتقدين ان أحداً يقدر عليهم بل كانوا يتوقعون ملك باقي البلاد الشامية فلما قلت الذخيرة طلبوا الامان والتسليم ولما سمع زنكي بقرب ملك الروم واجتماعه بمن بقي من الافرنج أعطى لمن في الحصن الامان وقرر عليهم تسليم الحصن ودفع ٥٠ ألف دينار يحملونها اليه فاجابوه الى ذلك فخرجوا وسلموا اليه فلما فارقه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فقدموا على التسليم حيث لا ينفعهم الدم وكان زنكي في مدة حصاره فتح المعرة وكفرطاب من الافرنج

❖ في مسير ملك الروم يوحنا كومنينوس الى بلاد الشام ❖

في سنة ٥٣١ هـ خرج الملك يوحنا كومنينوس ملك الروم بالقسطنطينية قاصداً بلاد الشام لنجدة الافرنج كما تقدم فصار من البحر الى ان وصل بلاد الارمن التابعة لابن ليون الارمني فاستولى على بعضها ثم صار الى انطاكيه فوصلها في شهر القعدة سنة ٥٣١ هـ فحصرها وضيق عليها وبها صاحبها الامير رايوند ثم ترددت الرسل بينها فتصالحا ورحل عنها ولما دخلت سنة ٥٣٢ هـ سار الملك يوحنا المذكور الى بلاد الشام وقصد بزاعه فحصرها وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب فمضى جماعة من اعيان حلب الى اتابك زنكي وهو محاصر حصن فاستغاثوا به واستنصروه فسير معهم قسماً من عساكره فدخلوا حلب لينعموها من الروم ان حاصروها ثم ان ملك الروم قاتل بزاعه ونصب عليها المتجانيقات وامتلكها بالامان في الخامس والعشرين من رجب ثم غدر باهلها فقتل منهم وأسر وسبي وكان عدد من جرح فيها من اهلها خمسة آلاف وثمانائة نفس وتنصر قاضيا وجماعة من اهلها عددهم نحو اربعماية نفس وأقام ملك الروم عشرة أيام يطلب من اختفي فقبل له ان جمعاً كثيراً من الاهالي قد اختبأ بالمغار فاشتغل على فوهاها النار وأهلكهم ضيقاً بالدخان ثم رحلوا الى حلب بخيلهم ورجلهم فخرج اليهم احداث حلب فتقاتلوا

تجمع القضاء والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التي حلفها الراشد بالله للسلطان مسعود وفيها بخط يده (اني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من اصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الامر) فاقنوا بخروجه من الخلافة فعملوا خضراً وذكروا فيه ما ارتكبه من أخذ الاموال واشياء تقدح في الامامة وكتبوا الفتوى بخلعه واحضروا القاضي أبا طاهر الكرخي فشهدوا امامه بذلك فحكم بفسقه وخلعه ثم ان شرف الدين الوزير ذكر للسلطان ابي عبد الله محمد بن المستظهر فامر باحضاره من المكان الذي يسكنه ولما حضر جلس في الميمنة واتفق معه السلطان والوزير ثم حضر الامراء وازباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه بالخلافة وكان ذلك في ثامن عشر ذي الحجة واقب (المقتني لامر الله) وسبب هذا اللقب انه كان رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يولى الخلافة بستة أيام وهو يقول له ان هذا الامر يصير اليك فاقنني بي فلقب بذلك

﴿ استلاء المسلمين على حصن وادي ابن الاحمر ﴾

في رجب سنة ٥٣١ سار الامير نزوش مقدم عسكر دمشق الى طرابلس الشام فاجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة والتركمان فلما سمع بهم الدوك يونس صاحب طرابلس سار اليهم في جموعه وحشوده فقاتلهم فانهزم وعاد الفرنج الى طرابلس في حالة سيئة لان فرسانهم وشجعانهم قتلوا فلما عادوا نهب المسلمون من بلادهم أكثرها وحصروا حصن وادي ابن الاحمر وضيقوا عليه فلمكوه عنوة ونهبوا ما فيه وقتلوا المقاتلة وأسروا الرجال فافندوا أنفسهم بمال جزيل وعاد المسلمون الى دمشق

﴿ استلاء زنكي على قلعة بعين ﴾

في شوال سنة ٥٣١ سار اتابك زنكي من حمص وحصر قلعة بعين وهي للافرنج تقارب مدينة حماه وهي من أمنع الحصون وأعزها فلما نزل عليها قاتلها فجمع الافرنج فارسهم وراجلهم وساروا بقضهم وقضيضهم وملوكهم الى اتابك زنكي ليحلوله عن بعين فلم يرحل وصبر لهم الى ان وصلوا اليه فلقبهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس وصبرا الفريقان وانجلت الواقعة عن هزيمة الافرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب واحتسب ملوكهم بحصن بعين لقربه منهم فحصرهم المسلمون ومنع اتابك زنكي كل شيء حتى الاخبار فكانوا من داخله لا يعلمون شيئاً من

خبر بقدم الامير قزان خوان رسولا من السلطان سنجر فتأخر مسير الخليفة وخرج الناس مع السلطان مسعود الى لقاء الامير وفارق الخليفة بعض من كان موكلاً به فقصده اربعة وعشرون رجلاً من الباطنة ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه وطعنوه نحواً من عشرين طعنة ومثلوا به فجدعوا انفه واذنيه وقتل معه نفر من اصحابه كان ذلك في يوم الاحد ١٧ من شهر القعدة من السنة المذكورة وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة اشهر وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وستة اشهر وعشرين يوماً وكان شهماً شجاعاً فصيحاً حسن الخط جيد الفكر وبعد وفاته بويع بالخلافة ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور وكان ابوه قد بايع له بولاية العهد في حياته وحدث له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر القعدة المذكور وكتب السلطان مسعود الى شحنة بغداد ان يبايع له بالخلافة وحضر الناس البيعة وكان حاضراً بيعته واحد وعشرون رجلاً من اولاد الخلفاء وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبالغ في الموعظة

✽ غزو العساكر الاتابكية بلاد الافرنج ✽

في شعبان سنة ٥٣٠ اجتمعت عساكر اتابك زنكي تحت قيادة الامير اسوار نائبه لمحلب وقصدوا بلاد الافرنج على حين غفلة منهم ففاجأوا اللاذقية ولم يتمكن اهلها من الانتقال عنها والاحتراز فهبوا منها ما لا يحيط به الوصف وقتلوا وأسروا وكان الاسرى سبعة آلاف اسير مابين رجل وامرأة ومائة الف رأس من الدواب وما بين فرس وبغل وغيره وأما ماسوى ذلك من الاقشيه والحلي فيخرج عن الحد وأحرقوا بلد اللاذقية وما جاورها ولم يسلم منها الا القليل وخرجوا الى شيزر بتمامهم من الغنائم سالمين وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً ولم يقدر الافرنج على شيء يأخذون به التار

✽ خلع الخليفة الراشد بالله وخلافة المقتني لامر الله ✽

في سنة ٥٣٠ اجتمع على الخليفة الراشد جماعة وحسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود فاجلبهم الى ذلك وظهر منه تنقل في الاحوال وتلون في الاراء وقبض على جماعة من اعيان اصحابه وخافه الباقون ثم تقدم السلطان مسعود وحاصر بغداد واستظهر عايبها فخرج الخليفة الراشد ملتجئاً الى زنكي في البر الغربي فسار به الى الموصل ودخل السلطان مسعود بغداد واستقر بها وأمر

القتلى وكان يوماً مشهوداً ثم خرج بعد ذلك طائفة من الافرنج من الرها وقصدوا أعمال حلب للاغارة عليها فسمع بهم اسوار نخرج اليهم ومعه الامير حسان البعلبكي فاقوموا بهم وقتلهم عن آخرهم وأسروا من لم يقتل ورجعوا الى حلب سالمين ﴿ استيلاء شمس الملوك على حصن شقيف تيرون ونهبه بلاد الافرنج ﴾

في شهر محرم سنة ٥٢٨ سار شمس الملوك اسماعيل صاحب دمشق الى حصن شقيف تيرون وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به والضحاك المذکور هو رئيس النصيرية والادريه والجوسيه وكان يلاعب المسلمين والافرنج ويحتجى بكل طائفة على الاخرى فسار شمس الملوك اليه وأخذته منه عنوة فعظم أخذه على الافرنج لان الضحاك لايتعرض لشيء من بلادهم المجاورة له فخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم فلما اجتمعت ساروا الى حوران وأخذوا يخربون وينهبون القرى وكان شمس الملوك لما بلغه تجمع الافرنج قد جمع الجموع وحشد الحيوش والتف عليه جمع كثير من التركان ونزل بازاء الافرنج وجرت مناوشات ثم ان شمس الملوك نهض ببعض عسكره وجعل الباقي قبالة الافرنج وهم لايشعرون وقصد بلاد طبرية والناصره وعكا وما جاورها التابعة للافرنج فنهب وخرب واحرق وامتلأت ايدي من معه من الغنائم واتصل الخبر بالفرنجة فازعجوا ورحلوا في الحال بغتة وطلبوا بلادهم وأما شمس الملوك فانه عاد الى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الافرنج فوصل سالماً وأما الافرنج فلما رأوا بلادهم خراباً أرسلوا الى شمس الملوك بتجديد الهدنة فهادنهم

﴿ قبل الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله ﴾

في شهر محرم سنة ٥٢٩ توفي السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه فخرج السلطان مسعود بجيشه وخرج الخليفة المسترشد بالله بجيشه والثقيا عاشر رمضان وتجاربا فانهزم جيش الخليفة وأخذ هو اسيراً ومعه جماعة كثيرة منهم وزيره وقاضي القضاة والامراء وسير السلطان الامير بك ايه الممودي شحنة الى بغداد فوصلها في آخر رمضان واستولى على جميع املاك الخليفة فهاجت عامة بغداد وحاربوهم ثم ترددت الرسل بين الخليفة والسلطان مسعود على تقرير قواعد الصلح فتصالحا على مال يؤديه الخليفة وان لايعود الى جمع العساكر وأن لا يخرج من داره ثم وصل

﴿ وفاة السلطان محمود ﴾

في هذه السنة أيضاً توفي السلطان محمود بن محمد بهمدان وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة وكانت ولايته أربعة عشرة سنة تقريباً وكان حليماً كريماً عاقلاً عادلاً كثير الاحتمال وطلب السلطنة بعده ولده داود بن محمود وأخوه مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد وعمهما سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان محمد فجرت بينهم حروب واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همدان واصفهان والري وسائر بلاد الخيل

﴿ استيلاء شمس الملوك على بانياس ﴾

في سنة ٥٢٧ طمع الافرنج في شمس الملوك صاحب دمشق ابن تاج الملوك وعزموا على نقض الهدنة التي بينهم فعرضوا لاموال جماعة من تجار دمشق في مدينة بيروت وأخذوها فشكا التجار الى شمس الملوك فراسلهم في اعادة ما أخذوه وكرر القول فيه فلم يردوا شيئاً فحماته الاتفة من هذه الحالة والغيط فجمع عسكره وتآهب ولا يعلم أحد مراده ثم سار وسبق خبره أواخر المحرم ونزل على بانياس أول صفر وقاتله لساعته وزحف اليه زحفاً متتابعاً وكانوا غير متأهبين وليس فيه من المقاتلة من يقوم به وقرب من سور المدينة وترجل بنفسه وتبعه الناس من الفارس والراجل ووصلوا الى السور فقبوه ودخلوا البلد غنوة والتجأ من كان من جند الافرنج الى الحصن وتحصنوا به فقتل في البلد كثيراً من الافرنج وأسر كثيراً ونهبت الاموال وقاتل القلعة قتالاً شديداً ليلاً ونهاراً فلما رابع صفر بالامان وعاد الى دمشق فوصلها في سادسه ولما علم فولك ملك القدس بحصار بانياس أمر بجمع جيشه ليسير لتجديتها فأناه خبر فتحها فالتى أمره السالف

﴿ محاربة فولك ملك القدس نائب حلب ﴾

في صفر سنة ٥٢٧ سار فولك ملك القدس بجيوشه الى أطراف حلب فتوجه اليه الامير اسوار نائب حلب فيمن عنده من العسكر وانضاف اليه كثير من التركان فاقتلوا عند قيسرين فقتل من الطائفتين جماعات كثيرة وانهزم المسلمون الى حلب وتردد ملكهم في أعمال حلب فعاد اسوار وخرج اليه فيمن معه من العسكر فوقع على طائفة منهم فوقع بهم وأكثر فيهم القتل والاسر فعاد من سلم منهزماً الى بلاده وانجبر ذلك المصاب بهذا الظفر ودخل اسوار حلب ومعه الاسرى ورؤوس

فاستوزر أبا علي أحمد بن الفضل بن بدر الجمالي فاستبد بالامرو تغلب على الحافظ
وقام بالوزارة حق القيام

﴿ وفاة جوسلين صاحب الرها ﴾

كان جوسلين من الافرنج الذي حاربهم عماد الدين زنكي بمحسن الانارب
حتى امتلكه منهم غنوة فاصابه حجر من أحد ابراج الحصن فجرحه ولما عاد الى
الرها بلغه ان الامير مسعود أتى بعساكره وحاصر أحد حصونه التابعة له فامر
بجمع عساكره وسار بهم محمولا على عربسة وقبل ان ينزل على الحصن المحصور
بلغه ان الامير مسعود قد رفع الحصار وعاد الى بلاده وبعد هنية مات جوسلين
وهو بالعربية فارجموه الى الرها ودفنوه هناك وكان ذلك في سنة ٥٢٥ الموافقة
سنة ١١٣١ م فحزنوا عليه حزناً شديداً

﴿ وفاة بودوين الثاني ملك القدس ﴾

وفي تلك السنة أيضاً مرض بودوين الثاني ملك القدس فامر بان ينقل الى جوار قبر
المسيح وهناك مات بين ذراعي ابنته ميليسيندا وزوجها فولك الذي أوصى له بالملك
بعده فحزن عليه الصليبيون جميعهم لما كان له من المنزلة العظيمة عندهم وكانوا
يحبونه كثيراً لعدله بينهم ولكونه كان آخر الامراء الصليبيين الذين جاءوا فلسطين مع
غودافرو من مملكة فرانسا وكان هذا الملك قد حكم الرها مدة ثماني عشرة سنة
وحكم القدس بعد ذلك اثنتي عشرة سنة وكان شجاعاً ووقع في الاسر مرتين

﴿ في تملك فولك دي الينو على القدس ﴾

بعد وفاة بودوين الثاني ملك القدس كما تقدم احتفلوا بتتويج فولك دي الينو
ملكاً على ولاية القدس حسب وصية حميه المذكور وكان فولك قد قدم من بلاد
فرنسا على عهد بودوين بعد الزيارة وهو ابن فولك ريشين بارتراد دي مونت
فورت ففي اثناء اقامته في القدس اتفق على مائة محارب من ماله وكان يترأسهم في أثناء
محاربة المسلمين فيظهر في القتال شجاعة عظيمة فلذلك أحبه بودوين الثاني
وازوجه ابنته ميليسيندا ولم يكن لبودوين ولد ذكر يرث الملك فوعده بأنه بعد
مماه يكون هو الورث الوحيد لمملكة القدس فحصل لهذا الشاب سرور عظيم
لزوجته ولورائه هذا الملك الذي تم له في سنة ١١٣١ م سنة ٥٢٥ هـ

لشدة ضرره على المسلمين وهذا الحصن بينه وبين حاب ثلاثة فراسخ وكان من به من الافرنج يقاسمون حاب على جميع أعمالها القريبة وكان أهل حاب معهم في ضر وضيق شديدين فقد كانوا يغيرون عليهم وينهبون أموالهم فلما رأى عماد الدين ذلك صمم على حصر هذا الحصن فسار اليه لينزله فلما علم الافرنج جمعوا فارسهم وراجلهم لما يعرفوه من قوة عماد الدين وشدة بأسه ولم يتركوا مما بطاقتهم شيئاً الا استفذوه فلما فرغوا من أمرهم ساروا نحو عماد الدين فاستشار أصحابه فيما يفعل فاشاروا كلهم بالعود عن الحصن لان لقاء الافرنج في بلادهم خطر فقال لهم عماد الدين ان الافرنج متى رأونا قد عدنا من وجههم طمعوا وساروا في أترنا وخربوا بلادنا ولا بد من لقائهم على كل حال ثم ترك الحصن وتقدم اليهم فالتقوا واصطفوا للقتال وصبر كل فريق لحصمه واشتد الامر بينهم الى ان انهزم الافرنج شراً هزيمة ووقع كثير من فرسانهم في الاسر وقتل منهم خلق كثير وظفر المسلمون وتقدم عماد الدين الى عسكره بالانجاز وقال هذا أول مصاف عملناه معهم فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم ففعلوا ما أمرهم ولما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا الى الحصن فتسلموه عنوة وقتلوا وأسروا كل من فيه وأخربه عماد الدين ثم سار منه الى قلعة حارم وهي بالقرب من انطاكية وكانت للافرنج فحصرها فبذل له أهلها نصف دخل بلد حارم وهادنوه فاجابهم الى ذلك وعاد عنهم وقد فرح المسلمون بتلك الاعمال وضعفت قوى الافرنج وعلموا ان البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب وصار منتهى قصدهم حفظ ما بأيديهم بعد ان كانوا قد طمعوا بتلك جميع البلاد

وفاة الأمر بأحكام الله وخلافة الحافظ لدين الله بمصر

في ثاني ذي القعدة سنة ٥٢٤ خرج خليفة مصر العلوي الأمر بأحكام الله أبو علي بن المستعلى الى منزله له فلما عاد وثب عليه الباطنية فقتلوه وكانت مدة ولايته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان عمره نيفاً وأربعاً وثلاثين سنة وهو العاشر من الخلفاء العلويين أو المهديين ونسبتهم بذلك لانهم أولاد المهدي عبيد الله الذي ظهر بسلاحه وبني المهدي بآفريقيا ولما قتل لم يكن له أولاد ذكور فكان الحق بالخلافة لابن عمه عبد المجيد بن القاسم بن محمد وبما ان أرملة الخليفة المتوفي كانت حاملاً لقب عبد المجيد بنائب الملك الى ان يروا ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبويج بالخلافة عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله وكان مولد الحافظ بمسقلان

ويسلموا اليه مدينة صور واستقر الامر بينهم على ذلك وتقرر بينهم ميعاد لتنفيذ ذلك وهو يوم جمعه ذكره وقرر المزدقاني مع الاسماعيلية ان يحتاطوا ذلك اليوم بابواب الجامع فلا يمكنون أحد أن يخرج منه ليجي الافرنج ويملكوا البلد فبلغ الخبر تاج الملوك فاستدعى المزدقاني اليه فحضر وخلا معه فقتله تاج الملوك وعلق رأسه على باب القلعة ونادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف نفس وكان ذلك في منتصف رمضان سنة ٥٢٣ وكفى الله المسلمين شرهم ولما تمت هذه الحادثة بدمشق على الاسماعيلية خاف اسماعيل والي بانياس ان يشوربه وبمن معه الناس فيهلكوا فراسل الفرنج وبذل لهم تسليم بانياس اليهم والانتقال الى بلادهم فاجابوه فلم القلعة اليهم وانتقل هو ومن معه الى بلادهم ولقوا ذلا وهواناً وتوفى اسماعيل في أوائل سنة ٥٢٤ وكفى الله المسلمين شرهم

﴿ محاصرة الصليبيين دمشق وانهزامهم ﴾

لما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والاسماعيلية بدمشق عظم عليهم ذلك وتأسفوا لعدم تملكهم دمشق وعمتهم المصيبة فاجتمع بودوين الثاني ملك القدس وصاحب طرابلس وصاحب انطاكية وغيرهم ومن وصل اليهم في البحر من التجار والزوار ورهبان الجمعيات وزحفوا بجيش عظيم على دمشق ليحصروها ولما سمع تاج الملوك صاحبها جمع العرب والتركمان ووصل الافرنج الى المدينة ونازلوها وأرسلوا الى اعمال دمشق لجمع الميرة والاعارة على البلاد فلما سمع تاج الملوك ان جمعاً كثيراً سار الى حوران لتهبه سير أميراً من أمرائه اسمه شمس الخواص في جمع من المسلمين اليهم وكان خروجهم في ليلة شاتية كثيرة المطر ولقوا الافرنج في الصباح فواقعوهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض فظفر بهم المسلمون وقتلوه فلم يفلت منهم غير مقدمهم واربعمون رجلاً وأخذوا ما معهم وهي عشرة آلاف دابة موقرة وثلاثمائة أسير وعادوا الى دمشق ولم يمسهم جرح فلما علم بذلك بودوين ومن معه ان الله في قلوبهم الرعب فرحلوا عنها شبه المنهزمين واحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وميرة وغير ذلك وتبعهم المسلمون والمطر شديد والبرد عظيم يقتلون كل من تخلف منهم فكثرت قتلاهم وكان نزولهم ورحيلهم في شهر ذي الحجة سنة ٥٢٣

﴿ فتح عماد الدين زنكي حصن الانارب ومحاصرة قلعة حارم ﴾

في سنة ٥٢٤ سار عماد الدين زنكي بمسكركه قاصداً حصن الانارب ومحاصرتة

عنا خوفاً من حصول خلل فاستشارهما السلطان فيمن يصلح للولاية فذكر اعماد الدين فاجاب السلطان الى توليته لما يعلمه من كفايته فاحضره وولاه البلاد كلها وكتب له منشوراً بذلك وسار وامتلك البلاد وفي اثناء ذلك كانت قد ضعفت ولاية حلب بعد البرسقي فسمع الافرنج بذلك فسار اليها جوسلين صاحب الرها بمساكره وحاصر حلب فصونع بمال فعاد عنها ثم وصل بعده صاحب انطاكية في جمع من الافرنج فخذق الحليون حول القلعة فنزع الداخل والخارج اليها من ظاهر البلد وأشرف الناس على الخطر العظيم الى منتصف ذي الحجة سنة ٥٢١ هـ وكان عماد الدين قد ملك الموصل والجزيرة فسير الى حلب الامير سنقر دراز والامير حسن قراقوش وأقام الامير حسن قراقوش والياً عليها ولاية مستعارة الى ان وصلها عماد الدين زنكي فخرج الى أهل حلب فالتقوه واستبشروا بقدومه ودخل المدينة واستولى عليها ورتب أمورها وكان ذلك في شهر محرم سنة ٥٢٢ هـ وجعل عماد الدين في رئاسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق ولولا ان الله تعالى من على المسلمين بتلك أتاك عماد الدين زنكي ببلاد الشام لملكها الافرنج لانهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية واذا علم ظهر الدين طفتكين بذلك جمع عساكره وقصد بلادهم وحصرها وأغار عليها فيضطر الافرنج الى الرحيل للدفاع عن بلادهم فقدر الله تعالى انه توفي هذه السنة في ٨ صفر سنة ٥٢٢ هـ فغلاهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين

﴿ قتل الاسماعيلية بدمشق واتحادهم بالافرنج ﴾

في هذه الاثناء قد زاد أمر الاسماعيليين أو الباطنيين وملك رئيسهم بهرام عدة حصون منها القدموس وغيره وكان بوادي التيم من أعمال بلبك أصحاب مذاهب آخر مختلفة من النصرية والدرزية والمجوس وأميرهم اسمه الضحاك فسار اليهم بهرام سنة ٥٢٢ هـ وحصرهم وقتلهم فخرج اليه الضحاك في ألف رجل وكبس عسكر بهرام ووضع السيف فيهم وقتل منهم عدداً عظيماً وقتل بهرام وانهزم الباقون وعادوا الى بانياس على أقبح صورة وكان بهرام قد استخلف في بانياس رجلاً اسمه اسماعيل فقام بعده وجمع شمل من عاد اليه وعاضده المزدقاني ثم انه أقام بدمشق انساناً اسمه ابو الوفاء بدل بهرام فقوي أمره وعلا شأنه حتى صار نفوذه أكثر من نفوذ صاحبها تاج الملوك ثم ان المزدقاني راسل الافرنج ليسلم اليهم مدينة دمشق

البر فلما قارب بغداد أمر كل من معه في السفن وفي البر بلبس السلاح واطهار ما عندهم من الجلد فانتشرت المساكر وملئوا الارض برأ وبجراً فقابلهم السلطان وفرح بمعاد الدين وعزم على قتال بغداد والجد في ذلك في البر والبحر فلما رأى الخليفة المسترشد بالله ذلك وخروج أبي الهيجاء من عسكره أجاب الى الصلح وترددت الرسل بينهما فاصطلحا واعتذر السلطان مما جرى وكان حليماً يسمع سبه باذنه فلا يعاقب عليه وعفا عن أهل بغداد جميعهم وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال ان الدنيا لاتساوي فعل مثل هذا ولما عزم السلطان على المسير من بغداد نظر فيمن يصلح ان يتولى شحنة العراق يأمن معه من الخليفة فاختبر أمرائه واعيان دولته فلم ير فيهم من يقوم بهذا الامر الا عماد الدين زنكي فاستشارهم في ذلك فصدقوا عليه وقالوا (لا يصلح لذلك واعادة ناموس العراق ولا تقوى نفس احد على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين) فاسند اليه الولاية مضافة الى ماله من الاقطاع وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٥٢١ هجرية

وفاة عز الدين البرستي وولاية عماد الدين زنكي الموصل

(ومحاصرة الصليبيين حلب)

في سنة ٥٢١ توفي الامير عز الدين مسعود بن البرستي وهو صاحب الموصل وكان موته بعد محاصرة مدينة الرجة واستيلاءه عليها بساعة واحدة وقام بعده أخ له صغير واستولى على البلاد مملوك للبرستي يعرف بالجاولي ودبر أمر الصبي وأرسل للسلطان يطلب ان يقرر البلاد على ابن البرستي وبذل الاموال الكثيرة في ذلك وكان الرسول القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد أمير حاجب البرستي وكانا يخافان جاولي ولا يرضيان بطاعته وتصرفه ولما وصلا الى السلطان اجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر النائب عن عماد الدين وكان بينهما مصاهرة وذكر له صلاح الدين ما ورد بخصوصه وأقننى سره نخوفه نصير الدين من جاولي وقبح له فعاله وتحدث معه في ولاية عماد الدين ثم توجهوا الى السلطان وأبلغوه ان ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم بها فاستولوا على أكثرها وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين الى عریش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين وكان البرستي مع شجاعته يرد تهميدهم على البلاد الاسلامية وهذا قتل ازداد طمعهم وان ولده صغير ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ولذلك قد انهيئنا الحال لمنع اللوم

عن بغداد ان قصدھا السلطان فلما خرج من داره بكى الناس جميعهم بكاء عظيما لم يشاهد مثله فلما علم السلطان ذلك اشتد عليه فارسل يستعطف الخليفة ويسأله العود الى داره فاعاد الجواب انه لا بد من عودك هذه الدفعة فان الناس هلكوا بشدة الغلاء وخراب البلاد وانه لا يرى في دينه ان يزداد ما بهم وهو يشاهدھم فان عاد السلطان والا رحل هو عن العراق فغضب السلطان لقوله ورحل نحو بغداد واقام الخليفة بالجانب الغربي فلما حضر عيد الانصحي خطب الناس وصلى بهم فبكى الناس لخطبته وارسل عفيفا خادمه وهو من خواصه في عسكر الى واسط لينع عنها نواب السلطان فارسل اليه عماد الدين زنكي بن اقسنقر فاقتتلوا وانهزم عسكر عفيف وقتل منهم مقتلة عظيمة واسر مثلهم وتغافل عماد الدين زنكي عن عفيف حتى نجا لمودة كانت بينهما ثم ان الخليفة جمع السفن وسد بها أبواب دار الخلافة سوى باب النوبي وأمر حاجب الباب ابن صاحب بالمقام فيه لحفظ الدار ووصل السلطان بغداد في عشرين الحجة ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا في دور الناس فشكا الناس الى السلطان فأمر بخروجهم وصارت الخابرة بين السلطان والخليفة بشأن الصلح والعسكران أمام بعضهم ولم يحصل منهم خلاف مناوشات صغيرة ثم ان جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا التاج وحجر الخليفة أول الحرم سنة ٥٢١ هـ وضح أهل بغداد من ذلك فاجتمعوا ونادوا الغزاة فاقبلوا من كل ناحية ولما رأهم الخليفة خرج من السراشق والشمسية فوق رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب الكوسات والبوقات ونادى بأعلا صوته (يا لهاشم) وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة وكان له في الدار الف رجل مخفين في السراذيب فظهروا وعسكر السلطان مشغلون بالنهب فأسر منهم جماعة من الأمراء ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الأمراء ودار عزيز الدين المستوفي وقتل منهم خلق كثير في الدروب (الحواري والازقة) ثم عبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد وأمر بحفر الخنادق فحفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الامر عليهم وكان القتال كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطئ الدجلة وعزم عسكر الخليفة على ان يكبسوا عسكر السلطان ففقد بهم الأمير ابو الهيجاء الكردي صاحب اربل وخرج كأنه يريد القتال فالتحق هو وعسكره بالسلطان وكان السلطان قد أرسل الى عماد الدين بواسط بالحضور اليه ومعه جميع العساكر في السفن وعلى الدواب في

﴿ محاربة طغتكين اتابك مع بودوين الثاني ﴾

في سنة ٥٢٠ اجتمع بودوين الثاني ملك القدس بجميع عسكره وعساكر الجمعيات الرهبانية المار ذكرهم وساروا الى نواحي دمشق فزولوا بمرج الصفر عند قرية يقال لها شقحب بالقرب من دمشق فعظم الامر على المسلمين واشتد خوفهم وكاتب طغتكين اتابك أمراء التركان من ديار بكر وغيرها وجمعهم وكان هو قد سار عن دمشق الى جهة الافرنج واستخلف بها ابنه تاج الملوك بوري فكان بها وكما جاءت طائفة أحسن ضياعها وسيرها الى ابيه فلما اجتمعوا سار بهم طغتكين الى الافرنج فالتقوا أواخر ذي الحجة واقتتلوا واشتد القتال فسقط طغتكين عن فرسه فظن أصحابه انه قتل فانهزموا وركب طغتكين فرسه ولحقهم وتبعهم الافرنج وبقي التركان فلم يقدروا ان يلحقوا المسلمين في الهزيمة فتخلفوا فلما رأوا فرسان الافرنج قد تبعوا المنهزمين وان معسكرهم وراجلهم ليس له مانع ولا حام حملوا على الرجالة فقتلوه ولم يسلم منهم الا الشريد ونهبوا معسكر الافرنج وخيامهم وأموالهم وجميع ما معهم وعادوا الى دمشق سالمين لم يفقد منهم أحد ولما رجع فرسان الافرنج من اثر المنهزمين ورأوا رجالهم قتلوا وأموالهم منهوبة ساروا منهزمين لايولي الاخ على أخيه وكان هذا من أغرب الحروب اذ ان طائفتين نهزما كل واحدة من صاحبتها

﴿ في الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله العباسي والسلطان محمود ﴾

في هذه السنة حصل نفور بين يرتقش الزكوي شخصكية بغداد (محافظ المدينة) وبين نواب الخليفة وتهده الخليفة فيها نخاف الزكوي على نفسه فسار عن بغداد الى السلطان محمود في رجب وشكا اليه وحذره من الخليفة واعلمه بأنه قد قادا المساكر ورأى الحروب وقويت نفسه ومقى لم تعاجله زاد قوة وجمعاً وحيثئذ يتعذر عليك ما هو سهل الآن فتوجه السلطان نحو العراق فارسل اليه الخليفة يخبره بضعف البلاد وأهلها بسبب ديس وافساد عسكره فيها وان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والاقوات ويطلب منه ان يتأخر في هذه المرة الى ان تنصلح حال البلاد ثم يعود اليها وبذل له على ذلك ما لا كثيراً فلما سمع السلطان هذه الرسالة قوي عنده ما قرره الزكوي وأبى ان يتأخر وسار اليها مجدداً فلما بلغ الخليفة الخبر عبره وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء الى الجانب الغربي في ذي القعدة مظهر الغضب والانتراح

﴿ قتل المأمون بن البطائحي وزير خليفة مصر الأمر ﴾

في رمضان سنة ٥١٩ اتفق المأمون بن البطائحي وزير الخليفة بمصر مع الامير جعفر أخى الخليفة الأمر بأحكام الله ليقول أخاه الأمر ويجعله هو خليفة وتقررت القاعدة بينهما على ذلك فسمع بذلك أبو الحسن بن أبي اسامة وكان خصيصاً بالأمر مقرباً منه وقد ناله من الوزير أذى واطراح فحضر عند الأمر وأعلمه الحال فقبض على وزيره أبا عبدالله البطائحي الملقب بالمأمون وصلبه واخوته وهذا جزاء من قابل الاحسان بالاساءة وكان هذا الوزير كريماً واسع الصدر قتالاً سفاكاً للدماء وكان شديد التحرز كثير التطلع الى أحوال الناس من العامة والخاصة من سائر بلاد مصر والشام والعراق وفي أيامه كثر الغمازون

﴿ اخبار الاسماعيليين وامتلاكهم قلعة بانياس ﴾

في أثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين لانهم كانوا يكثرون من تدخين الحشيش ويدعوهم البعض بالاسماعيليين نسبة الى اسماعيل رئيسهم وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع . وكان اسماعيل يتربص فرصة للغزو والنهب فلما رأى الدول القوية منشغلة بالحرب في أنحاء المشرق وضع يده على بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين فيحاربهم تارة ويصالحهم أخرى الى ان انتهى به الامر فاقام حكمته بين ظهرائهم وابتقى حصوناً منيعة أرهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع جزية معلومة وقاية من فتنكهم بحياتهم لانه كان متفتناً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجاله الدهاة وفي سنة ٥١٩ كان الرئيس عليهم بهرام بن أخت الاسد اباضي بعد قتل خاله المذكور وكان طغتكين صاحب دمشق قد أخذه عنده لاجل المعاضدة به واتباعه حينئذ أعلن عداوته فكثر أتباعه من كل من يريد الشر والفساد وأعانه الوزير ابو طاهر بن سعد المرغيناني قصداً للاعتقاد به على ما يريد فعظم شره واستفحل أمره وصار أتباعه اضعافاً مما كانوا ثم ان بهرام رأى من أهل دمشق فظاظة وغلظة عليه يخاف عاديتهم فطلب من طغتكين حصناً يأوى اليه هو ومن اتبعه فإشار الوزير بتسليم قلعة بانياس اليه فسلمت له فلما صار اليها اجتمع اليه أصحابه من كل ناحية فعظم حينئذ خطبه وحلت المحنة بظهوره

من الحر والبرد فلما رأى أهلها ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك وظهر لهم من صاحبها تمرناش الوهن والعجز وقلت المؤن عندهم فرأوا ان يكتبوا البرسقي صاحب الموصل لاجل ان يحميهم لما وجدوا فيه من القوة فأرسلوا اليه يستنجدونه ويسألونه المجيء اليهم ليسلموا البلد اليه فجمع عساكره وقصدهم وأرسل الى من بالبلد وهو في الطريق يقول انني لا أقدر على الوصول اليكم والافرنج يقتلونكم الا اذا سلمتم القلعة الى نوابي وصار أصحابي فيها لانني لا أدري ما يقدره الله تعالى اذا انا لقيت الافرنج فان انهزمنا منهم وليست حلب بيد أصحابي حتى أحتمي انا وعسكري بها لم يبق منا احد وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها فاجابوه الى ذلك وسلموا القلعة الى نوابه فلما استقروا فيها واستولوا عليها سار بعساكره فلما اشرف عليها ونظره الافرنج رحلوا عن البلد بدون حرب فاراد من في مقدمة عسكره ان يحمل عليهم فتمهم وهكذا صارت حلب تبعاً للبرسقي صاحب الموصل من عمال السلطان محمود وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٥١٨ هـ

﴿ في خلوص بودوين الثاني ملك القدس من الاسر ﴾

وفي هذه السنة أيضاً تم الاتفاق على فك أسر بودوين الثاني ملك القدس بمال عظيم دفعه وتوجه الى مملكته وأقام بها وكان هو أحسن الافرنج حظاً بهذه المملكة لكثرة توافد أهل اوربا لمساعدته ضد المسلمين من سكان المانيا والنمسا وبلاد البندقيه وأهل بيزا وجنوى وخصوصاً أهل فرنسا ولما قامت به جمعيات الرهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان التي كان رجالها يلبسون الثياب الحمراء وجمعية الهيكلين التي كان رجالها يلبسون الثياب البيضاء

﴿ استيلاء البرسقي على كفرطاب ﴾

في سنة ٥١٩ هـ جمع البرسقي عساكره وسار الى الشام وقصد كفرطاب وحصرها فملكها من الافرنج وسار الى قلعة عزاز وهي من أعمال حلب من جهة الشمال وصاحبها جوسلين فحصرها فكتب جوسلين الافرنج فاجتمعوا عن آخرهم من فارس وراجل فلقبيهم البرسقي واقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه المسلمون وقتل منهم ما ينوف عن الف وأسركثير وعاد البرسقي الى حلب فخلف بها ابنه مسعود وعبر الفرات الى الموصل ليجمع العساكر ويعود الى القتال

الامير مسعود فاكرم واحسن اليه واعيد الى دمشق واما الوالي المصري فانه راسل طفتكين يخدمه بالدعاء والاعتضاد وان سبب ما فعله هو شكوى اهل صور فاحسن طفتكين الجواب وبذل له نفس المساعدة وفي ربيع أول سنة ٥١٨ قدم الصليبيون تحت راية غوبلوم وكيل سلطة القدس وبطريك القدس ويونص صاحب طرابلس والدوك مخايل المقدم على أهالي مشيخة البندقيه وحاصروا مدينة صور برأ. وجاءت مراكب البندقيه وحاصرتها بجزراً ولم يكن لأهالي صور من الحمية والنشاط ما كان لسلفائهم أو لمسلمي المدن الاخرى لان الغنى الذي حازته صور من تجارتها قاد أهلها الى التعمات والرخاء فكانوا يصرفون أيامهم بالسرور والملاهي دون الاعتناء بالتمرن على الحرب والقتال ولولا بسالة الجنود الشامية والمصرية لما بقيت المدينة أمام الافرنج يوماً واحداً وكتب اهل المدينة الى خليفة مصر يطلبون منه المدد وكذلك طفتكين صاحب دمشق فلم يأتهم أحد فثاروا على الدفاع وكانت الافرنج محيطة بها من كل جانب ونصبوا عليها ابراجاً من خشب ومنجانيقات وأخذوا يضربونها ليلاً ونهاراً وأهل المدينة يقاتلون ويدافعون عن انفسهم وأرسلوا ثاية يطلبون النجدة من خليفة مصر وملك دمشق فلم ينجدهم لان الافرنج أرسلوا أمير البندقيه للمحافظة من جهة البحر لمنع خليفة مصر عن ارسال النجدة وأرسلوا صاحب طرابلس يترصد طريق البر فجاء طفتكين بالحيوش الشامية فصد عن عبور النهر ولازم من بالمدينة القتال فقلت الاقوات وكان الجوع قد بلغ من المحصورين مبلغاً عظيماً فراسل حينئذ طفتكين أمراء الصليبيين في الصلح وقرر الامر على ان يسلم المدينة اليهم ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج بما يقدرون عليه من أموالهم ورحالهم وفتحت ابواب المدينة وملكها الافرنج بعد حصار خمسة شهور وفارقها أهلها ونصبت اعلام الافرنج على المدينة وزينوها باغصان الزيتون والاقمشة وكان ذلك في سنة ١١٢٤ م

✽ محاصرة الصليبيين لمدينة حلب واستيلاء البرسقي عليها ✽

بعد استيلاء الصليبيين على مدينة صور كما تقدم طعموا وقويت نفوسهم ورأوا الاستيلاء على بلاد الشام وأكثروا من حشد الحيوش ثم وصل اليهم ديس بن صدقه صاحب الحلة فأطعمهم في حلب وقال لهم ان أهلها شبيعة وهم يميلون اليّ من أجل المذهب فتى رأوني سلموا لي البلد وقال لهم اني أكون نائباً عنكم ومطيماً لكم فساروا معه اليها وحصروها وقتلوا قتلاً شديداً وبناو لهم بيوتاً تقيم

الرها وظل بودوين ومن معه في السجن وأما الحسبون ارمناً فذبجوا عن آخرهم وكان بلك صاحب القلعة قد توجه الى حران ولما بلغه ماجرى بالقلعة عاد في عساكره اليها وحصرها كما ذكر وأما جوسلين فانه اقسم بان لا يخلق ولا يشرب الخمر حتى يتوجه لزيارة القدس ويسعى في تخليص الاسرى

﴿ ورود أهل البندقيه الاشتراك مع الصليبيين ﴾

لم يشترك أهل البندقيه في المحاربات الماضية مع الصليبيين لكونهم يشتغلون بالتجارة ولما رأوا ان أهل بيزا وجنوى قد توجهوا الى بلاد فلسطين وانتصروا وربحوا غنائم كثيرة تفوق على ارباح التجارة أخذتهم الغيرة واستعدوا وتجمعوا تحت رئاسة الدوك مخايل مقدم مشيخة البندقيه بعمارة بحرية مركبة من واحد وعشرين مركباً وساروا الى أن وصلوا الى عكا وهناك طلعوا وساروا في البر قاصدين القدس فاحتفل بهم ثم عقد مجلس المشورة وقرر محاربة العساكر الاسلامية فحاصروا مدينة صور وذلك بعد مداوات كثيرة لعدم اتفاقهم على المحاصرة هل تكون على صور أو على مدينة عسقلان فاخيراً اقروا على محاصرة صور كما تقدم

﴿ استيلاء الصليبيين على مدينة صور ﴾

كانت مدينة صور للخلفاء العلويين بمصر الى سنة ٥٠٦ هـ فلما عزم ملك الافرنج على محاصرتها خافه اهلها فارسلوا الى اتابك طغتكين صاحب دمشق يطلبون منه ان يرسل اليهم اميراً أمن عنده يتولى امرهم ويحميهم وتكون البلد له فسير اليهم عسكرياً وجعل عليهم والياً اسمه مسعود وكان شهماً شجاعاً عارفاً بالحرب ومكايدها وسير اليهم ميرة ومالا فرقه عليهم فطابت نفوس أهل البلد ولم تزل الخطبة للخليفة الأمر وكتب الى الافضل بمصر يعلمه بما كان ويقول انه متى وصل اليها من مصر من يتولاها ويذب عنها سلمتها اليه ويطلب ان الاسطول لا ينقطع عنها بالرجال والقوة فشكره الافضل على ذلك واثني عليه وصوب رأيه وجيز اسطولاً وسيره الى صور فاستقامت احوال اهلها الى سنة ٥١٦ هـ بعد قتل الافضل فسير اليها اسطولاً وأمر المقدم على الاسطول أن يقبض على الامير مسعود والي صور ويتسلم البلد منه وكان السبب في ذلك ان اهل صور اكثروا من الشكوى منه الى الأمر بأحكام الله ففسار الاسطول الى ان رسا عند صور فخرج مسعود اليه للسلام فلما صعد الى مركب المقدم قبض عليه واعتقله ونزل الى المدينة وتسلمها وعاد الاسطول الى مصر وفيه

ووجد له من الاعلاق النفيسة والاشياء القليلة الوجود ما لا يوجد مثله لغيره واعتقل اولاده وكان عمره ٥٧ سنة وكانت وزارته ثمانيا وعشرين سنة منها آخر أيام المستضي وجميع أيام الأمر باحكام الله ثم ولى بعده أبو عبد الله بن البطاحي ولقب المأمون وتحكم في الدولة

﴿ محاربة بلق ابن بهرام مع جوسلين أمير الرها واسره ﴾

في سنة ٥١٥ الموافقة سنة ١١٢١ م سار بلق ابن بهرام ولد اخي ايلغازي الى مدينة الرها فحصرها وبها الافرنج وبقي على حصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها فجاءه رجل تركاني واعلمه ان جوسلين صاحب الرها وسروج قد جمع الافرنج وهو عازم على كبسه وكان قد تفرق عن بلق اصحابه وبقي في اربعمائة فارس فوقف مستعداً لقتالهم واقبل الافرنج ولكن من لطف الله ان الافرنج وصلوا الى أرض قد نضب عنها الماء فصارت وحلا ففاصت خيولهم فيها فلم تتمكن من الاسراع مع ثقل السلاح والفرسان فرماهم اصحاب بلق بالنشاب فلم يفلت منهم احد وأسر جوسلين وصهره غاليران وكبلوهم بالحديد وطلب من جوسلين أن يسلم الرها فلم يفعل وبذل في فداء نفسه اموالا جزيلة واسرى كثيرة فلم يجبه الى ذلك وحملوها الى قلعة خربت وسجنوها بها وأسر ايضا جماعة من فرسانهم المشهورين فسجنوا معهم

﴿ محاربة بلق مع بغدوين ملك القدس وأسرهم ﴾

في سنة ٥١٧ الموافقة سنة ١١٢٣ م جمع بغدوين رجاله وسار قاصداً مدينة خربت بديار بكر للاستيلاء عليها وتخلص جوسلين من الاسرو كان بلق محاصراً قلعة كركر فبلغه مجيء بغدوين فرحل اليه والتقى واقتتلا فانهزم الافرنج واسر ملكهم بغدوين ومعه جماعة من اعيان فرسانهم وسجنوا بقلعة خربت مع جوسلين ومن معه

ثم اجتمع نحو خمسين ارمينيا وتحالفوا على تخليص ملك القدس من الاسر فغيروا ملابسهم واخفوا سلاحهم تحتها ودخلوا قلعة خربت منفردين الى أن ساروا من الداخل وهناك اظهروا سلاحهم وأخذوا يقتلون العساكر حراس السجن وكسروا قيود المسجونين وأراد وخلصهم ونصبوا علم الصليبيين على القلعة فباغتتهم العساكر الاسلامية وحاصروا القلعة بما فيها ولم يتمكن أحد من الهرب الا جوسلين أمير

يسير وقتل الجميع واسروا وكان في جملة الاسرى ماينف عن سبعين فارساً من مقدميهم حملوا الى حلب فبذلوا في نفوسهم ثلثماية الف دينار فلم يقبل منهم وقتل روجار وحمل رأسه وكان ذلك في منتصف شهر ربيع اول سنة ٥١٣ هـ موافقة سنة ١١٢٠ م

ثم جاءت الحيوش الصليبية التي كان طلب روجار مساعدتها كما ذكر تحت رئاسة بودوين الثاني ملك القدس ومعه أمير الرها وطرابلس فهجموا على العساكر الاسلامية هجمه شديدة خصوصاً رجال جمعية يوحنا المعمدان انتهت بهزيمة العساكر الاسلامية وبعد ذلك رجع بودوين الى القدس وكذلك جوسلين سار الى جهة طبرية فكبس طائفة من طي يرفون بني خالد فاخذهم واخذ غنائمهم وسألمهم عن بقية قومهم من بني ربيعه فاخبروه أنهم من وراء الحزن بوادي السلالة بين دمشق وطبرية فقدم جوسلين مائة وخمسون فارساً من أصحابه وسار هو في خمسين فارس على طريق آخر ووعدهم الصبح ليكبسوا بني ربيعة فوصلهم الخبر بذلك فارادوا الرجيل فتمهم أميرهم وكانوا في مائة وخمسين فارساً فوصلهم المائة وخمسون من الافرنج معتقدين ان جوسلين قد سبقهم او سيدركهم فاضل الطريق وتساوت القوتان فاقتتلوا وطغت العرب خيولهم فجعلوا اكثرهم رجاله فقتل من الافرنج سبعون واسرائنا عشر من مقدميهم بذلك واحد في فداء نفسه مالا جزيلا وعدة من الاسرى واما جوسلين فبلغه خبر الواقعة وهو ضال الطريق فسار الى طرابلس فجمع بها جمعاً وسار الى عسقلان فاغار على بلدها فهزمه المسلمون هناك فعاد مغلولاً

﴿ قتل الافضل بن بدر الجمالي وزير مصر ﴾

في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥١٥ هـ قتل أمير الحيوش الافضل بن بدر الجمالي وهو وزير الحاكم بأمر الله خليفة مصر وكان قد ركب الى خزانة السلاح ليفرقه على الجنود على جاري العادة في الاعياد فسار معه عالم كثير من الرجالة والحياة فتأذى بالغبار فامر بالبعد عنه وسار منفرداً ومعه رجلا فصادف رجلين بسوق الصياقه فضر به بالسكاكين فخرجه وجاه نالت من ورأه فضر به بسكين في خاصرته فسقط عن دابته ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة وحملوه الى داره فدخل عليه الخليفة وتوجه له وسأله عن الاموال فادله عليها فلما توفي الافضل بقي الخليفة في داره نحو اربعين يوماً والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً

أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم ببغداد من السلجوقيين وهم أخو ملكشاه تاج الدولة
تتش وركن الدولة تكياروق بن ملكشاه وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه
وكان المستظهر كريم الاخلاق لين الجانب مشكور المساعي يحب العلم والعلماء
وكان يسارع الى اعمال البر حسن الخط جيد التوقيع ولما توفي صلى عليه ولده
المسترشد بالله وبعد دفنه ببيع لولده المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن أبي العباس
احمد بن المستظهر وكان ولي عهد قد خطب له ثلاث وعشرين سنة فبايعه أخواه وهما
أبو عبد الله محمد وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدي بأمر الله وغـيرهم
من العلماء والامراء والقضاة والاعيان وكان المتولي لاخذ البيعة القاضي أبو الحسن
الدامغاني وكان نائباً عن الوزارة فاقره المسترشد بالله عليها ثم عزله عن نيابة
الوزارة واستوزر أباشجاع محمد بن الريب أبي منصور وزير السلطان محمود

واقعة ايلغازي مع الصليبيين بمحدود انطاكية

في سنة ٥١٣ هـ سار الافرنج الى نواحي حلب ونازلوها واخربوها ولم يكن بحلب
من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً وخافهم أهلها ولو مكنوا من القتال لم يبق بها
احد لكنهم منعوا من ذلك وصانعوها الافرنج أهل حلب على ان يقاسموهم
املاكهم التي بباب حلب وكان الامير ايلغازي صاحب حلب ببلد ماردين يجمع
العساكر والمتطوعة للغزاة فاجتمع عليه نحو عشرين الفا وكان معه اسامة بن المبارك
ابن شبل الكلالي والامير طغان ارسلان بن المكر صاحب بدليس وارزن فسار
هم الى الشام حازماً على قتال الافرنج بناحية انطاكية فلما علم بذلك روجار
دي سيسليا الوصي على ابن بوهمود صاحب انطاكية ارسل اليه بودوين الثاني
ملك القدس يطلب مساعدته ولكن قبل ورود ملك القدس اليه سار بجيشه البالغ
ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل فزلوا قريباً من الانارب بموضع يقال
له تل عفرين بين جبال ليس لها طريق الا من ثلاث جهات وقد ظن الافرنج
بانه لا يمكن للمسلمين السلوك اليهم لضيق الطريق فاخذوا الى المطاولة
وارسلوا الى ايلغازي يقولون له لاتعب نفسك بالسير الينا فتحن واصلون اليك فاعلم
اصحابه بما قالوه واستشارهم فيما يفعل فاشاروا بالركوب من وقته ففعل ذلك وسار
اليهم ودخل الناس من الطرق الثلاثة فلم يشعر الافرنج الا وائل المسلمين
قد غشيتهم فحمل الافرنج حملة منكراً وجري بينهم حرب شديدة وأحاطوا الافرنج
من جميع جهاتهم وأخذهم السيف من سائر نواحيهم فلم يفلت منهم غير نفر

يلزمهم من أكل ولبس وغيره من أنواع الخدم بغاية الشرف والممنونية ببشاشة تامة وفي سنة ١١٠٤ حينما كانت هذه الجمعية تحت رئاسة رايوند دي بوي أضيف على شروطها بأنه يجب على الاعضاء الخدمة العسكرية فكانت هذه الجمعية من أكبر الجمعيات وساعدت حكومة الصليبيين المساعدة التامة لان أعضائها كانوا يحاربون في وسط صفوف الصليبيين برأية خصوصية شقتين بيضاء وسوداء ثم يتوجهون الى الفنادق لاجل عيادة المرضى وخدمة الزوار الفقراء وبهذه الصفة انتشرت هذه الجمعية في ممالك اوروبا وعين من أعضائها من يتجول في اوروبا لاجل جمع الصدقات والتبرعات وآخرين لاجل تحصيل ايراداتها الخاصة وذلك جميعه للاتفاق على الجمعيه ومستلزماتها. أما الجمعية الثانية المسماة بجمعية الهيكلين فانها تأسست سنة ١١١٨ من تسعة أشخاص فرنساويين وكانت شروط هذه الجمعيه هي ان تحمي جميع الزوار الواردين من اوروبا الى القدس ومحاربة المسلمين ثم تبهم عدد وافر وتأيدت هذه الجمعية من الامراء والملوك وتخصص لها انعامات سامية من الاحبار الرومانيين وصارت جمعية رهبانية عسكرية وكان السبب في تسميتهم هيكلين هو ان بودوين الثاني الذي سيأتي ذكره شيد لها منزلا كبيرا كدير فوق دثار هيكل سليمان وكان علم هذه الجمعية مكتوبة عليه هذه الالفاظ الداوودية (٠٠ لا لنا يارب ٠٠ لا لنا ٠٠ لكن لاسمك أعط المجد) وكان لهذه الجمعية شأن كبير في محاربة الاسلام

﴿في ولاية بودوين الثاني﴾

بعد دفن جثة بودوين الاول اجتمع جميع قواد العساكر ورؤساء الكنائس وقرروا تعيين بودوين دي بورغ أمير الرها سلطاناً عليهم حسب وصية بودوين الاول وأعلنوا بودوين المذكور في الرها فقبل هذا التعيين وتنازل عن أماره الرها الى جوسلين دي كورتناي وترك أمرها وسافر الى القدس فقابلوه باحترام عظيم وأجلسوه على تخت ملكه وتسمى باسم بودوين الثاني

﴿ وفاة الامام المستظهر بالله العباسي وخلافة ولده المسترشد بالله ﴾

في سادس عشر ربيع الآخر سنة ٥١٢ هـ توفي الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس احمد بن المقتدي بامر الله وكان عمره ٤١ سنة و ٦ اشهر و ٦ أيام وخلافته اربع وعشرون سنه وثلاثة أشهر واحدى عشر يوماً وحكم في

الامراء الصليبيين ثم حصل تغير في الجو وزل ضباب لهبي أحرق المزارع وبسبب ذلك حصل قحط وجماعة ثم حصلت زلازل شديدة هدمت جملة مدن من أقلم كليكا وكذلك الابراج التي حول سور مدينة الرها وقلعة مدينة حلب قد اندكت وهدمت باندفاع مخيف وقد هدمت كنائس وعمارات شاهقة في مدينة انطاكية من أساسها وكذلك الباب البحري وأبراجه وفي أواخر سنة ٥١١ خرج بودوين ملك القدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها وذبح أهلها وأحرق جوامعها وهم الى مصر فداهمه مرض حله على العود واجتمعت حوله جميع الامراء والقواد فاخذ يشجعهم ثم حلفهم بان لا يدفوه في أرض غربية وطلب منهم نقل جثته ودفنها بالقدس بجوار أخيه ثم أمر خدامه بكيفية دفنه وسألوه عن يكون عليهم سلطاناً بعده فاجابهم بأنه قد ترك هذا التخت لشقيقه اسبطاكيوس اذا كان يرغب في الإقامة بفلسطين والا يكون لابن عمه بودوين دي بورغ أمير الرها ومات في سنة ١١١٨ وهو راجع الى القدس قبل ادراك العريش فنزعوا أحشاءه ودفنوها في مكان لا يبعد كثيراً من العريش في وسط أرض رملية وأقاموا على قبره حجراً كبيراً ولا يزال ذلك المكان معروفاً الى ايامنا هذه باسم رمال بردويل (وهو محريف لفظ بودوين والبعض يقول بقدوين) أما جثته فحملوها الى بيت المقدس ودفنوها هناك بجوار أخيه غودافرو

﴿ جمعيات الرهبان الصليبيين ﴾

كانت قبل امتلاء الصليبيين على القدس جمعية هناك باسم (ضياف الغربا) وهذه الجمعية تمتلك زلاً أو قدقاً لاجل اقامة الغرباء من زوار القدس وكانت هذه الجمعية تقدم للزوار المأكل ولما استولى الصليبيون على المدينة أوسعوا نطاق هذه الجمعية واكتبوا لها بمبالغ مالية وأضافوا على عملها معالجة الجرحى وتنازل كثير من الشبان عن ميراثهم لهذه الجمعية مثل راييموند دي بوي ودودون دي كومباس من أهالي دوفينه وغسطون من مدينة بردواس وكونون دي مونته من مدينة أوفرينا ثم تشكلت بالمدينة جمعية باسم الهيكلين كما سيأتي بيانه

ثم أنشئت كنيسة عظيمة باسم القديس يوحنا المعمدان تابعة لجمعية ضياف الغربا وأنشئت أيضاً فنادق لاجل اقامة المرضى والجرحى ومنازل لاجل سكن أعضاء الجمعية الذين من وظيفتهم معالجة المرضى والجرحى الذين تلقبوا باسم رهبان القديس يوحنا المعمدان وكانوا يقبلون فقراء الزوار بهذه الفنادق ويقدمون لهم ما

بارتراند بن رايكوند من أوروبا بعمارة بحرية قوية فحاصر المدينة ودخلها عنوة في ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٣ الموافق ٢ يولييه ١١١٠ وقتل قسماً من أهلها واستعبد القسم الآخر وصارت طرابلس ملكاً لبارتراند بن رايكوند دي طولوز

﴿ باقي ولاية بودوين الاول على القدس ﴾

استقر بودوين في مملكته بعد سفر أهل بيزا وجنوى بمراكبهم مستقلاً ببلاد مدافعاً عنها صاعداً هجمات المسلمين الذين كانوا قد استولوا على بلاده وكادت أن تنصب أعلامهم فوق جبل صهيون نفسه ولكن جاءت امداد الصليبيين الى بودوين فأسمفته وردت المسلمين عن بلاده ثم سار بودوين الى بيروت وحاصرها برأ وبحراً شهرين في سنة ١١١٠ فملكها بالسيف وقتل منها نفراً كثيراً وطارت شهرة الانتصارات الصليبية الى أقصى بلاد أوروبا حتى جاء الى القدس ماينوف عن عشرة آلاف عسكري زويحي بقيادة ملكهم سيفور بن ماينوس الثالث في عمارة مؤلفه من منتي مركب وكانت قد خرجت هذه العمارة من مملكة زوج في شمالي أوروبا وسارت في البحر المحيط (لعله الاوقيانوس الاطلانطيكي) تائهة ثلاث سنوات الى ان وصلت الى مدينة يافا سنة ١١١٠ فلما علم بودوين بوصولهم ذهب للملاقاهم واستحلفهم بان يجاهدوا معه فقبل سيفور طلبه هذا بدون مكافئة سوى قطعة من خشب صليب الصليبوت وساروا الى ان وصلوا الى القدس وبعد أيام قاموا قاصدين مدينة صيدا فحاصروها مدة ستة أسابيع أظهر أهلها في أثناءها الشجاعة والقوة وأخيراً امتلكها الصليبيون وغنموا منها غنائم عظيمة اقتسمها كل من بودوين ملك القدس وسيفور ملك الزوج وأخذ الملك سيفور قطعة من صليب الصليبوت وسافر الى بلاده فرحاً مسروراً بهذه الذخيرة المقدسة التي وضعها في كنيسة دورتم ولما رجع بودوين الى عاصمة ملكه علم بان جيرفيز حاكم طبرية قد وقع أسيراً في أيدي المسلمين فشمله الحزن الشديد لانه كان يحبه محبة عظيمة وبعد ذلك وردت رسل من عسكر المسلمين الى بودوين يطلبون منه فدية حبيبهم المذكور وان تكون الفدية ان يرد اليهم عكا ويافا وغيرها فرد بودوين الجواب اليهم قائلاً اني بطيب خاطر أفديه منكم بمال عظيم أدفعه لكم وأما البلاد فلا أعطيها لكم ولو كانت فدية عن أخي نفسه أو عن جميع الامراء الصليبيين ولما رجعت الرسل الى دمشق بهذا الجواب قتلوا جيرفيز ومن معه

وفي سنة ١١١٢ مات تنكريد فأنقما انطاكية فخرن عايبه بودوين وباقي

بامتعتهم فقبل بودوين ذلك منهم واعطاهم اماناً ولذلك رموا له مفاتيح المدينة من فوق السور واما الجنوبيون الذين كانوا بالمراكب فانهم لما نظروا غنى اهل المدينة لم يعتبروا الايمان الذي اعطاه بودوين وهجموا على اهل البلديسلبون ويقتلون واخذ بودوين يتوسل الى الجنوبيين ليمتنعوا عن القتل باهل المدينة فما أمكنه وفر الامير زاهر الى مدينة دمشق ومنها الى مصر

﴿ محاصرة مدينة طرابلس ﴾

كان راييموند دي طولوز (مؤرخو العرب يقولون صنجيل) قد لازم حصار طرابلس وزحف اليه قليج ارسلان صاحب بلاد الروم فظفر به وعاد راييموند مهزوما وفي سنة ٤٩٥ هـ الموافقة سنة ١١٠١ م حاصر المدينة راييموند وشدد الحصار وأغاثه أهل الجبل والمسيحيون من أهل سوادها ثم صالحه الامير نجر الدولة ابن عمار صاحبها على مال وخيل ورحل عنها راييموند الى طرسوس فحاصرها وملكها عنوة واستباحها ثم سار الى حصن الطومار وصاحبه ابن العريض فامتع عليهم وقتلهم راييموند فهزموا عسكره وأسر وأزعيا من زعماء الافرنج افتداه راييموند بعشرة آلاف دينار والف أسير

وفي سنة ٤٩٧ هـ الموافقة ١١٠٣ م سار راييموند وقد جاءه أمداد الافرنج بجزراً الى طرابلس فحاصرها برأ وبجزراً فلم يجد فيها مطعماً فعاد عنها الى جبيل وتسلمها بالامان من صاحبها ابن صليحه ثم سار راييموند المعروف عند العرب بصنجيل الى طرابلس فحاصرها وبني بالقرب منها حصناً وبني تحته ربضاً وهو المعروف بحصن صنجيل فخرج ابن عمار صاحب طرابلس فأحرق الربض ووقف راييموند على بعض سقوفه المحروقة فانخسف به فرض وبقي عشرة أيام ومات خمدل الى القدس ودفن فيه ودامت الحرب بين أهل طرابلس والافرنج خمس سنين وظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظيم الى ان قلت الاقوات واقفر الاغنياء

وفي سنة ٥٠١ هـ الموافقة سنة ١١٠٧ م توجه نجر الدولة ابو علي بن عمار من طرابلس الى بغداد مستغفراً لما حل بطرابلس وبالشام من الافرنج واجتمع بالسلطان محمد ملك شاه وبالحليفة المقتدر فلم يتحصل منهما على فائدة فعاد الى دمشق وأقام عند طغتكين ثم احتفى أهل طرابلس بخليفة مصر الأمر بأحكام الله فحماهم وبعث الافضل الى طرابلس احد أوليائه وتملكها باسم خليفة مصر وأرسل اليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع عنها الصليبيين فتأخر وصولها لما كسدة الريح لها الى ان أتى

والعساكر الاسلامية من جهة أخرى فاضطر الى الهرب الى أوروبا كي يحرك أهل الغرب الى معونته ولكي يخفي عن أعدائه هذا التدبير الذي عزم عليه قد أشاع عن نفسه بأنه مات واختفى في مكان مجهول في سنة ١١٠٤ وبعد ذلك لبس ثوباً محزناً ونزل في مركب وسار من وسط مراكب ملك الروم بدون معلومية أحد به الى ان وصل مدينة كورفو وصعد من المركب الى البر وأرسل يقول الى القائد الرومي بان يخبر ملكه بان بوهيموند قد قام من الموت وعن قريب يشاهده في القتال ثم وصل الى ايطاليا وانطرح على اقدام البابا بسكوال الثاني وطاب منه المعونة والمساعدة فقبله البابا وسلمه سنجق (علم) القديس بطرس الرسول ووعده بالاسعاف ثم سار بوهيموند الى ان وصل الى مملكة فرنسا فصادف في البلاط الملوكي استقبالا عظيما وأكرمه ملك فرنسا فيليب الاول اكراماً زائداً وزوجه ابنته قسطنسا سنة ١١٠٦ ثم جهزه ملك فرنسا بجيوش كثيرة وقد استحصل أيضاً على جيوش اسبانية ثم سار الى ان وصل ايطاليا فتبعه جيش عظيم ثم انه نزل بالمراكب من مدينة باري باقليم نابولي التابع لمملكة ايطاليا ثم انه طلع على بلاد الروم وحاصر مدينة دورالسيوس سنة ١١١١ وأما بودوين دي بورغ ونسييه جوسلين فبعد أسرها خمس سنوات رجعا الى ولايتهما وكان أخذهما جكرمس من سقمان الذي أسرها ثم أخذهما جاولي ملك الموصل وأطلقهما بشروط منها ان يطلقا الاسرى المسلمين الذين ببلادها وان يمدوه بنفسهما وبساكرهما متى احتاج الى ذلك وعلى مال دفعاه قدره ثلاثون ألف دينار

﴿ استيلاء الافرنج على عكا ﴾

ان بودوين اراد اتساع مملكته خصوصاً ببلاد الساحل لتصل ببلاده اوروبا فلذلك عزم على محاربة مدينة عكا وامتلاكها فجمع جيشه وجيش جنوى الذي كان قادماً للزيارة بمراكبه وطلب اليهم بودوين المساعدة في الحرب ولهم ثلث المكسب فسار بهم ورجاله قاصداً مدينة عكا فلما وصل حاصرها برأ بجيشه وحاصرها بجزراً بمراكب الجنوبيين البالغ عددها سبعين مراكباً وكان ذلك سنة ١١٠٤ الموافقة سنة ٤٩٧ هجريه وكانت عكا في ذلك الحين تابعة لمصروحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالحيوشي لانه كان من اتباع امير الحيوش وطال امد الحصار حتى مل الصليبيون الانتظار وبعد حصول معارك كثيرة اظهر فيها المسلمون شجاعة عجيبة وانتهى الامر بان طلب الامير زاهر الى بودوين الصاح على تسليم المدينة بشرط ان يخرج المسلمون

افرنكيه ثم بعث الافضل أمير الحيوش بمصر ابنه شرف المعالي بالعساكر الى عسقلان
فقابل مع بودوين ملك القدس بالرملة وكان معه بقايا الحيوش الصليبية الثانية الذي كان قد
هلكهم قليج ارسلان وكربوغا كما تقدم برئاسة كل من فولف الرابع دوك دي بافيرا
وغيلوم التاسع كونت دي بوانسير وجفرو دي باندوم وهو كزدي لوزينان
وادواس دوك دي بورغونيا واستفانوس كونت دي بلواز واورين كونت دي باري
واشتبك بينهم الحرب وقتل من الصليبيين في الحروب استفانوس كونت دي بلواز
وادواس دوك دي بورغونيا واورين دي باري وقع أسيراً ثم مات واختفى بودوين
في الشجر ونجا الى الرملة مع جماعة من زعماء الافرنج فحاصروهم شرف المعالي
خمسة عشر يوماً حتى أخذهم فقتل منهم اربعمائة وبعث ثلثمائة الى مصر ونجا بودوين
الى يافا ووصل في البحر فجوع من الافرنج للزيارة فذهبهم بودوين للغزو وسار بهم
الى عسقلان وهناك حاربوا الرملة التي كانت استولت عليها عساكر الاسلام
وامتلكوها ورجع بودوين الى القدس

﴿ بوهيموند أمير انطاكية وما جرى له ﴾

في سنة ١١٠١ وقع بوهيموند أسيراً بيد الاسلام وصارت انطاكية خالية من
حاکم الى ان حصل الصلح بين بودوين وتسكريد كما تقدم وتعيين تسكريد حاکم على
انطاكية ثم في سنة ١١٠٣ نجا بوهيموند من الاسر بعد ان اقام بالاسر سنتين ونصفاً
وأتى الى انطاكية وكان بوهيموند مستقلاً بانطاكية لا يعترف بسيادة القدس على
مدينته ولذلك تحارب مع الملك الكسيوس ملك الروم مرات كثيرة كان النصر
بينهم سجلاً تارة الى بوهيموند وتارة الى ملك الروم ثم ان بوهيموند اتحد مع
بودوين دي بورغ ملك الرها وجوسلين دي كورتناي وتسكريد لكي يحاربوا
مدينة حران الكائنة بين النهرين وساروا الى أن وصلوا حران وكادوا يملكونها
حينئذ وقع الخلاف بينهم لان كلا منهم كان يريد امتلاكها باسمه حتى كادوا ان يحارب
بعضهم بعضاً وبينما كانوا في هذه المحاصرة واذا بعساكر اسلامية أتتهم من الموصل
وماردين فحاربوا عليهم حصاراً من كل الجهات وجعلوا عليهم حملة صادقة كادت أن
تبيدهم عن آخرهم فوقع بودوين دي بورغ أسيراً وكذلك جوسلين عند الاميرسقمان
وأما بوهيموند وتسكريد فقرا من الموت هاربين الى ان وصلا مع القليلين الذين
نجوا من الذبح الى انطاكية. ثم ان بوهيموند وجد نفسه واقعاً بين قوتين لا قدرة
له عليهما ولا يمكن ان يحمي نفسه منهما وهما الكسيوس ملك الروم من جهة

لاجل انتخاب سلطان عليهم بدل المتوفي مقدماً نفسه لهذه الوظيفة السامية وحينئذ اهل المجلس رفضوا تعيينه عليهم سلطاناً وكذلك بوهموند ارسل اليه برفض المساعدة ثم ان هذا المجلس قرر بايجاد الاراء انتخاب بودوين ملك الرها وشقيق غودافرو ليكون سلطاناً عليهم ثم أعلموه بذلك فقبل هذا الانتخاب وعين بدله ابن عمه بودوين دي بورغ ملكاً على مابين النهرين (الرها) وسار هو قاصداً القدس ومعه جيشه فتقابل مع دقاق أمير دمشق وجناح الدولة أمير حمص بعيداً عن بيروت بمقدار تسعة أميال وتحاربوا وانتهت الحرب بهزيمة المسلمين وسار بودوين الى ان وصل الى القدس ودخلها باحتفال عظيم اقامه له أهل المدينة

ثم ان بودوين اراد ان يوسع مملكته فأخذ جيشه وسار قاصداً مدينة عسقلان ليمتلكها وبعد قتالها انهزم راجعاً الى القدس وشرع في تنويجه بيت لحم ولبس التاج الملوكي وكان الامير تنكريد والي طبرية لم يعترف بتملك بودوين على القدس لما بينهما من العداوة القديمة التي ظهرت بناحية طرسوس كما تقدم وكان بودوين يرغب مصالحة تنكريد ولكونه سلطاناً لم يسمح بالتنازل وطلب الصلح من تنكريد غير ان المصالحة تمت بينهما عند مقابلتهما معاً بميناء حيفا فتصاخفا وتعاثقا ولكون بوهموند امير انطاكية قد وقع اسيراً في يد المسلمين كما يأتي في اخباره وظلت انطاكية خالية من حاكم حينئذ تعين تنكريد حاكماً على انطاكية

ثم انه جاءت مراكب من ناحية جنوى مشحونة بالعساكر الذين وعدهم بودوين بانه يحارب معهم وكل ما يمتلكه من الغنائم يعطيهم ثلثه وكل بلد يمتلكها يجعل لهم فيها طريقاً باسم اهالي جنوى ثم سار معهم وامتلك مدينة ارسور (لعلها ارسوف) سنة ١١٠١ التي لم يقدر اخوه غودافرو على امتلاكها ثم سار وانتصر على مدينتي اوبارتيدا وقيساريه ثم سار قاصداً عسقلان وكانت مصر قد ارسلت جيشاً بقيادة سعد الدولة فسار الجيش وما زالوا حتى التقوا بالجيوش الصليبية عند اسوار عسقلان فخاربوها فارجعوها على اعقابها

﴿ خلافة الأمير باحكام الله وواقعة عسقلان ﴾

في يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٤٠٥ هـ توفي الخليفة العلوي المستعلى بالله بالقاهرة بعد ان حكم سبع سنوات وشهرين وله ولد اسمه المنصور لم يبلغ السادسة من عمره بوصاية شاهين شاه الذي كان وصياً على المستعلى أيضاً وكان قد عهد اليه ان يلقيه عند مبايعته بالامر باحكام الله ففعل وكان ذلك موافق سنة ١١٠١

وجنوى التابعين لاطاليا برفقة رئيس أساقفة بيزا ديارتوس بصفته نائب بابوي والاسقف اريانوس قاصدين القدس للزيارة في عيد الميلاد ثم حضراً أيضاً الى القدس كل من بوهيموند أمير انطاكية وبودوين أمير الرها ورايموند دي طولوز وكثيرون من القواد والرؤساء ثم ان غودافرو افكر بان يعمل قانوناً لحكومته لترتيبها وتنسيقها فافتتح فرصة وجود الامراء المذكورين ف عقد جمعية في قصره الكائن في جبل صهيون بالقرب من كنيسة قبر المسيح وأعلمهم بما أصر عليه من ترتيب الحكومة بقانون يبين حقوق السلطان والموظفين والاشراف (القواد) والرعية كلا منهم بما يخصه ويلزمه فعينوا ثلاثة دواوين فالديوان الاول يعقد برئاسة السلطان وتكون أعضاؤه القواد لاصدار الاحكام والترتيبات الشاملة لجميع الرعية . والديوان الثاني يكون رئيسه قائمقام القدس وأعضاؤه أعيان المدين الكبار لكل مدينة عضو ويكون اختصاصه النظر في الايرادات والمصروفات وترتيب الحقوق والتدابير المدنية . والديوان الثالث للقضاء وهو يختص بالدعاوي التي ترفع على الشرقيين ويكون رئيسه أحد قضاة البلاد لاصدار أحكامه بما يطابق عوائدهم وهكذا انتهى هذا المجلس وقد حفظوا أصل القرار داخل كنيسة القيامة ثم عين ديارتوس رئيس أساقفة بيزا بطريركا على القدس خلفاً لارنولد بطريركها المتوفي

﴿ موت غودافرو سلطان القدس ﴾

بعد انتهاء مجلس الامراء المذكور سافر كل منهم الى محله ثم توجه غودافرو مع تنكريد بمحيشهما الى طبرية وامتلكوها واقام تنكريد حاكماً عليها ثم رجع غودافرو الى القدس وبعد أيام قليلة حصل له مرض شديد فجمع حوله القواد والكهنة وحرصهم على اتمام واجباتهم وأخذ عليهم الاقسام بدوام محاربتهم المسلمين ودوام محاماتهم عن البلاد التي امتلكوها لآخر حياتهم . وبعد أيام قليلة فاضت روحه في ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ فبكاه الجميع لما كان موصوفاً به من العدل واحتفلوا بمجنازته ودفنوه باكرام بمجاء جبل الجبلجبل بكنيسة القيامة بالقرب من قبر المسيح (كاعتقادهم) وقبره هناك يزوره الزوار الغربيون الآن

﴿ انتخاب بودوين سلطاناً للقدس ﴾

بعد موت غودافرو طمع في هذه الوظيفة ديارتوس البطريرك وارسل الى بوهيموند بانطاكية لمساعدته على ذلك ثم جمع القواد والرؤساء وعقدوا مجلساً

بمساكر قليج ارسلان وعساكر الامير كربوغا الاسلامية قد حملوا عليهم واقتل
الفريقان وكانت معركة مخيفة لان عساكر الاسلام اعملوا في الصليبيين السيف حتى
قتلهم عن آخرهم ولم ينج منهم اكثر من الف شخص وفر الكونت دي فرمندوس
من هذه المعركة مجروحاً الى ترسوس حيث مات هناك واما دوك دي بافيراو كونت دي بواير
فتاها هاربين من مكان لآخر حتى دخلا انطاكية التي كان قد سبقهم اليها كونت
دي نافار هاربا وهناك اجتمع بقايا الصليبيين الذين نجوا من هذه الوقائع وكان عددهم
عشرة آلاف قاصدين مدينة اورشليم أي القدس ثم حصلت لهم وقائع أخرى
باراضي فلسطين بقرب مدينة الرملة انكسر فيها الصليبيون بأيدي عساكر الاسلام
وفي هذه الواقعة قتل دوك بورغونيا والكونت دي بلواز ثم ساروا قاصدين اوطانهم
مخدولين وسيأتي بيان هذه الواقعة سنة ٤٩٦ هـ وسنة ١١٠٢ أفرنكيه مع العساكر المصرية

● محاصرة غودافرو مدينة ارسور ●

بعد ان تملك القدس غودافرو كما تقدم صار يرتب أحكامه كما يترأى له وصدر
أمره بان كل شخص يضع يده على منزل أو أرض يجرها سنة كاملة ويوماً تكون
له ملكاً طلقاً شرعياً وكذلك كل من غاب عن عقاراته سنة ويوماً تؤخذ منه ولا
يكون له حق فيها مطلقاً ثم انه رتب جزية على الامراء المسلمين الذين كانوا قد خضعوا
له مثل أمراء قيساريه وغيرها وأيضاً صدقة على العرب شمالي نهر الاردن ثم سار الى
مدينة ارسور وحاصرها حصاراً شديداً لانها لم تخضع له ولما كان الحصار صعباً
جداً على المدينة وكان أهل المدينة أخذوا حيراردي افاغناس أسيراً ثم انهم أدلوه
بجبل أمام غودافرو وصرخ طالباً من غودافرو ان يبقي حياته بواسطة رجوعه
عن هذه المدينة وعدم حصارها فاجابه غودافرو على الفور بانه لو كان أخوه
اسطاكويوس نفسه وطلب ذلك ما أمكنه قط وقال له الاحسن ان تسلم نفسك
للموت بدل اخوانك الصليبيين ثم بعد ذلك قتلوه ثم ان غودافرو شدد الحصار
على المدينة ولكن هذا الحصار لم يكسبه شيئاً لان آلات حربه حرقت عن آخرها
بواسطة النار التي قذفت عليهم من داخل المدينة وحينئذ غودافرو قطع الامل
من الاستيلاء على هذه المدينة ورفع الحصار عنها ورجع الى القدس

● اجتماع الامراء الصليبيين بالقدس وانتخاب قانون لحكومتها ●

بعد رجوع غودافرو الى القدس اتته الاخبار بان عدداً عظيماً من أهل بيزا

الى البلاد الشرقية كي يتحصلوا على الانتصار والامتلاك مثل من سقوهم فلذلك
 حلوا الصليبان كعادتهم وتجمعوا من كل مملكة فكان من مملكة فرانسا أخو سلطانها
 واسطفانوس كونت دي بولوز تحت رئاسة غويليوم التاسع كونت دي بواير ومن
 ايطاليا الكونت دي بلاندراس البرتوس وانسلموس رئيس اساقفة مدبولان بجيوشهم
 الكثيرة العدد ومن مملكة النمسا الكونت كوزراد قائد جيوش الملك اريكوس
 وفولف الرابع دوك دي بافريا والامير ايضا ومرغراي اوستريا وغيرهم وسار الجميع
 بجيوشهم الكثيفة الى ان وصلوا الى القسطنطينية فلما القسطنطينية الكسيوس خاف
 من غوائل الصليبيين فاستدعى رايكوند دي طولوز الذي كان وقتئذ والياً على اللاذقية
 من قبله ولما حضر رايكوند المذكور منع الصليبيين من الميث ووعدهم بأنه سيكون
 رائدهم في طريق أسيا الصغرى ثم انهم عبروا الى البر الثاني وهناك انقسموا
 ثلاثة أقسام

فالقسم الأول كان برئاسة رايكوند دي سان جيلاس ودوك دي بورغونيا والكونت
 دي شارتراس ورئيس أساقفة مدبولان والكونت دي بلاندراس وكان رئيس أساقفة
 مدبولان حاملاً الذخيرة المقدسة وهي ذراع القديس امبراتيوس التي جاء بها من
 أوروبا ورايكوند كان أخذ معه الحربة المقدسة التي وجدوها بانطاكية فهذا القسم
 الذي كان مؤلفاً من مائة الف عسكري بعد ان أخذ مدينة ايكوزيه قام لمقاتلته
 سلطان نيقية وبلاد الروم الامير قليج أرسلان وبصحبته صاحب الموصل الامير
 كروغا فجمعوا جيوشهم وهجموا على هؤلاء الصليبيين هجمة صادقة واشتبكت
 المعركة بين الجهتين في ارض هاليس وبعد قتال شديد فازت العساكر الاسلامية
 بالنصر وشتوا الصليبيين وبددوهم ففروا هاربين في القفار الى قرب مدينة
 سينوبيا حيث تقابل كل من الكونت دي بلواز ورايكوند دي سان جيلاس ودوك
 بورغونيا وجمعوا حولهم فضلات قليلة من باقي جيوشهم . وأما القسم الثاني فكان
 برئاسة الكونت دي نافار وسار متقدماً في المسير الى مدينة اينكوريا قاصدين مدينة
 هيراكليا وهناك صادفهم عساكر الاتراك المذكورون قبله وحملوا عليهم الى ان
 بددوهم عن آخرهم

وأما القسم الثالث البالغ قدره مائة وخمسين الف مقاتل تحت رئاسة الكونت
 دي بواير والدوك دي بافريا وهو كزدي فرمندوس فبعد ان امتلكوا مدينتي فيلومليوم
 وساماليا ساروا نحو مدينة سنكون مجتهدين في اتحادهم بعسكر القسم الثاني واذا

(غير حلوان مصر) وبلغهم مقتل نجل الملك البارسلان وقتنه بركيارق مع أخيه محمد فرجعوا وكانت قد وصلت الاخبار الى مصر فاضطربت وأصبحت تخشى أن يصيبها مثل ذلك فسار أمير الحيوش الافضل الى سوريا لمحاربة الصليبيين وكانت أخباره وصلت الى بيت المقدس فخرج غودافرو ومعه تنكريدو الكونت دي فلاندر وروبارتوس دي نورمنديا ورايموند دي طولوز وبطريق أورشليم الجديد ارنول وساروا قاصدين الحيوش المصرية الذين قابلوهم بجوار مدينة عسقلان وهناك اقام كل من الفريقين خيامه واصطفت العساكر لكل فريق قلباً وجناحين واقتتل الحيشان قتالاً شديداً كان النصر فيه للصليبيين وانهمزمت العساكر الاسلامية بعد ان قتل أكثرها ودخلت مدينة عسقلان ثم بعد انتهاء هذه المعركة رجعت الحيوش الصليبية الى أورشليم مسرورة لحصولهم على النصر وأمامهم الطبول تعزف

﴿ انتهاء الحروب الصليبية الاولى وسفرهم الى أوطانهم ﴾

بعد النصر الذي حصل للصليبيين في سهل عسقلان ورجوعهم الى بيت المقدس حصل شقاق بين أمراء الاسلام على انه كان الواجب في مثل هذه الاحوال ان يتحدوا يداً واحدة لمقاومة الاغراب لكنهم جاؤا بالعكس فانقسمت الآراء وتشتت القوات تحارب بعضها بعضاً لاسباب واهية . و علم الصليبيون بانه لم يوجد أحد من المسلمين يحاربهم طلبوا الرحيل الى أوطانهم تاركين مدينة أورشليم وفيها غودافرو والامير تنكريد الذين رغبوا ان تكون وطناً جديداً لهم يقضوا فيه باقي أيام حياتهم وهكذا انقضت الحروب الصليبية الاولى التي استمرت اربع سنوات استولوا فيها على بلاد الروم الشرقية اي بر الاناضول والارمن وانطاكية وبيت المقدس واكثر بلاد سوريا وبلاد ما بين النهرين (أي حكومة بودوين المستقلة) ولما رجع باقي الحيوش الصليبية الى ممالكهم باوروبا ومقاطعاتهم جاءت أهلها اليهم فرحين بمقابلتهم ولما علموا بان الصليبيين جميعهم (ما عدا البعض الذي سافر الى وطنه) قد قتلوا ودقنوا في أسيا أخذوا يندبون ويولولون حتى انه لم تخل عائلة من نواح وبكاء وكذلك سافر بطرس السائح الى دير على نهر موزا واقام هناك الى ان مات

﴿ الحروب الصليبية الجديدة ﴾

بعد وصول الصليبيين الاول الى بلادهم اتقدت الغيرة بين رؤسائه العساكر الذين كانوا اقاموا باوروبا ولم يسافروا معهم ولذلك عزموا على تجرّد حملة ثانية والتوجه

الصليبيين رموا ناراً من الابراج الحشوية على آلات الحرب المركبة على السور فالتهب وزادها الريح التهاباً وتطاير الشرار والدخان على عساكر الاسلام فاضطروا للتأخر عن الاسوار ولذلك نزل دوك دي لورين وغودافرو من الابراج ومعهما عساكرهم الى الاسوار وصاروا يقتلون من المسلمين من يجذوه ثم اتبهم كثير من عساكر الصليبيين الذين كسروا باب القديس اسطفانوس بالفؤوس والمعاول ودخلت منه باقي العساكر الصليبية وكان ذلك في ١٥ يوليوسنة ١٠٩٩ لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ وكانت مدة حصار المدينة أربعين يوماً. ثم ان العساكر الصليبية فتكوا بالمسلمين فتكاً ذريعاً وصاروا يقتلون الرجال والنساء والكبار والصغار والبنين والبنات وقتلوا داخل المسجد ما ينوف عن سبعين الفاً من المجاورين فيهم العلماء والزهاد والعباد حتى كانت الجثث ملقاة في الازقة والاسواق وأخذوا من المسجد نيفاً واربعين قنديلاً من الفضة زنة كل واحد ثلاثة آلاف وستمائة درهم و ١٥٠ قنديلاً من الصغار وتنوراً من الفضة زنته أربعون رطلاً شامياً وغير ذلك مما لا يحصى واعتصم باقي الاسلام بمحراب داود عليه السلام حتى استأنفوا وخرجوا ليلاً الى عسقلان وكان السبب في ذلك انه انعقد مجلس مشورة الصليبيين وقرر بان يقتل كل مسلم أو يهودي باق في المدينة فخرج المسلمون بعد الاستئمان والتجأ اليهود الى كنيسهم فحرقوا الصليبيون جميع الحي بما فيه الكنيس ومن فيها

. وبعد ذلك انعقد مجلس مشورتهم لانتخاب أحدهم ليكون ملكاً على بيت المقدس وبعد مجادلات ومعارضات تم انتخاب أربعة وهم غودافرو ورايموند ودوك نورمانديا وتنكريد وأخيراً عينوا لجنة من الكهنة وغيرهم عددها عشرة لاجل ان ينتخبوا واحداً من الاربعة المذكورين فاعقدت اللجنة وقررت انتخاب القائد غودافرو ولما أرادوا تنويجه ليكون ملكاً على بيت المقدس أبى ان يلبس التاج قائلاً لا يمكنه ان يضع على رأسه تاجاً من ذهب مرصعاً بمجارة كريمة في بلد توج فيها المسيح باكليل من شوك وأبى ان يلقب بملك القدس بل (بمحامي قبر المسيح)

واقعة عسقلان وانتصار الصليبيين فيها

بعد ان تملك الصليبيون بيت المقدس وصل صريح الاسلام الى الخليفة المقتدي ببغداد مستعينين به فارسل وهداً الى السلطان بركيارق مؤلف من أبي محمد الدماغاني وأبي بكر الشاشي وأبي القاسم الزنجاني وأبي الوفاء بن عقيد وأبي سعد الحلواني وأبي الحسين بن السماك فساروا الى بركيارق يستصرخونه للمسلمين فأتوا الى حلوان

وغيرها من جنوى فشملمهم الفرح والسرور وسار منهم قسم لاجل استحضار ذلك ولما توجهوا الى ناحية جوبه وجدوا مراكب الاسلام قد داهمت مراكبهم وحرقتهم وكان ذلك بعد اخراج الذخائر الى البر ثم انهم نقلوا هذه الذخائر مع آلات الحرب ومن حضر معهم من المهندسين وتوجهوا الى بيت المقدس وكان أيضاً أحد اهلالي سوريا قد دل الصليبين على حرش بعيد عن المدينة بمسافة ثلاثين ميلا في جبل بين وادي شخيم ووادي السامر فانطلق منهم قسم الى هناك وقطعوا اخشاب الحرش وحملوها على عربات تنجزها البقر ولذلك صنعوا ثلاثة ابراج من الخشب كل برج ثلاث طبقات حتى صارت الابراج أعلى من سور البلد وعمل على الابراج جسر ولذلك فرح الصليبيون فرحا شديداً ثم عقدوا مجلس مشورتهم ليعينوا يوم الهجوم وكيفيته وهذا المجلس قرر تغيير مواضع الحصار فقلوا الابراج الخشبية الى شرقي المدينة عند باب سیدار تحت رئاسة دوك دي لورين وأقاموا المنجنيقات والاكباش تحت رئاسة تنكريد وروبارتوس من باب دمشق والبرج المقرن الذي دعى فيما بعد ببرج تنكريد

وفي يوم الخميس ١٤ يولييه سنة ١٠٩٩ هجم الصليبيون هجمة شديدة على كل جهات المدينة خصوصاً الابراج الخشبية التي كانوا يجرونها بعجل الى أي جهة يريدونها وكانت مملوءة بالحاربين تحت رئاسة غودافرو وأخيه اسطاكوس وودوين دي بورغ اللذين كانا بالبرج الاعلى وكانوا يصدرون أوامر الحرب من أعلا هذا البرج فيهمجمون بالابراج على أسوار المدينة وكذلك رؤساء المنجنيقات كانوا يتابعون الرمي بها بسرعة وعساكر الاسلام تقابلهم كالاسود ولا يبالون من هذه الهجمات وكانوا يرمون الصليبيين بالمواد الملتهبة ومشتعلة بالزيت وكانت مركبة على الابراج آلات حربية كبيرة لصدهجمات الصليبيين وظل الفريقان في هجوم ودفاع طول اليوم المذكور بدون ان يظهر النصر لفريق منهم

وفي صباح اليوم الثاني بادر الفريقان للمحاربة واشتدت هجمات الصليبيين على المدينة ولكن حسن دفاع المسلمين منهم من التقدم الى السور فكان المسلمون قد وجهوا قوتهم ضد من في البرج الاعلى الذي كان فيه غودافرو ومن معه حتى انهم قتلوا اكثر عساكر دوك دي لورين وكان رايغوند من ناحية المدينة القبلية مع جماعة يباشروا اعمالهم الحربية بصورة عديمة الوصف وكان تنكريد وروبارتوس من الجهة الشمالية وهكذا صار القتال منتشبا بينهم وكان الانتصار لجيش المسلمين الا ان

عندما يستولون على بيت المقدس ولذلك تركوه الى ان وصلوا عمواس القديمة وهناك قابلهم وفد من اهالي بيت لحم وطلبوا اغاثتهم فتوجه معهم الامير تنكريد ليلاو معه ثلثة نقر الى ان دخلها ليلاء ووضع رايته عليها ثم ارجع ولحق بقومه وهكذا ساروا الى ان وصلوا الى مدينة اوروشليم

﴿ محاصرة الصليبيين لبيت المقدس واستيلاؤهم عليه ﴾

كان بيت المقدس تابعا لمملكة مصر السعيدة وكان الحاكم عليه افتخار الدولة من قبل الخليفة المستعلى بالله العلوي وكان قد أمر ببناء ما تهدم من السور وقت استيلاء الافضل بن بدر الدين قائد الجيوش المصرية من الامير سقمان بن ارتق واستعدادا بما يلزم للحصار ولما وصلت الصليبيون الى المدينة انعقد مجلس مشورتهم وقرر حصار بيت المقدس فكان كما يأتي في شمال المدينة دوك دي نورمندياو كانت دي فلاندر و تنكريد اي من باب هيردوس الى باب القديس اسطفانوس وكان غودافرو واسطاكوس وبودوين دي بورغ حول جبل الجبله من باب دمشق الى باب يافا وكان الكونت دي طولوز ورايمود دي أورانج وغليوم دي مونت بلير وغاسطون دي ييرا على يمين غدافرو على جبل صهيون قبلي المدينة الى الغرب وهكذا أقيم الحصار مدة من الايام ثم انهم هجموا هجمة قوية على سور المدينة القديم بقصد هدمه فاخذ فريق منهم يهدم السور وفريق يدافع الى ان هدموا معظمه ودخلوا منه وارادوا هدم السور الداخلي فما أمكنهم ثم افتكروا في كيفية استيلائهم على المدينة وأخيراً قرروا بان يتسلقوا السور بالسلام الجلد والحبال التي معهم بكثرة وأخذوا يرمون السلام على شرافات السور فتعلق به وهذه الوسطة صعد الى السور منهم كثيرون ولما نظروهم عساكر الاسلام هجموا عليهم باعلى العور واقتتلا الفريقان ودارة الدائرة على الصليبيين الذين فروا الى معسكرهم بواسطة السلام أيضاً ومن هذا الوقت افتكروا بانه يلزمهم منجانيقات للقفز بها على السور والمدينة فاخذوا يبحثن على الاخشاب اللازمة لذلك حتى انهم هدموا منازل القرى المجاورة للمدينة وأخذوا أخشاب السقوف وكان ذلك في فصل الصيف وفي شدة الحر وعدم وجود مياه كافيه لسقيهم لان حاكم المدينة كان امرهم بهدم الصهاريج التي بالخارج فتابهم ظمء شديد لان نهرسولان الذي كانوا يستقون منه كانت مياهه شحيحة ولم تكن تجري دائماً وكانت قد وردت أخبار للصليبيين تبشرهم بان قد جاءتهم المراكب تحمل ذخائر

دي مونثيل وتنكريد وبوهيموندوان رايمونددي اجيلاس يحمل الحربة أمامهم قامر
الامير كرىوغا بترتيب الجيش وأمر كل من صاحب حلب والشام ونيقيه بان يكمنوا
وراء عساكر العدو لينعومهم عن انطاكيه وبعد قتال شديد وهجوم ودفاع كاد يتنصر
فيه المسلمون ولما كان في الاسلام من النفرة لصاحب الموصل تمت هزيمتهم وكان كرىوغا في
أوائلهم وذلك في ٢٩ يونيه سنة ١٠٩٨ وغنم الافرنج غنائم لا تحصى وجعوا مالا غزيراً
فعادوا الى انطاكيه بثروة عظيمة ثم ان كان في القلعة لما علموا بهزيمة الجيوش الاسلاميه
القوا سلاحهم وساموها فوقع بين بوهيموند أمير انطاكيه وبين الكونت دي طولوز
نفور وخصام بشأن تملكها ثم انتشبت في الصليبيين الامراض الوبائية حتى مات
منهم كثيرون ومات أيضاً القائد ادماردي مونثيل أسقف بوي ودفن في كنيسة ماري
بطرس محل وجود الحربة ثم ساروا الصليبيون الى معرة النعمان وحاصروها حتى
كلوا ثم امتلكوها واغشوا في استباحها

﴿ مسير الصليبيين من انطاكية قاصدين بيت المقدس ﴾

بعد مضي نحو الستة شهور من استيلائهم على انطاكية ساروا الى جهة سوريا
العليا واجتازوا مقاطعة قيسارية وحماه وحمص وكانت أهالي البلاد تقابلهم بالترحاب
تلافياً لعدائهم وهكذا ساروا مسرعين الى ان وصلوا مدينة اركاس الكائنة عند
سفح جبل لبنان فرفض أهاليها تسليمها ولذلك حاصرها قسم من الصليبيين تحت
قيادة رايموند وتنكريد والدوك دي نورمنديا وعساكر الكونت دي طولوز
وقسم آخر من عساكر فلاندر و هولاندا وانكلترا وبوهيموند سار الى ان
وصل الى اللاذقية وهناك رجع بوهيموند الى انطاكية ولايته واعدأ اياهم بان
يتبعهم فيما بعد ويدركهم عند أسوار بيت المقدس
وقسم ثالث برئاسة غودافرو واسطاكبوس سار الى ان وصل الى جبلة التي
على شط البحر قريبة من اللاذقية وحاصرها بقوة

وقسم رابع برئاسة رايموند دي طوران حاصر طرطوز وامتلكها بعد هروب
اهلها فالقسم الاول بعد محاصرته مدينة اركاس كما ذكر لم يتمكن من أخذها ففي
آخر شهر مايو سنة ١٠٩٩ فقد صبرهم فساوانحو فاسطين فقابلهم أمير مدينة
طرابلس وبعد ان حاربوه وتغلبوا عليه صالحهم على مال وساروا قاصدين بيت
المقدس ثم تقابل جميع الصليبيين وساروا معاً الى ان وصلوا الى عكا وحينئذ
خرج واليها الذي كان تابعاً لخليفة مصر وأعلمهم بأنه مستعد لتسليمهم المدينة

من الموت جوعاً وهكذا مضت مدة أيام على هذا المتوال فخارت قوى الجنود وضعفت
وكان المسلمون يعلمون ذلك فلما رأى الأمير بوهيموند أمير ترانتا وانطاكية
كسل أصحابه وتقاعدهم أحرق دورهم قصاصاً لهم ولكن لسان اللهب تجاوز حده
فامتد إلى جهات ساء الأمير حرقها إلا أن تلك النار لم تحرك حاسة قوم أقعدهم الجوع
الشديد والضعف ولذلك صارت الكهنة والأمراء وبعض الناس يقصون أنهم رأوا
أحلاماً ونبوءات تفيد أن الصليبيين سيغلبون أعداهم وذلك لتدب الحمية في قلوب
أولئك الكسالى وتوصلهم إلى يريدون قال كاهن من أهل مرسيليا جنوبي فرنسا
اسمه بطرس برتولوني أن القديس اندراوس الرسول ظهر له في الحلم ثلاث مرات
وقال له : اذهب إلى كنيسة أخي بطرس بانطاكية وهناك بقرب الهيكل الملوكي تجد
الحربة الحديد التي طعن بها جنب المسيح مدفونة في الأرض وأنه بمجرد حمل هذه
الحربة أمام جيش الصليبيين يحصل له النصر :

ثم انتخب اثني عشر شخصاً من الأعيان والكهنة ليكونوا شهوداً على اكتشافها
ولم يسمح لأحد من الجند والأهالي بحضور الحفر الذي اشتغلوا به طول النهار
وهم يدققون البحث فلم يجدوا شيئاً والأبواب مغلقة عليهم وبعد الغروب نزل
الكاهن بنفسه وأحضرها

أما الحربة ففيها أقوال لأن المؤرخين الاكليريكيين يقولون أنها معجزة إلهية
وغيرهم يقولون أن الأفرنج لما رأوا وهن عزائم جنودهم وأنهم لا ينشطون بالتحرك
فعال دبوا هذه الحيلة فججت نجاحاً عظيماً على أنه بعد حين يسيراً انكشف الغطاء
عن أعين كثيرين وبات جمهور غفير من الناس لا يركنون إليها ولا يصدقون بها
(نقلنا هذا بدون إبداء رأينا فيه وهو مجمل ما كتبه حضرة الفاضل جورجى افندي
بني في كتابه تاريخ سوريا وكذلك ما جاء بكتاب (الحروب المقدسة جزء أول)
وحينئذ فرح الصليبيون بهذه الحربة واجتمعوا في الكنائس وأقسموا جميعاً بمدوامتهم
على الحروب وأرسلوا بطرس السائح إلى صاحب الموصل يطلبوا منه المقاتلة في الحرب
فوعدهم بالحرب وفي ثاني يوم خرج الصليبيون جميعاً وهجموا على جيش الاسلام
وكان كربوغا جالساً في خيمته ظاناً بأن المسيحيين قادمين إلى طاب الصلح ثم التفت إلى
القلعة فوجد الراية التي عليها سوداء فعرف بأن القوم جاؤا مهاجمين فأنذهل واذ بكثيرين
من جماعته يركضون مرتعشين وأخبروه بأن الصليبيين خرجوا عليهم مرتبين جنودهم
اثني عشر فرقة تحت رئاسة قوادهم هوكر وغودافرو وروبارتوس دي نورمنديا وادهار

الافرنج خيامهم وانسحبوا عن ساحتهم بالطبول والصريح نحو بيت المقدس حتى تواروا عن العيون ثم قفلوا راجعين يهدو حتى بلغوا البرج الذي كان فيه فيروز فاقام ذلك الحائن بفظائعه حتى قتل بيده أخاه الذي لم يكن عالماً بأفاته وخاف منه ان يشعر بالصليبيين فيصيح على الحفرا فبادر بقتله ثم ادلى سلم من جلد فتملق به شخص اسمه بليان من عساكر بوهيموند الى ان صعد البرج وأراه جثة أخيه المقتول ثم اتبعه بوهيموند وكونت دي فلاندر و غيره وامتلكوا الثلاثة أبراج بعد ان امرهم فيروز بقتل أخيه الثالث الذي كان على برج آخر وامتلكوا سبعة غيرها بعد ان قتلوا حراسها وكسروا الابواب ودخلوا المدينة فملكوها وكان ذلك في ٣ يونيه سنة ١٠٩٨ بعد حصار تسعة شهور وقتك الصليبيون بالاهالي فتكا ذريعاً ليلاً ونهاراً حتى انهم كانوا يهجمون على البيوت ويقتلون من فيها ما عدا بيوت المسيحيين الذين كانوا يضمنون عليها الصليب للتمييز ومن فرّ من عساكر الاسلام كانوا يلحقونهم في الحقول والاحراش ويقتلونهم (وهكذا تكون حماة الانسانية) وفرّ باغيسيان فقتله بعض الارمن وجاؤا برأيه الى انطاكيه أما القلعة فكانت لم تزل بيد المسلمين واقام بوهيموند رايته في أعلى برج في المدينة دلالة على استيلائه عليها ومن هذا الوقت قد استنصر فيروز الحائن وأحبه بوهيموند

﴿ محاصرة المسلمين انطاكيه وظهور الحربة المقدسة ﴾

أقام الصليبيون بانطاكيه ثلاثة أيام وعلى قول ابن خلدون ثلاثة عشر يوماً وهم في فرح وسرور لاستيلائهم على المدينة فاولموا الولائم وصرفوا أوقاتهم بالملذات والملاهي وفي اليوم الرابع من حلولهم فيها جاء قوام الدين كربوغا صاحب الموصل الى مرج دابق بالشام واجتمعت عليه العساكر فكان معه دقاق بن تنش وطغرل تكين اتابك وجناح الدولة صاحب حصص وأرسلان تاش صاحب سنجار وسقمان بن ارتق وغيرهم من الامراء المسلمين وجعوا ما كان هناك من الترك والعرب وبادروا الى انطاكيه وحصروها واضطرب الافرنج وخافوا وأخذ الضيق منهم كل مأخذ فلم يعد عندهم زاد ولم يكن لهم يد لاستجلاب المدد لان القرى الواقعة بجوار انطاكيه كانت قد باتت مدمره من نتائج الحرب ولذلك تضايق المحصورون جداً وامسى حالهم تعيساً وبمدة وحيزة نفد كل القوت والذخيرة حتى التزم الافرنج ان يأكلوا البهائم واضطر كثير منهم الى الشحاذة فكنت ترى كثيرين من الامراء منهم كونت دي فلاندر يطوف الازقة يطلب الصدقة وفرّ كثيرون من المحصورين طلباً للنجاة

أدركه وأعادته وأقسم بدوام مرافقة الذين قادمهم للحرب أما المحصورون فاقاموا بكل أنواع الحكمة واصول الدفاع وكان لهم جواسيس من السريان يعرفون بواسطتهم كل ما يحدث في معسكر الاعداء ولذلك قرر بوهيموند ان يصو التدقيق بالبحث عن الجواسيس ومتى وجد واحداً منهم يذبح ويطبخ لحمه أو يشوي ويؤكل ولا شك ان هذا الامر في غاية البربرية وبذلك قد انقطعت الاخبار عن المسلمين وفي اثناء ذلك بعث المستعلي بالله الملوي من مصر وفداً الى الافرنج يعرض عليهم الصلح والمسالمة وانه يرجع اليهم الكنائس التي شيدها المسيحيون وان يحامي عنهم ويفتح أبواب بيت المقدس للزوار بشرط ان يدخلوها بلا سلاح ولا يقيم الواحد منهم فيها أكثر من شهر واذا رفضوا ذلك فالحليفة مستعد لان يعقد محالفة من المسلمين لصدهم فلم يحتفل الافرنج بمقد الصلح مع انه خوهم المقصد الذي ادعوا انهم يحاربون لاجله ولم يرغبوا حجب دماء العباد والرجوع الى أوطانهم سالمين بل أجابوا الوفد باستعدادهم للحرب غير مباليين بما يصادفونه من قوة الاسلام وكان صاحب حلب وغيره من أمراء البلاد قد بعثوا بالامداد من الجنود لتجدة انطاكية وعلم الافرنج بذلك فساروا اليهم قبل ان يدركوا المدينة وحاربوهم فانكسر المدد وقتل الافرنج منهم عدداً غفيرا وبعثوا برؤوس كثيرين منهم الى الوفد المصري ورموا رؤوس أخرى الى المدينة وجرت مواقع كثيرة كان النصر فيها تارة للمسلمين وطوراً للصليبيين وأخيراً طلب أهل المدينة هدنة فجددوا فيها الذخائر والمهمات وتمادي الحال ولم ينل الافرنج أرباً سيما لان الشقاق كان سائداً بينهم وكان بوهيموند يود ان يتولى على انطاكية لغيرته من بودوين والي الرها وبذل في ذلك غاية عظيمه حتى اسعفه شخص اسمه فيروز أصله أرمني واعتنق الديانة الاسلامية وكان يحبه باغسيان ولذلك قلده أميراً على ثلاثة أبراج كبيرة وكان هذا الرجل من الثقل وحب الرفعة والمال على جانب عظيم ولذلك عقد مع بوهيموند شروط التسليم بالحياة وكشف كل منهما مكنونات ضميره ثم جمع بوهيموند الأمراء وقواد الحيش واعلمهم بانه يلزمهم أخذ المدينة بنوع الحياة والرشوة بالمال فعارضه القواد خصوصاً الكونت دي طولوز وبعد ذلك ببضعة أيام شاعت الاخبار بقدم كروغاصا صاحب الموصل بالوف من الرجال لتجدة المدينة تخاف الافرنج وخطب فيهم بوهيموند بوجوب استعمال الحياة لامتلاك المدينة فاذعنوا لذلك وفي تلك الليلة اجتمع بوهيموند وفيروز الحائز واقفا على وقت تسليم المدينة وانفصلا وفي آخر اليوم الثاني جمع

ويسلمون لهم منهم بدون حرب . وكانت شدة الحرارة وصعوبة الطريق قد
أتعبتهم خصوصاً في جبال الشيطان التي هي فيما بين فوزقون ومرعش ثم بلغوا
جبل طاوروس وجبل أمانوس الى ان وصلوا انطاكية في سنة ١٠٩٧ الموافقة سنة ٤٩١
هجريه وكان الحاكم على هذه المدينة باغيسيان أصغر أولاد الملك شاه السلجوقي فلما
بلغه خبر الصليبيين أمر باقفال المدينة والاستعداد للحصار وكان الممر الوحيد الى
سهل انطاكية على جسر فوق نهر العاصي وعلى جانبي ذلك الجسر برجان محصنان
فيهما كثير من الرجال فخار بهما الافرنج أولاً وأخذوهما ثم دنوا من انطاكية ونصبوا
خيامهم فكان القائدان بوهيموند وتسكريد على العساكر الايطالية امام باب القديس
بولص وعلى يمينهم العساكر الزماندية والبريطونية والفلامندية وأما الفرنساويون
الذين بقيادة روبرتوس هوكز دي فارمنديا وروبارتوس كونت دي شارتييه فكانوا
بالجهة البحرية امام باب الكاب وأما غودافرو والكونت دي طولوز وادهماردي
مونيل فانهم كانوا على جسر نهر العاصي فمعدوا مجلساً حكموا فيه بوجوب محاصرة
انطاكية وأخذوا الالهة للقتال وأما عساكر الاسلام المحصورون داخل الاسوار
فلم يبدووا حراكاً ولم يظهر منهم مقاتل واحد فوق الاسوار والابراج ولذلك استخف
بهم الافرنج وأخذوا يندون التحفظ وانكفوا جميعاً على التلذذ باللهي وببضارة
ذلك المكان وطفقوا يرتكبون كل القبائح والزائل بينما كان المحصورون في المدينة
يتأهبون للدفاع عن دمارهم ويستعدون كل الاستعداد حتى غنموا فرصة انشغال
أعدائهم بالذات والمعاصي وخرجوا من المدينة وأولئك متفرقون في القرى فهجم
المسلمون عليهم هجمة الاسود فانكسر الافرنج انكساراً كبيراً وبعد ذلك حدثت
معارك كثيرة بين المحاربين كان النصر فيها حليفاً للمحصورين وفقدت مؤونة
الافرنج فظهر عدم درايتهم للعيان بسوء الإدارة التي أخذت تؤثر فيهم وشعروا حينئذ
بنقص الالهة الحربية فاقاموا أبراجاً لصد الأبراج التي على المدينة وصمموا على
تدقيق الحصار وتشديده بحيث يقطعون المدد عن المدينة ولم يتمكنوا من تنفيذ
ما ربههم الى ان وقعوا في الارتباك ودهمهم فصل الشتاء وحل بهم مرض البرداء
واشتد فيهم حتى مات كثيرون واشتد الحال جداً حتى كثيرين من الذين وصموا
أنفسهم ظاهراً بسمة دينية مقدسة وباطناً بأفكار النهب والسلب وارتكاب ما ظهر
نموذجه فروا هارين للتخلص من مشاق الحروب الشرقية ومن غريب الامور
ان بطرس الساج المنادي بتلك الحرب كان اول الهاربين الا ان الامير تسكريد

﴿ اخبار بودوين على شطوط نهر الفرات ﴾

لما انفصل بودوين من الصليبيين وصحبته انكراس الارمني لم تدم صحبتها لان انكراس الارمني لما وجد ان بودوين قد امتلك مدينة طورباسال ومدينة رافاندال واختص بهما لنفسه يئس وانفصل عن بودوين الذي كان كلما يصل الى بلد من شطوط نهر الفرات كانوا يقابلونه ويعظمونه حتى انه امتلك أكثر البلاد بدون حرب وترك بعض عساكره حفظاً لسيادته الى ان وصل الى مدينة (الرها) التي هي كانت تحت حكم أمير يوناني اسمه ناودورس من لدن ملك الروم وكان يدفع الجزية في كل سنة الى المسلمين . ولما بلغ سكان هذه المدينة قرب وصول الصليبيين اليهم فرحوا فرحاً شديداً وخرجوا للملاقاة بودوين ومن معه (لان الباقي معه من عساكره كان مائة خيال فقط) متوسلين اليه ومحلفينه بالدخول الى مدينتهم وحمايتها من المسلمين فهذا القائد قبل مطلوبهم وسار معهم الى ان دخل المدينة

وكان الامير ناودورس حاكم المدينة لا يريد دخول هذا القائد الى مدينته ولكن خوفه من عصيان رعيته الجاه على الترحاب به والتزلف له . وأما بودوين فلما وجد أهل المدينة يطلبون حمايته ولم يقرؤا على امتلاكه لها قال انه لا يمكنه ان يحمي بلداً لم تكن له ولذلك ستركها . فلما علم أهل البلد بذلك اجتمعوا لديه وطلبوا منه عدم ترك مدينتهم ولما نظر ذلك ناودورس قال له اني رجل كبير مسن ولم يكن لي ولداً وارث فارجو ان تكون بصفة ابن لي وتكون وريثي الوحيد ولما سمع ذلك بودوين وعلم بانه سيكون بعد موت ناودورس وريثاً لمدينة الرها بل لجميع شطوط الفرات فرح فرحاً شديداً ووعد بان يحمي تحت سيفه مقاطعة قد أصبحت ميراثاً له بعد زمان قليل يمر ثم انه اتفق مع أهل البلد وقتلوا ناودورس بعد محاصرته بالقلمة وطلبه الامان منهم فخانوه ورموه من فوق السور ثم قطعوه قطعاً

﴿ محاصرة الصليبيين انطاكية وامتلاكها ﴾

سارت الحيوش الصليبية قاصدة سوريا مارة بالمدن الآتية وهي . ليكوانيا وهيراكليا . وقيسارية كياروكيا . وتيانا . وفوزقون . ومرعش وكان أهالي هذه المدن اذا وصلت اليهم أخبار الصليبيين يخرجون من مدنها ويقابلونهم بالاكرام

الحيشين اي الجيش الايطالي الذي تحت قيادة تنكريد والحيش الفرنساوي الذي بقيادة بودوين وكادوا ان يقتلوا لولا ان تنكريد كتم غيظه وطلب من جيشه المساحة والكف عن المحاصرة والمقاتلة ثم اخذ جيشه وسار الى ان وصل الى مدينة موبسواسطيه وكان بوهيموند قد أرسل شزيمة من عساكره تبلغ الثلاثة نفر في أثر تنكريد فلما وصلت هذه الشزيمة الى طرسوس ووجدوا علم بودوين طلبوا الميتم داخل المدينة وفي الصباح يرحلون الى تنكريد فابى بودوين ميتمهم داخل البلد ولذلك نصبوا خيامهم خارج البلد وباتوا هناك وفي منتصف الليل هجمت عليهم جماعة من الاتراك فاقتوهم عن آخرهم ولما بلغ هذا الخبر الى داخل المدينة اجتمع المسيحيون سكان البلد وانقضوا على المسلمين وذبحوهم بدون شفقة وأما بودوين فانه خاف من هذا الحادث الفظيع خصوصاً لكونه هو السبب في ذلك فابقى بطرسوس جانباً من عساكره لاجل حمايتها وأخذ الباقي سائراً في أثر القائد تنكريد الى ان بلغ مدينة موبسواسطيه ولما اقتربت الجيوش من بعضها وكان خبر مقتلة الثلاثة ايطالي بلغ جيش تنكريد طلبوا محاربة بودوين فبنهم قائدهم فاسمعهو شتماً وسباً ونسبوا له الحين وأخيراً التحم الجيشان واقتتلا وانجلت الواقعة عن انهزام تنكريد وجيشه لقلته وكثرة عدوه ودخلوا المدينة

ولما أصبح الصباح تناسوا ما جرى لهم بالامس وطلبوا الصلح الذي تم بينهم بمعاقة تنكريد وبودوين بعضهما امام جيوشهم وتحالفامعاً ثم ان تنكريد صار يضع يده على البلاد التي يمر عليها حتى بلغ حكم اسكندرونه ومنها رجع الى المعسكر العام ظافراً منصوراً غانماً أسلاباً كثيرة فاقتبله الجيش العام بالاكرام والاحترام وهناؤه وأما بودوين فانه لما وصل الى المعسكر العام قوبل بفتور ولا موه على أفعاله خصوصاً أخوه القائد العام فانه أنبسه خصوصاً لقتل الشزيمة البادية الذكر وكان بودوين قد تصاحب مع أمير أرمني اسمه فانكراس الذي كان دائماً يصحبه مفضلاً له عدم المسير مع الصليبيين والاستقلال بمملكة أسبوية مخبراً اياه بان البلاد الكائنة على شطوط نهر الفرات محصية جداً وأكثر سكانها مسيحيون والجميع مستعدون لتسليمها الى من يحضر من قواد الصليبيين ولذلك عزم في نفسه على انفضاله من الصليبيين والاستقلال بهذه البلاد وانهز فرصة لومه من الجيش وترذيله وانفصل عنهم ومعه ألف و ٥٠٠ عسكري مشاة ومائتا فارس

البقول الناشفة التي يلتقطونها من الارض وعدموا المياه بالكلية حتى ان البهائم ماتت منهم في الطريق وكنت تجد الرجل منهم ماشياً على أقدامه حاملاً أمتعه على ظهره وكذلك آلات الحرب فان العساكر حملتها على ظهورها وكاد العطش يهلكهم لانه كان يموت منهم في اليوم الواحد نحو الخمسة من العطش والجوع وكذلك قد عدم منهم ما كان معهم من كلاب وخنازير وطيور كاسرة وساروا كذلك الى ان وصلوا الى وديان بسيدا وأقاموا للاستراحة وهم في غاية الظمأ . وكان لاحدهم كلب فغاب عنه يبحث على ماء ثم رجع الكلب وجسده مبلول فعلموا بانه وجد ماء فاتبعوا الناحية التي راوا الكلب عاداً منها وهناك وجدوا نهراً جارياً ولشدة عطشهم انكبوا على النهر يشربون بغير حساب حتى ان البعض منهم مات من ذلك والبعض مرض ثم ساروا في طريقهم مارين ببلاد الارمن

● وصول الصليبيين الى طرسوس واختلافهم ●

ففي أثناء مسير الصليبيين حصلت لهم بعض مصائب منها ان غودافرو كان خرج من جيشه للزخرفة وفيما هو سائر اذ سمع صوت رجل يستغيث من خلفه فالتفت اليه فوجده رجلاً صليبياً حاملاً متاعه على ظهره ويتبعه دب هائل فنزل هذا القائد عن فرسه لاجل ان يقتل الدب فسل سيفه وأراد الهجوم على الدب الذي بادنه واراد ان يفترسه ووقع القائد تحته ثم انتصب قائماً ورفع يده بالسيف يزيد قتله فجرحه السيف جرحاً بليغاً ثم لحقه احد القواد وقتل الدب وحمل غودافرو الى المعسكر ولكن لكثرة الدم الذي سال منه حصل له مرض شديد كاد يهلكه ومنها انه كان انفصل من الجيش الصليبي قائدان وهما تنكريد وبودوين أخو غودافرو لاجل ان يلحقوا عساكر المسلمين الهاربين وهكذا ساروا مفترقين حتى وصلوا مدينة طرسوس وكان السابق تنكريد وكان أهل المدينة أكثرهم من المسيحيين وحين سمعوا باخبار الصليبيين فرحوا بهم ولما وصل اليهم تنكريد فتحو له ابواب المدينة التي دخلها بدون حرب ووضع على أسوارها سناجقه ثم وصل بودوين الى المدينة ووجد اعلام تنكريد عليها فحصل له غيظ شديد وأمر برفع علم تنكريد ووضع علمه ولذلك حصلت بينهما خصامة وأخيراً قررا ان يجعلا الرأي في ذلك لانتخاب أهل البلد ولكون تنكريد هو أول من وصل الى البلد ودخلها فلذلك انتخبوه ثم ان بودوين هددهم وخوفهم بالعقاب ففتحوا له أبواب البلد فطرح علم تنكريد في الخندق ووضع علمه على السور فحصل هرج عظيم بين

مخضب عند نهر غورغوني وأقام مضاربه للاستراحة وفي صباح اليوم الثاني وجدوا غباراً قد علا وثار وانكشف عن عساكر الاسلام بقيادة ملكهم قليج أرسلان فاستعد هذا القسم للمدافعة فجمع الاولاد والنساء في القلب والعساكر المشاة محتاطة بهم وأما الخيالة فانقسموا ثلاث فرق فاحدهم كان برئاسة تنكريد والثاني برئاسة دوك دي نورمنديا والكونت دي شاتريز والثالث كان برئاسة بوهيموند أمير تارانتا رئيس هذا القسم . ولما تقاربت العساكر الاسلامية اصطفت صفوفاً وهجمت على الصليبيين هجمة شديدة ثم تكاثر عليهم الصليبيون وزحزحوهم عن مواقعهم ثم انهم ارتدوا عليهم وأخذوا يرمونهم بالنشاب حتى ان خيولهم كانت تتساقط من الجراح وهجموا بقوة على الصليبيين حتى بددوهم واستولوا على مراكزهم وأخذوا منهم نساءهم وصاروا يقتلون فيهم قتلاً شديداً حتى أفوا أكثرهم وقتل غويليوم أخو تنكريد وغيره من الامراء مع ما أظهره من الشجاعة خصوصاً بوهيموند الذي كان هجم على ملك المسلمين يريد قتله ولكن الملك هجم عليهم وأنقذهم بالجراح والقتل ثم ان أحد قواد الصليبيين المدعو روبرتوس دوك دي نورمنديا استجمع بعض عساكره وهجم على المسلمين وتبعه تنكريد وريكاردا مير سالارنو واسطفانوس كونت دي بلواز وباقي القواد واستخلصوا منهم النساء وصارت الطائفتان في قتال ونزال وهجوم ودفاع الى ان كل الصليبيون وفروا هاربين وحلبهم عطش شديد من ارتفاع الحرارة وهكذا كانت الدائرة على الصليبيين .

ثم علا الغبار وبان عن عساكر القسم الثاني للصليبيين الذي كان تحت رئاسة غودافرو دي لورين القائد العام ورايموند وغيره الذي بلغهم خبر القسم الاول فاسرعوا بالمسير حتى لحقوهم على آخر رمق من الحياة وحينئذ اصطفت عساكرهم قلب وجناحين فكان على الميمنة غودافرو وكونت دي فلاندو وكونت دي نافار وعلى الميسرة بوهيموند وتنكريد وروبارتوس دي نورمنديا وكان على القلب رايموند وحملوا على عساكر المسلمين حملة شديدة انتهت بفرار العساكر الاسلامية الى الجبال واستولى الصليبيون على مضاربهم وأخذوا ذخائرهم وقد اشتهرت هذه الواقعة بواقعة روبله ونهر غورغوني

ثم سار جميع الصليبيين جيشاً واحداً قاصدين سوريا مارين في الجبال والوديان المعطشة وكان قليج أرسلان قد سبقهم ببقايا جيشه يحرق المزروعات والكروم لئلا يجدوا شيئاً يأكلونه وهكذا حصل فان ما كولاتهم قد فرغت وصاروا يأكلون

للمهاجمة والمدافعة وكانت المدينة لم تزل محصورة بعساكر الافرنج الذين ركبوا عليها
 المنجنيقات وأخذوا يرشقونها تباعاً بسرعة الى ان هدموا سورها وكانت العساكر
 الاسلامية من داخل المدينة ترميهم بنبال مسمومة وكانت ترمي أيضاً الصليبيين الذين
 كانوا يطلعون فوق السور بجبال مرشوقة بكلايب حديد وبذلك قتلوا كثيرين
 من الصليبيين وكان يوجد رجل شركسي كل يوم يظهر فوق السور ويرمي الصليبيين
 بالنشاب الذي كان يصيهم ويهلكهم حتى أزعجهم وفي يوم من الايام عند ظهور هذا
 الشجاع على السور جاءت نبلة من يد غودافرو فدخلت صدره فقامته في الحال
 وكانت المدينة لم تزل في حصار لان جهتها القبلية والغربية كانتا في مأمن من
 الصليبيين ثم رأوا البحيرة قد امتلأت بمراكب الصليبيين الواردة من القسطنطينية
 وحينئذ وقع الرعب في عساكر الاسلام وفرح الصليبيون وشددوا الحصار وكانت
 زوجة قليج ارسلان داخل البلد فخرجت هاربة مع ولديها في مركب صغير فشعر
 بهم الصليبيون ولحقوهم حتى قبضوا عليهم ولما بلغ هذا الخبر الى عساكر الاسلام
 خافوا وكان الملك اليكسيوس قد أرسل فرقة من جيشه بحجة الصليبيين لحصار قونيه ولكنه
 لم يزل خائفاً منهم أرسل فرقة أخرى سرية تحت رئاسة أحد قواده المسمى
 بوطوميت لاجل الاستيلاء على قونيه لتكون له فهذا القائد عمل كل جهده حتى دخل
 المدينة وهناك اجتمع مع الامراء المسلمين وعرفهم بان هؤلاء الصليبيين اذا امتلكوا
 المدينة يقتلونهم عن آخرهم واستحسن لهم ان يسلموها الى الملك اليكسيوس وفعلا
 تم هذا الاتفاق .

وأما الصليبيون فكانوا قد عزموا على الهجوم على المدينة بكل قوتهم لاجل
 استيلائهم عليها فما شعروا الا وسناجق الملك الكسيوس على أسوار المدينة
 فانبغتوا لذلك واشتدوا غيظاً من معاملة هذا الملك المخادع خصوصاً لكونه أمر
 بالافراج عن زوجة ملك المسلمين ولديها وأحسن معاملة الاسرى المحبوسين
 ولكن الصليبيين كتموا غيظهم وكان مدة حصار قونيه ما ينوف عن الخمسين يوم
 وأقاموا مدة يسيرة حول مدينة قونيه للاستراحة وبمهدا قسموا الجيش قسمين
 سارا بين القسم الاول والثاني مسافة قليلة واجتازوا جبال أفريجية الصغيرة تاهين
 في الوديان قاصدين سوريا ولعدم معرفتهم الاراضي حصل لهم مشقة عظيمة وخصوصاً
 لعدم المياه وحرارة الجو
 وكان القسم الاول تحت رياسة بوهيموند وناكريد ودوك نرمنديا انتهى الى وادي

الامراء الصليبيين الفاخرة المزينة بالذهب والماس ثم ان الملك قابلهم ببشاشة تامه معانقا اياهم الواحد بعد الواحد وكانوا ينحنون أمام العرش الملوكي الشرقي ويسلمون جاثين على ركبهم باحترام ثم خاطبهم الملك قائلاً أرغب منكم يا حاة المسيحيين ان تحموا بلادى من الاعداء فوعده هؤلاء الامراء بان يردوا له جميع البلاد التي كانت تحت حكمه وبان يعطوه كل ما يستولون عليه وفي نظير ذلك حلف الملك لهم بانه يسعف الصليبيين بكل الوسائل الممكنة له ودليلاً على ذلك أهدهم هدايا فاخرة وأصدر أوامره الى جميع رعاياه بان يقبلوا الصليبيين بالمودة ويقدموا الى مضاربهم المؤن وبهذه التصرفات حصل السرور للطرفين ولكن الملك كان الخوف لم يزل في نفسه فلذلك أشار على غودافرو بان يكون مسير الجيش الى آسيا من وراء البوسفور وهكذا سافرت العساكر الصليبية من طرق وعرة أضاعت فيها زمناً طويلاً ذهب بحماستهم .

✽ الصليبيون في آسيا واستيلاؤهم على قونية ✽

لما انتقلت العساكر الصليبية الى آسيا ساروا في سهول الاراضي الشرقية التي كانت مخضرة يانعة بالاثمار في زمن الربيع فزحفت الى مدينة قونية عاصمة بلاد الروم وكانت تحت حكم قليج ارسلان بن سليمان وكان شجاعاً عاقلاً فلما بلغه خبر قدوم هؤلاء الصليبيين جمع عساكر كثيرة لرد هجماتهم وكان من جمعهم من العساكر يبلغ مائة الف وأما عدد الصليبيين فكان مائة الف من الخيالة وخمسمائة الف من المشاة وكانت قونية محاطة بجبال عالية ومحاطة من جهتيها القبلية والغربية ببخيرة اسكانيوس فلما بلغت الحيوش الصليبية حاصرتها من كل جهة ونصبوا مضاربهم حولها وكانت كل طائفة منهم على حدة تميزاً لها ولها سنجق صليبي وبعد حصار المدينة عدة أيام خرج قليج ارسلان المذكور بعساكره من جهة الجبال مهاجماً الصليبيين وكانت هجماته المذكورة على جيش غودافرو القائد العام وعلى جيش راييموند دي طولوز حتى انه قهرهم الى آخر مضاربهم وحينئذ هجمت عليهم باقي طوائف الصليبيين واشتد القتال الى آخر النهار وانهمزمت العساكر الاسلامية الى الجبال وكان ذلك في سنة ٤٩٠ هجرية .

وفي صباح اليوم الثاني لهذه الواقعة هجم قليج ارسلان بعساكره على الصليبيين واستمروا في قتال عظيم وقد أظهرت العساكر الاسلامية من الشجاعة والجيل الحربية ما أدهش الصليبيين كما رواه مؤرخوهم ولكن الكثرة تغلبت على الشجاعة فانتصر الصليبيون على المسلمين في هذا اليوم وهربت عساكر الاسلام الى الحدود والاستعداد

وكان غودافرو رئيس الجيش البري الاول قد بلغ مدينة فليوبوليس وسمع بأسر اخي سلطان فرانسا وحبسه فاعتاظ غيظاً شديداً وأخذ يعامل اهل البلاد بصفة اعداء محاربين ففر أكثرهم الى القسطنطينية للاحتباء بها ولما علم الملك بما جرى لبلائه خاف خوفاً شديداً وارسل يطلب من قائد الحيوش الصليبية الكف عن القتال متمهداً له بما يطلب وانه يفك اسر المسجون عنده ولذلك رضي قائد الحيوش وكف عن الحرب وسار قاصداً القسطنطينية بصفة سلمية

اما الملك الكيسوس فانه احضر هو كز لديه واخذ يعتذر اليه ويهاديه تملقاً حتى انه جذب قلبه وطلب منه القسم على الطاعة له وحفظ الامانة بالخضوع لاوامره وبعلم الانحراف ضده وبذلك اشترى عتقه من الاسر وانطلق الى الحيوش الصليبية فشد اجتماعه بهم أخبرهم بقسمه فلما علموا بانه يلزم الاطاعة بموجب هذه الشروط ملك غريب اغتاطوا غيظاً شديداً ورفضوا هذا الامر معتمدين على مقاومته

وهذا الرفض أغضب الملك الكيسوس الذي عزم على ان يجعلهم يطيعونه غصباً بواسطة الجوع ولذلك أمر بقطع العلائق مع الحيوش الصليبية وأمر بمنع الاهالي من بيع الماء كولات لهم غير ان هذا الرأي لم يأت بفائدة لان القائد غودافرو ائحد مع باقي رؤساء جيشه وقرروا الهجوم على جميع القرى وأخذ ما يوجد فيها من القوات وهكذا كانت الحيوش الصليبية تهجم بشراسة كلية على اهل القرى وتنهب موجوداتهم حتى امتلأت مضاربهم من كل نوع . وحيث انه كان قد قرب عيد الميلاد فاجللا له كفوا عن القتال ودارت المحاربة باسم الصلح الذي تم على ان الملك يقدم لهم المؤونة

وكان بوهيموند أمير تارانتا قد سولت له نفسه محاربة القسطنطينية والاستيلاء عليها ولذلك زحف نحوها بعساكره. ولما قرب من مدينة دورانسيوس بعث رسولا الى غودافرو القائد العام بما عزم عليه وبعزمه على الاتحاد معه غير ان هذا القائد رفض هذا الرأي ووجه عليه . ولما علم ملك الروم بما دبره بوهيموند اجتهد بان يكتسب صداقة غودافرو ومحبة الامراء الذين برفقته لينجو من الغائلة ولنع الريبة به قد أرسل ابنه يوحنا الى معسكر الصليبيين كرهن وحينئذ آمن غودافرو ودخل القسطنطينية ونزل في قصر الملك واعجب غودافرو وأمرأوه بالقسطنطينية وبنائاتها الفاخرة وزيناتها كما أعجب الملك. وأهل المدينة بحفن ملابس

وسار جيش آخر عن طريق ايطاليا تحت رئاسة هوكز حاكم فرمندواس أخى ملك فرانسا ومعه روبرتوس الملقب بكورتهوز حاكم ولاية نور منديا . وروبارتوس أكد والى مقاطعه فلا ندره الملقب بحربة المسيحيين . واستفانس دالى بلواز وكاتريز الذي كان معتمداً في ديوان شورى الحرب لفظته وسار هذا الجيش متأخراً عن سابقه فاجتاز جبال الالب نحو بلاد ايطاليا ولما وصلوا مقاطعة لوكا قابلهم البابا اوربانس الثاني وباركهم ومن هناك ساروا الى بوليا يقصدون سفرهم بحراً ومرورهم بايطاليا الجاء الايطاليين الى السفر غيرة وبمقدمتهم يوهيمند أمير تارانت فاشترك في المسير مع الجيش البحري وكان بقيادة اهالي بوليا وغيرهم من بلاد كلايريا وسيسيليا ومعه ريكاردوس أمير سالارنوس وأخوه رانولف وروبارتوس دي هوس وروبارتوس دي سوروفال وهر مفرو دي موتيك

وسار جيش ثالث من اقليم فرانسا الجنوبي تحت رئاسة ادھمار دي مونتييل (اسقف بوى) وبقيادة رايغوند كونت دي سات ودي طولوز وكان ادھمار هذا قد اقامه البابا رئيساً كنائسيا على الحيوش الصليبية وهو اول من استلم سنجق الصليب وكان هذا القسم من اهالي غازكونيا ولانكادوك وليموزين وافرنياء والبروفانس وبصحبته ايضا هرقل كنت دي بولنيك وغوليافوس دي ساريان وروجار كونت دي فواكس وغولياموس سيد مونت بلير ورايموندبات وريمون كونت دي اورانج وغيرهم كثيرون وأساقفة ابنت ولورين واورانج مع رئيس اساقفة توليد وكانوا حملة الصليبان وكان مسير هذا الجيش من جبال الالب وبلاد لومبارديا والفربول متقدماً نحو حدود المملكة اليونانية بمشقات عظيمة من اقليم دالماسيا

﴿ ماجرى للصليبيين في القسطنطينية ﴾

كان الملك اليكسيوس ملك القسطنطينية قد ارسل وفوداً الى ملوك أوروبا يستغيث بهم لمساعدته ضد المسلمين ولما بلغه قرب حضور هذه الحيوش الكثيفة خاف منهم على بلاده وندم على ما فرط منه ثم ابتدا بتدبير الحيل لكيد الصليبيين وكان الجيش البحري برئاسة هوكز حاكم فرمندواس اخي ملك فرانسا قد قرب ولكن هذا القائد غرق مركبه على شواطئ الايروس فخرج سالماً فارسل اليه حاكم دوراتسيوس احد عماله لاجل ان يهنئه بالسلامة ولما قرب للقسطنطينية بالاكرام والاحتفال امر بسجن هذا القائد بصفته أسيراً ظاناً انه بحبس أخى ملك فرانسا عنده بصفة رهينة يأمن غائله الحيوش القادمة

ثم سار أيضاً جيش صليبي رابع من بلاد ريزوموسيل تحت رئاسة الكونت اميلوك وهذا الجيش لم يبرح وطنه الا بعد ان قتل جميع اليهود ظلماً وعمل أعمالاً فاحشة لا تحتملها الانسانية التي يدعون برحمتهم لتجدها ولما وصل الى هنكاريما هجم عليهم المنكاريون وقتلوا معظمهم وهرب الباقي الى القسطنطينية.

﴿ دخول الصليبيين اسيا وهلاك هذه الجيوش في نيقية ﴾

لما وصلت بقايا جميع الجيوش المذكورة الى مدينة القسطنطينية اجتمعت لدى الملك اليكسيوس كومنينوس وكان عددهم مائة الف محارب قتلهم بمراكبه من القسطنطينية الى وراء البوسفور وهناك تفرقت كلمتهم واختلفوا في أمرهم فلذلك تركهم بطرس ورجع الى القسطنطينية ثم بلغ أمرهم الى قليسج ارسلان بن سليمان بن قطلمش صاحب قونية وبلاد الروم فجمع عسكر الاسلام واحتاط بهم من كل جهة فاعمل المسلمون فيهم السيف حتى أفوهم عن آخرهم وكان ذلك بالقرب من مدينة قونية ولم ينج منهم بالهرب الا قليل وكذلك قتل القائد ولتر او (غوتيار) الفرنساوي مجروحاً سبعة جراح في فخذه وهكذا لم يبق من هذه الجيوش التي نقلت من اوربا الى اسيا في سهل قونية الا أجسام باليه من طوائف مختلفة وهذه كانت النهاية التعيسة لساكر أخلاقها رديئة كما قاله المؤرخ (برزدوس الخازن الفرنساوي)

وأما بطرس السامح فإنه لما رجع الى القسطنطينية أخذ يشكو بمرارة من الصليبيين لغندم اطاعتهم اوامره ولذلك صار يسميهم لصوصاً وقد أقسم بأنه لا يفتر عن عزمه حتى يشاهد حروباً صليبية أخرى .

﴿ الحملة الثانية من الحروب الصليبية الاولى ﴾

لما بلغ سكان أوروبا ما حلّ بالحملة الاولى شملهم الحزن والغم الشديد وافتكروا في الانتقام واعتمدوا على السفر الى البلاد الشرقية تحت رئاسة غودافرو دي بوليون دوك دي لورين السقلى المولود في براينت وكان هذا الرئيس مبعجلاً معظماً عندهم شجاعاً ذا رأي ومعه عدد وافر من قواد فرنسا وبلاد النمسا كاؤسما كيوس (من بلونيا) وبودوين واخوته وأولاد عمه بودوين روبروك وبودوين حاكم هانوت وعزنييل حاكم دي هاش وجرارد وبطرس دي طول وهووكر دي سانبول وابن النجلران دوك دي لوزان وساروا جميعاً برأ قاصدين القسطنطينية وكان مسيرهم من بلاد المانيا بغاية الادب والقناعة ولذلك لم يتعرض لهم احد في طريقهم

﴿ الحروب الصليبية الاولى ﴾

كان المجمع المنعقد في مدينة كليرمون قد ضرب ميعاداً لسفر العساكر الصليبية الى الحرب عهد السيده في ١٥ اغسطس سنة ١٠٩٦ وعقد حلول شهر مارس أخذوا باعداد العدد ونصب الخيام وتجهيز الخيول والبغال والاسلحة والسناجق فتألفوا كتائب وجيوشاً وساروا على غير ترتيب ولا نظام وكان فيهم من يحمل المزاريق ومنهم من يحمل الحراب وكثيرون عزل بلا سلاح وأكثرهم مشاة ومعهم عائلتهم من نساء وأولاد وكانوا بلا قائد يسير أمامهم لان الامراء والرؤساء الذين كانوا يلزمهم ان يقودوهم أعطوهم ميعاداً للمقابلة في القسطنطينية فسارت الجيوش وأمامها قائدها بطرس السائح راكباً بقلته ثم انه قسم جيشه الى قسمين أحدهما سار بقيادته والثاني عين عليه أحد ضباط فرنسا المسمى ولتر أو (غوتيار)

وسار قسم غوتيار محتازاً بلاد فرنسا ثم بلاد المانيا ليأتي هنكاريأ طريقاً للقسطنطينية عاصمة الروم فلما تبطنوا بلغاريا قل زادهم فطفقوا يعيشون في البلاد ينهبون ويسلبون وهم في أمن مما يحذرون حتى بلغوا بلغراد العاصمة فهاجوها ولكن الاهلين نشطوا لمقاتلتهم وقتلوا منهم كثيرين وبددوهم وكان ما فعلوه في أهل بلغاريا شاهد عدل على ان مقصدهم بحاربة الاسلام ليس الا النهب والسلب وان كان ظاهره لغايات دينية يأبى التي أن يعترف بها ثم ان ولتر المذكور جمع باقي جيشه وخرج من بلغاريا الى القسطنطينية التي بلغوها بعد شهرين بعد ما قاسوا اتعاباً ومشقات وهناك الملك اليكسيوس أقامهم عنده لحين حضور الآخرين

وسار الجيش الذي بقيادة بطرس السائح ولما وصل الى حدود هنكاريأ بلغه ما جرى للقائد غوتيار فحزن لذلك وعزم على الانتقام فهجم على مدينة ساملين وقتل أربعة آلاف من أهاليها . ولما بلغ خبر هذه المقتلة اهل هنكاريأ استعدوا لقتاله بقيادة ملكهم لولومان . وعند وصول جيش بطرس اليهم هجموا على هذا الجيش الصليبي وبددوه وقتلوا أكثره ولجأ بطرس الى الفرار هو ومن نجا من القتل ودخلوا بلاد بلغاريا وهناك عند مدينة ينصا هجم عليهم البلغار يون وشتوهم وهكذا ساروا هاربين الى مدينة القسطنطينية

ثم انه سار أيضاً جيش صليبي آخر من بلاد النمسا تحت قيادة غوشالك الكاهن بالاطنيات يتبع بطرس السائح وأخذوا يعتدون على الاهالي في مسيرهم فعوقبوا بمثل ما عوقب به الذين تقدموهم

يأيها الشجعان اذهبوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية واكتسبوا بها لذواتكم
خزائن المكافات السماوية الابدية . قاذأ أنتم انتصرتم على أعدائكم فالملك الشرقي يكون
لكم قسما وميراثا . وأما اذا قتلتم فلکم المجد لانكم تموتون في المكان الذي فيه مات
يسوع المسيح . وهكذا صار يحطّب ويحث

ثم اخرج علامة الفدا المقدسة (صليب الخلاص) وقال احملوه على عواتقكم أو
على صدوركم وليشرف فوق أسلحتكم وفي رؤوس سناجقكم (أي اعلامكم) ثم قام
الكردينال غريغوريوس تالياً بصوت عال صورة اعتراف عام وعند نهايتها مد البابا يديه
ومنح الجميع البركة

ثم قام ادهمار دي مونثيل اسقف مدينة بوي وطلب الى البابا الاذن له بان يكون أول
من يجاهد في سبيل الله ثم اسلم من يد البابا سنجق الصليب فاتبعه عدد عظيم من رؤساء
الكنائس ومن القواد المحتلني الرتب متحالفين على المحاربة وكذلك الامراء استلموا
من البابا سنجق صليب آخر ثم ان جميع الذين كانوا حاضرين في هذا الجمع علقوا على
صدورهم صلباً حراً واتخذوا لنفسهم اسم (صليبيين) كما انهم لقبوا الحرب التي
شرعوا فيها (حرب الصليب المقدس) وأظهر البابا اغتمامه من عدم مسيره بشخصه
أمامهم وقال انه اناب عنه اسقف بوي المتقدم ذكره

وقرر الجمع أيضاً عدة امتيازات للصليبيين كاعفائهم من دفع العوايد وغيره وقرر
اشهار الحرب على بلاد فلسطين . ولما عاد الاساقفة الى ابرشياتهم اجتهدوا في صنع
سناجق الصليب وكانوا يقدمونها الى جماهير المسافرين الى هذه الحرب
واخذ البابا أوربانس ينتقل في بعض أقاليم فرانساً وعقد الجمعيات في مدن روان
وطورس ونسياس باذلا عنايته في نجاح هذه الحروب وامتدت هذه الدعوة الى البلاد
الاورباوية الاخرى فاخذ الناس يرسلون أولادهم مع العساكر من الانكليز والتمسا
وايطاليا واسبانيا .

ومما ساعد على ذلك أيضاً انه حصل قحط ببلاد أوروبا عدة سنوات مترادفة
نتج عنه فيها مجاعة عظيمة وكثرت اللصوص وصارت مدنهم وقراهم لاتحملهم فلذلك
بادروا نحو أراضي المشرق المحصية التي يشير اليها الكتاب المقدس بقوله تدر لبناً وعسلاً
وخصوصاً لانهم سمعوا عن كثرة غناء بلاد آسيا وخزائنها فاضت بلادهم أمامهم كأنها
منقذ وصار المشرق أمامهم كأنه وطن وكان للرؤساء يومئذ غايات فدعوا الناس الى
الغزو فبادروا اليه جاهلين ما وراء ذلك واجتمعوا ليسيروا ناعجا الى الذبح في بلاد غربية

والبرد شديد الزمهرير وفي الجلسة العاشرة من هذا المؤتمر اجتمعوا في قصر المدينة وكان بطرس السايح جالساً بجانب البابا وهو الذي فتح الخطاب معدداً الشدائد التي يعانها أهالي بيت المقدس قائلاً انه شاهد هناك المسيحيين مقيدين بالسلاسل الحديدية وانه نظر قبر المسيح مختراً مهاناً وان زواره يتكبدون الذل ثم قام البابا وخطب قائلاً (أيها المسيحيون لذاتك الارض المقدسة بحضور شخص المخلص فيها وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا وذاك الحبل الذي عليه تألم ومات من أجلنا وذلك الضريح الذي تنازل لأن يدفن فيه فحية للموت كلها أُنحِت ميراناً لشعب غريب وغاب كل بهاءها الاصلي وهياكلها قد خربت وأشعة نورها الساطعة تحولت الى ظلام حالك وهي تستحق الدب الشديد والبكاء . ولم يعد لله من معبدا دخل المدينة المقدسة الخصوصية والمشرق الذي هو المهد والنبوع المقدس لايماننا لم يعد مشهداً الا لاقتنارات أعمال المسلمين وجهات أسيا الاكثر ثروة وغناء قد التحقت بالظلام الى الكره والفقر المهيّن . وانطاكيه وافسس ونيقية قد صارت مدن الاسماعيليين والاراك قد مدوا ولايتهم الى حدود هاليوبوتوس لابل الى أبواب القسطنطينية . ومن هناك ذراع هؤلاء الشعوب الشديد يهدد بان يستولى على كل ممالك الغرب)

ثم ان البابا وجه خطابه الى الحاضرين من وفود الطوائف قائلاً لهم هل ان مشهداً مثل هذا يترك قلوبهم بارده وغير حساسه . ثم وجه خطابه الى أهل فرانساً قائلاً أيتها الطائفة الفرنساوية العزيزة لدى الله . ان كنيسة المسيحيين قد وضعت رجاها مسنداً على شجاعتمكم فانا الذي أعرف جيداً تقواكم وكفائتكم بالشجاعة والفيرة . وقد اجتزت الحبال الالهية وحضرت لكي أنذر ب كلام الله في وسط بلادكم . وهكذا أخذ يحثهم مذكراً اياهم بشجاعتهم القديمة وما أتم كلامه حتى وضع ضباط العساكر أيديهم على سيوفهم وأقسموا بان يبادروا الى انقاذ المسيحيين

فلما تأكد البابا من نجاح مرغوبه اردف خطابه بقوله . لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الاسلام تلك الاسلحة التي اتخذتموها حتى الآن ضد بعضكم لأخذ الثار لانفسكم من أبناء جنسكم عن بعض اهانات الحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست هي لاخذ الثار عن الاهانات ضد البشر بل عن الاهانات الصادرة ضد الله . وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي أقاليم أسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى فاتخذوا محجة القبر المقدس . وخلصوا الاراضي المقدسة من أيادي المحتلسين وأتم أملكوها لذواتكم فهذه الارض كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلاً الخ . ثم قال

وفي أثناء ذلك أرسل ملك القسطنطينية المدعو اليكسيوس كومنينوس وفداً الى البابا اوربانس الثاني يطلب منه الاغاثة لان الاتراك أغاروا على بلاده وكان قد ارسل وفوداً الى ملوك اوربا بخصوص ذلك أيضاً طالباً منهم المبادرة لحمايته مقررأ لهم في نظير ذلك جميع ما يجرآن مدينته

﴿ مؤتمر مدينة بلاصانس بايطاليا ﴾

ولما تحقق جناب البابا من استمرار دعوة بطرس الساج أمر بانعقاد مؤتمر بمدينة بلاصانس حيث اجتمع مئتا اسقف مع رؤساء أساقفة وأربعة آلاف الكليريكي وثلاثون ألفاً من العلمانيين وهذا المؤتمر انعقدت جلساته في البريه في مكان سهل واسع بالقرب من المدينة وكانت أعين الشعوب متجهة الى وفد الملك اليكسيوس متعجيين لملاصهم الفاخرة الشرقية وصاغين الى أصواتهم الملتمة المعونة من ملوك المغرب بان يوجهوا قوة أسلحتهم لمعاودة القسطنطينية ولانقاذ بيت المقدس وشرع البابا بتحريض الجميع باتحاد قواهم واتفاق عزائمهم نحو هذه القضية المقدسة فقبلوا جميعاً الاوامر واعدين بانهم بعد أيام قليلة يجتمعون تحت بيارق الصليب لذهابهم الى بلاد فلسطين للحرب المقدسة باتفاق عام بينهم

ثم لم تمض أيام قليلة على هذا المؤتمر حتى سكن تأثرهم لانه اعتراهم الخوف من ترك بلادهم وأوطانهم والذهاب الى بلاد وأقاليم مجهولة عندهم وهكذا لم تحصل ثمرة من المؤتمر لانه لم يتقرر فيه تحديد كيفية محاربة المسلمين ولان البابا لم يبق في استطاعته تحريض وحث الشعوب التي حوله لانقسام أهالي بلاد النمسا وقام فريق منهم ضد الكرسي الرسولي . وأهالي الاقاليم الشمالية كانوا منشغلين باهتمام في صد البربر عنهم وكانوا قليلي الميل الى هذه الحروب ومملكة اسبانيا كانت تحت حكم المسلمين . وبلاد الانكليز كانت وقتئذ ضعيفة محتاجة لحماية بلادها التي فتحها ملكها غوليالموس بعساكره الموجودة في ولايته ولذلك لم يجد البابا أمامه غير بلاد فرانس

﴿ مؤتمر مدينة كليرمون بفرانسا ﴾

فاجتاز البابا بلاد ايطاليا ودخل مملكة فرانس وعقد مؤتمراً في مدينة كليرمون في شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ فقاطرت اليه جميع الشعوب من أمراء ورؤساء كنائس ووفود ملوك وغيرهم حتى امتلأت المدن والقرى حول تلك المدينة بوفود الشعوب وكانت الحيام والمضارب منصوبة في الحقول لماوى الكثيرين منهم وكان ذلك في فصل الشتاء



أسباب الحروب الصليبية

كان رجل فقير يسمى بطرس من أهالي بيكارديه إحدى مقاطعات مملكة فرنسا قد انقطع للتعبد ولبس ثوباً رهبانياً من الصوف الحشن وأقام بمفارة يتعبد فيها ثم تركها وتوجه مع جماعة يقصد زيارة بيت المقدس فلما وصلوا إلى المدينة المقدسة ووجدوها في حكم المسلمين صار بطرس يبكي ويتحجب ثم تقابل مع البطريرك سمعان وتحادثا ملياً فأخبره البطريرك عن كيفية استيلاء المسلمين على بيت المقدس الذي هو قبر المسيح وإن الحكم منهم طالما ظلموا قومه ثم تعانقوا وهما يبكيان ووعد بطرس الساجد البطريرك بأنه سيعمل جهده في حمل أهل أوروبا لتخليص بيت المقدس من المسلمين

ثم غادر بيت المقدس راجعاً إلى روميه وهناك طلب مقابلة البابا أوربانس الثاني ولما مثل بين يديه وأخبره بما قاله بطريرك القدس وعده بالمساعدة التامة أمراً إياه بالتوجه إلى جميع بلاد أوروبا لاجل تحريض الأهالي على ذلك وخرج هذا الرجل من لدن البابا وأخذ يجول في بلاد فرنسا وبعض ممالك أوروبا راكباً على بغل قابضاً بيديه على الصليب منادياً بحرب الصليب في الطرقات والأزقة والكنائس والأديرة منادياً بأن مسيحي الشرق يقاسون العذاب الوائناً تحت حكم المسلمين مزكياً أقواله بوصفه جبل صهيون ومكان الجلجلة وبستان الزيتون وقد كان أحياناً يستصحب بعض مسيحي الشرق الذين كان يقابلهم ببلاد أوروبا

وكانت الناس تتقاطر إليه مزدحمين حوله مقبلين أرديته فارشين الأعشاب في الأرض لير عليها متخاطفين أجزاء وشاح بغله بمنزلة ذخائرهم ملقيه بقديس ونبي باكين معه على شقاء أورشليم (بيت المقدس) متعهدين بصرف موجوداتهم وخيراتهم وحياتهم لاجل انقاذها من الأسر والهوان

الصلبيين من ابتداء سنة ٤٩٠ هجرية التي فيها دخل الصليبيون سوريا لغاية سنة ٦٩٠ هجرية التي انقضى فيها الصليبيون من سوريا بأسلوب بسيط خالياً من التعقيد والتطويل الممل

غير اني وان كنت لست من رجال هذا الفن ولكن طمعي في فضل حضرات أساتذته هو الذي شجعني على تقديم كتابي هذا بين أيديهم ليكون مشمولاً بنظرهم السامي واقتبالهم تأليفه هذا بصدر رحب ونظرهم اليه بعين الرضا اذ العصمة للذي وحده معترفاً امامهم باني جمعه من جملة كتب مطولة مثل تاريخ مصر الحديث وابن الاثير وابي الفدا والروستين وتاريخ الحروب المقدسة الذي عرّبه مكسيموس مظلوم وتاريخ سوريا وغيره . ولكنني أرغب الى من يعثر لي على خطأ ان ينهني اليه فاشكر سعيه وأثني عليه . أو يعذرني فان أعقل الناس أعذرهم للناس ولا أقول ان كل خطأ سهو جرى به القلم بل اعترف ان ما أجهل أكثر مما أعلم وما تمام العلم الا لله وحده الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم

واني اتضرع الى الله فاطر السموات والارض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القوة الابدية والنصر السرمدي ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر في سؤدد ورفعة وأن يحفظ لنا حامي حماها جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازي (عبد الحميد الثاني) وان يحفظ لمصر في ظل جلالته عزيزها المحبوب وأميرها المعظم سمو الحديوي (عباس حلمي باشا الثاني) وولي عهده المكرم محمد عبد المنعم ان ربي سميع مجيب

تحريراً بمصر القاهرة في شهر ربيع الاول سنة ١٣١٧ وشهر يولييه سنة ١٨٩٩

كاتبه

سيد علي الحريري



(RECAP).

2271

321

311 (Gibbs)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين . . الذي جعل تاريخ الاولين عبرة للآخرين . ومرة لكل عاقل فطين . أحمد على ما أسبغ من الانعام والافضال . ومن به من الاحسان والنوال . ونصلي على رسوله ونبه . وخيرته من خلقه وصفيه . سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ . والفضل الشاخ . والعلم الراسخ . صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين . وعلى الانبياء والمرسلين . ما طلع كوكب وبزغ هلال . وعلى آله وصحبه وعترته أجمعين . صلاة وسلاماً دائمين متلازمين الى يوم الدين . أما بعد فانه لا يخفى على كل انسان أهمية الحروب الصليبية التي جرت في الاجيال الغابرة . ونحريضات البابوات والاكليروس أهل أوروبا بمحاربة المسلمين وما جرى للصليبيين من اغتصاب بلاد الشام بحجة تخليص القدس من ايدي الاسلام وما أعقب ذلك من اتحاد المسلمين واستخلاص البلاد من الصليبيين وما جرى لاولئك الصليبيين من المصائب والهلاك والفشل والارتباك

وحيث ان ملوك أوروبا الآن حصل منهم تعصب عنى دولتنا العالية حرسها الله بما يشابه ما فعلوه اولئك الغابرون حتى قال سلطاننا الاعظم وخاقاننا الانخم المحفوظ بالسبع المثاني (عبد الحميد الثاني) ان أوروبا نحاربنا الآن حرباً صليبية تحت شكل سياسي وحيث اننا معشر قراء اللغة العربية لم يوجد بلغتنا كتاب يحتوي على الحروب الصليبية لمعرفة حقيقتها بل انما نجد البعض منها موجوداً في كتب التواريخ خالياً عن معرفة أسبابها والمحرضين عليها وكيفية نتائجها ولذلك باشرت تأليف هذا الكتاب وسميته (الاخبار السنية في الحروب الصليبية) وقد عنيت في ضبط هذا الكتاب المشتمل على الثمانية حروب صليبية ميئاً كل حرب منها على حدته موضعاً أسبابها والمحرضين عليها وسفر عساكرها وما فعله الصليبيون من المحاربات مع الملوك المسلمين وقد أوضحت ايضاً تواريخ ملوك الاسلام المعاصرين لهذه الحروب الذين لهم شأن مع

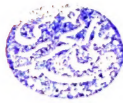
تَكَائِبُ

الْأَحْبَابِ السَّنِيَّةِ



فِي

الْحَرْفِ الصَّلَاسِيَّةِ



بِأَيْدِ الْيَفِّ

بِسَيِّدِ عَلِيِّ أَحْمَدِ حَسْرِي

* حقوق الطبع والترجمة محفوظة *

(كل نسخة لم تكن مبسوطة بختنا لاتعتمد وبهاكم صاحبها)

(الطبعة الاولى بالطبعة العمومية بمر سنة ١٣١٧)

Princeton University Library



32101 077780938

